سلسلة بلاغتنا ولغتنا (2)

البلاغة

فنونها وأفنانها

علم البيان والبديع

الأستاذ الدكتور

فضل حسن عباس

أستاذ في الجامعة الأردنية سابقاً
أستاذ الدراسات العليا في جامعة اليرموك

الطبعة الحادية عشرة
٢٠٠٧ م.

دار الفرقان للنشر والتوزيع

البلاغة فنونها وأفنانها

علم البيان والبديع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الحادية عشرة

1428هـ - 2007م

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المكتبة الوطنية

٣٦٤ / ٩/ ١٩٨٥

دار الفرقان للنشر والتوزيع

العبدلي- عمارة جوهرة القدس

هاتف ٤٦٤٠٩٢٧ ٦ ٩٦٢+ _ ٤٥٩٣٧ ٦ ٩٦٢+ فاكس ٤٦٢٨٣٦٢ ٦ ٩٦٢+

ص. ب ٩٢١٥٢٦ عمان ١١١٩١ الأردن

ص. ب ٩٢٧٦٢١ عمان ١١١٩٠ الأردن

إربد - مقابل جامعة اليرموك - هاتف وفاكس ٧٢٧٦٥٠٦ ٢ ٩٦٢+

E-mail:dar_furqan@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثامنة

الحمد لله وصلاةً وسلاماً على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه وبعد.

فلقد منَّ الله علينا بإخراج هذه الطبعة الثامنة من هذا الكتاب، التي تختلف عن سابقاتها من الطبعات، إذ تُعدُّ هذه الطبعة نشأً جديداً، تمتاز ببعض القضايا التي كنا نود أن تكون في الطبعات السابقة، ولكنها مشيئة الله وحكمته:

أولاً: ضبط الآيات والأحاديث النبوية الشريفة.

ثانياً: ضبط الأبيات وشرحها وتوثيقها.

ثالثاً: تصحيح الأخطاء الطباعية الكثيرة.

رابعاً: اضافة بعض القضايا التي لا بُد منها.

وأخيراً لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لكلِّ من ساهم في إخراج هذه الطبعة الجديدة، وأخص بالذكر الطالب: بهاء الدين البستنجي الذي بذل جهداً مباركاً في إخراجها، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الثامن عشر من جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ

الموافق السابع والعشرون من آب ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمينَ. والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد أفصح الخلق لساناً، وأوفاهم بياناً، وعلى آله وصحبه الأطهار الأبرار ومن تبعهم بإحسان...

أما بعد:

فلقد منَّ الله علينا بإخراج الكتاب الأول في البلاغة، الذي اشتمل علم المعاني، وهذا هو الكتاب الثاني في (علم البيان والبديع)، نرجوا أن يَمنَّ الله علينا باتمامه، وله الحمد في الأولى والآخرة.

ونهجنا فيه هو نهجنا في الكتاب الأول، اللهم إلا ما تقتضيه الضرورة، وتدعو إليه الحاجة، وتتطلبه طبيعة البحث من فروق بين العِلْمينِ تحتّم علينا بعض التغيير، ففي الكتاب الأول رأينا لزاماً علينا أن نكثر من الأمثلة التي نوضح بها الأسلوب المتحدث عنه، ذلك أن طبيعة النظم وما فيه من فروقٍ دقيقة بين الأساليب تختلف كثيراً عن طبيعة علم البيان الذي يعتمد الصورة، لذلك رأينا أنفسنا أقل حاجةً للأمثلة الخاصّة في هذا الكتاب.

وآثرنا أن نكثر من الأمثلة والشواهد من الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، علاوةً على ما نذكره من الصور الشعرية، إلا أننا لم نكتف بالشعر القديم؛ بل رأينا من الفائدة أن ننقل للقارئ بعض الصور الشعرية في أقوال المعاصرين من الشعراء.

ولقد أفدت كثيراً من «أسرار البلاغة» للشيخ عبد القاهر الجرجاني- رحمه الله-، ومن «دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل» للأستاذ عبد الهادي العدل أستاذ البلاغة في كلية اللغة العربية في الأزهر- جزاه الله خيراً -.

وقد جهدت في هذا الكتاب ما جهدت في سابقه من يسر العبارة، وسهولة الإسلوب. والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه، وأنْ ينفع به، وأن يَمُنَّ عليَّ بالقَبُول والأجر، وأعتذر عن

زلّةٍ أو هفوة وقعت عن غير قصد، أو كانت نتيجة غفلة أو جهل في قضية من القضايا، فما نحن إلا بشر، وأرجو أن يجد فيه أساتذة البلاغة وطلابها بغيتهم وضالّتهم، وما توفيقي إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبة وسلم.

الحادي عشر من شعبان سنة ١٤٠٥هـ

أول أيار سنة ١٩٨٥م

الدكتور فضل حسن عباس

علم البيان

تمهيد :

• البيان تعريفه وتطوره:

وردت كلمة البيان ومشتقاتها كثيراً في كتاب اللّه تعالى، وفي سنة الرسول صلى الله عليه وسلم. فعلى حين نقرأ في كتاب الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة ١٨٧]. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [البقرة ٢٦٦]. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء ٢٦] فالمبيِّن في هذه الآيات هو اللّه تعالى- نقرأ كذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل ٤٤]. ونقرأ ثالثاً قول اللّه تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران ١٨٧]. وفي آية أخرى نقرأ قوله سبحانه: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم ٤٥].

والمعنى المتبادر لهذه الآيات جميعاً هو الظهور والكشف والإيضاح، فاللّه تبارك وتعالى يبين آياته للناس، فيوضحها ويكشفها، فلا يبقى فيها أي خفاء، والنبي صلى الله عليه وسلم يبين ما نزّله الله فيشرحه، ويرشد إلى ما فيه من أسرار ودقائق، وقد يكون هذا البيان من الرسول صلى الله عليه وسلم توضيحاً لمبهم، أو تفصيلاً لمجمل، أو تقييداً لمطلق، وقد يكون غير ذلك مما ذكر في موضعه.

والذين أُخذ عليهمُ الميثاق من أهل الكتاب كان لا بد أن يُظهروا للناس أحكام اللّه من غير تحريف أو تبديل، والذين سكنوا في مساكن الظالمين اتّضح لهم الأمر، وظهرت لهم النتائج، وتأصلت في نفوسهم القناعات بما حدث للسابقين.

فالبيِّنة : كما يقول الراغب [1]: (هي الدلالة الواضحة حسيّة كانت أو عقلية).

وهو ما اختُص به الإنسان. قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ

(١) المفردات ص ٦٨.

القُرآنَ خَلَقَ الإنسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ [الرحمن ١-٤]، ومهما اختلف المفسرون في كلمة «البيان» فإن اختلافهم لا يخرج عن كونه اختلافَ تنوّع.

(فقد قال ابن زيد والجمهور: البيانُ: المنطق والفهم والإبانة، وهو الذي فُضل به الإنسان على سائر الحيوان. وقال قَتَادة: هو بيانُ الحلال والشرائع، وهذا جزء من البيان العام، وقال محمد بن كعب: ما يقول وما يقال له، وقال الضحاك: الخير والشر، وقال ابن جريج: الهدى، وقال يمان: الكتابة)[١] .

وهناك غير هذه الأقوال؛ ولكنها ترجع - كما رأيت - إلى معنى الكشف، سواء قلنا: إن هذا الكشف أمر لسانيٌ أو غير لسانيّ، أم قلنا: إنه هو الفهم الذي مُنحه الإنسانُ وفُضِّلَ به على غيره.

ولقد جعل الله القرآن الكريم بياناً، في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران ١٣٨]. فالقرآن، يكشف للإنسان عوامل الرقي، وأسباب السعادة؛ ليسلكَ مسالكهما، ومواطن الزلة ليتجنبها؛ ذلكم هو المعنى العام لهذه المادة وما يتفرع عنها.

والعربيةُ - كما تعلم - لغةُ السعة والجمال؛ أعطيت خاصية، قل أن تجدها في غيرها من اللغات؛ وهي الصلة التي تكون بين الألفاظ بعضها مع بعض من جهة، وبينها وبين المعاني من جهة أخرى. لذلك قد نجد معاني كثيرة للكلمة، لكننا بعد الامعان والتدقيق، لا نستطيع أن نَرجعها إلا إلى أصل واحد، ويُظن لأول وهلة، أن هذه المعاني بعيدٌ بعضها عن بعض؛ لذلك كان السياق خير مُوَجِّه، بل معيِّناً للمعنى.

فلقد جاءت كلمة البيان ومشتقاتها في مواضع كثيرة من السنة المطهرة، نكتفي منها بموضوعين اثنين:

أحدهما: قوله صلى الله عليه وسلم: «انّ مِنَ البيانِ لَسِحْرا»[٢]، والسياق الذي ورد الحديث فيه، يظهر لنا منه أن البيان «اظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب» - كما يقول ابن الأثير[٣]-، وهذا المعنى وان كان خاصاً، فإنه لا يخرج عن الكشف.

---

(١) البحر المحيط ١٨٨/٨.

(٢)رواه البخاري كتاب الطب، باب ٥٠ «ان من البيان لسحرا» وكتاب النكاح باب ٤٨ «الخطبة» ورواه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.

(٣) النهاية لابن الأثير ١٧٤/١.

الثاني: قوله صلى الله عليه وسلم: «البذاءُ والبيان شعبتان من النفاق»[1]، والسياق يدلنا على أن المقصود بالبيان: التصنع في القول والتفصُح والتكلف، مما يكون الباعث عليه العجب والغرور.

ومهما قيل في البيان بعد ذلك. فإنه لن يخرج عن هذه المعاني التي ذكرناها لك، مستوحاة من الكتاب والسنة.

ونظن أن أول من توسع في هذه الكلمة، وبسَطَ معانيها، أبو عثمان الجاحظ، ألم يسمِّ أعظم كتبه وأكثرها شهرة «البيان والتبيين»؟. فقد عرَّف البيان - تارة - تعريفاً عاماً بقوله: «انه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفضيَ السامع إلى حقيقته ويلم بما فيه». وتارة بقوله: «انه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي». وبيَّن أن هذه الدلالة لا تنحصر في القول؛ بل انها تكون بخمس طرق؛ فقد تكون هذه الدلالة باللفظ، وقد تكون بالإشارة، وقد تكون بالخط، أو العَقد أو الحال.

ثم ينقل لنا بعض التعريفات الخاصة، فيذكر ما قاله جعفر بن يحيى: «ان يكون الإسم يحيط بمعناك، ويجلّي عن مغزاك، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة، مع السلامة من التكلف والتصنع والتعقيد». ويعلق الجاحظ على هذا التعريف، بأنه منسجم مع ما قاله الأصمعي في تعريف البليغ، بأنه «من طبّق المِفْصَل، وأغناك عن المُفَسِّر».

وندرك مما سبق، أن كلمة البيان أصبحت مرشَّحة، كي يراد منها اتجاه خاص في القول، ولعل هذا الاتجاه كان أول ما أشار إليه الحديث النبوي «ان من البيان لسحراً».

ولا يفوتنا هنا مقارنة الجاحظ بين تعريف جعفر بن يحيى للبيان، والأصمعي للبليغ، بأن كلمة (البيان) كانت مرادفة لكلمة (بلاغة)، وهذا ما يكاد يُجمع عليه القوم، وهذا كذلك ما استمر إلى عصر الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - فكانت كلمات البراعة والبلاغة والفصاحة والبيان والبديع الفاظاً ذات مدلول واحد مع اختلاف طفيف نجده بين كاتب وآخر.

ولعل خير دليل على ما قلناه، ما نجده للشيخ عبد القاهر - رحمه الله - في كتابه (دلائل الإعجاز)، ودلائل الإعجاز - كما تعلم - تحدث فيه عن نظرية النظم أي علم المعاني كما عُرف فيما بعد، ومع ذلك نجده في أول هذا الكتاب يتحدث عن البيان فيقول: «ثم انك لا ترى علماً هو أرسخُ أصلاً، وأبسقُ فرعاً، وأحلى جَنًى، وأعذبُ وِرداً، وأكرمُ نَتاجاً، وأنورُ سِراجاً،

(١) رواه الإمام أحمد ٥/٢٦٩، ورواه الترمذي، كتاب البر، باب ما جاء في العي ٨/١٨٢.

من علم البيـان، الذي لولاه لم تر لسـاناً يحـوك الوشي[١]، ويصـوغ الحُلـيْ ويلفظُ الدُرَّ، وينفُثُ السـحر، ويُقري الشـهد[٢]، ويريك بدائـع من الزهر ويجنيك الحلو اليانـع من الثمر، والذي لولا تحفِّيه[٣] بالعلوم، وعنايته بها، وتصـويره اياها لبقيت كامنة مستورة، ولما اسْتَبَنْتَ لها يَدَ الدهرِ صورةً[٤] ولاستمر السَرار[٥] بِأهِلَّتِها، واستولى الخفاء على جملتها، إلى فوائد لا يدركها الاحصاء ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء. إلا أنك لن ترى على ذلك نوعاً من العلم قد لقي من الضيم مـا لقيـه، ومُني من الحيف بما مُنِي به، ودخل على الناس من الغلط في معناه مـا دخل عليهم فيه»[٦].

فالشيخ – رحمه الله – لا يقصد بعلم البيان هنا المصطلح الذي استقر عليه الأمر فيما بعد، وإنما يعني به البلاغة بعامة، ومن بعد عبد القاهر جاء الزمخشري – رحمه الله – وهو أول من فَصَلَ علم البيان عن غيره من المباحث البلاغية وبخاصة علمَ المعاني، ولكننا مع ذلك لم نعثر على تعريف محدد عند الزمخشري لهذا العلم.

وبقي الأمر كذلك إلى أن استقرت البلاغة وأصبح لها مفاهيمها المحددة المنضبطة، حيث أصبح علم البيان له شخصيته المستقلة وأبحاثه المتميزة، وموضوعاته الخاصة، فمجاله الصورةُ التي يبدعها المتكلم، فيصور بها المعنى الذي يريد.

تلك عجالة لتاريخ هذه الكلمة وتطورها، إلى أن غدت علماً مستقلاً، وفناً له أثره الخلاب.

فائدة علم البيان:

ومما هو جدير بالعناية، وحريٌ أن يقدّم على غيره، حتى يكون بحثنا على أسس ثابتة؛ الحديث عن فائدة هذا العلم، والثمرة العملية المرجوّة منه، ولعل مما يُعينُنا على ذلك إن شاء الله، ومن الله وحده العون؛ أن نرجع بك قليلاً إلى علم المعاني، فلقد عرفت هناك، أن ذلك العلم، هو الذي يعينك على تركيب الجملة تركيباً يتفق وأوضاع الناس الذين تخاطبهم؛ هو نظرية النظم – كما عرفت – تؤكد الكلام اذا كان هناك ما يقتضي التأكيد، وذلك اذا كان

---

(١) الوشي: النقش.

(٢) الشهد: العسل.

(٣) تحفيه: حفاوته واكرامه.

(٤) يقولون: «لا افعله يدَ الدهر» أي لا افعله ابداً.

(٥) بفتح السين وكسرها: آخر ليلة من الشهر والمراد خفاء القمر فيها.

(٦) دلائل الإعجاز ص ٥٥ تحقيق عبد المنعم خفاجي.

المخاطب مُنكِراً لما تقول، فتكون بهذا موافقاً لمقتضى الحال ومقتضى الظاهر، أو تُنزِّل غير المنكرِ منزلة المنكرِ، لما ترى من غفلة أو ما يشبهها، فتكون بذلك موافقاً لمقتضى الحال، لكنك خرجت عن مقتضى الظاهر.

وقد يقتضي منك المقامُ تقديم الفاعل، أو تقديم الفعل، وقد ترى أن المقام مقامُ تأخير لا تقديم، وقد تجد أن من الحكمة أن تطيل في كلامك وتطنب، أو توجز وتقصُر، وقد تجد من المناسب أن تستعمل اسلوب القصر، وقد يكون هذا القصر بـ(إنما) تارة وبـ(ما، وإلا) تارة أخرى، وقد تجد لزاماً عليك أن تفصِل بين جملتين لما بينهما من كمال اتصال أو كمال انقطاع، وقد تصل بينهما لما بينهما من جامع يقتضي الوصل، وقد تعرِّف الخبر أو تنكّره، كما تمليه عليك دواعي التعريف أو التنكير، وقد تضطر لوجود الشرط في حديثك فتعبر تارة بـ(إنْ) وتارة بـ(إذا) وتارة بـ(لو). وقد تجد أن المقام يُحتِّم عليك أن تجعل فعل الشرط ماضياً تارة ومستقبلاً أخرى، وقد تحذف حينما تجد أنّ الحذف أولى من الذكر وقد قررت لك هذا وغيره في موضعه.

علم المعاني – إذن – هو علم النظم، وهذا النظم لا بدّ له من خطوتين اثنتين:

أولاً: ترتيب المعاني في نفسك لتكون منسجمة مع ما تريد أن تتحدث عنه، سواء كان هذا الحديث لنفسك أم لغيرك.

ثانياً: ترتيب الألفاظ في نطقك، وهذه ناشئة عن التي قبلها.

علم المعاني – إذن – هو مطابقة ما على اللسان لما في النفس، وهذه قضية تعتمد أول ما تعتمد على الفكر، ولكن الإنسان ليس فكراً وحده، فلقد أراد الله له أن يكون له مع الفكر عاطفة، ومع العقل وجدان، ومع المنطق أحاسيس ومشاعر، ولعلك الآن بدأت تدرك وظيفة علم البيان، فإذا كان علم المعاني يعتمد أول ما يعتمد على الفكر الذي تطابق به بين ما رتبته في نفسك وما ينبغي أن ترتبه في نطقك، فإن علم البيان، هو ذلك العلم، الذي يُحدِث أثراً في نفسك، ويسمو بعاطفتك، ويرهف حسك.

ولا بدّ للبلاغة من هذين الركنين: أن يكون الكلام متلائماً مع أوضاع المخاطبين، وأن يكون مؤثراً في النفس حتى تتفاعل معه وتتجاوب. فالركن الأول: وظيفة علم المعاني، والركن الثاني: مهمة علم البيان.

علم البيان – إذن – علم الصورة البديعة، التي من شأنها أن تهز أعطاف النفس، ونحن لا نريد أن نفاضل بين العلمين إذ لا غَناء باحدهما عن الآخر، وان كانت قضية النظم أدقَّ مسلكاً، وأدلَّ على الإعجاز، إلا أن علم البيان أدعى للتأثير، وأدنى إلى العاطفة.

يمكنك بعد الذي قدمته لك، أن تدرك أن علم البيان، هو العلم الذي تستطيع بوساطته وبمعرفته أن تؤدي المعنى الواحد الذي تريد تأديته بطرق مختلفة من اللفظ، بعضها أوضح من

بعض، وإن شئت فقل بعضها أكثر تأثيراً من بعضها الآخر، ولكن حذار أن تهمل جانب النظم، فإن الكلام الفصيح البليغ اما أن يَرْجعَ إلى النظم وحده، وإما أن يَرجع إلى اللفظ وذلك لما فيه من صور بديعة، وتراكيب مؤثرة كالاستعارة والكناية وغيرهما[١].

علم البيان، هو علم الصور الكلامية المؤثرة، ولا ريب أن الصور تختلف في تأثيرها على النفس، سواء في ذلك الصور الكلامية أم الصور الحسية، فهناك الصورة التي تروقك وتعجبك، وهناك الصورة التي تُستكره وتُستَبشَع، ولكنّ ثالثة تصل إلى اعماق نفسك، بل تهز هذه النفس هزة طرب وتقدير، فبقدر ما يبدع المصوِّر في تحسين صورته، يكون لها من التأثير في نفوس الآخرين، فالصورة الجيّدة المؤثرة لا بدّ لها من خيال خَصْب، وعاطفة مشبوبة، واحساس مرهف، وذهن ثاقب يشترك فيهما المصوِّر والمصوَّر له على السواء. وكما يصدق هذا على الصورة الحسية، يصدق على الصورة الكلامية كذلك.

ولكن كيف يمكن أن نؤدي المعنى الواحد بعبارات بعضُها أوضح من بعض، وأكثر تأثيراً من بعضها الآخر؟ خذ (الكرم) أو (البخل) و(الجرأة)أو (الجبن)، و(الحسن) أو (القبح)، و(العفة) وأي معنى شئت، وانظر إلى كلام الشعراء والبلغاء، تجد أن كلاً منهم كانت له طريقته في التعبير عن المعنى الذي يريد، فكان بعضهم يرتفع ويسمو، وكان الآخر يبدع غائصاً، باحثاً عن الجوهر الذي يزين فيه كلامه، وثالث تلقاه قريباً فيما يلقيه، مبتذلاً فيما يحكيه.

والمعاني في صورها المؤثرة مما يَحمُد الناسُ فاعلها، ولكن التعبير عن هذا المعنى يأخذ ألواناً كثيرة من القول، وتجد هذه الأقوال مبثوثة في الأدب العربي على اختلاف أعصاره وأمصاره، خذ مثلاً قول المتنبي[٢].

تَعَرَّضَ لي السَّحابُ وقَدْ قَفَلْنا ... فقُلْتُ إليكَ إنَّ مَعِي السَّحَابا

وخذ قول أبي تمام[٣].

هُوَ البَحْرُ مِنْ أيِّ النواحي أتَيْتَهُ ... فَلُجَّتُهُ المعروفُ والجودُ سَاحِلُهُ

واستمع إلى قول ابراهيم بن هَرْمَةَ[٤].

لا أُمْتِعُ العُوْذَ بالفِصالِ ولا ... أبْتاعُ إلاّ قَريبةَ الأجَلِ

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٤.

(٢) ديوان المتنبي ١/٢٧٣.

(٣) شرح ديوان أبي تمام/ ايليا الحاوي ص ٤٢٦. والقصيدة في مدح المعتصم.

(٤) العوذ: جمع عائذ، وهي التي مضى على ولادها عشرة أيام، ثم هي مُطْفِل، ومعناه لا يمتع الامهات من الأبل بأبنائها، بل يذبحها ولا يشتري منها الا قريبة الأجل.

وإلى قول أبي نواس[1].

بُــــحَّ صَــوْتُ الــمَـــال مِـمَّـا ... مِـنْـــكَ يَشْكُـــــو وَيَــصِـيـحْ

وإلى قول مسلم بن الوليد[2].

تَظَـلَّمَ المــالُ والأعـداءُ مِـن يَـدِهِ ... لا زَالَ لِلْمـــالِ والأعــــداءِ ظَلاَّمـــا

وقال ابن هَرْمَةَ[3].

ومـا يَكُ فـيَّ مِنْ عَـيْبٍ فَـإِنِّـي ... جَــبَـانُ الكَلْبِ مَــهْــزولُ الفَــصِـيل

ومن أقوالهم «فلانٌ كثيرُ الرماد»، ويقولون «فلانٌ إذا قُدِحٍ لا يُصلّد» يريدون أنه كالزند الذي يقدح فَيُرِي. هذه الأقوال – وغيرها كثير– تدور حول معنىً واحد وهو الكرم، ولكنك تجد بعضها أوضح من بعض، وهكذا كل معنى تريد التعبير عنه، وربما تجد المعنى الجيد لم تتح له الصورة الجميلة، فلا يروقك ولا يستهويك، وربما تجد المعنى المبتذل أتيحت له الصورة الجيدة فيروقك ويستهويك، وذلك كثير؛ ألا ترى إلى قول ابن الأنباري[4]، في رثاء ابن بقية حين صلبه عضد الدولة:

عُـلُـوٌّ فـي الحَـيَــاةِ وَفِـي المَـمَـاتِ ... لَـحَقٌ تِلْـكَ إحْـدى المُـعْـجِـــزَاتِ

كَـــأنَّ النَّاسَ حَـوْلَكَ حِـيْنَ قـــامُـوا ... وُفُــودُ نَـداك أيَّـــــامَ الصِّـــلاتِ

كَـأنَّـكَ قـائِـمٌ فـيــهـم خَـطِـيـبــاً ... وكُـلُّـهُـمُ قِـيَـــــامٌ لِـلـصَّـلاةَ

وما كانت إلا وصفاً لمصلوب، وذكر فيها من التشبيهات والأوصاف البديعة والصور التي تختلب الآذان، وتجتلبُ الأذهان، ما جعل بعض الأمراء يتمنى أن يكون مكان ذلك المصلوب، الذي قيلت فيه تلك القصيدة، وهذا كثير في الأدب العربي.

علم البيان – إذن – بحاجة إلى معرفة، واطلاع على تراثنا وثروتنا الأدبية، وإذا نظرت إلى الأمثلة التي ذكرتها لك – من قبل – وجدتها قد اختلف قائلوها زماناً ومكاناً، وهذا يحتم عليك – كما قلت – أن تشحذ من عزيمتك، وأن تعلو همتك لاقتناص هذه الدرر من مظانّها. يقول الأستاذ المراغي – رحمه الله تعالى-:

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١١٤.

(٢) العمدة لابن رشيق القيرواني ١/ ٢٧١.

(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٠٩.

(٤) ديوان المعاني ٢/ ١٧٩، اليتيمة ٢/ ٣٤٤، ٣٤٥. نداك: كرمك، الصّلات: الهبات والعطايا.

«قضية هذا أن الضليع بهذا الفن المطلع على كلام العرب منثوره ومنظومه إذا حاول التعبير عما يختلج في صدره من المعاني وجد السبيل ممهداً فيختار ما هو أليق بمقصده وأحنّ إلى مطلبه من فنون القول وطرق الكلام.

فإذا حث همة الشجعان لاقتحام غمار الوغى بَهَرَهُم بِسَاحِرِ بيانه، وعظيم احسانه، فإن شاء شبههم بأُسُوْدِ خَفَّان[١] فقال كأنكم أسود لها في غيل خَفَّان أَشْبُلُ، وان احب استعار وقال اني أرى هنا أسوداً تتحفز للكر والفر وتثب لاقتناص فرائسها ولها قَرَم[٢] إلى الأخذ بنواصيها وحز أرؤسِها، وان أراد كنى عن مقصده وَوَرَّى عن مراده فقال البسوا لعدوكم جلد النمر[٣] واقلبوا له ظهر المجن فإنه قد ورم أنفه عليكم وداسكم تحت أقدامه...».

«... وان دعا النفوس لمكرمة هز العطف لمحمدة امكنه أن يقول كأنكم البحور يعم فيضها القاصي والداني ويَطُمُّ إنْعامُها على الفقير والغني، أو يقول هذي البحور على سواحلها القصاد تتقاذف أمواجها بما يغني الفقير ويفرِّج كربة المستجير، أو يقول اني أرى فصلاناً مهزولة، ورماداً كثيراً وكلاباً لا تنبح طارقاً؛ ومجداً مُدّ سُرداقه[٤] وندى ضُربت خيامه...»[٥].

وسيمر بك شرح هذه العبارات إن شاء اللّه.

وإذا عدت إلى الأمثلة السابقة سواء ما ذكرته لك من قبل أم ما نقلته لك عن الشيخ وفكرت فيها ملياً تجد أنها لا تخلو عن ثلاثة ألوان من القول. فبعضها تشبيه وبعضها مجاز وبعضها كناية.

أما الفرق بين هذه الألوان فذلك يتكفل لك به هذا العلم أو الفنّ، ولذا يمكننا أن نحصُر الحديث عن هذا العلم في أبوابٍ ثلاثة ولكلٌ فصولُهُ ومسائله:

الباب الأول: التشبيه.

الباب الثاني: المجاز.

الباب الثالث: الكناية.

---

(١) مأسدة مشهورة بضراوة أُسْدِها – وهي بين الثَّنِي وعُذَيب – لسان العرب – .
(٢) شهوة الطعام.
(٣) كناية عن اظهار العداوة.
(٤) السرادق: كل ما احاط بالشيء من حائط أو مضرب.
(٥) علوم البلاغة – للمراغي – ص ٢٠٩– ٢١٠.

الباب الأول: التشبيه

التشبيه كما يدل عليه الأصل اللغوي لهذه الكلمة هو: «الدلالةُ على مُشاركةِ أمرٍ لأمر» وان شئت قل: «هو الحاق أمرٍ بأمرٍ باداةِ التشبيهِ لجامعٍ بينهما».

وتدرك من هذا التعريف أن هناك أمرين ألحقنا أحدهما بالآخر أو شارك أحدهما الآخر، وأن هناك معنى جمع بين هذين الأمرين، واداة ربطت أحدهما بالآخر، تلك أمور أربعة وهي التي سَمَّوْهَا أركان التشبيه، فالأمران هما: المشبه والمشبه به، والرابط بينهما هي اداة التشبيه، والمعنى الذي اشترك الأمران فيه وجُمع بينهما من أجله هو وجه الشبه، فإذا قلت: « اخلاق عليٍّ كالنسيم في الرقة»، فإن هذا تشبيه اشتمل على هذه الأركان الأربعة، لأنك شبهت الأخلاق بالنسيم، فالأخلاق مشبَّه، والنسيم مشبَّه به، والأداة: هي الكاف، أما المعنى الجامع بين المشبه والمشبه به: فهي الرقة وتسمى: وجه الشبه.

أركان التشبيه إذن هي: المشبه، والمشبه به، واداة التشبيه، ووجه الشبه، ولكن هذه الأركان ليست سواء فبعضها يمكن الاستغناء عنه؛ لأنه معلوم للنفس، لا تجد النفس في تقديره صعوبة ولا حرجاً، بينما لا يمكن الاستغناء عن بعضه الآخر، فالذي يمكن الاستغناء عنه من أركان التشبيه: الاداة، ووجه الشبه، فيمكنك أن تقول في التشبيه السابق «أخلاقُهُ نسيمٌ» واذا قلت «عليٌّ كالأسدِ في الشجاعة»، و«فاطمة كالشمس في البهاء»، و«عزمُه كالسيف في المضاء» فإنك في هذه يمكن أن تستغني عن الأداة ووجه الشبه فتقول: «عليٌّ أسدٌ»، «فاطمةُ شمسٌ»، «عزمُهُ سيفٌ»، وسموا هذا: التشبيه البليغ وهو ما حذفت منه الأداة ووجه الشبه.

أما الركنان الآخران وهما: المشبه والمشبه به، فلا يمكن الاستغناء عن واحد منهما، فهما طرفا التشبيه، فإذا حذف احدهما خرج الكلام عن كونه تشبيهاً واصبح من باب الاستعارة كما ستعرفه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

التشبيه بين الوسيلة والغاية:

تُوهِمُ عباراتُ كثير من الكاتبين بأن التشبيه ليس إلا وسيلة يُتوصل بها إلى معرفة الاستعارة، لأن معرفة الاستعارة مبنية عليه، ومع تقديرنا لهذا القول من الناحية العلمية، ومن حيثُ صحةُ نتائجه، الا أننا لا يمكننا أن نسلِّم لأولئك بكل ما قالوه فالتشبيه في الواقع ليس فقط وسيلة نتوصل به إلى بحث آخر، انما التشبيه كغيره من أساليب القول وفنونه جيء به ليؤديَ رسالة ذاتَ أثر، وليحقق أغراضه النفسية والنفيسة المقصودة من علم البيان، فهو من هذه الناحية لا يقل عن الاستعارة أو الكناية، بل نظن أن الأثر الذي يُحْدِثُهُ التشبيه في النفس ربما يزيد على ما يُحْدِثُهُ غيرُه من الأساليب، ذلك أن المجاز والكناية لا تدركهما النفس بيسر

وسهولة، أضف إلى ذلك ان التشبيه يمكن أن يكون أوسع دائرة من حيثُ الجمهورُ الذي يتأثر به، ولأمرٍ ما كَثُرَ في كلام اللّه تعالى وكلام نبيّه صلى الله عليه وسلم، وفي الكلام البليغ للأقدمين والمُحْدَثِينَ على السواء، بل تجده في غير الكلام البليغ مما هو وليد البيئات المتعددة، وانّك لواجدُ في كلام العاديِّين من الناس تشبيهات رائعة إذا وضعت لها القوالب المقبولة كانت ذات أثر وشأن.

التشبيه، ليس إذن وسيلة نتوصل ونتوسل به إلى معرفة اسلوب آخر، وإنما هو مقصود لذاته، فإذا كان الهدف من علم البيان التأثيرَ في النفوس، فإن من أكثر أبوابه تأثيراً التشبيه.

ولقد كان التشبيه من أول الأساليب التي أشار إليها الأقدمون، فانك لتجد له أصولاً عند أبي عبيدة، والفرّاء، والجاحظ وله فيه اشارات لطيفة، ونظن أن المبَرِّدَ -من الأقدمين- هو أول من توسع في بحثه للتشبيه، وقسّمه ومثّل له، وتتابع العلماء بعد ذلك يظهرون بدائعه، ويشرحون روائعه.

قال أبو هلال العسكري: «التشبيه: يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغنِ أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهليّة ما يستدل به على شرفه وموقعه من البلاغة»[1].

وقال الزمخشري في تفسيره ، عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة ١٧]، قال: «ولِضربِ الأمثال، واستحضارِ العلماء المُثُلَ والنُّظائر، شأنٌ ليس بالخفي في ابراز خبيئات المعاني، ورفع الاستار عن الحقائق، حتى يريك المُتَخَيَّلَ في صورة المحقَّق، والمتوهَّم في معرض المُتَيَقَّنِ، والغائبَ كأنه مشاهد، وفيه تبكيتٌ للخصم الألدّ، وقمعٌ لسَوْرة الجامح الأبيّ، ولأمرٍ ما أكثر الله في كتابه المبين أمثاله، وفشا ذلك في كلام الرسل والأنبياء والحكماء، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت ٤٣][2].

وقد بلغ عبد القاهر في ذلك مبلغاً عظيماً، يقول: «اذا جاء التمثيل في أعقاب المعاني، أو أُبرزت هي باختصار في مِعْرَضِه[3]، ونُقلت عن صُوَرِها الأصْلِيّة إلى صُورته،

(١) الصناعتين ص ١٨٣- ١٨٤ طبعة الخانجي سنة ١٣٢٠هـ.
(٢) الكشاف جـ١، ص ٣٧.
(٣) المعرَض: ثوبٌ تُجلى فيه العروس ليلة العرس.

كساها أُبّهَةً[1] فاكسبها مَنْقَبَةً[2]، ورفع من أقدارها، وشَبَّ [3] من نارها، وضاعف من قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة[4] وكَلَفاً[5] وقَسَرَ الطباع على أن تُعطيها محبةً وشغفاً، فإن كان[6] مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبلَ في النفوس وأعظم، وأهَزَّ للعِطْف[7]، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغُرِّ المواهب والمنائح[8]، وأسْيَرُ على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر. وإن كان ذماً كان مسه أوجع، ومَيْسِمُه[9] ألذع، ووقعه أشد، وحدُّهُ أحد. وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر، وان كان افتخاراً كان شأْوُه[10] أبعد، وشرفه أجد، ولسانه ألدّ، وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب[11]، وللسخائم[12] أسلب ولغَرْبِ الغَضَبِ[13] أفلَ[14]، وفي عُقَد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلّي الغَيابة، ويبصر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل، وهذا الحكم، إذا استقريت فنون القول وضروبه، وتتبعت أبوابه وشعوبه»[15].

فمثال ما كان مدحاً قول البحتري يمدح يعقوب بن اسحاق بن نوبخت[16]

دان إلى أيدي العفاة وشاسع   عن كل ند في الندى وضريب[17]

كالبدر أفرط في العلو وضوؤه   للعصبة السارين جد قريب[18]

---

(١) ابهة: أي عظمة. (٢) منقبة: أي مفخرة.
(٣) شبَّ: أوقد. (٤) الصبابة: الشوق.
(٥) الكلف: حُبُّ الشيء والولع به. (٦) أي المعنى.
(٧) العِطْف: الجانب، والمعنى: ادْعى للزهو.
(٨) جمع منيحة وهي الناقة التي يُجعل لمن تُمنح له لبنُها ووبرُها وولدُها.
(٩) الميسم: الة الكيّ. (١٠) الشأو: أي الشأن.
(١١) خَلَبَ فلاناً: أي خدعه وفتن قلبه.
(١٢) السخائم: الأحقاد والضغائن.
(١٣) غرب الغضب: أي حدته.
(١٤) يقال إنْفَلَّ السيف إذا انكسر والمراد هنا انكسار حدة الغضب.
(١٥) أسرار البلاغة- تعليق وشرح محمد النجار ص ١٠٨. (١٦) ديوان البحتري ١١٤/١.
(١٧) الضريب: المثل والنظير، وَعَطْفُه على الند: عَطْف تفسير، العفاة جمع عفيف: وهو الذي لا يسأل الناس من فقر.
(١٨) أي بالغ الغالية في القرب.

وقول الآخر[1]:

وتَأخُذهُ عِنْدَ المَكَارمِ هِزَّةٌ ... كَمَا اهْتَزَّ تحتَ البَارِحِ الغُصُنُ الرَّطِبُ[2]

ومثال الذم قول مروان بن أبي حفصة[3]

زَوَاملُ لِلأشْعَارِ لا عِلْمَ عِنْدَهُمْ ... بِجَيِّدِها الاّ كَعِلْمِ الأباعِرِ

لَعَمْرُكَ ما يَدْرِي البَعيرُ إذا غَدَا ... بِأوْسَاقِهِ أوْ رَاحَ ما في الغَرائِرِ[4]

ومثال الاحتجاج قول أبي ذؤيب يحتج على استحالة اجتماعه وابن اخته على عشق امرأة واحدة[5].

تُرِيدِينَ كَيْما تَجْمَعِيني وَخَالِداً ... وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيْحَكِ في غِمْدِ؟

ومثال الافتخار قول المتنبي[6].

كَمْ تَطْلُبونَ لَنَا عَيْباً فَيُعْجِزُكُمْ ... وَيكْرَهُ اللهُ مَا تَأتُونَ والكَرَمُ[7]

مَا أبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصَانَ عَنْ شِيَمي ... أنَا الثُّريَّا، وذانِ الشَّيْبُ وَالهَرَمُ[8]

ومثال الوعظ قول صالح بن عبد القدوس:

إذا وَتَرْتَ امْرأً فَاحْذَرْ عَدَاوَتَهُ ... مَنْ يَزرَعِ الشَوكَ لا يَحْصُدْ بِهِ عِنَباً[9]

---

(١) ذكر هذا البيت في الحماسة غير منسوب، وذكر التبريزي أنه لأبي الشعب العبسي أو الأقرع بن معاذ القشيري.

(٢) البارح: ريح الصيف الحارة، والغصن بسكون الصاد، وحرك اتباعاً للضرورة.

(٣) دلائل الإعجاز ص ١٣٧، أسرار البلاغة ص ١٠٣.

(٤) الزوامل: جمع زاملة وهي التي يُحمل عليها من الأبل وغيرها، والاباعر: جمع ابعره، التي هي جمع بعير، والوسق حمل البعير وجمعه أوساق، والغرائر: جمع غرارة وهي وعاءٌ من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه.

(٥) ديوانه ص ٣٣، مجمع الأمثال ٢/١٩.

(٦) ديوانه - شرح البرقوقي ٤/٨٧.

(٧) يقول: كم تحاولون أن تجدوا فيَّ عيباً تعيبونني به فيعجزكم وجوده، وهذا الذي تفعلون يكرهه الله ويكرهه الكرم- وهذا تعنيفٌ لسيف الدولة لاصغائه للطاعنين به.

(٨) ذان: أي العيب والنقصان، يقول: إن بُعد ما بيني وبين النقصان والعيب كبعد الثُّريا من الشيب والهرم؛ فكما لا يلحقها الشيب والهرم، لا يلحقني العيب والنقصان.

(٩) نهاية الارب ٣/٨٢، وَتَر فلاناً: أي قتل حميمه فتركه فرداً.

يقول الأستاذ البرقوقي:

«وبعد، فهذا الضرب من البيان - التشبيه - على حدّته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المُفْلِق[1]، والكاتب البليغ، في الابداع والاحسان والاتساع في طرق البيان، وأن يضع الكلام بعيد المرام، قريباً من الافهام، ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يشبه الجواد بالبحر، والشجاع بالأسد، والحسن بالشمس، وما ماثل ذلك مما اشتهر أمره، وجرى لذلك مجرى الحقيقة، وإنما هو يدقّ ويلطف حتى يأتيك بما يخلب القلوب، ويرقص الهام[2]، وحتى يخرج مثله عن طوق البشر جميعاً»[3].

---

(١) يقال: افلق الشاعر: أتى بما يعجب في شعره فهو مُفْلِق.

(٢) الهام: جمع هامة وهي الرأس.

(٣) التلخيص في علوم البلاغة/ شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي ص ٢٤٢.

أركـــان التشبيــه

الركنان الأولان: المشبه والمشبه به:

عرفت أن للتشبيه أربعة أركان: المشبه، المشبه به، واداة التشبيه، ووجه الشبه، وعرفت أن المشبه والمشبه به يسميان طرفي التشبيه، لأنه لا يمكن حذف أحدهما أو الاستغناء عنه، فإذا حذف أحدهما خرج الكلام عن حدّ التشبيه، ودخل في باب الاستعارة التي سنحدثك عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وطرفا التشبيه قد يكونان محسوسين، وقد يكونا معقولين، وقد يكون المشبه معقولاً والمشبه به محسوساً، أو على العكس من ذلك، أي يكون المشبه محسوساً والمشبه به معقولاً.

(١) الحِسّيّان:

وهو ما يُدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة:

(أ) ما يدرك بالبصر: سواء الألوان، أم الأشكال، أم المقادير، أم الحركات، وذلك كتشبيه الخد بالوردة الحمراء، والشعر الأسود بالليل في السواد، ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت[١] يشبه الثريا بعنقود الكَرْم المُنَوِّر:

وَقَدْ لاحَ في الصُّبْحِ الثُّرَيَّا لِمَنْ رَأى ... كَعُنْقُودِ مُلاَّحِيَّةٍ[٢] حِينَ نَوَّرا

ومنه قول الشاعر[٣]:

أنتَ نَجمٌ في رِفْعَةٍ وَضِياءٍ ... تَجْتَليكَ العُيُونُ شَرْقاً وَغَرْباً

فشبه ممدوحه بالنجم في الرفعة والضياء، وقال الطغرائي[٤]:

وَذي شِطَاطٍ كَصَدْرِ الرُّمْحِ مُعتَقَلٍ ... بِمِثْلِهِ غَيْرَ هَيَّابٍ ولا وَكِلِ[٥]

فشبه القامة بالرمح. وكقول الحارث بن سعيد التغلبي[٦] يشبه القدّ اللطيف بالغصن أو بالألف:

(١) الأغاني ١٥/١٥٩، الايضاح ٣/٣٢.
(٢) ملاّحيه: عنب أبيض طويل يشبه العنب الزيني في دمشق.
(٣) البلاغة الواضحة ص ٢٣، تجتليك: تنظر إليك.
(٤) ديوانه ص ٣٠٢.
(٥) الشطاط: بفتح أوله وكسره: الطول، الوكل: المتواكل.
(٦) نهاية الارب ٢/١٠١، والقَوام، بالفتح: القامة وحسن الطول.

غَــــزَالٌ فَــوْقَ مَـــا أصِـــــــفُ　　　كَــــأَنَّ قَـــوامَـــــــــهُ أَلِـــــــفُ

(ب) ما يدرك بالسمع من الأصوات، ومنه قول ذي الرمّة[1].

كَـــأَنَّ أصْـــواتَ مِنْ إيغَـــالِـــهِـــنَّ بِنَـــا　　أَوَاخِـــرِ المَيْسِ أَنْقَـــاضُ الفَـــرارِيجِ[2]

يريد الشاعر أن بعض الرحل يحك بعضه، فيحصل صوت شبيه بصوت صغار الدجاج من شدة السير، واضطراب الرحل، وهو ما يقال له النقيض. ومنه قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ [الشرح ٣]، فالنقيض صوت الرحل. وهذا يدلنا على ما للبيئة من أثر في التشبيه من جهة، وعلى سليقة القوم اللغوية وقدراتهم على التعبير من جهة أخرى.

وكقول أمرئ القيس:

يَغِطُّ غَطيطَ البَكْـــرِ شُـــدَّ خِنَاقُـــــهُ　　　لِيَـــقْـــتُلَنِي والمَـــرْءُ لَـــيْسَ بِقَـتَّـــالِ[3]

يصور غضب رجل أظهرت زوجه ميلاً نحو امرئ القيس، فيشبه صوت غطيطه في نومه بغطيط البكر، وهو الفتيُّ من الإبل الذي يُشَد حبل حول خناقه لترويضه، وقال ذو الرُّمَّة[4] يصف ابلا:

كَــأنَّ على أَنْيَـابِهـا كُـلَّ سُـحْـــرةٍ　　　صِـيَـــاحَ البَـــوَازي مِنْ صَـــــرِيفِ اللوائِكِ

والمعنى أن سامع صوت الابل يظن أن صوت البوازي – جمع باز وهو الطير المعروف – جارٍ على أنيابها، وبما أن منشأ هذا الظن هو مشابهة صريف أنياب الابل – أي صوتها – لصياح البوازي، جعل الشيخ عبد القاهر هذا البيت مثالاً لتشبيه ذلك الصريف بصياحها.

وقال تميم بن مُقبل يصف قلبه[5]:

ولِلــفُــؤادِ وَجِــيبٌ تَـحــتَ أَبْـهُــــرِهِ　　　لَــدْمَ الـغُــلامِ وَرَاءَ الغَــيْــبِ بِـالحَــــجَـرِ

فشبه صوت دق القلب بالصوت الحاصل من دق الغلام بالحجر من وراء الحائط.

---

(١) ديوانه ٢٥/٩، العمدة ٤٨/٢.

(٢) الإيغال: مصدر أوغل في السير إذا أسرع وأبعد،، والضمير للإبل، والأواخر جمع آخره، الرحل: هو العود الذي يستند إليه الراكب، الميس: شجرٌ صلب تُتخَذ من الرحال، أراد الشاعر (كأن أصوات الرحل (أواخر الميس) انقاضُ الفراريج) فأخر المضاف إليه عن المضاف، وهذا من التعقيد اللفظي الذي تحدثنا عنه في الجزء الأول من هذا الكتاب فارجع إليه إن شئت.

(٣) يغط من الغطيط: وهو صوت البعير إذا هدر، والبَكر: ولد الناقة الفتيّ.

(٤) ديوانه رقم ١٦/٥٥. اللوائك: الأنياب ومفردها لائك.

(٥) الأماني ١٦/١، الوجيب: خفقان القلب واضطرابه، الأبهر: الشريان الخارج من القلب، واللدم: الضرب بشيء ثقيل يُسمع وقعه.

ومنه قول أبي العتاهية يمدح الرشيد[1]:

وَزَحْفٍ لَهُ تَحْكِي البُروقَ سُيوفُه ... وَتَحْكِي الرُّعودَ القَاصِفاتِ حَوافِرُه

فشبه صوت وقع حوافر الخيل بالرعود القاصفة.

(جـ) ما يُدرك بالذوق، وذلك كتشبيه بعض الفواكه بالعسل، وكقول امرئ القيس[2]:

كَأَنَّ المُدامَ وَصَوْبَ الغَمامِ ... ونَشْرَ الخُزامَى ورِيحَ القُطُر

يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أَنْيابِهَا ... إذَا طَرَّبَ الطائِرُ المُستَحِر[3]

(د) ما يدرك بحاسة الشم من الروائح، كتشبيه بعض الأشياء بالريحان أو الكافور، وتشبيه النكهة بالعنبر.

(هـ) ما يُدرك بحاسة اللمس من حرارة وبرودة، ورطوبة ويبوسة، وخشونة وغيرها، وذلك كتشبيه اللَّيِّن الناعم بالخز، وتشبيه الخشن بالمِسْح[4]، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

لهَا بَشَرٌ مِثْلُ الحَريرِ ومَنْطِقٌ ... رَخِيمُ الحَوَاشِي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ[5]

وألحقوا بالطرفين المدركين بالحواس، الأمور المُتَخَيَّلَة؛ ويعنون بها الأشياء التي ليس لها وجود في الواقع، الا أن الأجزاء التي تتركب منها مدركة بالحواس، ومنه قول أبي بكر محمد بن أحمد الصنوبري[6]:

وكَأَنَّ مُحْمَرَّ الشَّقِيقِ ... إذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ

أَعْلامُ ياقوتٍ نُشِرْنَ ... علَى رِماحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

يشبه محمر الشقيق، وهو ما يعرف بشقائق النعمان، والريح تسفّله تارة وتُصْعِدهُ

---

(١)أبو العتاهية حياته وشعره / محمد محمود الدش.

(٢) شروح التلخيص ٤٣٢/٣.

(٣) المدام:الخمر يداوم على شربها، صوب الغمام: نزول المطر من السحاب، الخزامى: نبات طيب الرائحة، والقطر: نوع من الطيب، يُعَل: يُمزَج، بردُ أنيابها: ريقها، طرَّبَ: صوَّت، المستحر: المصوِّت وقت السَحَر يريد (أنها طيبةُ ريح الفم في الوقت الذي تتغير فيه الأفواه بعد النوم.

(٤) المِسْح: كساءٌ من شَعر كثوب الرهبان، والجمع: أمساح ومسوح.

(٥) البشر: أي الجلد والبشرة، رخيم الحواشي: ليّنُ نواحي الكلام، الهراء: الكلام الكثير ليس له معنى، النزر: القليل، يقول: هو بين ذلك.

(٦) المطوَّل ص ٣١٣، محمرّ الشقيق: شقائق النعمان، تصوَّب: أي انحدر ونزل.

أخرى، وأوراقه الحمر على سيقانها الخضر، شبهها بأعلام ياقوت منشورة على رماح من زبرجد، والياقوت أحمر والزبرجد أخضر، ووجه الشبه شيءٌ أحمر فوق شيء أخضر متحرك، تارة يصعد وتارة ينزل، وليس هناك في الخارج أو في الواقع أعلام من ياقوت، وليس هناك رماح من زبرجد إلا أن الأشياء التي رُكبت منها هذه الأجزاء مدركة بالحواس، فهناك رماح وأعلام، وياقوت وزبرجد، إلا أن الأعلام ليست من ياقوت، والرماح ليست من زبرجد، والياقوت والزبرجد من الأشياء الكريمة التي تتخذ حلية وزينة.

ومن هذا القبيل قول أبي الغنائم الحمصي(١):

خَوْدٌ كَأَنَّ بَنَانَهَا ... في خُضْرَةِ النُّقْشِ المُزَرَّدْ
سَمَكٌ مِنَ البِلَّوْرِ في ... شَبَكٍ تَكَوَّنَ مِنْ زَبَرْجَدْ

فهو يشبه البنان وقد أحاط به النقش المزرد بسمك من البلور، وهذا السمك قد أحاط به شبك من زبرجد، ووجه الشبه - كما ترى - صورة شيء أبيض يحيط به شيء أخضر، وإذا نظرنا إلى المشبه به فإننا لا نجد له وجوداً في الخارج؛ لأنه ليس هناك سمك من البلور ولا شبك من زبرجد، إلا أن أجزاء هذا المشبه به كلها مما يدرك بالحواس، فهناك سمك ولكنه ليس من البلور، وهناك بلّور، وكذلك الشبك والزبرجد، كل هذه العناصر موجودة في الخارج مدركة بالحواس، إلا أن الشكل الذي تخيله الشاعر لا وجود له.

وقريب من هذا قول ابن المعتز(٢):

كَأَنَّ عُيُونَ النَّرْجِسِ الغَضِّ حَوْلَنَا ... مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

فالمداهن: جمع مُدْهن، وهو ما يوضع فيه الطيب، وهي وإن كانت في واقع الناس، إلا أن الناس لا يستعملون مداهن من درّ ولا يحشونها بالعقيق كذلك.

(٢) العقليان:

أما الطرفان العقليان فهما ما يدركان بالعقل؛ كتشبيه الإيمان بالحياة، والكفر بالموت، وكما ألحقوا بالطرفين الحسيين ما سموه خيالياً - وهو ما ركّبه الخيال من أجزاء محسوسة - فلقد ألحقوا بالعقليين نوعين اثنين:

---

(١) ديوانه ٣٧٥/٤، الخود: الفتاة الناعمة حسنة الخُلق.
(٢) ديوان ابن المعتز ١٦٥/٤، الوساطة ص ٢٠٦.

النوع الأول: الأمور الوجدانية:

وهي الكيفيات التي تدركها النفس، كاللذة والألم، والحب والبغض، والطمأنينة والخوف؛ وإنما ألحقوا هذه الوجدانيات بالطرفين العقليين، لأنها لا تُدْرَك بالحواس، وليست من القضايا الفكرية، ويسمّي الشيخُ عبد القاهر هذا النوع «عقلياً غير حقيقي» وكأنّ العقلي عنده قسمان اثنان:

١- عقلي حقيقي.
٢- عقلي غير حقيقي، ويعني به الأمور الوجدانية.

النوع الثاني: ما سموه وهمياً.

وعرفوه بأنه الذي لا وجود له في الخارج، ولو وُجد لأدرك بالحواس، وأظنّ أن الفرق بينه وبين الأمور الخيالية التي ألحقت بالمحسوسات ظاهر، فالأمور الخيالية أجزاؤها التي ركبت منها موجودة في واقع الناس ومدركة بالحواس - كما مر من قبل -، أما الوهمي فلا وجود له في الخارج، لا من حيث التركيب، ولا من حيث الأجزاء، وقد أجمع الأقدمون والمحدثون على التمثيل لهذا النوع بقول امرئ القيس(١):

أَيَقْتُلُنِي وَالمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فشبه أسنان الحربة بأنياب الأغوال، وهي مما لا وجود له في الخارج، ولكنّ الغول لو وجد لأدرك بالحواس، والغول ما كان يتوهمه العرب، وقد كثر في أشعارهم.

ومثلوا له كذلك بقول الله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٢- ٦٥]، ولا أدري كيف سووا بين الآية الكريمة وبيت الشعر، إذ الغول من الأمور المتوهمة التي لا حقيقة لها، ولكن الشياطين ليست كذلك، فشتان بين الغول والشيطان، والشيطان ليس أمراً متوهماً، الشيطان له وجوده الحقيقي. قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف ٢٧].

(١)ديوانه ص ٢٤، المشرفي: أحد أوصاف السيف نسبةً إلى المشارف: قرىً من أرض اليمن.

اذن قضية الشيطان ليست وهماً، كل ما هناك أننا لا نستطيع أن نراه بأعيننا. ولو أنهم قسموا هذا النوع إلى ما هو متوهم لا وجود له كالغول، وإلى ما له حقيقة لا يرى بالعين كالشيطان، لأحسنوا أيما إحسان.

(٣) ما كان المشبه عقلياً والمشبه به محسوساً:

كتشبيه الحجة بالشمس، والمنيّة بالسبع، والعزم بالسيف، والأخلاق بالعطر، والأمل عند المتشائم بالليل، والحظ كذلك، والأخلاق بالفلاة الواسعة.

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي العلاء[١]:

وكالنّارِ الحياةُ فَمِنْ رَمادٍ　　　اواخِرُها وأوّلُها دُخَانُ

وقول البوصيري - رحمه الله -[٢]:

والنَّفسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ على　　　حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

ولما كان وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه، ولما كان المحسوس أكثر تأثيراً في النفس؛ كانت أكثر التشبيهات من هذا القبيل؛ أي تشبيه المعقول بالمحسوس، وسيأتي لك مزيدٌ من الأمثلة عندما نحدثك عن التشبيهات في القرآن الكريم والسنّة المطهرة.

(٤) ما كان المشبه محسوساً، والمشبه به معقولاً:

كتشبيه العطر بالخلق الكريم، والنجوم بالسُنن، والليل بالصدود، ولهذا القسم مزيد بحث إن شاء الله.

الركن الثالث من أركان التشبيه: الأداة:

وأداة التشبيه: هي ما يربط بين المشبه والمشبه به، وقد تكون حرفاً، أو فعلاً، أو اسماً.

أولاً: حرفاً:

(أ) الكاف: ويليها المشبه به دائماً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور ٣٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: «الناس كإبلٍ مائة لا تجد فيها راحلة»[٣]، وقال

---

(١) ديوان سقط الزند، القصيدة الثالثة، ٤٧/١، والقصيدة في مدح أبي الفضائل سعد بن شريف.

(٢) ديوانه ص ٢٣٩.

(٣) رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة - باب قوله «الناس كإبل مائة» ١٩٧٣/٤.

البوصيري – رحمه الله تعالى – في البيت الذي مرَّ بك من قبل:

والنَّفسُ كـالطِّفْلِ إنْ تُهْـمِلْهُ شَبَّ على ... حُبِّ الرَّضـاعِ وإنْ تَفْطِمْـهُ يَنْفَطِـمِ

وقد لا يليها المشبه به صراحة؛ وذلك اذا كان التشبيه مركباً، قال تعالى: ﴿إنّما مَثَلُ الحَيَاةِ الدنْيا كَمَاء أنزَلْناهُ مِنَ السَمَاء فاختَلَطَ به نَبَاتُ الأرْضِ ممّا يأكُلُ النّاسُ والأنْعامُ، حتّى إذا أخَذَتِ الأرْضُ زُخرُفَهَا وازّيَنتْ وظَنَّ أهْلُها أنّهُمْ قادِرُونَ علَيها أتاها أمرُنا لَيْلاً أوْ نَهاراً فَجَعَلْنَاها حَصِيداً كأنْ لمْ تَغْنَ بالأمْسِ كَذَلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَتفكَّرُونَ﴾ [يونس ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيا كَمَاء أنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْضِ فأصبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدِراً﴾ [الكهف ٤٥].

ففي الأيتين الكريمتين دخلت الكاف على (الماء)، ولا يعقل أن تشبه الحياة الدنيا بالماء، وإنما المقصود تشبيه الدنيا بنضارتها وزينتها، واغترار الناس بها، ثم ما يعقب ذلك من ألمٍ وتفرقٍ، وتنغيص وكدر وزوال، بالنبات ينزل عليه الماء فيكسبه خضرةً وزهواً، ولكنه بعد ذلك يصفرٌّ فيكون هشيماً وحطاماً. فأنت ترى أن الكاف لم تدخل على المشبه به صراحة، وإنما ذلك يحتاج إلى تأويل.

(ب) كأنّ: قال تعالى: ﴿كأنّهنَّ اليَاقُوتُ والمَرجَانُ﴾ [الرحمن ٥٨]، وقال البوصيري[(١)] في وصف أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم – رضي الله عنهم –:

كَـأنَّهُمْ في ظُهُـورِ الخَـيْلِ نَبْتُ رُبـىً ... مِن شِـدَّةِ الحَـزْمِ لا مِنْ شِـدَّةِ الحُـزُمِ

يقول: ان ثبوتهم على ظهور الخيل، إنما يرجع إلى حزمهم وعزمهم وقوتهم لا إلى الحُزُم التي شدت بها بطون الخيل.

ويرى بعض العلماء ان «كأنّ» مركبة من كلمتين (الكاف) و (إنّ) الدالة على التأكيد، فالبيت السابق أصل معناه: إنهم في ظهور الخيل كنبت ربى ولكن الكاف دخلت على (إنَّ) ففتحت همزتها ومن هنا تدرك أن «كأن» أدل على تأكيد الكلام من الكاف؛ ولهذا جاءت في القرآن الكريم في المواطن التي يستحسن فيها توكيد الكلام وتثبيته في النفوس قال تعالى:

(١)ديوانه ص: ١٩٩، ربى: جمع ربوة وهو المكان العالي.

﴿يَخرجونَ منَ الأجداثِ كأنَّهمْ جرادٌ منتشر﴾ [القمر ٧]، وقال تعالى ﴿إنّا أرسلنا عليهمْ ريحاً صرصراً في يومِ نحسٍ مستمر تنزعُ النّاسَ كأنَّهمْ أعجازُ نخلٍ منقعر﴾ [القمر ١٩]، وقال تعالى: ﴿فترى القومَ فيها صرعى كأنَّهمْ أعجازُ نخلٍ خاوية﴾ [الحاقة ٧].

وذهب بعض العلماء إلى أنها لا تكون للتشبيه إلا إذا كان خبرها جامداً، أما إذا كان خبرها مشتقاً فإنها تفيدُ الظنَّ والشكَّ، فإذا قلت:(كأنّ خالداً قائم) فإنها تفيد الظن، لأن (قائم) وهي خبر كأن، اسم فاعل، واسم الفاعل من المشتقات، ولكن جمهرة العلماء على أنها للتشبيه في جميع أحوالها، فمعنى (كأن خالداً قائم) أي أن حالته التي هو عليها الآن تشبه حالته وهو قائم.

ثانياً: فعلاً:

وقد تكون اداة التشبيه فعلاً مثل: يَحْكي ويُشبه.

وَطُنْبورٍ(١) مَليحِ الشَكْلِ يَحكِي ... بِنَغْمَتِهِ الفَصيحَةِ عَنْدَليبا

وقال السريُّ الرَّفّاء في وصف شمعة(٢):

مفتولةٌ مجدولةٌ ... تَحْكي لنا قَدَّ الأسَلْ(٣)

وكقولنا: (هذا يُشبه هذا)

ثالثاً: اسماً:

وقد تأتي أداة التشبيه إسماً، قال أبو بكر الخالدي(٤):

يا شَبيهَ البَدْرِ حُسْناً ... وَضِيَاءً وَمَنَالاً

وَشَبيهَ الغُصْنِ لِيناً ... وَقَواماً وَاعْتِدالاً

---

(١) الطنبور: آلةٌ من آلات الطرب ذات عنق وأوتار.
(٢) ديوانه ص: ٣٨٤.
(٣) القدّ: القامة، الأسل: الرماح.
(٤) اليتيمة ١٨٩/٢.

وقد يدل على الأداة فعل ليس فيه معنى التشبيه، كأفعال اليقين والرجحان[1] كقولك (رأيت هنداً بدراً)، (وعلمت خالداً أسداً)، وجعل بعضهم منه قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف ٢٤]، ومنه قوله سبحانه: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ [الإنسان ١٩]، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «لقد وَجَدْتُهُ بحراً»[2].

ملحوظة:

وقد تحذف الأداة لقيام الدليل عليها، كما تقول: «العلم نور»، و «خالد سيف»، و«حمزةُ أسد».

الركن الرابع من أركان التشبيه: وجه الشبه:

ووجه الشبه: هو المعنى الذي يلحظه المتكلم للجمع بين المشبه والمشبه به، كالشجاعة التي لوحظت بين حمزة والأسد «حمزة أسد الله وأسد رسوله»، والصرامة التي لوحظت بين خالد وبين السيف «خالد سيف من سيوف الله»، والوضاءة التي لوحظت بين سعاد وبين الشمس، وينبغي أن يكون وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه، حتى يصح التشبيه. وهذا الوجه:

(١) اما أن يكون حسياً أو عقلياً.
(٢) واما أن يكون مفرداً أو متعدداً.
(٣) وقد يأتي صورة منتزعة من أشياء متعددة.

أولاً: وجه الشبه الحسي والعقلي:

(١) الحسي:

وذلك كقول الأقرع بن معاذ القشيري[3].

وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ المَكَارِمِ هِزَّةٌ   كَمَا اهْتَزَّ تَحْتَ البَارِحِ الغُصُنُ الرَّطِبُ

---

(١) راجع الأفعال الدالة على اليقين والرجحان في علم النحو.

(٢) رواه البخاري – كتاب الأدب – حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ٥/٢٢٤٤، ورواه مسلم – كتاب الفضائل – باب شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم وتقدمه للحرب ٤/١٨٠٢.

(٣) الحماسة، ص ٦٣٠، البارح: ريح الصيف الحارة.

فوجه الشبه هنا يدرك بالبصر، وهو الاشتراك في هيئة الحركة، ومنه قول ابن المعتز[1]:

كَــأَنَّ عُــيُــونَ النَّرْجِسِ الغَضِّ حَــوْلَنا   مَــداهِنُ دُرٍّ حَــشْــوُهُــنَّ عَــقِــيــقُ

وقوله[2]:

فَكَأَنَّ البَـرْقَ مُـصْـحَـفُ قَـــارٍ   فَـانْطِبَـاقـاً مَـرَّةً وانْـفِـتَـاحَــاً

فوجه الشبه مؤلف من اللون والشكل المدرك بالحسِّ. ومنه قول ذي الرُمّة:

كَــأَنَّ أَصْــوَاتَ مِنْ إيغَــالِهِنَّ بِنَـــا   أَوَاخِـــرِ المَيْسِ أنْقَــاضُ الفَــرارِيــجِ[3]

فوجه الشبه هنا يُدْرَك بالسمع، وهو الاشتراك في النغمة الخاصة.

ومنه تشبيه الشيء إذا استدار بالكرة تارة، وبالحلقة تارة أخرى فنقول: «الأرض كالكرة» ووجه الشبه هنا الاشتراك في الشكل والصورة، ومنه قول الطغرائي[4]:

وَذِي شِطَاطٍ كَـصَـدْرِ الرُّمْحِ مُـعْـتَـقَلٍ   بِمِـثْلِه غَـيْــرَ هَـيَّـابٍ وَلاَ وَكِـــلِ[5]

وقول الحارث بن سعيد التغلبي[6]:

غَـــزالٌ فَـــوْقَ مَـــا أَصِـــفُ   كَـــأَنَّ قَـــوامَـــهُ أَلِـــفُ

والوجه: الاشتراك في الهيئة فان كلاً مستوٍ منتصب.

(٢) العقلي:

وذلك كقولك فلان كحاتم في الكرم، وكالأسد في الشجاعة، وكالثعلب في المكر، وكالثور في القوة. ومنه قول أبي فراس[7]:

وقَــدْ صَــارَ هذا النَّاسُ إلاَّ أَقَلَّهُــم   ذِئَاباً عَلَــى أَجْــسَــادِهِنَّ ثِــيَــابُ

---

(١)ديوانه، ص ٥١٤، قصيدة (النرجس).
(٢) ديوانه ص ١٩١، قصيدة (عرف الدار).
(٣) سبق شرح البيت ص ٢٣.
(٤) ديوانه ص ٣٠٢.
(٥) سبق شرح هذا البيت ص ٢٢.
(٦) نهاية الأرب ١٠١/٢.
(٧) ديوان أبي فراس – جمع وتعليق ونشر سامي الدهمان ٢٢/٢.

ثانياً: تقسيمه إلى مفرد ومتعدد:

قد يكون وجه الشبه مفرداً، كما تقول: «هو كالأسد في الشجاعة»، وقد يكون متعدداً، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به، كالأُتْرُجَّة طَعْمُها طَيِّبٌ وريحُها طَيِّبٌ»[1] فإن وجه الشبه هنا الطعم والرائحة.

ومنه قول الشاعر[2]:

أَنْتَ نَجْمٌ في رِفْعَةٍ وَضِيَاءٍ ... تَجْتَلِيكَ العُيُونُ شَرْقاً وَغَرْباً

فوجه الشبه: الرفعة والضياء، ولو اقتصر على احدهما لكفى.

وقد يكون المتعدد حسياً وعقلياً معاً، كما تقول: «الطالب كأستاذه في مشيته وَخُلُقه وعلمه».

ثالثاً: تقسيمه إلى تحقيقي وتخييلي:

ويعنون بالتحقيقي ما كان موجوداً في المشبه به، سواء وجد في المشبه أم لم يوجد، فمثال ما وجد في المشبه والمشبه به معاً: «هو كالأسد شجاعة»، و«هي كالشمس وضاءة»، فإن الوضاءة والشجاعة موجودتانِ في المشبه به، وهما كذلك في المشبه، ومثال ما لم يوجد في المشبه قولك: «كلامه كالعسل في الحلاوة» فإن الحلاوة موجودة حقيقة في العسل وليست موجودة في الكلام إلا على سبيل التأويل، لأن الحلاوة مما تستريح لها النفس وتلذ بها، فالموجود في الكلام – إذن – لازم الحلاوة لا الحلاوة نفسها، فوجه الشبه في هذه الأمثلة تحقيقي.

أما التخييلي فهو ما لا يوجد في المشبه به في الحقيقة إلا على سبيل التخيل، ويكون هذا في التشبيه المقلوب أو في التشبيه الذي يكون فيه المشبه حسياً والمشبه به عقلياً.

استمع إلى قول التنوخي[3]:

وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا ... سُنَنٌ لاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِدَاعُ

فإن وجه الشبه صورة شيء أبيض مضيء له بريق ولمعان تحيط به اجرام مظلمة

(١) رواه البخاري – كتاب فضائل القرآن – باب فضائل القرآن.

(٢) البلاغة الواضحة ص ٢٣، تجتليك: تنظر إليك.

(٣) اليتيمة ٢/٣١٠، المطول ص ٣١٥.

سوداء، وهذا وإن كان موجوداً في المشبه إلا أنه ليس موجوداً في المشبه به على الحقيقة، اللهم إلا على سبيل التخيل، فالمشبه به السنن التي لاح بينهنّ ابتداع أو اللاتي ظهرن بين البدع، والاضاءة والظلمة ليست حقيقة في السنن والبدع - كما تعلم - ولكن لما كانت السنن هادية إلى البر مبينة للخير وكانت البدع على العكس من ذلك، تصورنا البياض في السنن والسواد في البدع، الا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «قدتركتكم على البيضاء ليلُها كنهارها»(١) ومن هذا القبيل قول أبي طالب الرقي(٢):

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ والظَّلامُ كَأَنَّهُ   يَوْمُ النَّوَى وفُؤادُ مَنْ لَم يَعْشَقِ

فلقد شبه الشاعر الظلام بشيئين: شبهه أولاً بيوم النوى أي يوم الفراق وشبهه ثانياً بفؤاد من لم يعشق، ووجه الشبه الحلكة والسواد، وهذه وإن كانت موجودة في الظلام على الحقيقة، إلا أنها ليست موجودة في يوم النوى وفي الفؤاد الذي لم يعشق إلا على سبيل التخيل، وبيان ذلك: أنهم أحبوا يوم التلاقي فتخيلوه كأنما هو أبيض مشرق، وكرهوا يوم النوى - الفراق - فوصفوه بأنّه أسود حالك، ولا سواد في الحقيقة ولكنهم تخيلوا ذلك تأثراً من ألم الفرقة، وكذلك حينما تصوروا القلوب والأفئدة تصوروا أفئدة العاشقين مضيئة بحرارة العشق، وعلى هذا فقد تخيلوا الفؤاد الذي لم يعشق مظلم الجنبات، فوجه الشبه - كما ترى - إنما وجد في المشبه به على سبيل التخيل.

ومن هذا قول ابن بابك(٣):

وأرضٍ كَأَخْلاقِ الكَرِيمِ قَطَعْتُها   وقَدْ كَحَّلَ اللَّيلُ السِّماكَ فَأبْصَرا

فإن وجه الشبه في هذا التشبيه السعة، والسعة موجودة في الأرض على سبيل الحقيقة، ولكنها في أخلاق الكرام ليست كذلك، وإنما هي موجودة على سبيل التخيل لأن السعة والضيق توصف بهما الأشياء المادية.

رابعاً: وقد يكون وجه الشبه صورة منتزعة من أشياء، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة ٥]، فإن وجه الشبه هنا ليس شيئاً واحداً وإنما هو صورة منتزعة من أمور كثيرة، فهي صورة من يجهد نفسه ويتعبها

---

(١) رواه ابن ماجة - المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ١/١٦.
(٢) اليتيمة ١/٢٤٤، المفتاح ص ١٤٦
(٣) المفتاح ص ١٤٧، السماك: أحد السماكين وهما نجمان نيِّران أحدهما في الشمال وهو السماك الرامح، والآخر في الجنوب وهو السماك الأعزل.

بأشياء نفيسة دون أن يحصل على جدوى ولهذا مزيد بحث إن شاء الله.

تلك هي أركان التشبيه، مفصّلة بعد أن عرفتها مجملة.

قضيتان مهمتان:

ولا بد أن نقف معك، وتقف معنا عند قضيتين اثنتين أشرنا إليهما من قبل:

أولاهما: كون المشبه حسياً والمشبه به عقلياً.

والثانية: كون وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه.

وكل منهما ذات صلة بأختها فالحديث عن احداهما يستلزم الحديث عن الأخرى.

- **أما القضية الأولى:** فلقد وقف منها بعض العلماء موقف الرفض والانكار مدعياً أن ذلك لا يتمشى مع البداهة والفطرة والمنطق، ونظن أن هذا الرأي غير سديد إذ ورود هذا الضرب في الكلام البليغ يكفي لردّ هذا القول ونقضه.

- **أما القضية الثانية:** وهي كون وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه، فهذا ما تستدعيه طبيعة التشبيه، - اللهم - إلا إذا كان هناك غرض للمتكلم، سواء كان هذا الغرض: المبالغة أم التخيل أم التندّر والظرافة والاستملاح، فيقلب التشبيه فيظهر وجه الشبه في المشبه أقوى منه في المشبه به، وهذه قضية أشار إليها الشيخ عبد القاهر - رحمه الله- وسنفصل لك فيها بعض التفصيل: فاعلم - هديت إلى الرشد- أن هنا اسلوبين اثنين:

أولهما: أن يكون المشبه عقلياً والمشبه به حسياً.

ثانيهما: أن يكون كل من المشبه والمشبه به حسيين.

الاسلوب الأول: تشبيه المعقول بالمحسوس:

ففي الاسلوب الأول لا يحسن العكس إلا إذا كان للمتكلم هدف وغرض بياني، ويكون ذلك على سبيل التخييل لا التحقق، انظر إلى قول القاضي التنوخي[1]:

وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا ... سُنَنٌ لاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِدَاعُ

ومن قبل هذا البيت في القصيدة نفسها:

رُبَّ ليلٍ قَطَعْتُهُ كَصُدُودٍ ... وَفِراقٍ مَا كَانَ فيهِ وَدَاعُ

---

(١) اليتيمة: ٢/٣٩٤.

مُـــوحشٍ كَـــالثَّـــقِـــيلِ تَقْـــذَى به العينُ ... وتَـأبْـــى حَـــديثَـــهُ الأسْـــمَـــاعُ
وكـــأنَّ النُّـجُـــومَ بَيْـــنَ دُجَـــاهـا ... سُنَـــنٌ لاحَ بَيْنَـــهُـــنَّ ابْـــتِـــدَاعُ
مُـــشْـــرِقَـــاتٌ كَـــأَنَّـهُـــنَّ احـتِـــجَـــاجٌ ... فِـــيـــهِ لِلخَـــصْـــمِ والظَّلامِ انْقِطَـــاعُ

في هذه الأبيات تشبيهات أربعة: واحد منها تشبيه محسوس بمحسوس وهو تشبيه الليل بالثقيل في قوله: موحش كالثقيل تقذى به العين، والثلاثة الباقية كلها تشبيه محسوس بمعقول، فالأول: تشبيه الليل بالصدود والفراق، والليل محسوس والصدود والفراق معقولان لا يدركان بالحس، والثاني: تشبيه النجوم بالسنن وقد تقدم هذا من قبل، والثالث: تشبيه النجوم بالحجج، فقد تخيل التنوخي:

أولاً: أن في الصدود والفراق ظلاماً.

وثانياً: تخيل أن هذا الظلام فيهما أقوى منه في الليل.

وكذلك في البيت الثاني والثالث تخيل أن للسنن والحجج اشراقاً، وأن هذا الاشراق أقوى فيهما من النجوم، فأنت تجد أن في كل تشبيه - من هذا القبيل - تَخَيُّلَيْن للشاعر.

وقد تقدم معنا قول أبي طالب الرقي(١):

وَلَقَـــدْ ذَكَـــرتُكِ والظَّـــلامُ كَـــأَنَّـــهُ ... يَومُ النَّوىَ وفُـــؤادُ مَنْ لَم يَعـشَـــقِ

فقد تخيل الشاعر أن في يوم النوى وفؤاد من لم يعشق ظلمة وسواداً وانه أقوى فيهما من الليل.

وانظر إلى قول الصاحب اسماعيل بن عبَّاد وقد أهدى عطراً إلى القاضي أبي الحسن الجرجاني(٢):

يا أَيُّهَـا القَـاضِي الّذي نَفْـسِـي لَهُ ... مَعَ قُـربِ عَـهـدِ لِقَـائِـهِ مُـشْـتَـاقَـهْ
أَهْدَيْتُ عِطراً مِـثْلَ طِيبِ ثَنَـائِـهِ ... فَكَأَنَّمَـا أُهْـدِي لَـهُ أَخْـلاقَـهْ

فقد شبه العطر بالأخلاق، وهو تشبيه محسوس بمعقول، إذ تخيل أن للأخلاق طيباً ورائحة زكية، وتخيل ثانيةً أن هذه الرائحة أقوى في الأخلاق منها في العطر.

---

(١) اليتيمة: ٢/٣٩٤.
(٢) اليتيمة ٣/١٧٨، ارشاد الأريب ١٤/٢٠.

وعوداً إلى القاضي التنوخي فهو يقول[1]:

فَانْهَضْ بِنَارٍ إلى فَحْمٍ كَأَنَّهُمَا ... فِي العَيْنِ ظُلْمٌ وإِنْصَافٌ قَدِ اتفَقَا
جَاءتْ وَنَحْنُ كَقَلبِ الصَبِّ حِينَ سَلاَ ... بَرْداً فَصِرْنَا كَقَلْبِ الصَّبِّ إذ عَشِقَا[2]

ففي البيت الأول شبه النار والفحم بالانصاف والظلم بجامع الاشراق والسواد، فتخيل أن للانصاف اشراقاً هو أقوى فيه من النار وأن للظلم سواداً هو أقوى فيه من الفحم. أما البيت الثاني: ففيه تشبيهان: أحدهما التشبيه بقلب السالي، أي الخالي من العشق في البرودة، والثاني: التشبيه بقلب العاشق في الحرارة، لأنهم يتخيلون أن القلب العاشق حار وأن القلب الخالي من العشق بارد ليس فيه حرارة، وهذان التشبيهان - في هذا البيت - من تشبيه المحسوس بالمحسوس فليس مما نحن بصدده.

واستمع إلى قول ابن طباطبا[3]:

كَأَنَّ انتِضَاء البَدْرِ مِنْ تَحتِ غَيْمَةٍ ... نَجَاةٌ مِنَ البَأسَاءِ بَعْدَ وُقُوعِ[4]

ففيه تشبيه محسوس بمعقول، فهو يشبه البدر وقد انكشف من تحت الغيم الذي كان يحجب نوره بالنجاة من البأساء، فقد تخيل الشاعرهناأن الظلام في البأساء أقوى منه في الغيم وان الاشراق في النجاة من البأساء أقوى منه في القمر.

تشبيه المحسوس بالمعقول - إذن - يقصد به الشاعر إلى التخييل، ولكنه تخييل مزدوج: فهو يتخيل في المعقول صفة محسوسة أولاً وأن هذه الصفة أقوى في المعقول منها في المحسوس ثانياً.

الاسلوب الثاني: تشبيه المحسوس بالمحسوس:

طرفا التشبيه إذا كانا محسوسين يمكن أن يُجعل كل منهما مكان الآخر، فتجعل المشبه به مشبهاً وبالعكس، هذا إذا لم يكن هناك تفاوت كبير بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه، بحيث يكون وجه الشبه في المشبه به أمراً لا مزيد عليه، ولهذا عابوا على البحتري تشبيهه الليل بالمداد في قوله[5]:

عَلى بَابِ قِنِّسْرِينَ واللَّيْلُ لاَطِخٌ ... جَوانِبَهُ مِنْ ظُلْمَةٍ بِمِدادِ

(١) اليتيمة ٢/٣١٣.
(٢) الصبّ: المشتاق.
(٣) المفتاح ص ١٤٧، اسرار البلاغة ص ٢٦٤.
(٤) انتضى السيف: سلّه، وانتضاء البدر: ظهوره من دائرة الغيم، والبأساء : الداهية.
(٥) ديوانه ١/٢٤٧، ديوان المعاني ١/٢٤٤.

وفضلوا عليه قول ابن الرومي حيث شبه المداد بالليل في قوله[1]:

حِبْرُ أبِي حَفْصٍ لُعَابُ اللَّيْلِ يَسِيلُ لِلإخْوَانِ أيَّ سَيْلِ
بِغَيْرِ مِيزَانٍ وَغَيْرِ كَيْلِ

وهناك أصول تعورف عليها بين الناس؛ كالوضاءة في الشمس، والشجاعة في الأسد، والسواد في الليل، والمسك في الطيب، والعسل في الحلاوة، والصاب[2] في المرارة، والبحر في الغزارة، (ومادر) في البخل، (وحاتم) في الكرم، ففي هذه الأمور وأمثالها لا ينبغي العكس حتى للمبالغة.

أما ما جاء من أقوال الشعراء مخالفاً لهذه الأصول المتعارف عليها، كتشبيه الشمس بالمرآة، وتشبيه غرّة الصباح بالوجه، في قول محمد بن وهيب[3]:

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأنَّ غُرَّتَهُ وَجْهُ الخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

وقول ابن المعتز[4]:

فَخِلْتُ الدُّجَى والفَجْرُ قَد مدَّ خَيْطَهُ رِدَاءً مُوشّىً بالكَواكِبِ مُعلَماً[5]

فقد أجاب الشيخ عن ذلك، بأن المقصود من هذه التشبيهات ليس التشبيه من حيث اللون فحسب، وإنما المقصود التشبيه من حيث اللون والشكل. هذا ما ذهب إليه الشيخ رحمه الله. ولكن يظهر أن عنصر المبالغة يمكن أن يراعيه الشاعر إذا كان المقام يعين على ذلك، وأليك أمثلة مما يجوز فيه عكس التشبيه، فيكون الشيء مشبهاً تارة ومشبهاً به تارة أخرى فمن ذلك:

(١) تشبيه النجوم بالمصابيح في قول جُنْدُح المرِّي[6]:

نُجُومُهُ رُكَّدٌ لَيْسَتْ بِزَائِلَةٍ كَأنَّمَا هُنَّ في الجَوِّ القَنَادِيلُ[7]

---

(١) أدب الكاتب ٩٤، شرح الايضاح ٢١٧.
(٢) الصاب: شجرٌ مرٌ له عصارةٌ بيضاء كاللبن شديدة المرارة إذا أصابت العين اتلفتها.
(٣) الاغاني ١٤١/١٧، المطول ٣٢٤.
(٤) ديوان المعاني ٣٤٤/١.
(٥) المقصود من العلم في هذا الرداء هو الفجر.
(٦) الحماسة ٣٢٥/٤.
(٧) رُكّد: جمع راكد، أي واقفة لا تتحرك.

وعكسوا ذلك فشبهوا المصابيح بالنجوم، ومن ذلك قول السَريّ الرَفّاء[1] يمدح الوزير المهلبي، وقد رُكزت له رماح عليها شمع عند اقبال الليل فأضاء المكان وحَسُن:

لَقِيَ النُّجومَ وَقَدْ طَلَعْنَ بِمِثْلِها وأعادَ جُنْحَ اللَيْلِ وَهْوَ ضَحَاءُ[2]

(٢) تشبيه الخدّ بالورد ومن ذلك قول ابن المعتز[3]:

غِلالَةُ خَدِّهِ صُبِغَتْ بِوَرْدٍ وَنُونُ الصَدْغِ مُعْجَمَةٌ بِخَالِ

وعكسوا فشبهوا الوردَ بالخَد كقول خالد الكاتب[4]:

عَشِيَّةَ حَيَّانِي بِوَرْدٍ كَأَنَّهُ خُدُودُ أُضِيفَتْ بعضُهنَّ إلى بعضِ

(٣) تشبيه النرجس بالعيون ومن ذلك قول أبي نواس[5]:

لَدَى نَرْجِسٍ غَضِّ القِطَافِ كَأَنَّهُ إذَا مَا مَنَحْنَاهُ العُيُونَ عُيُونُ

وعكسوا فشبهوا العيون بالنرجس ومنه قول ابن الرومي[6]

لَوْ كُنْتَ يَوْمَ الوَدَاعِ حَاضِرَنَا وَهُنَّ يُطْفِئْنَ عِلَّةَ الوَجْدِ
لَم تَرَ إلاّ الدُّمُوعَ سَاكِبَةً تَقْطُرُ مِنْ مُقْلَةٍ عَلى خَدِّ
كَأَنَّ تِلْكَ الدُمُوعَ قَطْرُ نَدَىً يَقْطُرُ مِنْ نرجِسٍ عَلى وَرْدِ

التشبيه - في البيت الأخير- مركب، شبهت صورة الدموع تنهل من العين على الخد بصورة قطر الندى يقطر من النرجس على الورد، والعين فيه مقابِلةٌ للنرجس، ووجه الشبه دائرة بيضاء تحيط بدائرة أخرى أصغر منها مخالفة لها في اللون، فالنرجس ورقُهُ أبيض ووسطه أصفر.

---

(٣) ديوانه ص ١٧

(٤) الجنح: بالكسر أو الضم: الجانب أو الناحية من الليل، والضحاء: قرب منتصف النهار أي ساطعاً مضيئاً.

(٥) ديوانه ص ٥٧٠، قصيدة (دعيني)، غلالة خده: أي صفحة خده، والصدغ: ما بين العين والأذن، ونون الصدغ كناية عن خصلة الشعر المتدلية على الخد على شكل حرف نون، وقد جعل الخال على الخدّ نقطة حرف النون.

(٦) الوساطة ص ١٨٧.

(٧) ديوانه ٣٣٨، ديوان المعاني ٢/٢١، الغض: الطري الناعم.

(١) الوساطة ٢٤٢، ديوان المعاني ١/٢٥٥.

(٤) تشبيه الثغر وهو مَقَدَم الأسنان بالاقحوان، وهو زهرٌ ذو ورق أبيض صغير يشبه الأسنان في لونه وشكله، ومنه قول البحتري(١):

كَأَنَّمَا يَبْسُمُ عَنْ لُؤْلُؤٍ مُنَضَّدٍ أو بَرَدٍ أَوْ أَقَاحْ(٢):

وعكسوا فشبهوا الاقحوان بالثغر، كقول القاضي التنوخي(٣):

أقْحُوَانٌ مُعَانِقٌ لِشَقِيقٍ كَثُغُورٍ تَعُضُّ وَرْدَ الخُدُودِ
وَعُيُونٌ مِنْ نرْجِسٍ تَتَرَاءَى كَعُيُونٍ مَوصُولَةِ التَّسْهِيدِ

فوصف العيون بالتسهيد، إما لدوام انفتاحها وإما لأنه أراد تشبيه النرجس بها في الذبول، فقد قيل إن في نَوْره انكساراً وفتوراً لا تَرى فيه وَرَقَةً قائمة.

(٥) تشبيه ثُدِيِّ الكواعب بالرمان كقول السلامي:

رُبَمَا تَبِيتُ أنَامِلِي يَجْنِينَ رُمَّانَ النُّهُودِ

اضافة الرمان إلى النهود من اضافة المشبه به إلى المشبه

وعكسوا كذلك فشبهوا الرمان بالثدي، كقول أبي النصر سعيد بن الشاة:

وَرُمَّانَةٍ شَبَّهْتُها إذْ رَأَيْتُهَا بِثَدْيِ كِعَابٍ أو بِحُقَّةِ مَرْمَرِ
مُنَمْنَمَةٍ، صَفْرَاءَ نُضِّدَ حَوْلَهَا يَوَاقِيتُ حُمْرٌ في مُلاءٍ مُعَصْفَرِ(٤)

(٦) تشبيه الجداول والأنهار بالسيوف، كقول أبي فراس الحمداني:

والماءُ يفْصِلُ بَيْنَ زَهْرِ الرَّوْضِ فِي الشَطَّيْنِ فَصْلاً
كَبِسَاطِ وَشْيٍ جَرَّدَتْ أَيْدِي القُيُونِ عَلَيْهِ نَصْلاً(٥)

فشبه هيئة الماء يفصل أزهار الروض، الواقعة على شطية بهيئة نصل – أي سيف –

---

(١)ديوانه ٢٣٦/١ قصيدة (معدن الجود) في مدح عيسى بن إبراهيم كاتب الفتح بين خاقان.

(٢) منضد: مرصوص بعضه إلى بعض، والبرد: قطع الثلج الصغيرة.

(٣) اليتيمة ٣١٣/٢.

(٤)الكعاب: الفتاة الناهد، والحقّة: وعاء من الخشب. منمنمة: المنمنم هو المزخرف المزركش، نُضِّدَ: رُتِبَ ونُسِقَ، الملاء: جمع ملاءة وهي الملحفة أو ما يفرش على السرير، مُعصفر: أي مصبوغٌ بالعصفر وهو نبات يُصبغ به الحرير.

(٢) ديوانه ص ٩٠، اليتيمة ٢٤/١، القيون: جمع قَيْن: وهو الحدّاد، ثم أطلقت على كل صانع.

جردته القيون على بساط موشى منفوش، ووجه الشبه هيئة ذلك البياض المستطيل البَرَّاق بين تلك الألوان المختلفة المنتظمة، ومنه قول ابن بابك:

فَمَا سَيْلٌ تُخَلِّصُهُ المَحَانِي   كما سلَّتْ من الخِلَلِ المَنَاصِلْ[1]

المحاني: جمع محنية، وهي منعطف في الوادي، والخلل: جفن السيف المغشّى بالآدم، والمنصل هو السيف.

وهذه التشبيهات - كلها - على سبيل الحقيقة لا على سبيل التخيل

* الخلاصة: أن تشبيه المحسوس بالمحسوس قد يعكس فيه الطرفان على سبيل الحقيقة - إذا لم يكن تفاوت كبير بين المشبه والمشبه به من حيث وجه الشبه -، وقد يعكسان على سبيل التخيل والمبالغة، وذلك إذا كان هناك تفاوت كبير بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه، وضابط ذلك كما ذكره الشيخ عبد القاهر:

(١) كل تشبيه صريح كان الغرض منه الجمع بين المشبه والمشبه به في الصورة، أو الشكل، أو اللون، أو هيئة ملتئمة من أمرين فأكثر على وجه يوجد في الفرع على حدّه في الأصل، أو قريباً منه، ولم يقصد فيه إلى مبالغة وإلحاق ناقص بكامل، فإن العكس فيه يستقيم على سبيل الحقيقة.

(٢) وكل تشبيه قصد فيه إلحاق الناقص بالكامل مبالغة في امتيازه على غيره في الوصف، فإن العكس فيه لا يستقيم فيه على سبيل الحقيقة[2].

ومن الخير أن نوضح لك ما قال الشيخ، حتى لا يبقى في عبارته لَبس أو غموض، بيان ذلك:

أنك إذا شبهت شيئاً بشيء، وكان وجه الشبه متقارباً في المشبه والمشبه به - بحيث لم يكن هناك تفاوت كبيرٌ- فإنه يجوز لك أن تعكس التشبيه، ويكون ذلك على سبيل الحقيقة، مثال ذلك: (تشبيه الخد بالورد، والعيون بالنرجس، والدمع باللؤلؤ، والأسنان بالبَرد).

إن وجه الشبه في هذه التشبيهات جميعاً، يكاد يكون واحداً في المشبه والمشبه به، ولذا فإننا يمكن أن نعكس هذه التشبيهات، فنشبه النرجس بالعيون، والورد بالخد...

أما إذا كان هناك تفاوت كبير في وجه الشبه بين المشبه والمشبه به، كتشبيه (الكلام بالعسل في الحلاوة)، (والحسناء بالشمس في الوضاءة)، (والوجه بالصبح)، (والمداد بالليل)،

---

(١) انظر أسرار البلاغة ص ١٨٧ تحقيق هـ. ريتر ودراسات تفصيلية لبلاغة عبد القاهر ص ٢١٩.
(٢) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر.

فإن عكس هذه التشبيهات - إن وجد- فإنما يكون على سبيل التخيل والادعاء، لا على سبيل الحقيقة والواقع.

وبعد أن حدثناك عن أركان التشبيه، وما يتعلق بها، يجمل بنا أن نحدثك عن أقسام التشبيه.

أقسام التشبيه

أقسام التشبيه عند المبرّد:

لعل أول من فصّل القول في التشبيه (أبو العباس المبرّد) في كتابه (الكامل) فقسمه إلى أربعة أقسام:

(١) (التشبيه المُفْرِط: وهو التشبيه المبالغ فيه أو المبالغ في الصفة التي تجمع بين المشبه والمشبه به. كقول الخنساء في أخيها صخر[١]:

وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

فجعلت المهتدي يأتم به وجعلته كنار في رأسِ علم، والعلم الجبل،... ومن تشبيه المحدثين المستطرف قول بشار[٢] واصفاً قلبَهُ إذا ذُكرت محبوبته

كَأَنَّ فُؤَادَهُ كُرَةٌ تَنَزَّى حِذَارَ البَيْنِ إِنْ نَفَعَ الحِذَارُ

يُرَوِّعُهُ السِّرَارُ بِكُلِّ أَمْرٍ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ السِّرَارُ[٣]

وقال الحسن بن هانئ[٤] في صفة الخمر:

فَإِذَا مَا اجْتَلَيْتَهَا فَهَبَاءٌ يمنعُ الكفَّ ما يُبِيحُ العُيُونَا[٥]

أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمَ مِنْهَا وَتَبَقَّى لُبَابُهَا المَكْنُونَا[٦]

فَهْيَ بِكْرٌ كَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ يَتَمَنَّى مُخَيَّرٌ أَنْ يَكُونَا[٧]

---

(١) ديوانها ص ٣٨٦

(٢) ديوانه ٣/٢٢٤.

(٣) تنزى - بحذف إحدى التائين - تتوثب، السرار بفتح السين وكسرها: وهو مغيب القمر آخر ليلة من الشهر، يقول: محاق القمر روّعني فكلما رأيت شيئاً خفتُ أن يحل به ذلك المحاق، والمعنى: أنه من شدة الحذر يحسبُ كلَّ متسارّين يتساروان في شأنه.

(٤) وهو أبو نواس، ديوانه ص ٥٣٨.

(٥) يقول إنك تراها بعينك لكنك لا تلمسها لانها هباء.

(٦) أي أنها برئت على الزمن ولم يبق إلا روحها المستور.

(٧) أي أنها تجسّد كلُّ ما يريده المرء ويتمناه.

فِي كُـؤُوسٍ كَـأَنَّـهُـنَّ نُجُـومٌ ... جَـارِيَاتٌ، بُرُوجُـهَـا أَيْـدِينَـا[١]

طَالِعَاتٍ مَعَ السُّـقَـاةِ عَلَيْنَـا ... فَـإِذَا مَـا غَـرَبْنَ يَـغْـرُبْـنَ فِـينَـا[٢]

فهذه قطعة من التشبيه غاية على سخف كلام المحدثين[٣].

(٢) التشبيه المصيب: ويعني به ما خلا من المبالغة، واخرج الأغمض إلى الأوضح.

قال امرؤ القيس في طول الليل[٤]:

كَـأَنَّ الثُّـرَيَّا عُلِّقَتْ فِي مَـصَـامِـهَـا ... بِأَمْـرَاسِ كَـتَّـانٍ إِلى صُـمِّ جَنْـدَلِ[٥]

فهذا في ثبات الليل واقامته، والمصام المقام، وقيل للممسك عن الطعام صائم لثباته على ذلك، ويقال صام النهار إذا قامت الشمس.

وقال في ثبات الليل[٦]:

فَـيَـا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَـأَنَّ نُجُـومَـهُ ... بِكُلِّ مُـغَـارِ الفَـتْلِ شُـدَّتْ بِيَـذْبُـلِ

المغار الشديد الفتل، يقال اغرتُ الحبل إذا شددت فَتْلَهُ، ويذبل جبل بعينه[٧].

وقال أيضاً[٨]:

كَـأَنَّ أَبَانَاً فِـي أَفَـانِينَ وَدْقِـهِ ... كَـبِـيـرُ أُنَاسٍ فِي بِجَـادٍ مُـزَمَّـلِ[٩]

---

(١) يقْرِن كؤوس الخمرة بين ايدي الندامى بالنجوم الجاريات.

(٢) أي الكؤوس تغرب في أجوافهم.

(٣) الكامل ١٧١/٦

(٤) ديوانه ص ١٩.

(٥) المصام: المقام وزناً ومعناً، يريد في مكانها الذي قامت وثبتت فيه، وكذلك مصام الفرس ومصامته: المكان الذي تربط فيه، امراس: جمع مرس وهو الحبل، صم جندل: حجارةٌ صماء غير متخلخلة وهي التي تكون في مجرى النهر، الجندل: مكان في مجرى النهر فيه حجارة يشتد عندها جريان النهر.

(٦) ديوانه ص ١٩.

(٧) ذكر ياقوت أنه جبل في طريق نجد.

(٨) ديوانه ص ٢٥.

(٩) أبان: جبلٌ، وهما ابانان، ابان الأسود وأبان الأبيض - ذكر ياقوت أن ابان الأسود لبني فزارة خاصة، وابان الأبيض لبني عبس وبينهما ميلان وكلاهما محدد الرأس كالسنان - الودق: المطر، الأفانين: الضروب والأنواع، بجاد: كساءٌ مخطط: (شبه الجبل وقد عمه المطر والخصب بالشيخ الضعيف الملفوف في بجاد وخص الشيخ لأنه متلفعٌ ابداً متزملٌ في ثيابه.

(٣) التشبيه المُقارِب: كقول ذي الرُّمة[١]:

وَرَمْلٍ كَأَوْرَاكِ العَذَارَى[٢] قَطَعْتُهُ ... وَقَدْ جَلَّلَتْهُ المُظْلِمَاتُ الحَنَادِسُ

الحِنْدِسُ: اشتداد الظلمة، وهو توكيد لها، يقال ليل حندسٌ وليلٌ أليَلُ مظلمٌ...

ومن التشبيه الحسن قول الشاعر (وهو الشَّمَّاخ)[٣]:

كَأَنَّ المَتْنَ والشَرْخَيْنِ منْهُ ... خِلافَ النَّصْلِ سِيطَ[٤] بِهِ مَشِيجُ

يريد سهماً رمي به فانفذ الرَّميَّة وقد اتصل به دمها، والمتن: متن السهم[٥] وشرخُ كلِّ شيءٍ حدُّ، فأراد شَرْخَيْ الفُوقِ[٦] وهما حرفاه، والمشيجُ، اختلاط الدم بالنطفة[٧].

(٤) التشبيه البعيد: وهو الذي لا يقوم بنفسه أي يحتاج إلى تفسير فكقول الشاعر[٨]:

بَلْ لَوْ رَأَتْنِي أخْتُ جِيرانِنَا ... إِذ أَنَا فِي الدَّارِ كَأَنِّي حِمَارْ

فإنما اراد الصحة فهذا بعيد لأن السامع انما يستدل عليه بغيره وقال الله عز وجل وهذا البيّن الواضح ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[الجمعة ٥]، والسفر: الكتاب، وقال: ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ﴾ في أنهم قد تعاموا عنها، وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها)[٩].

نلاحظ مما سبق أن المبرد قسم التشبيه من حيث الواقع والحقيقة، وذلك لأنه لغوي، ونظرة اللغويين تختلف عن نظرة البيانيين، فاللغويون يتعاملون مع واقع الكلمات بقطع النظر عما لها من ظلال وارفة، وايحاءات بديعة، ويذكرنا صنيعهم بهذا التشبيه الذي ذكره عبد

---

(١) ديوانه ص ٢٥٦.
(٢) اخرجه مخرج المبالغة، جعل اوراك العذارى مشبهاً به والمألوف تشبيهُها بالرمل، والاوراك: جمع ورك وهي مؤنثة: ما فوق الفخذ كالكتف للعضد.
(٣) ذكر في رغبة الأمل أن هذا البيت لزهير بن حرام الهذلي وليس للشماخ
(٤) سيط به: خُلط به، والمشيج هنا الدم.
(٥) متن السهم وسطه أو ما دون الريش إلى وسطه.
(٦) الفُوق من السهم: حيث يثبت الوتر منه
(٧) الكامل ١٠١٦/٢. رغبة الأمل شرح الكامل ١٠/٧
(٨) رُوِي هذا البيت عن بندار – الكامل ١٣٦/٢.
(٩) رغبة الآمل شرح الكامل ٣٧/٧.

القاهر وفضله واستحسنه وإن كان بعض اللغويين وجد فيه افراطاً فقد ذكر الزجاج في أماليه عن ثعلب، قال: كنا عند ابن الاعرابي فأنشد قول جرير[(١)]:

وَيَوْمٍ كَـــابْهَـــامِ القَطاةِ مُــزَيَّــــــنٍ ... إليَّ صِبَـــاهُ، غَـــالِبٍ لِـــيَ بَاطِلُــــهْ

رُزِقْنَا بِهِ الصَّـــيْـدَ الغَـــزِيرَ وَلَمْ نَــكُنْ ... كَـمَنْ نَبْلُهُ مَــحْـــرُومَـــةٌ وَحَـــبَائِلُــــهْ

وَذلِكَ يَــــــــوْمٌ خَــيْــرُهُ دُونَ شَــــرِّهِ ... تَغَــيَّبَ وَاشِــيْـــهِ، وَأَقْــصَـــرَ عَــاذِلُــهْ

فعجبنا من تشبيه قِصَر اليوم بإبهام القطاة، فقال ابن الاعرابي: أحسن من قول الآخر:

وَيَوْمٍ عِنْـــدَ بَابِ أَبِـــي نَعيـــــمٍ ... قَـصِــيـرٍ مِــثْلِ ســالِفَــةِ[(٢)] الــذُّبَــابِ

قال الزجاج:«وهذا نهاية الافراط والخروج عن حدود التشبيه المصيب» فانظر حكم الزجاج، وحكم الشيخ، فالشيخ نظر إلى طرافة التشبيه فاستحسنه، والزجاج نظر إلى غلوه فلم يستصوبه.

أقسام التشبيه عند الرماني:

ثم جاء الرماني، فبعد أن عرف التشبيه بقوله:«هو العقد على أن أحد الشيئين يسدّ مسدّ الآخر في حسٍ أو عقل» قسمه إلى تشبيه: حسي ونفسي، ثم قال – وهذا الذي يعنينا –: «والتشبيه البليغ اخراج الأغمض إلى الأظهر باداة التشبيه مع حسن التأليف. وهذا الباب يتفاضل فيه الشعراء وتظهر فيه بلاغة البلغاء، وذلك أنه يكسب الكلام بياناً عجيباً، وهو على طبقات في الحسن كما بيّنا، فبلاغة التشبيه الجمع بين شيئين بمعنى يجمعهما يكسب بياناً فيهما والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه:

١– منها اخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة..
٢– ومنها اخراج مالم تجرِ بِهِ عادة إلى ما جرت به عادة.
٣– ومنها اخراج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بالبديهة.
٤– ومنها اخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة.

ثم جاء بالأمثلة على هذه الأقسام من القرآن الكريم، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور

---

(١) ديوانه ص ٣٨٤، يشبه اليوم بإبهام القطاه لقصره– القطاه: طائرٌ صغير– وكذلك الأيام السعيدة تكون قصيرة، ثم يقول: من حسن ذلك اليوم أنه لم يكن فيه لا واشٍ ولا عاذل.
(٢) السالفة: جانب العنق

٣٩]، فهذا بيان قد اخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قيل يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدّر لكان بليغاً، وابلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصاً عليه وتعلق قلبه به، ثم بعد هذه الخَيْبة حصل على الحساب الذي يصيِّرُهُ إلى عذاب الأبد في النار- نعوذ بالله من هذه الحال - وتشبيه اعمال الكفار بالسراب معنى حسن، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم ١٨]، فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، فقد اجتمع المشبه والمشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات، وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة...».

«ومن الثاني، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الاعراف ١٧١]، هذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة ما جرت به العادة، وقد اجتمعا في معنى الارتفاع في الصورة، وفيه أعظم الآية لمن فكر في مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو علمه به ليطلب الفوز من قبَله ونيل المنافع بطاعته، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر ١٩]، وهذا بيان قد أخرج ما لم تجرِ بِهِ عادة إلى ما قد جرت به، وقد اجتمعا في قلع الريح لهم واهلاكها اياهم، وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة.

ومن الثالث، قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد ٢١]، فهذا تشبيه قد أخرج مالا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم، وفي ذلك البيان العجيب بما قد تقرر في النفس من الأمور، والتشويق إلى الجنّة بحسن الصفة مع ما لها من السعة وقد اجتمعا في العظم، وقال عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة ٧]، وهذا تشبيه قد أخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم، وقد اجتمعا في خلو الأجساد من الأرواح وفي ذلك الاحتقار لكل شيء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل.

ومن القسم الرابع، قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن ٢٤]، فهذا تشبيه قد اخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة، وقد اجتمعا في العظم، إلا أن الجبال اعظم، وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخّر من الفلك الجارية مع عظمها، وما

في ذلك من الانتفاع بها وقطع الاقطار البعيدة فيها، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ﴾ [الرحمن ١٤]، وهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة، وقد اجتمعا في الرخاوة والجفاف وإن كان احدهما بالنار والآخر بالريح»(١).

ونرى أن تقسيمات الرماني - مع ما فيها من ملحوظات جيِّدة افاد منها المتأخرون - إلا أنها تقوم على أساس عقلي ولقد كان الجاحظ وهو أسبق من الرماني بالطبع وإن كان يتفق معه في الاعتزال، فإنه قد سجل بعض الملحوظات النفيسة وهو يتحدث عن التشبيه في مثل قول الله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الاعراف ١٧٥]، وقوله ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات ٦٥].

ومهما يكن من أمر فإن تقسيمات الرماني للتشبيه بقيت ردحاً من الزمن أساساً يعول عليه من بعده، وهذا أبو هلال العسكري ينهج النهج نفسه، حتى إن بعض الكاتبين - سامحهم الله - نقل كلام العسكري في الصناعتين - وهو نفسه كلام الرماني - وبين الرجلين ما يزيد على قرن ولم يشر إلى الرماني - وهو الأسبق - من قريب أو بعيد(٢).

وبعد أن استقرت علوم البلاغة على ما هي عليه الآن، كادت هذه التقسيمات تُتناسى واستبدلت بتقسيمات أُخر جعلت بعض علماء البلاغة أنفسهم يضيقون بها ذرعاً، فهذا العلامة الثاني السعد التفتازاني - رحمه الله - في شرحه المطوَّل على التخليص يذكر أن كثيراً من هذه التقسيمات (التي ذكرها صاحب التلخيص) ليس تحتها طائل فائدة، وسنقتصر على أهم هذه التقسيمات مجملين ما يكفي فيه الإجمال ومفصلين ما تدعو الحاجة لتفصيله، وقد تقدم أن التشبيه له طرفان، وأداة، ووجه، فمن الطبيعي أن نذكر تقسيمات التشبيه أولاً من حيث طرفاه، ثانياً من حيث أداته، ثالثاً من حيث وجهه.

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن/ النُكت في إعجاز القرآن للرماني ص ٨٠- ٨٥.
(٢) انظر علم البيان للدكتور عبد العزيز عتيق.

أولاً: تقسيم التشبيه من حيث طرفاه

١ - طرفا التشبيه قد يكونان مفردين، كتشبيه الحسناء بالشمس، وقد يكونان مقيدين، وقد يكون أحدهما مقيداً والآخر مفرداً، والقيد قد يكون شبه الجملة، وقد يكون حالاً، وقد يكون صفةً، وجعلوا منه المضاف إليه، مع أن المضاف إليه - كما ذكره علماء المعاني - لا يُعدَّ من القيود ولا صلة الموصول[1]، ولعل عذر علماء البيان أنهم لا يتكلمون عن الجلمة وأجزائها إنما يتكلمون عن أحد طرفي التشبيه.

فمن الطرفين المقيدين قولهم «الساعي في غير طائل كالراقم[2] على الماء»، «علْمٌ لا ينفع كدواء لا يَنْجَع»، «الطامع في النصر من عدوه كالهارب من الرمضاء إلى النار»، «الكلمة الصعبة المفيدة كالدواء المرّ»، «الكلمة الطيبة كريح الصَبا»، «الحسناء السيئة كخضراء الدِّمَنِ»[3] «الولد العاق كجمر الغضا»[4] «العلم في الصغر كالنقش في الحجر».

هذه التشبيهات إذا نظرت إلى طرفيها المشبه والمشبه به، تجد أن كلاً منهما مقيدٌ بقيد، وإذا نظرت إلى هذه القيود في كل من الطرفين تجده تارة شبه جملة، وتارةً مضافاً إليه كما في (خضراء الدمن) وتارة صفة.

وقد يكون المشبه مفرداً والمشبه به مقيداً ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «الناسُ كابلٍ مائةٍ لا تجدُ فيها راحلة»[5] ومنه قول الخنساء[6].

أغَرُّ أبْلَجُ تَأتَمُّ الهُداةُ بِهِ كَأنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأسِهِ نَارُ[7]

ومنه قولهم: «الثغر كاللؤلؤ المنظوم»، وقد يكون الأمر على العكس من ذلك كقولهم: «العين الزرقاء كالسهام»، و «الشعر الأسود كالليل».

---

(١) راجع تقسيم الجملة في الجزء الأول.

(٢) الراقم على الماء: أي الذي يكتب على الماء.

(٣) خضراء الدمن: النبات يُرى له نضارةً وهو منتن الأصل وبيء المرعى، ينبت في الأرض النتنة، ويروى هذا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ضعيف.

(٤) الغضا: شجرٌ من الاثل، خشبه من أصلب أنواع الخشب وجمره يمكث طويلاً لا ينطفيء، ووجه الشبه ظاهرٌ؛ فكما أن جمر الغضا يظلُّ مشتعلاً فكذلك عقوقُ الولد لوالديه يصعب أن تنطفيء حرقته في قلبيهما.

(٥) اخرجه البخاري - كتاب الرقائق - باب ٣٥: رفع الامانة، ومسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب قوله صلى الله عليه وسلم «الناسُ كإبلٍ مائة».

(٦) ديوانها ص ٣٨٦، وهناك روايةً أخرى (وإن صخراً لتأتم الهداةُ به).

(٧) جعل صاحب جواهر البلاغة - الأستاذ أحمد الهاشمي رحمه الله - المشبه به هنا من قسم المركب، وما نظنُّ الأمر كذلك بل هو من المقيد؛ لأن المركب هيئةٌ من شيئين أو أكثر كما ستعرفه فيما بعد وليس الذي معنا هنا من هذا القبيل.

ولا بُد من أن ننبه على أمرٍ: وهو أن التشبيه المقيد - سواءً كان القيدُ في أحد طرفيهِ أم في كليهما - إنما هو الذي يكون القيدُ فيه ذا صلة بوجه الشبه كالأمثلة المتقدمة، فإنك إذا رجعت إليها فستجد أن القيدَ في كل واحدٍ منها له صلةٌ وثيقةٌ بوجه الشبه، أما إذا كان القيد ليس كذلك - أي لا صلة له بوجه الشبه - فإن التشبيه يعد مفرداً لا مقيداً، فإذا قلت: «رأيت فتاةً ذاتَ عفةٍ وحياءٍ كالشمس»، فإن هذا التشبيه لا يعد مقيداً على الرغم من أن المشبه - وهو (فتاةً ذاتَ عفةٍ وحياءٍ)- مقيدٌ لكن قيده هذا ليس له صلة بوجه الشبه من قريب أو بعيد، فليس كقولنا: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر» أو «الساعي في غير طائل كالراقم على الماء»، فإن كل قيد في هذين التشبيهين له صلةٌ بوجه الشبه في كلٍ منهما، كذلك قولك: «خالدٌ يخفض جناحهُ للناس كالبحر»، فإن هذا التشبيه ليس مقيداً؛ لأن وجه الشبه هو الكرمُ والجود، وَخَفْضُ الجَناح للناس إنما يدل على خُلُقٍ آخر.

٢ - وقد يكونان متعددين كلاهما أو أحدهما، ولهذا صور كثيرة:

أ- فقد يكون المشبه واحداً ولكن المشبه به متعدد.

ب- قد يكون المشبه متعدداً والمشبه به واحد.

جـ- قد يكون في الكلام أكثر من تشبيه إلا أنه يؤتى بالمشبهات أولاً ثم يؤتى بالأشياء المشبه بها ليقابل كل واحد بما يناسبه.

د- قد يكون في الكلام أكثر من تشبيه كذلك إلا أنه يذكر مع كل مشبه المشبه به وإليك البيان:

(د-١) استمع إلى قول الشاعر أبي بكر محمد الخالدي[(١)].

يَا شَبِيهَ البَدْرِ حُسْناً ... وَضِيَاءً وَمَنَالا
وشَبِيهَ الغُصْنِ لِيناً ... وَقَوَاماً واعْتِدالا
أنْتَ مِثْلُ الوَرْدِ لَوْناً ... وَنَسِيماً وَمَلالا[(٢)]
زَارَنَا حَتَّى إذا مَا ... سَرَّنَا بالقُرْبِ زالا

تجد أن المشبه واحد، ولكن المشبه به متعدد، فقد شبه المحبوب أولاً بالبدر، وثانياً بالغصن، واستمع إلى قول الآخر:

---

(١) اليتيمة ٢/٢٢٦.

(٢) المَلال: قِصَرُ الإقامة، وفي مثل هذا المعنى يقول الشاعر:

لاَ يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْداً ... إنَّ عَهْدِي لَكَ آس

فالمعروف أن الورد لا يدوم طويلاً بعكس الآس: وهو نباتٌ معروفٌ يبقى مدةً طويلةً قبل أن يذبُلَ وينوي.

مَـرَّتْ بِنَا رَأْدَ[1] الضُّـحَـى تَحْكِـي الغَـزَالَـةَ والغَـزَالا

وقول البحتري[2]:

كَـأَنَّمَـا يَبْـسِمُ عَـنْ لُـؤْلُـؤٍ مُنَضَّـدٍ أَوْ بَـرَدٍ أَوْ أَقَـاحْ

وكقوله[3].

ذاتِ حُسْنٍ لَوْ اسْتَزَادَتْ مِنَ الحُسْنِ إِلَيْـهِ لَمَـا أَصَابَـتْ مَـزِيـداً

فَـهِيَ كَـالشَّـمْسِ بَهْجَـةً والقَـضِيـبِ اللَّدْنِ قَـدّاً والرِّيمِ طَرْفـاً وَجِيـداً[4]

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن ٥٨].

وتأمل في هذه جميعاً، فإنك تجد المشبه واحداً، ولكن المشبه به متعدد. واستمع إلى قول أمير الشعراء[5]:

لَمَّـا خَطَرْتَ بِهِ الْتَـفُّـوا بِسَـيِّـدِهِـمْ كَـالشُّـهْبِ بِالبَـدْرِ أَوْ كَـالجُنْدِ بِالعَلَـمِ[6]

ومن هذا قول الشاعر:

أَنْتَ كَـاللَّيْثِ فِي الشَّـجَـاعَـةِ والإِقْـدَامِ والسَّـيْـفِ فِي قِـرَاعِ الخُطُـوبِ

ويسمى هذا النوع من التشبيه (الجمع)؛ لأن المتكلم جمع مشبهاتٍ بها متعددة لمشبه واحد، وتأتي بلاغة هذا التشبيه من أن المتكلم أرشد إلى معان كثيرة في المشبه وصفات متعددة، فجعل لكل معنى ولكل صفة مشبهاً به يعتمد عليه، انظر إلى البيت المتقدم وهو قوله:

ذاتِ حُسْنٍ لو استـزادت من الْحُـسن إِلَيْـهِ لَمَـا أَصَابَـتْ مَـزِيـداً

فقد نظر إلى المرأة من حيث الوضاءة فشبهها بالشمس، ومن حيث القد فشبهها

---

(١) رأد الضحى: وقت انبساط شمسه وارتفاع نهاره.

(٢) ديوانه ١/٢٣٦.

(٣) ديوانه ١/٣٠٦.

(٤) اللدن: اللين الناعم، القدّ: القامة.

(٥) الشوقيات ١/١٩٨ – قصيدة (نهج البردة).

(٦) يقول: لما مررت بالمسجد الأقصى التفّ حولك الرسل والملائكة كما تلتف الشهب حول البدر أو الجند حول العلم.

بالقضيب، ومن حيث الجيد والطرف فشبهها بالريم.

(د-٢) وهذا عكس سابقه: المشبه متعدد والمشبه به واحد، ونمثل له بقول الشاعر:

صَدْغُ الحَبيبِ وَحَالِي ... كِلاهُمَا كَاللَّيَالِي
وَثَغْرُهُ فِي صَفَاءٍ ... وأَدْمُعِي كَاللآلِي

فالمشبه متعدد، فقد شبه شعر الحبيب وحظه، بالليل في السواد، فأما تشبيه الشعر بالليل فللسواد في كليهما، وأما تشبيه حظه بالليل، فلأنه لم ينعم بوصال حبيبه، وفي البيت الثاني مشبهان، الأول: ثغر الحبيب، والثاني: دموع الشاعر، والمشبه به واحد وهي اللآلىء.

ويسمى هذا النوع التسوية، لأنه سوّى بين المشبهات بحيث جعل لها مشبهاً به واحداً، وهذا - بالطبع - أقل بلاغة من سابقه، وننبهك هنا على أنه لا بد من مناسبة بين كلا المشبهين، فهم قد شبهوا الرمش بالسهم، وشبهوا الكلمة تخرج من صاحبها بالسهم، فلو أنك قلت «الرمش والكلمة كالسهم» لم يكن له في النفس لطف وقبول، كاللطف الذي وجدته في البيتين السابقين.

لا بد إذن من جامع، فلو قلت: «أخلاق فلانة وأعطافها كالمسك وكلامها وريقها كالشهد»، كان ذلك مما تأنس به نفسك، كما إذا قلت: «عزمه ولسانه كالسيف»، «وشعره ووجه كالصبح» - تعني به الشيب -، و«التفاحة والبرتقالة كالعسل»، و«فلان وفلانة كالثعلب»، كان مقبولاً كذلك، وفائدة هذا القسم الاختصار والايجاز.

(د-٣) أن تذكر المشبهات على حدة، ثم تذكر الأشياء المشبه بها على حدة - كذلك - ويمثلون له ببيت امرئ القيس[(١)]:

كأَنَّ قُلُوبَ الطَيْرِ رَطْبَاً وَيَابِسَاً ... لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَفُ البَالي[(٢)]

ففي الشطر الأول ذكر مشبهين: الأول قلوب الطير وهي رطبة، والثاني قلوبها وهي يابسة، وذكر في الشطر الثاني المشبه به لكل من هذين، فالقلوب الرطبة شبهها بالعُنَّاب، والقلوب اليابسة شبهها بالحشف البالي، ومثل هذا قول ابن المعتز[(٣)]:

ليلٌ وبَدرٌ وغُصنٌ ... شَعْرٌ وَوَجْهٌ وَقَدٌّ
خَمْرٌ ودُرٌّ ووردٌ ... رِيقٌ وَثَغْرٌ وَخَدٌّ

(١) (دلائل الإعجاز ص ٢٨٥، المطول ٣٣٨)، ديوانه ص ٣٨.
(٢) الوكر: العش، والحشف: التمر الرديء لا نوى له، والعناب: شجر أحمر لين الأغصان.
(٣) العمدة ١/٢٩٢.

ففي البيت الأول جمع بين مشبهات عدة وذلك في الشطر الأول ثم ذكر المشبه به - لكل منها - في الشطر الثاني، فالليل في الشطر الأول المشبه، والشعر مشبه به، وكذلك البدر مشبه والوجه مشبه به، كذلك الغصن مشبه والقدّ مشبه به، وفي البيت الثاني كذلك؛ فالخمر مشبه والريق مشبه به، كذلك الدر والثغر والورد والخدّ.

ومثل هذا قوله:

تَبَسُّمٌ وَقُطُوبٌ في نَدَىً وَوَغَىً ... كَالْغَيْثِ وَالْبَرْقِ تَحْتَ العَارِضِ البَرْدِ

ففي الشطر الأول مشبهان، الأول: تبسم الممدوح وذلك في نداه وكرمه والثاني: تقطب وجهه في الوغى والحرب، وذكر في الشطر الثاني المشبه به لكل من هذين وهما الغيث والبرق، ويعنون به ما يكون من لمعان السيف في شدة الوغى، ويسمون هذا النوع (ملفوفاً) لأنه لف المشبهات معاً، والأشياء المشبه بها كذلك.

(د-٤) أن يذكر عدة تشبيهات ولكن كل تشبيه على حده لايتداخل مع غيره.

كقول محمد بن لنكك:

الخَدُّ وَرْدٌ وَالعِذَارُ[١] رِيَاضٌ ... والطَرْفُ لَيْلٌ والبَيَاضُ نَهَارُ

ففي البيت أربعة تشبيهات ولكنها مذكورة كل على حدة، ومن هذا القبيل قول المرقش الأكبر[٢]:

النَّشْرُ مِسكٌ وَالوُجُوهُ دَنَانِيرٌ ... وَأَطْرَافُ الأَكُفُّ عَنَمْ

ومن هذا القبيل قول الشاعر:

إِنَّمَا النَّفْسُ كَالزُجَاجَةِ والعِلْمُ ... سِرَاجٌ وَحِكْمَةُ اللَّهِ زَيْتُ

فَإِذَا أَشْرَقَتْ فَإِنَّكَ حَيٌّ ... وإِذَا أَظْلَمَتْ فَإِنَّكَ مَيْتُ

فقد شبه النفس بالزجاجة والعلم بالسراج، وحكمة الله بالزيت.

وسموا هذا (مفروقاً) لأنه فرّق بين التشبيهات فجاء كلٌ مستقلاً عن صاحبه. وأظنك تدرك مما تقدم أن أبرز ميزة لهذهِ الأقسام الايجاز، وما نظن أن وراءها أغراضاً بيانية ذات خطر وشأن.

(١) العذار:هو عارض الوجه أو جانب اللحية.

(٢) المفضليات ١٩/٢، القصيدة رقم ٥٤، الصناعتين ص ١٨٩، النشر: الريح الطيبة، العنم: نبات أملس دائم الخضرة، يتخذ من أزهاره خضاب.

ثالثاً: قد يكون الطرفان مركبين، وقد يكون أحدهما مركباً والآخر مفرداً، ولعلك يجول في خاطرك وتتساءل عن الفرق بين المركب والمتعدد، والأمر يسير سهل، فلقد رأيت حينما حدثناك عن المتعدد أنه يمكن فصل اجزائه بعضها عن بعض وانما جمع بين المتعددات للايجاز والاختصار، أما المركب فليس كذلك، إذ لا يمكن الفصل بين اجزائه، ولو انك فصلت بينها لاختل المعنى، وزال رونقه، وبطل القصد الذي أراده المتكلم.

تأمل قول القاضي التنوخي(١):

كَأنَّمَا المَرِّيخُ والمُشْتَرِي ... قُدَّامَهُ في شَامِخِ الرِّفْعَةْ

مُنْصَرِفٌ بِاللَّيْلِ عَنْ دَعْوَةٍ ... قَدْ أُسْرِجَتْ قُدَّامَهُ شَمْعَةْ

فكّر في هذا التشبيه، ترى أن الشاعر يشبه حال المريخ والمشتري يسير أمامه في رفعة وعلوّ برجل يسير في جُنْح الليل وقد انصرف من دعوة بعد أن انفض المجلس وأسرجت أمامه شمعةٌ، المشبه - إذن - المرّيخ والمشتري أمامه، والمشبه به المنصرف من الدعوة وقد أسرجت أمامه شمعة، وأنت تجد هنا أن كلاً من المشبه والمشبه به مركبان، حاول الآن في نفسك أن تفض هذا التركيب وتفصل أجزاءه بعضها عن بعض، ستجد أن هذه المحاولات - مهما كثرت - لا تجديك شيئاً، بل تذهب هباءً، فلو أردت أن تشبه المريخ بمنصرف من الدعوة، وأن تشبه المشتري بالشمعة، إذن لذهب رونق المعنى، وفسد الذوق البياني، وأظلمت صورته الرائعة البديعة، وتدرك أن هذا يختلف كل الاختلاف عن بيت امرئ القيس المتقدم.

* كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيرِ رَطْباً وَيَابِساً *

إذ يمكنك هناك أن تفصل بين التشبيهات، فتقول كأن قلوب الطير الرطبة العُنّاب، وكأن قلوبها اليابسة الحشف البالي، ولكن الهدف من الجمع بينهما الايجاز والاختصار - كما قلنا من قبل - أما هنا فالأمر يختلف كل الاختلاف، إذ لا يمكننا أن نشبه المشترى بالشمعة، والمريخ بالمنصرف عن الدعوة كما عرفت.

وانظر إلى قول ابن المعتز(٢):

كَأنّهُ وكَأنَّ الكَأْسَ فِي فَمِهِ ... هِلاَلُ أوَّلِ شَهْرٍ غابَ فِي شَفَقِ

ويروى هذا البيت:

كأنّه وَكَأنَّ الكَأْسَ فِي يَدِهِ ... هِلاَلُ تَمَّ وَنَجْمٌ غَابَ فِي شَفَقِ

(١) اليتيمة ٢/٣١٠، نهاية الأرب ٧/٤٢.
(٢) ديوانه ٣/ ١٦٣، ديوان المعاني ١/٣٠٧.

فالشاعر يريد أن يشبه الكأس - وقد غاب جزء منها بين شفتي شاربها - بصورة الهلال الذي غاب في الشفق، حاول أن تفرق اجزاء هذا التشبيه - كما حاولت في سابقه - ستجد النتيجة واحدة، فلا معنى لتشبيه الكأس بالهلال والشفة بالشفق لأن ذلك غير مستقيم وتفسد به الصورة التي أرادها الشاعر.

واستمع إلى قول بشار(١):

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤوسِنَا   وأسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهاوَى كَواكِبُه

فالشاعر يريد أن يشبه ساحة الوغى، ما فيها من غبار كثيف، والأسياف ذات اللمعان والبريق، وهي تتساقط في هذا الغبار الكثيف، يشبه هذه الصورة بالليل المظلم الذي تتهاوى فيه الكواكب، ولو أردت أن تفصل بين اجزاء هذا التشبيه وتفرق بعضها عن بعض فتشبه مثار الغبار بالليل، وتشبه الأسياف بالكواكب، كلاً على حدة، أذهبت جمال الصورة، ورونقها وبهاءها.

أظنك أدركت الآن وتذوقت الفرق الهائل بين المتعدد والمركب، فالمتعدد يمكن فصل أجزائه بعضها عن بعض، فيمكنك أن تفصل التشبيهات في البيت السابق:

لَيْلٌ وبَدْرٌ وَغُصْنٌ   شَعْرٌ ووجْهٌ وَقَدٌّ

فتقول الليل كالشعر، والبدر كالوجه، والغصن كالقدّ.

أما المركب فإن الفصل فيه غير ممكن، نعم، قد نجد بعض التشبيهات المركبة يمكن فصل بعضها عن بعض فَنُخَيَّرُ بين أن نعدها من المركب أو من المتعدد، ولكننا نُحَكِّمُ الذوق في ذلك. انظر إلى قول أبي طالب الرقي(٢):

وَكَأَنَّ أجْرامَ النُّجُومِ لَوامِعَاً   دُرَرٌ نُثِرْنَ عَلى بِسَاطٍ أزْرَقِ

يشبه أجرام النجوم لوامعاً في السماء بالدرر المنثورة على بساط أزرق، فأنت ترى أنه من الممكن أن تشبه النجوم بالدرر تشبيهاً على حدة، ثم تشبه السماء ببساط أزرق تشبيها آخر، ولكنك لا تجد لهذا من الحسن والرونق والروعة والتأثير ما تجده للتشبيه في حالة تركيبه، فكونه تشبيه صورة بصورة خير من أن تجعله تشبيهين متعددين.

ونضيف - بعد هذا - أن هناك فرقاً آخر بين التشبيه المتعدد والمركب - غير ما ذكرناه - من امكان الفصل بين اجزائه أو عدم امكانه، هذا الفرق هو: أن الغرض من التشبيه المتعدد

---

(١) الوساطة ٢٣٧، ديوان المعاني ٦٧/٢.

(٢) اليتيمة /٢٤٤ ، ٢٤٥.

كان الايجاز والاختصار، أما الغرض من التشبيه المركب - فليس كذلك - إنما هو: جمال الصورة، وقوة التأثير في النفس، وخصوبة خيال المتكلم، وفيه لطف المنشأ، وجليل الغاية، وحلاوة الثمرة.

ثانياً: تقسيم التشبيه من حيث الأداة

ينقسم التشبيه من حيث الأداة إلى مرسل ومؤكد:

فالمرسل ما ذكرت فيه الأداة، كما مر في الأمثلة السابقة.

والمؤكد: ما حذفت منه الأداة كقولنا «العلم نور في الهداية»، و«حمزة أسد في الشجاعة»، ولهذا القسم صورٌ متعددة.

(١) قد يأتي على صورة مبتدأ وخبر كالمثالين السابقين.

(٢) وقد يأتي على صورة المبتدأ والخبر، ويكون الخبر مضافاً، واليك الأمثلة التالية:

يمكنك عند تقدير اداة التشبيه: أن تقدم أحد المتضايفين على الآخر، فإذا قلت: «هو ملجأ المساكين، وحصن الضعفاء، وكعبة القاصدين، وروضة المشتاقين»، فيمكنك أن تقدر الكاف بابقاء الكلام على ما هو عليه، فنقول: «أنت كحصن الضعفاء، وكملجأ المساكين، وككعبة القاصدين، وكروضة المشتاقين».

وجاز لك - ثانياً - أن تقدم المضاف إليه على الأداة، وهو أحسن من سابقه، وأجمل وقعاً على النفس، فتقول: «أنت للمساكين كالملجأ، وللضعفاء كالحصن، وللقاصدين كالكعبة، وللمشتاقين كالروضة»، وهنا تكون قد فككت المتضايفين بعضهما عن بعض.

(٣) أن يكون المشبه به مصدراً (مفعولاً مطلقاً) فتقول: «كرَّ كرَّ الأسد»، «وأقبلَ اقبال النسيم»، و«دبَّ دبيب المرض» ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل ٨٨]، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يَنْطَلِقُ أحدُكم إلى أخيه يَعَضُّهُ عَضِيضَ الفَحْلِ، ثم يأتي يلْتَمِسُ العَقْلَ، لا دِيَةَ لك»(١).

(٤) أن يكون المشبه به حالاً «كرَّ حمزة أسداً» و«اقبلت سعاد بدراً».

(٥) أن يكون المشبه به مضافاً، والمشبه مضافاً إليه، تقول:« سبحانك اللهم، وقد أبدعْتَ ليلَ الشَّعْرِ، وعاجَ العنق، ولَحْظَ السهم، ووَرْدَ الخَدْ، ونرجسَ العيونِ».

ومن هذا القبيل قول الشاعر:

---

(١) رواه الإمام أحمد ٤/٢٢٣، ورواه ابن ماجة - كتاب الديات - باب «من عضَّ رجلاً فنزع يده فندر ثناياه» ٢/٨٨٦. والحديث في رجل عضَّ يد أخيه، فجذب الآخر يَدَه فطرح ثنيته، فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب عَقْل ثنيته: أي ديتها، فأجابه الرسول بأنه ليس له دية

والرِّيحُ تَعْبَثُ بِالغُصُونِ وَقَدْ جَرى ذَهَبُ الأصِيلِ عَلى لُجَيْنِ المَاءِ

والأصل: أصيل كالذهب، وماء كاللجين

وكقول الشريف الرضي[1]:

أرْسَى النَّسِيْمُ بِوَادِيكُمْ وَلاَ بَرِحَتْ حَوامِلُ المُزْنِ في أجْداثِكُم تَضَعُ

ولا يَزَالُ جَنينُ النَبْتِ تُرْضِعُهُ عَلى قُبورِكُمُ العَرَّاصَةُ الهَمِعُ

فالتشبيه في البيت الأول في قوله: «حوامل المزن»، حوامل مضاف والمزن مضاف إليه، والأصل فيه «مزن كالحوامل» فشبه المزن بالحوامل لأن كلاً منهما يُرجَى منه الخير، وفي البيت الثاني تشبيه آخر وهو قوله: «جنين النبت» والأصل «نبت كالجنين».

وقال شوقي[2]:

جُبْتَ السَمواتِ أوْ مَا فَوْقَهُنَّ بهم عَلَى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُّجُم(٣)

واعلم أنهم يفضلون التشبيه المؤكد على التشبيه المرسل لأنه أبلغ؛ فإن حذف الأداة يشعرك بقرب اتحاد المشبه بالمشبه به، أما ذكر الأداة، فإنه يذهب من النفس هذا الرونق، بل تشعر بشيء من البعد. وأضف إلى ذلك أنه أوجز – كذلك – مما ذكرت الأداة فيه، ولا تظننَّ أن كل تشبيه مؤكد حذفت أداته يجب أن يكون أبلغ على الدوام مما ذكرت فيه الأداة، فقد يبدع الشاعر في تشبيه ذكرت أداته ويقصر في تشبيهٍ حذفت منه الأداة.

المعوَّل – إذن – على الصورة التي يبرزها المتكلم، فإذا تساوت الصورتان كان المؤكد أبلغ من المرسل.

(١) ديوانه ٦٤٧/١. العراص: السحاب ذو البرق والرعد، الهَمِعُ: السحاب الماطر.

(٢) الشوقيات ١٩٨/١.

(٣) بهم: المراد مررت ببعضهم في السموات، منورةٍ دريّةِ اللجم: المراد البراق.

ثالثاً: تقسيم التشبيه من حيث وجه الشبه

ينقسم التشبيه من حيث وجه الشبه:

١- إلى مفصل ومجمل:

فالمفصل ما ذكر فيه وجه الشبه، كقولنا: (هي كاللؤلو في الصفاء)، والمجمل ما لم يذكر فيه وجه الشبه، ويمكنك أن تدرك على ضوء ما سبق: أن التشبيه إن ذكرت فيه الأداة ووجه الشبه فهو (مرسلٌ مُفصَّل) - «هي كالشمس في الحسن» - وإن ذكرت فيه الأداة وحذف وجه الشبه، فهو (مرسلٌ مُجْمَل) - «هي كالشمس» - وإن حذفت منه الأداة وذكر فيه وجه الشبه فهو (مؤكَّدٌ مُفَصَّل) - «هي شمسٌ في الحسن».

أما إن حذفت الأداة ووجه الشبه فهو التشبيه (البليغ) - «هي شمس» و «هو أسد» - ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم: «والصلاة نور، والصدقة برهان[1]، والصبر ضياء» وإنما كان تشبيها بليغاً لأنّه حذفت منه الأداة ووجه الشبه، فصار المشبه والمشبه به كالشيء الواحد وفي هذا ما فيه من زيادة الدلالة على اتحاد المشبه والمشبه به.

٢- ينقسم التشبيه من حيث وجه الشبه إلى تمثيل وغير تمثيل:

فالتمثيل ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من أشياء متعددة، والتشبيه غير التمثيل ما لم يكن وجه الشبه فيه كذلك، وهذا موضوع حريٌ بالتفصيل جدير بالتوضيح والتمثيل، فلنعقد له باباً خاصاً، ولنعرض أولاً لما فيه من آراء ثم نبين حقيقته وروعته وموقعه مستمدين العون من اللّه.

(١) رواه مسلم - كتاب (الطهارة) باب (فضل الوضوء) ١/٢٠٣.

تشبيه التمثيل

لا بد أن نعرض – أولاً – لآراء العلماء وهم يتحدثون عن التشبيه والتمثيل، هل هما شيء واحد؟ وإن لم يكونا كذلك فما هو ضابط الفرق بينهما؟ وبم يختلف كل عن الاخر؟.

فلقد ذهب بعضهم إلى أن التشبيه والتمثيل كليهما شيء واحد، ومن أولئك صاحب المثل السائر، – ابن الأثير– فهو يقرر أن لا فرق بين التشبيه والتمثيل.

ولكن جمهور العلماء على أن التشبيه شيء والتمثيل شيء آخر، وقد اختلف هؤلاء في تحديد الفرق بينهما، وسنقتصر على أقوال ثلاثة نختار بعدها ما نرجحه مبينين سبب هذا الترجيح.

المذهب الأول: مذهب عبد القاهر:

ذهب الشيخ عبد القاهر – رحمه الله تعالى – إلى أن التشبيه أعم من التمثيل، والتمثيل أخصّ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً، ولكنه حينما أراد أن يفرق بينهما نظر إلى وجه الشبه، فوجد أن الشبه تارة يكون عقلياً وتارة يكون حسياً، والعقلي قد يكون ظاهراً لا يحتاج إلى تأويل، وقد لا يكون كذلك، بل لا بد فيه من التأويل، هذه أقسام ثلاثة لا بد أن تتنبه لشرحها.

فالقسم الأول: وهو ما يكون وجه الشبه فيه حسياً كالحمرة التي شبه من أجلها الورد بالخدّ، والسواد الذي شبه من أجله الشعر بالليل، والبياض الذي من أجله شبّه الماء باللجين، فوجه الشبه في هذه التشبيهات محسوس كما ترى.

القسم الثاني: ما كان وجه الشبه فيه عقلياً لا يحتاج إلى تأويل، الشجاعة ليست من الأمور المحسوسة انما هي أمر عقلي، وكذلك الجود، وقل مثل هذا عن البخل والجهل والجبن، فإذا قلنا «خالد كالأسد في الشجاعة»، فإن الشجاعة التي هي وجه الشبه موجودة في المشبه والمشبه به دونما حاجة إلى تأويل، فلو لم يكن خالد شجاعاً ما شبه بالأسد، وكذلك قولنا: «هو كحاتم في الجود» فإن الجود موجود في كليهما فلو لم يكن جواداً ما شُبّه بحاتم. وكذلك إذا قلت: «هو كالثعلب في المكر، وكاليهود في الجبن والبخل» فإن وجه الشبه في هذه الأمثلة جميعاً موجود في الأصل الذي هو المشبه به، وهو موجود كذلك في الفرع الذي هو المشبه.

أما القسم الثالث: وهو ما كان وجه الشبه فيه عقلياً لا بدّ فيه التأويل فإليك أمثلته حتى يستبين لك تمام الاستبانة ويظهر لك غاية الظهور:

«كلامك كالعسل في الحلاوة»، «رِمْشُها كالسيف في الحدّة»، «كلامها كالنسيم في الرقّة»، «ذكره كالمسك في الطيب»، انظر إلى هذه الأمثلة وتأمل وجه الشبه في كل واحد منها وفكّر جيداً فيما بين هذا وبين القسم الذي قبله من فروق.

انظر في المثال الأول: «كلامه كالعسل في الحلاوة» الحلاوة وجه الشبه، ولكن تُرى هل الحلاوة في العسل كما هي في الكلام؟ إن الحلاوة وصف حقيقي للعسل أما الكلام فلا يوصف بها إلا بعد ضرب من التأويل، ذلك أن الحلاوة مما تميل اليها النفس ويأنس بها الطبع، فإذا وصف الكلام بها فإنهم لا يريدون الحلاوة ذاتها وإنما يريدون لازمها، وما ينتج عنها من أثر. إن هناك فرقاً كبيراً بين قولنا «خالد كالأسد في الشجاعة» - وهو القسم الثاني الذي ذكرناه لك من قبل - وبين قولنا: «كلامه كالعسل في الحلاوة»، ذلك أن الشجاعة موجودة في طرفي التشبيه كليهما وجوداً حقيقياً، فكما هي موجودة في الأسد فهي كذلك في خالد، إلا أنها أقوى في المشبه به، أما الحلاوة فليست كذلك فوجودها في الأصل وهو المشبه به يختلف تماماً عن وجودها في الفرع وهو المشبه، وجودها في الأصل على سبيل الحقيقة، لكن وجودها في الفرع يحتاج إلى تأويل.

ولولا أن الحلاوة لم توجد في العسل وفيما يشبهه لما استطعنا أن نصف بها الكلام، أما الشجاعة فلو لم توجد في الأسد لأمكن أن يتصف بها خالد وغيره.

وكذلك تقول في الأمثلة الباقية، فالحدّةُ التي هي وجه الشبه، إنما يوصف بها السيف على الحقيقة ولكن وصف الرمش بها لا بُدّ فيه من تأويل إذ المراد ما تقتضيه الحدّة وما ينشأ عنها من التأثير مثلاً، وكذلك الرقة والطيب تقول فيهما ما قلناه في المثالين السابقين، ألا ترى أن الطيب هو وصف على الحقيقة للمسك، ولما جعلناه للمشبه فليس ذلك من باب الحقيقة إنما هو على سبيل التأويل كما قلنا، فمن نتائج الطيب أنه يستريح له الفؤاد.

وهكذا كل ما يشبه هذه الأمثلة مثل «هو كالجبل في العلو» «والجدول في الرقة»، ومنه المثل: «هم كالحلقة المُفْرَغَةِ لا يُدْرَىَ أين طرفاها» - وهو مثل يضرب للأَكْفَاءِ يستوون في الفضل والنبل - وأصله أن امرأة سُئلت عن أولادها أيهم أفضل؟ فقالت هذه المقالة فصارت مثلاً. فوجه الشبه وهو الإحكام موجود على الحقيقة في الحلقة المفرغة وهو المشبه به.

إذا عرفت هذه الأقسام الثلاثة:

١- وجه الشبه الحسي.

٢- وجه الشبه العقلي الذي لا يحتاج إلى تأويل وهو ما وجد في المشبه والمشبه به على الحقيقة.

٣- وجه الشبه الذي يحتاج إلى تأويل وهو ما كان وجوده في الأصل (المشبه به) يختلف عن وجوده في الفرع (المشبه). أقول: إذا عرفت هذه الأقسام فأيّها الذي يجعله الشيخ من باب التمثيل؟

إن القسم الأول والثاني يرى الشيخ أنهما ليسا حريين باسم التمثيل، إنما التمثيل هو القسم الثالث فحسْب. التمثيل عند الشيخ - إذن - ما كان وجه الشبه فيه عقلياً غير حقيقي، وهو ما يختلف وجوده في المشبه به عن وجوده في المشبه.

التمثيل – إذن – لا يأتي عند الشيخ إذا كان وجه الشبه حسياً، مفرداً كان، أم مركباً، أم صورة منتزعة من متعدد، والتمثيل لا يأتي عند الشيخ إذا كان وجه الشبه عقلياً لا يحتاج إلى تأويل. يقول الشيخ عبد القاهر: «اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين:

أحدهما: أن يكون من جهة أمر بيِّن لا يحتاج فيه إلى تأول.
والثاني: أن يكون الشبه محصلاً بضرب من تأول.

فمثال الأول: تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل، نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجه، وبالحلقة في وجه آخر، والتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدَ بالورد، والشعر بالليل، والوجه بالنهار، وتشبيه سقط النار بعين الديك... وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة، والذئب في المكر، والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم، وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بها.

فالشبه في هذا كله بيِّن لا يجرى فيه التأول ولا يفتقر إليه في تحصيله، وأي تأول يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة؟ وأنت تراها – ها هنا – كما تراها هناك، وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل.

ومثال الثاني: وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأول، كقولك: «هذه حجة كالشمس في الظهور»، فقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها، كما شبَّهْتَ فيما مضى الشيء بالشيء من جهة ما أردت من لون أو صورة أو غيرهما، إلا أنك تعلم أن هذا التشبيه لا يتم لك إلا بتأول وذلك أن تقول: حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها، ولذلك يظهر الشيء لك ولا يظهر لك إذا كنت من وراء حجاب، أو إذا لم يكن بينك وبينه حجاب.

ثم تقول إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه، ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذي يروم القلب إدراكه ويصرف فكره للوصول إليه من صحة حكم فساده، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم، قيل: هذا ظاهر كالشمس الذي هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم، قيل: هذا ظاهر كالشمس، أي ليس ها هنا مانع عن العلم به، ولا للتوقف والشك فيه مساغ، إن المنكر له إما مدخول في عقله أو جاحد مباهت ومسرف في العناد كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصرٍ ولا ينكرها إلا من لا عذر له في إنكارها فقد احتَجْتَ في تحصيل الشبه الذي أثبتَّهُ بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأول كما ترى...».

ثم يقول: «وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخَصُّ منه، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً، فأنت تقول في قول أبي قيس بن الاسلت:

وَقَدْ لاحَ فـي الصُّبْحِ الثُّـرَيَّا لِمَـنْ رَأى كَعُنْقُودِ مُلَّاحِـيَّةٍ[1] حِـينَ نَـوَّرا

إنه تشبيه حسن ولا تقول هو تمثيل، وكذلك تقول: ابن المعتز حَسَنُ التشبيهات بديعُها لأنك تعني تشبيهه المبصَرات بعضَها ببعض وكل ما لا يوجد التشبيه فيه من طريق التأول كقوله[2]:

كَأَنَّ عُيونَ النَرجِسِ الغَضِّ حَوْلَنا مَداهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقيقُ

وما كان هذا الجنس ولا تريد نحو قوله[3]:

إصْبِرْ عَلى مَضَضِ الحَسودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ

فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

وذلك أن احسانه في النوع الأول أكثر وهو به أشهر، وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلاً فلفظ المثل لا يستعمل فيه أيضاً فلا يقال: ابن المعتز حسن الأمثال تريد به نحو الأبيات التي قدمتها وإنما يقال صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال...

ولكن إن قلت في قول ابن المعتز:

فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إنْ لَمْ تَجِدْ ما تَأْكُلُهْ

إنه تمثيل فمثل الذي قلت ينبغي أن يقال، لأن تشبيه الحسود إذا صُبِر عليه وسُكت عنه وترك غيظه يتردد فيه بالنار التي لا تُمَدُّ بالحطب حتى يأكل بعضها بعضاً مما حاجته إلى التأول ظاهرة بينة.

فقد تبين بهذه الجملة وجه الفرق بين التشبيه والتمثيل، وفي تتبع ما اجملت من أمرها وسلوك طريق التحقيق فيهما ضرب من القول ينشط له من يأنس بالحقائق... وإذا تقررت هذه الجملة حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيقي الأصلي هو الضرب الأول وأن هذا الضرب فرع له ومرتب عليه»[4].

---

(١) ملاحيه: عنب أبيض طويل يشبه العنب الزيني في دمشق.

(٢) ديوانه ص ٥١٤.

(٣) ديوانه ص ٥٧٩.

(٤) أسرار البلاغة/ تحقيق محمد عبد العزيز النجار ص ٨٥- ٩٤.

وإنما أطلت في بيان رأي الشيخ لأني وجدت بعض الكاتبين يقرر شيئاً آخر غير الذي قرره الشيخ، «ثم يروح يشرح – أي الشيخ عبد القاهر– قوله هذا في اسهاب مفاده أن التشبيه العام هو ما كان وجه الشبه فيه مفرداً، أي صفة أو صفات اشتركت بين شيئين ليس غير، وان تشبيه التمثيل هو ما كان وجه الشبه فيه صورة مأخوذة أو منتزعة من أشياء متعددة»(١).

المذهب الثاني: مذهب السكاكي:

اتفق السكاكي مع الشيخ عبد القاهر على أن التشبيه إذا كان وجه الشبه فيه حسياً، سواء كان مفرداً أم صورة لا يسمى تمثيلاً، ولكن على الرغم من هذا الاتفاق فإن السكاكي خالف الشيخ من جهة ثانية، فالشيخ – كما عرفنا من قبل – يرى أن تشبيه التمثيل ما يحتاج وجه الشبه فيه إلى تأول، سواء كان هذا الوجه مفرداً أم صورة منتزعة من متعدد.

تشبيه التمثيل عند الشيخ – إذن – قد يكون وجه الشبه فيه مفرداً، أما السكاكي فذهب إلى أن تشبيه التمثيل لا ينبغي أن يكون وجه الشبه فيه مفرداً بل لا بد أن يكون هيئة منتزعة من متعدد يقول: «واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً غير حقيقي وكان منتزعاً من عدة أمور خص باسم التمثيل كالذي في قوله:

إصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الحَسُودِ ... فَإنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
فَالنَّارُ تأكُلُ نَفْسَهَا ... إنْ لَمْ تَجِدْ مَا تأكُلُهْ

فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته بالنار التي لا تُمَدُّ بالحطب، فيسرع فيها الفناء ليس إلا في أمر متوهم له وهو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه في المقاولة مع علمك بتطلبه إياها عسى أن يتوصل بها إلى نفثة المصدور من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلاك وإنه كما ترى منتزع من عدة أمور، وكالذي في قوله(٢):

وإنَّ مَنْ ادبْتَهُ فِي الصِّبَا ... كالعُودِ يُسقَى المَاءَ في غَرْسِهِ
حتَّى تَرَاهُ مُورِقَاً نَاضِرَاً ... بَعْدَ الذي أبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

فإن تشبيه المؤدَّب في صباه بالعود المسقي، أو أن الغرس المؤنق بأوراقه ونضرته ليس إلا فيما يلازم كونه مهذب الأخلاق، مرضي السيرة، حميد الفعال، لتأدية المطلوب بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه، وكمال استحسان حاله، وإنه – كما ترى – أمر

(١) علم البيان/ عبد العزيز عتيق ص ٦٢.
(٢) مفتاح العلوم ص ١٤٨.

تصوري لا صفة حقيقية، وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور...».

«... وكذا الذي في قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة ٥] فإن وجه الشبه بين أحبار اليهود الذين كُلفوا العمل بما في التوراة ثم لم يعملوا بذلك وبين الحمار الحامل للأسفار وهو حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء بالانتفاع به مع الكد والتعب في استصحابه وليس بمشتبه كونه عائداً إلى التوهم ومركباً من عدة معان»[١].

المذهب الثالث: مذهب صاحب الايضاح الخطيب القزويني:

جاء الخطيب القزويني فلخصّ مفتاح السكاكي، ولكنه خالفه في بعض القضايا البلاغية، ومن القضايا التي خالفه فيها قضيتنا التي نتحدث عنها، فهو يرى أن التمثيل لا ينبغي أن يكون وجه الشبه فيه مفرداً - وبهذا يتفق مع السكاكي في مخالفة الشيخ عبد القاهر- ولكنه يرى بعد ذلك أننا لا ينبغي أن نقتصر في التمثيل على وجه الشبه العقليّ المركب، فهناك صور حسية بديعة لوجه الشبه حريّ بها أن يزيّنَ بها التمثيل.

دائرة التمثيل عند الخطيب - إذن - أوسع منها عند السكاكي، فإذا كان السكاكي يقتصر في التمثيل على كون وجه الشبه صورة عقلية، فإن الخطيب يجعل من التمثيل الصورة الحسيّة كذلك، وهذا الذي استقرت عليه كلمة البيانيين لذا فهو المعتمد المرجح، وإليك بيان ذلك.

توضيح لما سبق:

ولعلك الآن تستطيع أن تفرق بين هذه الآراء الثلاثة، وإليك زيادة بيان لتستقر القضية في نفسك استقراراً تاماً.

(١) «الحجة كالشمس في الظهور»، «النظرة كالسهم نفوذاً»، هذا من التمثيل عند الشيخ؛ لأن وجه الشبه فيه يحتاج إلى تأويل فالظهور في الحقيقة صفة للشمس، والنفوذ صفة للسهم. وليس تمثيلاً عند صاحب المفتاح، ولا عند صاحب التلخيص؛ لأن وجه الشبه فيه مفرد، وهما يشترطان الصورة المنتزعة في وجه الشبه.

(٢) وَقَدْ لاَحَ في الصُّبْحِ الثُّريَا لِمَنْ رأى كَعُنْقُودِ مُلاَحِيَّةٍ حِينَ نَوَّرَا

---

(١) مفتاح العلوم/ لأبي يعقوب السكاكي ص ١٤٨ - ١٤٩.

وقول ابن المعتز[1]:

قَدِ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدْ ... بَشَّرَ سُقْمُ الهِلَالِ بِالعِيدِ

يَتْلُو الثُّرَيَّا كَفَاغِرٍ شَرِهٍ ... يَفْتَحُ فَاهُ لأَكْلِ عُنْقُودِ

هذه التشبيهات جميعها ليست بتمثيل عند الشيخ عبد القاهر، ولا عند السكاكي كذلك؛ لأن وجه الشبه فيها حسي، ولكنها تمثيل عند الخطيب، لأن وجه الشبه - وإن كان فيها محسوساً - إلا أنه صورة منتزعة من متعدد.

(٣) قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثُمَّ لم يحملوها كَمَثَلِ الحمارِ يحملُ أسفاراً﴾ [الجمعة ٥]، وقول ابن المعتز[2]:

إصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الحَسُودِ ... فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ

فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

الآية الكريمة والبيت تمثيل عندهم جميعاً لأن وجه الشبه فيهما صورة عقلية.

واعلم أن الشيخ حينما تكلم عن التمثيل لم يكن علم البيان قد استقر على ما هو عليه، وكان لا يزال في طور نموّه، ولهذا نجد الشيخ تارة يمثل للتمثيل بما عدّوه فيما بعد من الاستعارة التمثيلية. وإذ قد عرفت هذا فإن الذي استقر عليه البيانيون فيما بعد هو ما ذهب إليه الخطيب من أن تشبيه التمثيل ما كان وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، محسوسة كانت الصورة أم معقولة، ذلك لأن هناك ابداعاً في كثير من الصور الحسية تتفاعل معها النفوس، فتجد فيها ضالتها وبغيتها، وسنقيم لك الشواهد على ذلك بما نذكره لك من أمثلة ونمتعك به من كلام مؤثر بليغ وصور خلاّبة جذّابة.

(١) ديوانه ٣/٨٧، الصناعتين ١٩٤.

(٢) ديوانه ٤/٣٧٥، نهاية الأرب ٣/١٠٠.

التشبيه التمثيلي كما استقرت عليه أقوال البيانيين

قد قدمنا لك – من قبل – حينما حدثناك عن أقسام التشبيه من حيث طرفاه، بعض الأمثلة عن التشبيه المركب، وهذا سيعينك على فهم التمثيل وتذوقه، راجع تلك الأبيات التي ذكرناها هناك:

كَأَنَّمَا المَرِّيخُ والمُشْتَري ... قُدَّامَهُ فِي شَامِخِ الرِّفْعَةْ

مُنْصَرِفٌ بِاللَّيْلِ عَنْ دَعْوَةٍ ... قَدْ أُسْرِجَتْ قُدَّامَهُ شَمْعَةْ

كَأَنَّهُ وَكَأنَّ الكَأْسَ فِي فَمِهِ ... هِلالُ أوَّلِ شَهْرٍ غَابَ فِي شَفَقِ

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوقَ رُؤوسِنَا ... وأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَواكِبُهُ

وستجد أن هذه التشبيهات جميعاً كان فيها كل من المشبه والمشبه به صورة خاصة، ففي البيت الأول. المشبه (المرّيخ والمشتري يسير أمامه)، والمشبه به (منصرف من دعوة في جنح الليل يسير وقد أُسْرجت أمامه شمعة). والمشبه في البيت الثاني: (صورة انسان وسيم وقد دخل بعض الكأس بين شفتيه)، والمشبه به (الهلال وقد غاب في الشفق)، والمشبه في البيت الثالث: – كما عرفت – (مثار النقع في ساحة الوغى والسيوف ذات اللمعان تتساقط فيه)، والمشبه به (الليل المظلم الذي تتهاوى فيه الكواكب).

ووجه الشبه في هذه جميعها صورة منتزعة من أشياء متعددة؛ فوجه الشبه في البيت الأخير صورة اجرام ذات لمعان تتساقط في ظلام حالك، ووجه الشبه في البيت الثاني صورة شيء أبيض غيّب في شيء من الحمرة، وفي البيت الأول. صورة جرم كبير يتقدمه شيء مضيء.

واستمع إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة ٥]، فالمشبه اليهود وقد كلفوا بالتوراة والقيام بما فيها من تكاليف فيها الخير لهم؛ ولكنهم اعرضوا عنها ولم ينتفعوا بها؛ والمشبه به: الحمار يحمل الأسفار الثمينة النفيسة المفيدة، ولكن ليس له منها إلا التعب والاجهاد، ووجه الشبه صورة منتزعة من متعدد: صورة من هُيئت له نفائس الأشياء فلم يزدد بها إلا تعباً دون أن يحصل على فائدة. استمع إلى قول كثير(١):

---

(١) نهاية الأرب ٧٨/١، المطول ٣٢٦، اسرار البلاغة ص ٩٨ تحقيق هـ. ريتر.

لَقَدْ أطْمَعَتْنِي بِالْوِصَالِ تَبَسُّمَاً وَبَعْدَ رَجَائِي أعْرَضَتْ وَتَوَلَّتِ
كَمَا أبْرَقَتْ قَوماً عِطَاشَاً غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْهَا أقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فهو كما تراه في شكواه وقد أطمعته محبوبته بالوصال لما رأى من تبسمها وبشاشة وجهها، ولكنه حينما منّى نفسه بالرجاء تركته وأعرضت عنه، فما مثله إلا كمثل قوم عطاش وقد رأوا غمامة في السماء فأيقنوا بالمطر الذي سيذهب ظمأهم، ولكنها سرعان ما انقشعت فما زادهم ذلك إلا تألماً وحسرة، ويمكنك أن تستخرج الصورة التي هي وجه الشبه (صورة من أيقن بالوصول إلى الهدف بعد أن بدت أسبابه ومقدماته ولم يبق بينه وبين ما يريد إلا قيد أنملة فتبددت آماله، وضاعت أمانيه). واستمع إلى قول الشاعر:

دَانٍ إلى أيْدِي العُفَاةِ وَشَاسِعٌ عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّدَى وَضَرِيبِ[1]
كَالْبَدْرِ أفْرَطَ فِي العُلُوِّ وَضَوْءُهُ لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

فهو يشبه الممدوح وهو قريب إلى سائليه، ينالون من عطاياه، ويسعدون بوجوده؛ ولكنه مع هذا القرب بعيد في منزلته ورفعته وعلو شأنه، يشبهه بالبدر وقد أفرط في العلو ولكن ضوءه قريب لأولئك السارين في جنح الليل، ووجه الشبه صورة ذلك الشيء القريب من ناحية ولكنه البعيد من ناحية أخرى. ويقول أبو فراس[2]:

والمَاءُ يَفْصِلُ بَيْنَ رَوْضِ الزَّهْرِ فِي الشَّطَّيْنِ فَصْلا
كَبِسَاطِ وَشْيٍ جَرَّدَتْ أيْدِي القُيُونِ عَلَيْهِ نَصْلا

يشبه حال ماء الجدول، وهو يجري بين روضتين على شاطئيه حلاّهما الزهر البديع ألوانه، منبثاً بين الخضرة الناضرة، بحال سيف لمّاع لا يزال في بريق حدته وقد جرده القيون على بساط من حرير مطرز، ووجه الشبه وجود بياض مستطيل حوله اخضرارٌ فيه ألوان مختلفة. ويقول ابن المعتز[3]:

قَدِ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدْ بَشَّرَ سُقْمُ الهِلالِ بالعِيدِ
يَتْلُو الثُّرَيَّا كَفَاغِرٍ شَرِهٍ يَفْتَحُ فَاهُ لأكْلِ عُنْقُودِ

(١) الضريب: المثل والنظير، وعطفه على الندّ عطف تفسير، سبق توثيق البيت ص ١٩.
(٢) سبق البيتان ص ٣٩.
(٣) سبق هذا البيت ص ٦٥.

فشبه صورة الهلال والثريا أمامه بصورة شره فاتح فاه لأكل عنقود من العنب، ووجه الشبه صورة شيء مقوس يتبع شيئاً آخر مكوناً من أجزاء صغيرة بيضاء ويقول ابن الرومي[(١)]

ما أنْسَ لا أنْسَ خبّازاً مَرَرْتُ بِهِ ... يَدْحو الرُّقَاقَةَ وشْكَ اللَّمْحِ بالبَصَرِ

مَا بَيْنَ رُؤْيَتِهَا في كَفِّهِ كُرَةً ... وَبَيْنَ رُؤْيَتِهَا قَوْرَاءَ كالقَمَرِ

إلاّ بِمِقْدارِ مَا تَنْداحُ دَائِرَةٌ ... في صَفْحَةِ المَاءِ تَرْمِي فِيهِ بِالحَجَرِ

يشبه حال عجينة الرقاقة في يد الخباز تكون في أول أمرها كرة صغيرة ثم تنبسط وتستدير بسرعة بحال دائرة الماء الناشئة من القاء حجر فيه، تكون في أول أمرها صغيرة ثم تنداح سريعاً، ووجه الشبه صورة شيء يبدو في أول أمره صغيراً مستديراً ثم يأخذ في الاتساع والانبساط وشيكاً. وقال في الشيب[(٢)]:

أوّلُ بَدْءِ المَشِيبِ وَاحِدَةٌ ... تُشْعِلُ مَا جَاوَرَتْ مِنَ الشَعَرِ

مِثْلُ الحَرِيقِ العَظِيمِ تَبْدأُهُ ... أوّلَ صَوْلٍ صَغِيرةُ الشَّرَرِ

يشبه حال الشيب يبتدئ بشعرة تؤثر فيما جاورها من الشعر الأسود فيشيبُ جميعاً بحال الحريق العظيم تبدؤه شرارة صغيرة، ووجه الشبه صورة شيء يبدو في أول الأمر صغيراً ثم لا يلبث أن ينتج أمراً عظيماً خطيراً، وقال أبو تمام في مغنية تغني بالفارسية[(٣)]:

وَلَمْ أَفْهَمْ مَعَانِيَهَا وَلكِنْ ... وَرَتْ كَبِدي فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا

فَبِتُّ كَأنّنِي أعْمَى مُعَنّىً ... يُحِبُّ الغَانِيَاتِ وَلا يَرَاهَا

يشبه الشاعر حاله وقد أثار نغمُ المغنية بالفارسية في نفسه كامنَ الشوق وهو لا يفهم لغتها، بحال الأعمى يهوى الغانيات وهو لا يرى شيئاً من حسنهن، ووجه الشبه صورة قلب يتأثر وينفعل بأشياء لا يدركها كلّ الادراك.

---

(١)ديوانه ٢/٢٧٧.

(٢) ديوانه ٢/٢١٠.

(٣) نُسبا لأبي تمام في زهر الأدب ١/١٦١ وفيه قوله – أبي تمام – إنه أخذ هذا المعنى من بشار بن برد في قوله:

يا قومُ أُذْني لبعض الحيِّ عاشقة ... والأُذْنُ تَعْشَقُ قَبلَ العَيْنِ أحيانا

ويقول آخر:

قالوا لِمَنْ لا تَرَى تُهدي؟ فقُلت لهم ... الأذْنُ كَالعَيْنِ تُوفي القَلْبَ مَا كَانَا

وهما ليسا في ديوان أبي تمام.

ويقول آخر في صديق عاق:

إنّي وإيَّاكَ كَالصَّادِي[1] رأى نَهَلاً ... وَدُونَهُ هُوَّةٌ يَخْشَى بِهَا التَّلَفَا
رأى بِعَيْنَيْهِ مَاءً عَزَّ مَوْرِدُهُ ... وَلَيْسَ يَمْلِكُ دُونَ المَاءِ مُنْصَرَفَا

يشبه الشاعر حاله مع صديقه العاق وقد دعا الوفاء الشاعر إلى الابقاء على مودة هذا الصديق، ودعاه ما رآه فيه من العقوق إلى قطعه، وهو بين الأمرين حائر ولكنه يصغي أخيراً إلى داعي الوفاء، يشبه حاله مع صديقه بحال عطشان رأى ماء، وتحول بينه وبين الشرب منه هوّة يخشى منها الهلاك على نفسه لو دنا منه فوقف حائراً ولكنه لا يستطيع الانصراف عن الماء، ووجه الشبه صورة من يريد شيئاً فتحول العقبات دونه فتدركه الحيرة ولكنه لا ييأس.

ويقول المتنبي في وصف أسد[2]:

يَطَأُ الثَّرى مُتَرَفِّقَاً مِنْ تِيهِهِ ... فَكَأَنَّهُ آسٍ يجُسُّ عَلِيلاَ

يشبه هيئة الأسد وهو يمشي على الثرى برفق من شدة زهوه بنفسه بهيئة الطبيب الذي يَجُسُّ المريض برفق، ووجه الشبه صورة شيء يمس شيئاً آخر في رفق وتؤدة.

ومن ذلك قولك: «المتردد في الأمور يجذبه رأي هنا ورأي هناك كريشة في مهب الريح» وقولك: «الكلمة الطيبة لا تثمر في النفوس الخبيثة كالحبة الصالحة لا تنبت في الأرض السَّبِخَة» ومنه قولك: «العالم المتواضع لا يزيده تواضعه إلا رفعة وشرفاً كالشعلة إذا نُكِّست زادت اشتعالاً»، «المذنب لا يزيده الصفح إلا تمادياً كاللئيم لا يزيده الاحسان إلا تمرداً».

هذا هو التشبيه التمثيلي يقع من النفس خير موقع، وقد تنافس فيه الشعراء والبلغاء – كما رأيت – .

أما غير التمثيل: فهو ما لم يكن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، بل يكون وجه الشبه فيه امرأ واحداً وربما يكون أكثر من شيء واحد فمثال الأول: قول امريء القيس[3]:

ولَيْلٍ كَمَوجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ ... عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِي

فوجه الشبه هنا الشدة والصعوبة ومثال الثاني:

(١) الصادي: العطشان.
(٢) ديوانه ٣/٤٤٣.
(٣) ديوانه ص ١٠٧

أنْتَ نَجْـمٌ فـــي رِفْعَـــةٍ وَضِيـــاءٍ   تَجْتَليكَ العُيُـــونُ شَرْقـــاً وغَـــرْبـــا

فوجه الشبه هنا الرفعة والضياء إلا أننا يمكن أن نستغني بأحدهما عن الآخر أو نقدم أحدهما على الآخر وهذا ممتنع في تشبيه التمثيل

التشبيه الضمني:

ويسمى التشبيه الكنائي.

عرفت صوراً كثيرة للتشبيه – فيما مضى – فتارة يأتي على صورة مبتدأ وخبر، وتارة على صورة المضاف والمضاف إليه، وتارة على صورة مصدر، وأخرى في صورة حال إلى غير ذلك – مما عرفت من قبل –، ولكن هذا النوع من التشبيه لا يأتي على أي صورة من تلك الصور المعروفة، إلا أنك تلمح معناه وأنت تقف تتأمل في البيت من الشعر، أو في الجملة من النثر، لتستخرج التشبيه من بين ثناياهما، من أجل ذلك سمي ضمنياً لأنه لا يذكر صراحة في الكلام.

ولا بد من أن ننبهك هنا على قضيةٍ ذات شأن وهي أن التشبيه الضمني ليس قسيماً لتشبيه التمثيل أي ليس أحدهما يقابل الآخر(١)، ذلك لأن النظر في تشبيه التمثيل إلى وجه الشبه، سواء كان التشبيه صريحاً أم غير صريح. أما النظر في التشبيه الضمني فهو من هذه الحيثية – أعني كونه غير صريح – وستدرك هذا حينما نشرح لك هذا النوع من التشبيه فتحسن تنوقه وتنجذب نفسك إليه:

يقصد المتكلم إلى هذا الأسلوب من التشبيه حينما يأتي بمعنى من المعاني وقضية من القضايا ثم يرى أن يأتي لها ببرهان ودليل ويقيم عليها الحجة، ولقد فطن الشيخ عبد القاهر – رحمه الله – بصفاء ذهنه، وثاقب فكره، إلى هذا الاسلوب، حيث قسم التمثيل إلى قسمين:

الأول: الذي يجيء اعقاب المعاني.

الثاني: أن يبرز المعنى باختصار في معرضه ويُنْقَل عن صورته الأصلية إلى صورته.

ومن القسم الأول التشبيه الضمني، صحيح أن القسم الأول لا يشمل التشبيه الضمني وحده – كما توهمه عبارة بعض الكاتبين المحدثين(٢)– إنما يشمله وغيره، فالتشبيه الذي يأتي عقب المعاني نوعان:

أحدهما: التشبيه الضمني.

وثانيهما: كل تشبيه صريح جاء عقب المعنى ومنه البيت الذي تقدم معنا من قبل(٣):

دَانٍ إلى أَيْدِي العُفَاةِ وشَاسِعٌ   عَنْ كُلِّ ندٍّ فِي النَّدى وَضَرِيب

---

(١) كالاسم والفعل فكلٌ منهما قسيم للآخر.

(٢)انظر البلاغة والتطبيق.

(٣) تقدم هذا البيت ص ١٩ ، ٦٧.

فلقد تم المعنى في هذا البيت ثم جاء بالتشبيه بعد تمام المعنى وهو قوله:

كَالبَدْرِ أَفْرَطَ فِي العُـــلوِّ وَضَـــوْؤُهُ   لِلعُصْبَـــةِ السَّارِيـــنَ جِـــدُّ قَـــرِيبِ

التشبيه الذي يأتي عقب المعنى - إذن - منه ما هو ضمني ومنه ما هو صريح، والذي يعنينا الآن هو النوع الأول: كل تشبيه ضمني اذن لا بد أن يأتي عقب المعنى أي عقب تمام المعنى الذي يريده المتكلم ليكون بمثابة دليلٍ وبرهان. استمع إلى قول أبي تمام[(١)]:

وإِذَا أَرَادَ اللّـــهُ نَشْـــرَ فَضِيلَـــةٍ   طُوِيَـتْ، أَتَاحَ لَهـــا لِسَـــانَ حَسُـــودِ

وهنا تجد أن المعنى الذي قصده الشاعر قد تمّ وكمل ولكنه أحس بأن هذا القول يحتاج إلى حجة، فانىّ للحسود أن يكون سبباً في انتشار الفضيلة التي طويت وغُيِّبت؟ وكأنما الأمر يحتاج إلى حجة تصدقه فأعقبه بالبيت الآخر:

لَوْلا إِشْتِعَالُ النَّـارِ فِيـمَا جَـاوَرَتْ   مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيْـبُ عَـرْفِ العُـوْدِ

ألا ترى أن الشاعر هنا قد أزال من نفسك كل ما علق فيها من شك، وأزاح عنها كل شبهة، ولم تَرْتَبْ بأن لسان الحسود يكون سبباً في نشر الفضيلة المغيَّبة، ألا ترى هذه النار التي تأكل الأخضر واليابس أكانت تفوح رائحة العود الزكي ويُعرف الجيد من غيره لولا اشتعال النار في كل ما حوله؟، وأنت تدرك أن هذا التشبيه لم يأت على صورة من الصور التي عرفتها من قبل، ولكنك تلمح بكل وضوح أن هنا تشبيهاً رائعاً بديعاً لا يقل أثراً في النفس عن التشبيه الصريح، واستمع إلى قول الآخر[(٢)]:

إِصْبِرْ عَلَـــى مَضَـــضِ الحَسُـــودِ   فَـــإِنَّ صَبْـــرَكَ قَـــاتِـلُـــهْ

ولا ريب أن المعنى الذي يقصده الشاعر معنى تام ليس فيه نقص، ولكن كيف يتأتى أن يقتل الحاسد بصبر المحسود، وهنا يبرز الشاعر لك ما يبدد كل ما يدور حول هذا المعنى من شُبه فيقول:

فَالـــنارُ تَـــأْكُـــلُ بَعْضَـــهـا إِنْ   لَــم تَجِـدْ مَـــا تَـــأْكُـــلُـــهْ

ألست تجد أن هذا الدليل يشرق في نفسك، بهذا الأمر المشاهد المحسوس. أليست هذه النار يأكل بعضها بعضاً؟، إن لم تجد ما يذكي أُوَارَها[(٣)]، ويزيد اشتعالها؟ وهذا هو شأن الحسود يقتله حسده إذ لم يبلغ ما يتمناه.

(١) ديوانه ص ٨٥، ديوان المعاني ٤٦/١.
(٢) وهو ابن المعتز، ديوانه ص ٥٧٩.
(٣) وَأْرَ النار: عمل لها موقداً.

وهذا الرافعي – رحمه الله – يذكر في أحد كتبه معاتباً شاكياً:

يا مَنْ عَلى الحُبِّ يَنْسَـانا ونَذْكُـرُه　　　لَسَـوْفَ تَذْكُـرُنا يَـوْمَـاً ونَنْسَـاكَ

ولقد تمت القضية التي يريد الشاعر بما لا مزيد عليه، ولكن هل يتأتى ذلك؟ وكيف؟ وهل ينسى المحب؟ وهل يتذكر السالي؟ وتأتي الحجة لتبدد كل ما في هذه التساؤلات من غموض كما يبدد الفجر ظلمة الليل. فاستمع إليه يقول بعد ذلك:

إنّ الظَّلامَ الَّذِي تَجْلُـوهُ يـا قَمَـرُ　　　لَهُ صَبَـاحُ، مَتَـى تُدْرِكْـه أخفَـاكَ

أليس القمر هو الذي يجلو الظلمة، ولكن ماذا يكون بعد ذلك؟ إن للظلمة صباحاً سيُخفي هذا القمر تماماً حينما يدركه، ألا تجد في التشبيه الضمني الاقناع والامتاع معاً؟

واستمع إلى قول فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة أبي العلاء المعري[1]:

وإنْ كُنْتَ تَبْغي العَيْشَ فابْـغِ تَوَسُّطاً　　　فَعِنْـدَ التَنَاهِـي يَقْصُـرُ المُتَطَـاوِلُ

ومن الذي يقتنع بمثل هذا؟ ومن الذي يرضى بالتوسط؟ ومن الذي لا يحاول أن يصعد إلى القمة؟ وما بال أبي العلاء يطلب منّا ما تأباه نفوسنا، ولكن لنتمهل خير من أن نتعجل فماذا عنده بعد ذلك:

تُوفَّى البُدُورُ النَّقْصَ وهـيَ أهِلَّـةٌ　　　ويُدْرِكُهَا النُّقْصَـانُ وَهْـيَ كَوامِـلُ

هذا البدر الذي لا يخفى – كما يقولون – يكون أبعد ما يكون عن النقص وهو هلال ولكنه حينما يكمل ويصبح تِمّاً[2] يتلألأ ويسطع. هناك يعرض له النقص.

واستمع إلى أبي تمام[3]:

وطُولُ مُقَامِ المَرْءِ في الحَيِّ مُخْلِـقٌ　　　لِديبَاجَتَـيْهِ فَاغْتَـرِبْ تَتَجَـدَّدِ

ثم يأتيك بالدليل لهذه القضية وهو المشبه به:

فَإنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيـدَتْ مَحَبَّـةً　　　إلـى النَّاسِ أنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِـمْ بِسَرْمَـدِ

وقد يكون في تعليل الشاعر ما يبعث الأمل، ويدفع اليأس، ويستدرّ به عطف المخاطب،

(١) ديوان سقط الزند ص ٢٢٨، قصيدة (إلا في سبيل المجد).
(٢) تمُ تِمّاً: أي كمُل واشتد وصلُب، والمراد: أصبح تاماً كاملاً
(٣) ديوانه ١٠٠–١٠١، الموازنة ٣١ يقول إن الرجل إذا استمرت إقامته بين أهله وعشيرته ملّوه وربما كرهوه، ولكنه إذا أقام حيناً واغترب حيناً آخر فإنهم يزدادون به تعلقاً وبه محبةً.

واستمع إلى قول المتنبي[١]:

ومنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنّي ... اسرَعُ السُّحْبِ في المَسِيرِ الجِهامُ

هل تصدق أن الإبطاء في العطاء من الخير؟ ومن ذا الذي يمكن أن يقنع بهذا القول؟ ولكن الشاعر استطاع أن يقنع نفسه ويرضي ممدوحه * أسرع السحب في المسير الجهام* إن أكثر السحاب سرعة ذلك الذي ليس فيه ماء. واستمع إلى قول البحتري[٢]:

وقَدْ زَادَها إفْراطَ حُسْنٍ جِوَارُها ... خَلائِقَ أصْفَارٍ مِنَ المَجْدِ خُيَّبِ

وَحُسْنُ دَرَارِيِّ الكَوَاكِبِ أنْ تُرَى ... طَوالِعَ في دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبِ

يقول إن مما زاد الممدوح فضلاً وزاد اخلاقه حسناً مجاورته لاقوام بعيدين عن الخير خُيَّبٍ من المجد والمروءة وكذلك النجوم تزداد تألقاً وسناً حينما تظهر في ظلمة الليل الحالك.

ومن هذا قول المتنبي يمدح سيف الدولة[٣]:

فَإنْ تَفُقِ الأنَامَ وأنْتَ مِنْهُمْ ... فَإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

كيف يفوق الأنام وهو منهم؟ ولكن أليس المسك من دم الغزال، وأين هذا من ذاك؟ وقريب من هذا:

* وما أنا مِنْهُمُ بالْعَيْشِ فيهم *

ولكن كيف لا تكون منهم وأنت بينهم؟ ويردّ على تساؤلك هذا بقوله:

* ولكِنْ مَعْدِنُ الذَهَبِ الرُّغَامُ *

إن مستقر الذهب في التراب، فهل نستطيع أن نقول إن الذهب تراب؟

والحقُّ أن هذا الاسلوب من التشبيه فيه عمق الفكرة، وغزارة المعنى، وحرارة الامتاع، ووضوح الاقناع، فكّر في نفسك، وفي حالك وحال امتك، وقد أرادت أن تخفي مرارة الضيم، ولوعة الأسى، وألم الهزيمة، أرادت أن تخفي ذلك كله لتقنع بفاخر الثياب، والرياش، وشامخ البنيان، وأصبح الهوان في حياتها أمراً ليس ذا بال، وكأنما يخاطبها الشاعر قديماً بقوله:

(١) ديوانه ٤/٢٢٤، السيب: العطاء والمعروف ونحوه.

(٢) ديوانه ١/١١٨، قصيدة (شكرتك عن قومي وقومك)، أصفار من المجد: خالون من المجد.

(٣) ديوانه ٣/٢٠.

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ ... وهَلْ يَروقُ دَفيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ؟

حقاً إن ذا الضيم لا ينبغي أن يعجبه ما يتمتع به من مُتع، ويقيم الشاعر البرهان على ذلك:

* وهل يروقُ دفيناً جودة الكفن *

وماذا يضير الدفين أيًّا كان كفنه. وشبيه بهذا قول الآخر:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوانُ عَلَيْهِ ... ما لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إيِلامُ

وقد يتوسل الشاعر بهذا الاسلوب بما أعطي من بيان فيتوصل إلى ما يريده وهو يقيم الحجة والبرهان. استمع إلى أبي تمام[1] وهو ينفي عن نفسه عيب الفقر، ويبين لليلاه أنها لا ينبغي أن تنكر عليه فقره، وخلو يده من المال، فذلك ليس عيباً في الرجال:

* لا تُنْكِري عَطَلَ الكَريم مِن الغِنَى *

ولكن لماذا؟ فيبين أن ذلك أمر طبعي بدهي، أن يكون ذو المجد متصفاً بضيق ذات اليد.

وهذا المعنى في قول جؤية بن النضر[2]:

لا يَأْلَفُ الدِّرْهَمُ المَضْرُوبُ صُرَّتَنا ... لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْها وَهْوَ مُنْطَلِقُ

يقول:

لا تُنْكِري عَطَلَ الكَريمِ مِنَ الغِنَى ... فَالْسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكانِ العَالِي

وإذا كانت لا ينبغي أن تنكر عليه الفقر فينبغي أن لا تنكر كذلك هذا الشيب الذي لاح في رأسه، فجعلها تعرض عنه وهو لا يزال فتىً في ضحوة عمره:

قَدْ يَشِيبُ الفتى ولَيْسَ عَجِيباً ... أنْ يُرَى النَّوْرُ في القَضِيبِ الرَّطِيبِ

فإذا كان النور يرى في القضيب الرطيب فلماذا تنكر على الفتى أن يشيب؟!

ومن التشبيه الضمني قول ابن الرومي[3]:

وَيْلاهُ إنْ نَظَرَتْ وَإنْ هِيَ أعْرَضَتْ ... وَقْعُ السِّهَامِ وَنَزْعُهُنَّ ألِيمُ

---

(١) ديوانه ص ٢٤٦.

(٢) الايضاح ١١٣/٢.

(٣) ديوانه: ٤٥٧/٣، قصيدة (قلبي سقيم).

ذلك هو اسلوب التشبيه الضمني، ومما سبق يتبين أن هذه التشبيهات كلها أو جلها من قسم التمثيل، كما يتبين لنا كذلك أن لهذا الاسلوب من المحاسن الكثيرة حيث يشترك في تذوقه الفكر والوجدان معاً، ولا عجب في ذلك فهو ضمني، زاده نقابه الذي ينتقبه حسناً وبهاءً.

أسباب تأثير التشبيه:

وقد تتساءل هنا عن سبب تأثير التشبيه في النفوس، وما يحدثه فيها من أُنْس، وقبل أن نبين لك هذه الأسباب ونشرحها، يجدر بك أنْ تعلم أن هناك جهات كثيرة تشترك في التشبيه.

(١) وأول هذه الجهات براعة المتكلم، وهذه البراعة تقوم على دعائم وأسس:

أ- من هذه الدعائم الخيال الخصب.

ب - العاطفة الجياشة.

جـ - الذهن الذي يجعل المتكلم قادراً على الاستنتاج ليجمع بين الأشياء، إذ إن المتكلم ليس هو الذي يوجد الرابطة بين الأشياء، وينشيء ما بينها من وجوه اتصال، واتفاق، ومناسبة، انما وظيفته أن يستنتج الروابط والصلاة بين الأشياء المختلفة المتنافرة.

(٢) وثاني هذه الجهات التي تشترك في تأثير التشبيه الحسّ، ومن البدهيّ أن تكون النفس أكثر تأثراً بالمحسوس من المعقول، ولذا وجدنا المشبه به لا يكون في الغالب إلاّ من المحسوسات.

(٣) وقد يكون من الجهات التي تشترك في تأثير التشبيه: العقل، ومع ذلك، لا يستقل وحده في تأثير التشبيه، إنما يكون مبنيًّاً على الحسّ، مع أن الحسّ والعقل، كليهما لا يكفيان ولا يفيان لكي يكون التشبيه مقبولاً وجيّداً، بل لا بدّ أن تشترك معهما النفس كذلك، وهذا كلام مجمل لا بدّ له من تفصيل فيما بعد إن شاء اللّه.

أولاً: ولعلك تدرك - بعد هذا - أن من أول أسباب تأثير التشبيه أنه ينقلها - النفس - من المعقول إلى المحسوس، ومن الفكرة إلى الفطرة، ومن الغموض إلى البديهة. ومن شأن هذا أن يزيل ما فيها من شكوك، ويذهب ما فيها من أوهام، فليس الخبر كالعيان - كما يقولون - ولا تنس أن صلة النفس بالمحسوسات أسبق من صلتها بالمعقولات.

ثانياً: ومن أسباب تأثير التشبيه ما في التشبيه من الجمع بين الأشياء المتباعدة، وفي هذا السبب من الطرافة ما تستريح له النفس.

ثالثاً: ومن أسباب تأثير التشبيه - وهو ناشيء عما قبله - حاجته إلى الفكر، وفي هذا السبب لذة تسعد بها النفس، ويستريح لها القلب. ولنمثل لك الآن بما يبين لك هذه الأسباب ويوضحها:

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد ١٤] فالآية الكريمة تبين أن الذين يدعون من دون الله لا يحصلون على شيء من تعبهم وجهدهم، لأن الذين يُدعَون لا يستجيبون لهم بشيء، وهذا المعنى - مع كونه مسلَّماً غير مشكوك فيه - إلاأن التشبيه جيء به ليزيد هذا المعنى تثبيتاً وتاكيداً، وتقريراً في النفس، وهو من المعاني المحسوسة المرتكزة في البديهة، إن من يبسط كفيه إلى الماء - طمعاً في أن يصل الماء إلى فيه ليشرب ويبلّ ظمأه -، لن يصل إلى ما يريد، ولن يحصل على بغيته.

استمع إلى قول ابن لنكك[1]:

إذا أَخُو الحُسْنِ أَضْحَى فِعْلُهُ سَمِجَـــاً رَأيتَ صورتَه مِـــنْ أَقْبَـــحِ الصُـــوَرِ

وهذا المعنى مما تقبله النفس ولا ترتاب فيه، ولكن الشاعر أراد أن يقرر لك هذا المعنى ليثبت في نفسك خير تثبت، ويتاكد خير تأكيد، فجاء في البيت الثاني وهو قوله:

وَهَبْهُ كَالشَّمْسِ في حُسْنٍ أَلَـــمْ تَرنَـــا نَفِرُّ مِنها إذَا مَـــالَتْ إلـــى الضَـــرَرِ

ألا ترى كيف وضَّح لك الصورة وفصلها؟ وكيف جمع بين الأشياء المتباعدة؟ فأخو الحسن إذا قارف افعالاً مذمومة، فحري أن يهجره الناس، ويبتعدوا عنه، وهذه الشمس في حسنها ودفئها، إذا قويت حرارتها وتأكد ضررها، ابتعد عنها المعجبون بدفئها وسطوعها.

واستمع إلى قول أبي تمام[2]:

وَطُولُ مُقامِ المَرءِ في الحَـــيِّ مُخْلِـــقٌ لِديبَاجَتَيْهِ فَاغْتَـــرِبْ تَتَـــجَـــدَّدِ

وهذا معنى جيد يقول: إن طول مكث المرء في مكان ما، يُنقص من شوق الناس إليه، فيخلَق كما يخلَق الثوب ولم يرد الشاعر أن يلقي إليك هذا المعنى دون أن يدلل له، ويأتي عليه بشواهد من المحسوس فقال:

فإنِّي رَأَيْتُ الشَمْسَ زِيْدَتْ مَحبَـــةً إلى النَّاسِ أنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَـــدِ

فالشمس؛ إنما يزداد الناس حباً لها، وشغفاً بها، لأنها ليس دائمة، بل هي تروح وتجيء، وتغيب وتطلع، وتغرب وتشرق، وإذا كانت المعاني - في الأمثلة السابقة - مؤكَّدة غير مشكوك فيها، وإنما زادها التشبيه تأكيداً وتثبيتاً فإن هناك معاني قد تشك فيها النفس، ولا

(١) اليتيمة ٢/ ٣٣٠، نهاية الارب ١/ ٤٤.
(٢) ديوانه ص ١٠٠- ١٠١.

تطمئن إليها، فيأتي التشبيه ليزيل هذا الشك، كي تطمئن لها النفس، انظر مثلاً إلى قول القائل: (قد يشيب الفتى) وهذا المعنى ربما ينازع فيه بعض الناس، فمن المعلوم أن الشيب إنما هو من شأن أولئك الذي تقدمت بهم السن، وبلغوا من الكبر عتياً، وليس من شأن أولئك الذي لا زالوا في ضحوة العمر وشبابه، ولكن الشاعر أراد أن يزيل هذا الشك من النفس فقال:

قَدْ يَشيبُ الفَتى ولَيْـــسَ عَجِيْبَـــاً ... أنْ يُرى النُّورُ في القَضِيبِ الرَّطِيــــبِ

وخذ قول المتنبي:

** وَمَا أناْ مِنْهُمُ بِالعَيْشِ فِيهِمْ **

وهذ المعنى يصعب على النفس أن تتقبله لأول وهلة، فكيف يُتصور أن من نشأ في قوم ليس منهم؟ فأراد الشاعر أن يزيل ذلكم التوهم وهذا الشك فقال:

وَمَا أنَا مِنْهُمُ بِالعَيْشِ فِيـــهِـــمْ ... وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَـــبِ الرُّغَـــامُ

وخذ قول المتنبي:

فَإنْ تَفُقِ الأنَـامَ - وأنْـــتَ مِنْهُـــمْ - ... فَإنَّ المِسْكَ بَعْـــضُ دَمِ الغَـــزَالِ

فإنك واجدٌ فيه قريباً مما وجَدته في سابقه، إذ كيف يمكن أن يتفوق على الأنام وهو واحد منهم؟ فأراد أن يبرهن لهذا المعنى حتى تطمئن به النفس؛ وذلك بأن المسك وهو من الأشياء الثمينة المحببة إلى النفس ليس إلا من دم الغزال.

وهكذا لو استقرأت الكلام البليغ لوجدت كل تشبيه يؤثر في النفس لا يخلو عن واحد من الأسباب التي ذكرتها لك، وقد تجتمع له كلها أو بعضها، فكثير منه ما ينقلك من المعقول إلى المحسوس وهو السبب الأول، وكثير منها ما يجمع بين الأمور الغريبة فيغدو بحاجة إلى الفكر، استمع إلى قول البحتري[(١)]:

ضَحُوكٍ إلى الأبْطالِ وَهْوَ يَروعُهُـــم ... ولِلسَيْفِ حَدٌّ حينَ يَسْطُـو وَرَوْنَـــق[(٢)]

فانظر كيف جمع بين الضحك والهيبة، وكيف استدل لذلك بالسيف الذي اجتمعت له الحدّةُ واللمعان، وانظر إلى قول أبي الحسن بن مقلة[(٣)]:

---

(١) ديوان البحتري ٢/٧٦.

(٢) رونق السيف: ماؤه وحسنه.

(٣) اليتيمة جـ٣، ص ١٠٠.

لَستُ ذا ذِلَّةٍ إذا عَضَّنِـي الدَّهْـــرُ ولا شَامِـــخَـاً إذا وَاتانِـــي

أَنَارُ في مُرْتَقى نَظَـرِ الحَاسِـــدِ مَـــاءٌ جَارٍ مَـــعَ الإخْـــوَانِ

وأنت تدرك بأن مما يزيد هذه التشبيهات روعة أنْ جمعت بين هذه الأشياء المتباعدة، وربما المتناقضة كذلك.

وقد تتساءل: كيف يكون التشبيه مؤثراً في النفس وهو بحاجة إلى الفكر؟ أليس ذلك متناقضاً مع ما عرفناه من قبل، من أن الكلام البليغ هو ما يكون معناه إلى نفسك أسرع من وصول اللفظ إلى أذنك؟ أليست حاجة التشبيه إلى فكر تدخله في باب التعقيد المنافي للبلاغة؟.

ونجيبك أولاً: بأن الفكر ركيزة أساسية للتمييز بين الكلام المبتذل والكلام الجيِّد، هذا بالنسبة لقائله، وهو كذلك بالنسبة إلى السامع حتى يمتاز الفطن عن غيره.

وأما ثانياً: فإنهم لم يذموا التعقيد من أجل حاجته إلى الفكر، وإنما ذُمَّ التعقيد لما فيه من سوء الترتيب وضعف التركيب من جهة، ولقلة فائدته وثمرته من جهة ثانية.

« وإنما ذم التعقيد لأن صاحبه أساء التعبير عن المعنى، ولم يرتب الألفاظ الترتيب الملائم له، فشاك طريق السامع إليه ووعر مذهبه، وقَسَّم فكره، ووَزَّعَ ظنه، وتركه حائراً لا يدري من أين يتوصل إليه، ولا كيف يطلبه، أما التمثيل وسائر الأساليب البليغة، والكلام المخلَّص من شوائب التعقيد فإن صاحبه يتحرى فيه حسن البيان، ويخلصه من سوء الدلالة فيرتب الألفاظ الترتيب الذي يهدي إلى المعنى ويفتح الطريق للفكر ويمهده وإن كان فيه تعاطف أقام عليه المنار وأوقد فيه الأنوار».

«وخلاصة القول أن المجهود الفكري في التعقيد زائد على ما ينبغي للمعنى، ومنشؤه من عمل المتكلم وسوء عبارته، وثمرته تافهة، وإن المجهود الفكري في التمثيل مناسب للمعنى ومنشؤه لطفه ودقته، وفائدته جليلة ولذلك كان الأول باعثاً على الذمّ، والثاني موجباً للمدح»[(١)].

(١) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير/ تأليف عبد الهادي العدل ص ١٢٥.

التشبيه القريب والتشبيه الغريب

ومما يتصل بموضوعنا الذي نتحدث عنه أن التشبيه منه ما هو قريب مبتذل، ومنه ما هو غريب، وضابط الفرق بينهما:

أن التشبيه الغريب هو: ما لا يُنتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد تلبث وتذكر، وفكر للنفس في الصور التي تعرفها، لأن وجه الشبه في المشبه به مما لا ينزع إليه الخاطر، ولا يقعُ في الوهم بِديهةَ النظرُ إلى المشبه.

أما التشبيه القريب فهو ما ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير حاجة إلى تلبث وتذكر، لأن وجه الشبه في المشبه به مما يسرع حضوره إلى الخاطر عند أول النظر إلى المشبه(١).

وأسباب القرب منها ما يرجع إلى المشبه به، ومنها ما يرجع إلى وجه الشبه، أمّا ما يرجع إلى المشبه به، فهو كثرة تردده على الحواس... وأما ما يرجع إلى وجه الشبه فهو أن يكون مجملاً لا تفصيل فيه، وعلى هذا يمكنك أن تعرف أسباب الغرابة، إذ بضدها تتمايز الأشياء، فأسباب الغرابة:

(١) أن يكون المشبه به مما لا يكثر تردده على الحواس.
(٢) وأن يكون في وجه الشبه تفصيل.

فإذا قلت: «هي كالبدر في الحسن، وكالشمس في الوضاءة»، «وهو كالبحر في الجود، وكالأسد في الشجاعة، وكالليل في الوحشة وكالثعلب في المكر» فإن ذلك كله من التشبيه القريب لأن المشبه به يتردد كثيراً على الحواس ولأن وجه الشبه لا مجال فيه للتفصيل، ولكنّ التشبيه الغريب هو الذي تظهر فيه الروعة، وتلمح فيه الابدا ع، ويتسابق فيه البلغاء، ويزداد به الحسن، وتجد فيه الدّقة في لفظه، والرقة في معناه.

ولكي تتبين ما قلناه نعقد لك موازنة بين بعض الأقوال:

قال عنترة في ورد بن حابس وقد قتل نضلة الأسدي(١):

يُتَابِعُ لاَ يَبْتَغِي غَيْرَهُ ... بِأَبْيَضَ كَالْقَبَسِ الْمُلْتَهِبْ

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٥.
(٢)ديوانه ص ٣٠.

وقال امرؤ القيس[1]:

جَمَعْتُ رُدَيْنِيّاً كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ[2]

يشبه كل منهما السيف باللهب، إلا أن عنترة اكتفى بتشبيهه بالقبس الملتهب فحسب، ولكن امرأ القيس كان أبعد نظرة فكان أكثر ابداعاً، فلقد استعرض في نفسه أوصاف الشعلة شكلها، ولونها، ولمعانها، واضطرابها، ووجد كل ذلك يحقق الشبه، ولكنه رأى شيئاً آخر يقدح فيه - الشبه - ويعيبه، وهو ما في رأس الشعلة من الدخان، فإنه ليس له ما يقابله في رأس السنان فنفى اتصاله باللهب، لكي يؤدي التشبيه كما هو على التحقيق[3].

ومثل هذا قول امرىء القيس[4]:

كَأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَولَ خِبَائِنا وأَرْحُلِنَا الجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقَّبِ

والخباء والرحل: ما يُعمل به من الوبر والصوف على عمودين أو ثلاث، فإن كان على أكثر من ذلك سمي بيتاً، وهو ما تتخذه البادية في حلها وترحالها، والجَزْع بفتح الجيم وسكون الزاي هو الخرز.

والذي يعنينا - هنا - ما لاحظه الشاعر في التشبيه فقد شبه عيون الوحش بالخرز، ولكن في الخرز شيء غير موجود في العيون وهو التثقيب، ففطن الشاعر إلى هذه النكتة في التشبيه فوصف الخرز بأنه غير مثقب، فكان ذلك دليلاً على دقته في تشبيهاته.

ومن التشبيه الغريب قول أبي قيس بن الأسلت[5]:

وقَدْ لاَحَ في الصُبْحِ الثُّرَيَّا لِمَنْ رأى كَعُنقودِ مُلاَحيَّةٍ حِينَ نَوَّرا

وإنما جاءت غرابة هذا التشبيه لما في وجه الشبه من تفصيل، فهو مركب من اللون والشكل لأنه عبارة عن اجتماع اجرام صغيرة بيض، مستديرة، متقاربة، غير متلاصقة، على شكل مثلث ذي قدر مخصوص[6].

(١) العمدة ٢/٥٢، الصناعتين ١٨٧.
(٢) الرُدَيني: نسبة إلى ردينة وهي امرأة كانت تثقف الرماح مع زوجها سمهر، فنسبت إلى كلٌ منهما.
(٣) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ١٦٣.
(٤) ديوانه ص ٢٥، قصيدة (لبانات الفؤاد المعذّب).
(٥) سبق البيت ص ٢٢.
(٦) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ٩.

ومن التشبيه الغريب قول ابن المعتز.

فَجَاءَتْ بِهَا فِي كَأسِـــهَا ذَهَبِيَّـــةً لَهَا حَدَقٌ لَمْ تَتَّصِـــلْ بِجُفُـــونِ

شبّه فقاقيع الخمر بالحدق، في الشكل واللون، وقد نظر الشاعر إلى أوصاف العيون فوجد فيها شيئاً لا يوجد في المشبه، وهو ما يحيط بها من الجفون فنفى اتصالها بها تحقيقاً للشبه، فكان غريباً.

وقال ابن المعتز يصف بازى الصيد(١):

غَدَوْتُ في ثَوْبٍ مِنَ اللّيْلِ خَلَـــقْ بِطَارِحِ النَّظْرَةِ فـــي كُـــلِّ أُفُـــقْ(٢)

ذي مَنْسَرٍ أَقْنَىً إذا شَـــكَّ خَـــرَقْ مُخْتَضِبٍ في كُـلِّ يَـــوْمٍ بِعَلَـــقْ(٣)

فكُلُّ عَظْمٍ مَفْصِـــلٌ إذا عَلِـــقْ وَمُقْلَةٍ تَصْـــدُقُـــهُ إذا رَمَـــقْ

كَأَنَّهـــا نَرْجِسَـــةٌ بِـــلا وَرَقْ يَنْشُبُ في الدِّيَـاجِ حَتَّـى يَـنْفَتِـــقْ

يشبه في الشطر الأول الليل، وقد مزقته تباشير الصباح بالثوب الخلق الممزق، ثم لما أراد تشبيه عين البازى بالنرجسة نظر في أوصافها فوجد فيها شكل العين، (دائرة تحيط بدائرة أخرى مخالفة للونها)، ووجد شيئاً آخر لا نظير له في العين وهو (الورق الأخضر المحيط بها) فنفاه تحقيقاً للتشبيه، ثم وجد عين البازى يحيط بها ريش ناعم منقوش فأراد أن يحقق ذلك في المشبه به فوصف النرجسة بأنها نشبت في الديباج حتى انخرق فبقيت هي في وسطه وهو محيط بها.

وتقرير التشبيه هكذا: شبه عين البازى يحيط بها الريش المنقوش نقشاً جميلاً بنرجسة لا ورق لها، يحيط بها ديباج منقوش كذلك، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اجتماع هذه الأوصاف (الشكل المستدير بين النقش الجميل)(٤).

وقد ينظر في التشبيه إلى الحركة دون شيء آخر، كما في هذا التشبيه، ومنه قول ابن المعتز كذلك(٥):

---

(١) ديوان ابن المعتز ٤/٤١، ديوان المعاني ٢/١٤٠.
(٢) خلق: مهترٍ بالٍ، بطارح النظرة في كلِّ أفق: كناية عن البازي الذي يطرح نظره في كل أفق.
(٣) منسر: منقار، اقنى: الذي ارتفع اعلاه واحدودب وسطه، إذا شك خرق: أي إذا نقر شيئاً خرقه، مختضبٍ في كلِّ يومٍ بعلق: كناية عن تخضب منقاره بدم فريسته على الدوام.
(٤) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ١٦٤، ١٦٥.
(٥) ديوانه ص ١٣٢.

فَكَأَنَّ البَـرْقَ مُصْحَـــفُ قَـــــارٍ فَانْطِبَاقَـــاً مَـــرَّةً وانْفِتَـــاحَـــا

فهو لم يرد أن يشبه شكل البرق بشكل المصحف، إنما أراد أن يشبه حركة البرق بحركة قارئ ذي لوثة غير طبيعي، يطبق المصحف تارة، ويفتحه أخرى، والتشبيه غريب كما ترى!.

ومن التشبيه الغريب قول الشاعر:

والشَّمْـــسُ كَالمِـرْآةِ في كَـــفِّ الأَشَـلِّ لَمَّا بَدَتْ مِـنْ خِدْرِهَـا فَـوْقَ الجَـــبَلْ

ولقد جاءت غرابة التشبيه لأن المشبه به قلما يتردد على الحواس، فقد لا يرى الإنسان في حياته أشل مرتعشاً يحمل في يده مرآة، «ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الاشراق، والحركة السريعة المتصلة، وما يحصل بسببها من التموج والاضطراب حتى يرى الشعاع كأنه يهم بأن ينبسط، حتى يفيض على جوانب الدائرة ثم يبدو له فيرجع من الأنبساط إلى الانقباض كأنه يجتمع من الجوانب إلى الوسط، والشمس إذا أحدّ الإنسان النظر إليها وجدها مؤدية لهذه الهيئة، وكذلك المرآة في كف المرتعش، لأن حركته تدوم وتتصل ويحصل منها ذلك، فقد اقترن بهيئة الحركة لون الجسم، وهو الاشراق، وشكله: وهو الاستدارة.

وجاءت غرابة هذا التشبيه من كثرة التفصيل إذا نُظر إلى اللون والشكل والحركة الدائمة، وهذا تفصيل، ثم نظر إلى حركة الشعاع وتموجه بين انبساط وانقباض...الخ، وذلك تفصيل آخر، ومثله لا يدركه الإنسان إلا إذا استأنف تأملها، وكان متثبتاً متمهلاً»(١). وانظر إلى قول المعرّي(٢) يصف نجماً:

يُسْرِعُ اللَمْحَ فـــي احْـــمِرارٍ كَـــمَا تُسْرِعُ فـــي اللَمْـــحِ مُقْلَـــةُ الغَضْبَـــانِ

فإن تشبيه لمحات النجم وتألقه مع احمرار ضوئه، بسرعة لمحة الغضبان من التشبيهات النادرة التي لا تنقاد لأديب(٣).

وهكذا تبدو قدرة الشاعر حينما يعقد لك المشابهة بين أمرين فتحس نفسك بالأنس، وفؤادك بالطرب، وكأن الأمر من قبل لم يخطر لك على بال. استمع إلى قول المتنبي وقد جمع لك امرين في التشبيه كانا بعيدين عن مخيلتك ولكن مجرد سماعك بهما يشعرك بالقرب

(١) دراسات تفصيلية ص ١٨٨.
(٢) ديوان سقط الزند ص ١٣٤، قصيدة (عللاني).
(٣) جواهر البلاغة / السيد أحمد الهاشمي ص ٢٨٦.

بينهما، كأنما تخاطب نفسك فتلومها على غفلتها، ما أقرب أحدهما للآخر؟! استمع إليه(١):

بَلِيْتُ بِلَى الأَطْلالِ إنْ لَمْ أَقِـفْ بِهَـا ... وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ في التُّـرْبِ خَاتَمُـهْ

أرأيت إلى هذه البراعة في التصوير، والخصوبة في الخيال؟، إنه يدعو على نفسه إنْ لم يقف بهذه الاطلال وقوف الحسرة والألم، ولكنه لا يكتفي بهذا، بل يبين لك مقدار هذه الحسرة، وهذا الألم، وهو يشبهه بوقوف شحيح ضاع خاتمه في ركام التراب.

وبالجملة فإن التشبيه كلما دقَّ وجه الشبه فيه وكان المشبه به غير مألوف، فهو من التشبيه الغريب، ولكن البيانيين لا يقفون في التشبيه الغريب عند هذا النمط من القول، وإنما يعدّون من الغريب كذلك ما كان من الأمور المُتَخَيَّلة التي لا وجود لها مجتمعة في الخارج وإنما الموجود عناصرها وأجزاؤها فجمعوا هذه الأجزاء بعضها لبعض ليُكَوِّنوا مشبهاً به على سبيل التخييل وهذا كثير وبخاصّة عند شعراء العصر العباسي ومن بعدهم، ويمثلون له بقول أبي بكر الصنوبري:

وَكَـأَنَّ مُحْمَـرَّ الشَقِيـقِ ... إذَا تَصَـوَّبَ أَوْ تَصَعَّـدْ

أَعْـلاَمُ يَـاقُـوتٍ نُشِـرْنَ ... عَلَى رِمَـاحٍ مِـنْ زَبَـرْجَـدْ

تصور أوراق شقائق النعمان - وهو نبت معروف -، والرياح تصعدها وتصوبها أي ترفعها وتسفلها، فأراد أن يجعل لها شبهاً فشبهها باعلام من الياقوت حمراء منشورة على زبرجد أخضر.

ندرك مما سبق أن بلاغة التشبيه، لا تقف عند عنصر واحد، فلا يكفي أن يكون التشبيه حسياً فحسب، كما لا يضير التشبيه أن يكون فيه عنصر عقلي كذلك، إنما ترجع بلاغة التشبيه إلى ما يحدثه في النفس من أثر، فبقدر ما تتفاعل النفس مع التشبيه تكون بلاغته وجودته، وهذا بالطبع إنما يرجع إلى قدرة المتكلم وبحثه عن الروابط الدقيقة بين الأشياء، حتى يريك الأمر على غير ما تعرف، ويدلك على ما هو مرتكز في طبيعتك مما هو خافٍ عليك.

أنظر إلى قول ابن الرومي وقد اغرى به بعض مبغضيه أحد الشعراء الهجّائين، وكان يسمى مثقالاً، ولكن هجاء مثقال لابن الرومي لم ينقص من قدره. ونحن نعلم أن الهجاء فيه انتقاص من قدر المهجو، ولذا عاقب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الحطيئة وقد هجا الزِبْرقان بن بدر - رضي الله عنهما -، ولكن ابن الرومي أراد باسلوب التشبيه أن يبين أن هذا الهجاء لا ينقص من قدر المهجو، وإنما يزيد من فضله ونبله، فنبهنا إلى أمر من الأمور

---

(١) شرح ديوان المتنبي / البرقوني ٥٩/٤.

البدهية الذي لا ينكره واحد من النّاس، ولنستمع إليه[1]:

ثُمَّ حَاولْتَ بَالمُثَيْقِيل تَصْغِيري ... فَمَا زِدْتَنِي سِوى التَعْظِيمِ

كَالَّذِي طَأطَأ الشِّهَابَ لِيَخْفَى ... وَهُوَ أدْنَى لَهُ إلى التَّضْرِيمِ

يقول لقد أغريت بي مثقالاً ليهجوني ويغري بي، ولكن ذلك ما زادني إلا تعظيماً ورفعة، فما مثلي ومثله إلا كمن يطأطئ شهاب النار ليخفي نوره وليطفئ شعلته، ولكن ذلك لا يزيده إلا اشتعالاً واضراماً.

وهاك مثالاً آخر: نحن نعلم أن ليس من الخير للكريم أن يجاور اللئام، ولا للفاضل أن يكون مع نوي النقص، ولكن اسلوب التشبيه وقد صوره الشاعر بفكره وابداعه بيراعه جعل الأمر على العكس من ذلك، ففيه زيادة منقبة وشرف، ويقول البحتري[2]:

وَقَدْ زَادَها إفْراطَ حُسْنٍ جِوارُها ... خَلائِقَ أصْفَارٍ مِنَ المَجْدِ خُيَّبِ

وَحُسْنُ دَرَارِيِّ الكَوَاكِبِ أنْ تُرى ... طَوَالِعَ في دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْهَبِ

وقد قدمناه من قبل فارجع إليه إن شئت.

وأخيراً لا آخراً استمع إلى قول ابن بابك يمدح أبا علي أحمد بن حمولة وزير فخر الدولة(٣):

وَرَآكَ لِلتَشْرِيفِ أهْلاً فَاجْتَبى ... بِوَفَائِهِ، مَلِكٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ

وَأعَرْتَ شَطْرَ المُلْكِ ثَوْبَ كَمالِهِ ... والبَدْرُ في شَطْرِ المَسَافَةِ يَكْمُلُ

والذي يعنينا مَن قيل فيه، وما قيل من أجله، هذا الشعر وسبب ذلك أنه لما مات الصاحب بن عبّاد – وزير فخر الدولة – كان المرشح للوزارة بعده أحد الرجلين: أبي علي بن حمولة، وأبي العباس الضبي، فأخذ كل منهما يبذل لفخر الدولة الأموال الطائلة ليستوزره فرأى أن يأخذ ما بذلاه ويولّيهما معاً معتلاً بأن مكان الصاحب لا يملؤه أحدهما وحده فاشتركا في الوزارة فكان كل واحد منهما كأنه وزير لشطر الملك، فأراد ابن بابك أن يدفع توهم أن ذلك ينقص من قدر أبي علي، يقول: إنك ألبَسْتَ شطرَ المُلك الذي وليته ثوب الكمال لأنك كامل ولا بدع في أن تكون كاملاً في نصف المُلك فإنك شبيه بالبدر الذي يكون في نصف الشهر ووجه الشبه كمال كل في النصف[4].

(١) ديوانه ٤٢٧/٣.

(٢) ديوانه ١١٨/١، قصيدة (شكرتك عن قومي وقومك).

(٣) اليتيمة ٣٤٩/٣

(٤) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ١١٣.

التشبيه في القرآن

ونرى لزاماً علينا ونحن نتحدث عن التشبيه أن نعقد فصْلاً خاصاً نتحدث فيه عن تشبيهات القرآن الكريم، وآخر عن التشبيهات في السنة النبوية، إذ الرسول صلى الله عليه وسلم هو سيّد الناطقين بالضاد وأفصحهم، وقد أعطي جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصاراً.

نتائج مما سبق:

وقبل أن نحدثك عن تشبيهات القرآن نرجوا أن نستذكر معاً بعض النتائج والملحوظات التي يمكن أن نستنتجها ونلحظها. مما قدمناه لك عن التشبيه.

أولاً: ولعل من أول هذه النتائج وأولاها بالتسجيل، أن هذا التشبيه يتأثر بالبيئة، بل إنه يخضع لها، وتتحكم فيه، وتضفي عليه كل سماتها، وتمنحه جميع خصائصها، ولا أدل على ذلك من أننا رأينا التشبيه في العصر الجاهلي كانت عناصره منتزعة من بيئتهم الخاصة، فالبقر الوحشي، وحمار الوحش، والعقاب والغراب، وعيون الطير وقلوبها، والسيف والنّار، ونقيض الرحل وصوته، وصوت البازيّ، والريم، والطلل، والكواكب، وقد تجد السفينة وموج البحر على قلّةٍ، إلى غير ذلك مما كانت تقتضيه وتحتمه بيئة أولئك في جاهليتهم.

ولقد أُعطوا حظّاً من النباهةِ واليقظة والقدرة على التصوير والتعبير فكان لا بدّ من أن يستثمروا ذلك كله دون أن يعطّلوه، فرأينا هذه اليقظة، وتلك البلاغة، وهذه القدرة على التصوير، وهذا الجمال في العبارة، يُستثمر في أمور ليست ذات شأن، ولكنّ الذي رجحها ورشحها وجودها في تلك البيئة، فالحشرات على اختلافها، ومستنقعات الماء، والوحوش، والرياح، تلك هي الموادّ التي غالباً ما كانوا يصنعون منها تشبيهاتهم، فقلوب الطير تارة كالعناب، وتارة كالحشف البالي، وعيونها كالخرز الذي لم يُثَقَّب، والاعطاف كالمسك وكالطيب، والرّيق كالشراب، حتى ما كان بعيداً عن بيئتهم يقربونه فيشبهونه بما هو من أشياء البيئة كتشبيه السفينة بولد النّاقة في قول الأعشى[1]:

تَقِصُ السَّفِينُ بِجَانِبَيْهِ كَمَا ... يَنْزُو الرُّبَاحُ خَلا لَهُ كَرَعُ[2]

وإذا تركنا هذا العصر إلى العصر الإسلامي نجد أن التشبيه - مع ما بين العصرين من

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٦٧، تحقيق هـ. ريتر، الصناعتين ٦١.

(٢) تقص: تثب، والنزو: الوثوب، والرُّبَّاح بضم الراء وتشديد الباء، وحففت الباء للضرورة: الفصيل أو القرد، وخلا: من الخلو، والكرع: الغدير أو ماء السماء، شبه السفينة في انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل في نزوه لأنه إذا نزا كانت له حركات متفاوتة ويكون هناك تسفل وتصعد على غير ترتيب.

تقارب - أصبحت له عناصره التي استمدت وجودها من البيئة، ألا تنظر إلى بيت حسان(١):

وَقافِـيَةٍ عَجّـتْ بِلَيْـلٍ رَزِينَـةٍ ... تَلَقَّيْـتُ مِـنْ جَـوِّ السَّـمَاءِ نُزُولَـها

فإذا جاوزنا ذلك إلى العصر العباسي وجدنا الاختلاف الكبير، والبون الشاسع، في عناصر التشبيه حيث أصبحت هذه العناصر بعيدة عما قبلها اللهم إلا من حيث الصورة والشكل، فمداهن الدّر المحشوة بالعقيق، واعلام الياقوت، والرماح من زبرجد، وشبك الزبرجد، والسمك من البلور، والزوارق المحملة بالعنبر إلى غير ذلك من أنواع الحلي والأزهار والروائح.

وإذا تركنا العصر العباسي فإننا نجد أن الصورة التشبيهية - إن قُبل التعبير- كانت تسيطر عليها البيئة فتلبسها ما تكسوه لكل من هو في كنفها مما يعرفه الناس، ولعل خير شاهد على هذا، هذا العصر، وأنت إذا تتبعت الصور الأدبية وجدت كثيراً مما هو جديد لم يعرف من قبل ولعلنا نوفق إن شاء اللّه، أن نعقد فصلاً في آخر هذا الكتاب نتحدث فيه عن الصورة عند المحْدَثين تشبيهاً كانت أم غير تشبيه.

ولكن مع اختلاف البيئة وطغيانها على التشبيه فإننا نجد أشياء لا تتغير من حيث العنصر والحقيقة، وإن تغيرت من حيث الصورة والشكل.

ثانياً: رأينا أن التشبيهات فيما مضى كان منها ما يأتي للإيجاز والاختصار فهو عنصر أساسي لا يستغنى عنه، ومنها ما ليس كذلك، وإنما جيء به بعد تمام الكلام وكمال المعنى وكان الهدف منه زيادة التقرير والتوضيح، وذلك ما ذكرناه لك عند أول حديثنا عن التشبيه الضمني.

ثالثاً: وثالثة هذه النتائج أن بعض هذه التشبيهات - وهو القليل - كانت تُلاحَظ فيها الدقة من حيث العبارة، لتؤدي المعنى أداءً تاماً غير منقوص، كما رأينا في بيت امرئ القيس السابق وهو يصف الرديني باللهب الذي لم يتصل بدخان، وعيون الطير بالخرز الذي لم يثقب. وفي غير هذين مما ذكرناه لك من قبل.

ولكن كثيراً من التشبيهات لم نجد فيها تلك الميزة - أعني ليس فيها تلك الدقة - التي لوحظ فيها دقة التعبير، بحيث تتفق مع الصورة اتفاقاً كاملاً. وهناك أمر آخر اختلفت فيه تلك التشبيهات كذلك، فكما اختلفت من حيث الصورة ودقة التعبير عنها، فقد اختلفت من حيث الألفاظ التي اختيرت لها. وهناك اختلاف ثالث من حيث الصورة نفسها كما عرفته من قبل وكما ستعرفه فيما بعد.

---

(١) ديوانه ص ١٩٦، قافية: أي قصيدة، عجت بليلٍ: أي صاح بها صاحبها في الليل، تلقيت من جو السماء نزولها: أراد أنه أوحي إليه بها.

وهذه بعض الحقائق التي أمكننا أن نستخلصها من دراستنا للتشبيه:

١- خضوعه للبيئة.
٢- مجيئه بعد تمام الكلام.
٣- عدم التزام الدقة في كثير منه.
٤- اختلاف كثير من التشبيهات من حيث اختيار اللفظ.
٥- اختلافه من حيث الصورة جمالاً وروعة.

خصائص التشبيه في القرآن:

التشبيهات في القرآن الكريم، مع أنها ليست بدعاً من التشبيه، ذلك أن القرآن الكريم عربي من حيث الاسلوب، ومن حيث النظم، ولكننا نجد مع ذلك أن لتشبيهات القرآن خصائص ومميزات:

أولاً: وأولى هذه الخصائص أن تشبيهاته غير مقيدة ببيئة معينة، فلم تنحصر في عصر دون عصر، ولم تقتصر على مكان دون مكان، إنما هي تشبيهات عامة تستمد من الطبيعة عناصرها، وتأخذ من الكون أجزاءها، فليست لفئة خاصة ولا لقوم بأعيانهم، فمشهد الماء الذي ينزل من السماء، فتحيا به الأرض، ومشهد الزرع الذي ينبت فيكون له شطؤه الذي يحيط به، والسراب في الفلاة، والظلمات في البحر، والموج والأمواج المتلاطمة، والرماد الذي تبدده الرياح في يوم عاصف، والفراش المبثوث، والعهن المنفوش، والجبال، والخُشُب المسنّدة، والجنة بالروضة المرتفعة. كل هذه العناصر وغيرها مما لا يختص به زمان معين، أو مكان معين، أو جنس معين. ومع كونها كذلك، إلا أننا إذا أعدنا النظَرَ مرة أخرى نجد أن لها ميزة ثانية، وهي أنها لا غَناء عنها في حياة الانسان، مُتَمَدِيناً وغير مُتَمَدْيِن، وذلك مما يزيدها تأثيراً في النفس، ونفوذاً في الفؤاد، هذه واحدة.

ثانياً: أن هذه التشبيهات جاءت متسقة مع الغرض الذي سيقت من أجله، فقد نجد الشيء الواحد شبه به أكثر من أمر، وذلك لأن هذا الشيء لوحظت فيه صفات متعددة، فروعي كل جانب ليتناسب ويتطابق مع المشبه الذي قصد القرآن الحديث عنه.

ثالثاً: الدقة في اختيار الألفاظ، وهذه حقيقة ليست خاصة بالتشبيه، إنما هي شأن القرآن في أساليبه جميعاً، وفي كل موضوعاته التي تحدث عنها. فالفاظ القرآن - كما تعلم - جميعها مختارة منتقاة، فإنك لن تجد أي لفظة يمكنك أن تستبدل بها غيرها، أو تستغني بها عن غيرها، ولو أنك أدرت اللغة كلها، وأردت أن تأتي بكلمة مكان كلمة ما استطعت.

رابعاً: وتشبيهات القرآن بعد ذلك كله، كانت بعيدة عن ترف الخيال، ورعونة العاطفة، وسرف القول وفضوله، فهي - إذن - عناصر أساسية في الموضوع، وأجزاء رئيسة في الجملة.

خامساً: ولما كان القرآن كتاب هداية للأحياء ما دامت الحياة، فإن تشبيهاته جميعاً كانت كلها تدور حول هذا الانسان، تشبهه تارة وتشبه له تارة أخرى، تشبهه بما يناسب وضعه، وتشبه له بما يحيط به من هذا الكون مما لا غناء عنه في حياته ووجوده.

هذه بعض خصائص التشبيه في القرآن، ولكي نتصور ذلك تصوراً عملياً فلا بد أن نَنعَم ونُنْعِم النظر بالوقوف مع بعض هذه الآيات الكريمة:

(أ) هذا القمر الذي تغزّل فيه الشعراء شبهوه تارة، وشبهوا به أخرى، والذي امتن الله علينا بأن جعله نوراً. يشبهه القرآن الكريم، وقد اضمحل نوره بالعرجون القديم ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس ٣٩]، وفي هذه الكلمة من الدلالة على الضآلة والضعف ما فيها، «فهذا القمر بهجة السماء الساطع الغامر، يبدد ظلمة الليل، ويحيل وحشته أنساً، يصبح بعد هذا كله دقيقاً، نحيلاً محدودباً، لا تكاد العين تنتبه إليه، وكأنما هو في السماء كوكب تائه، لا أهمية له ولا عناية بأمره، ترى في كلمة العرجون، ووصفها بالقديم ما يصور لك هيئة الهلال في آخر الشهر، ويحمل إلى نفسك ضآلة أمره معاً»[١].

(ب) واستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن ٢٤].

حيث شبهت السفن في البحر بضخامتها وعظمها بالأعلام - الجبال الرواسي الشامخات- وإنما اختير لفظ الأعلام دون الجبال، لأنه يبعث في النفس الأنس، وهو ما يحتاج إليه السائر في البحر، ولقد ذكرت الجبال في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود ٤٢]، لأن ذكر الجبل ألصق بالسياق الذي جاءت من أجله، فهي تتحدث عن الطوفان، يوم أن فجرت الأرض عيوناً، وفتحت السماء بماء منهمر.

وكما شبه الموج بالجبال، فإننا نجده يشبه بالظلل. قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان ٣٢]، وإنما اختيرت كلمة الظلل هنا، لأن الحديث عن أولئك الذين يتعرفون على الله في الشدة دون الرخاء، وكلمة الظلل توحي بالرهبة، كأن هذا الموج ارتفع إلى رؤوسهم، مما يجعل هلاكهم غير مرتاب فيه، على أن الجبل قد شبه بالظلة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف ١٧١]، ذلك لأن الآية هنا

---

(١) من بلاغة القرآن ص ١٩٢.

جاءت في سياق الحديث عن بني اسرائيل، وكيف رفع الجبل فوق رؤوسهم ليصير ظلّة لهم يقيهم حرارة الشمس.

وهكذا تجد التشبيه في كتاب الله ينسجم انسجاماً تاماً مع السياق الذي جاء من أجله. انظر إلى قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة ١٨٧]، ثم فكّر لماذا أوثرت كلمة اللباس هنا؟، وقل لي بربك هل تجد شيئاً أكثر ما تكون له النفس حاجة، وأشد ما يكون لها وقاية، أكثر من اللباس؟ ومع كونه كذلك، فهو ينشر في أجواء النفس البهجة والسرور، وهو بعد ذلك كله زينة وكمال. أعرفت سر اختيار الكلمة اذن؟.

(جـ) وإليك مثالاً آخر: آكل الربا يستبيح جهد الناس وعرقهم، فيحرمهم لذة الاستقرار النفسي، وربما ينتج عن ذلك كثير من الآلام والأمراض النفسية أو الجسدية، فما هو التشبيه الذي اختير له في كتاب الله. اقرأ قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة ٢٧٥]، هذا الذي يتخبطه الشيطان من المس بعيد عن كل استقرار نفسي، وراحة في الجسم، وسلامة في العقل، وهل الجزاء إلا من جنس العمل؟.

(د) وعلى العكس من هذا انظر إلى المؤمن الذي مـلأ نور الايمان قلبه، حتى أن الله تبارك وتعالى مَثَّلَ هذا النور بقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور ٣٥].

فانظر إلى نور الله في قلب المؤمن، وانظر إلى هذه العناصر التي اختيرت لهذا التشبيه:

(١) المشكاة حتى لا يتوزع هذا النور ويتفرق.
(٢) المصباح.
(٣) الزجاجة.
(٤) الزيت الذي يوقد منه هذا المصباح.
(٥) الزيتونة لا هي بالشرقية التي تحرم ضوء الشمس حين غروبها ولا هي بالغربية التي تحرم ضوء الشمس حين اشراقها، إنما ترتشف من الشمس في كل وقت.

ومن الخير أن نسلك بك مسلكاً لتلمّ بكثير من تشبيهات القرآن وتقف على خصائصها

ونعني بهذا المسلك أن نقف مع اسلوب التشبيه في كتاب الله من حيث الموضوعات التي جاءت بهذا الاسلوب.

أولاً: الترغيب والترهيب:

والقرآن قد يستعمل اسلوب التشبيه للترغيب أو الترهيب، وذلك ليقرر الأمر المرغَّب فيه كي تقبل النفس عليه ويبين المرهَّب منه كي تنفر النفس منه، استمع إليه وهو يرغب المؤمنين كي تلتئم وتلتحم صفوفهم في الجهاد ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف ٤]، ولم يكتف بذكر كلمة (البنيان) فحسب، وإنما هو بنيان قد رُصَّ بعضه فوق بعض، فأُحكمت لبناته، والمشبه به - البنيان - من الأمور التي لا تغيب عن الانسان ألبتة.

واستمع إليه يرشد المسلمين وبخاصة ذوي الزوجات المتعددات يرشدهم حتى لا يحيفوا على نسائهم ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء ١٢٩]، فهو يصور اضطراب المرأة وقلقها وعدم استقرارها على حال، حتى لتصبح حياتها مليئة بالتعب والعناء(١).

وها هو القرآن يحذّر من نقض العهد ويبين ما له من نتائج ضارة وآثار سيئة فيقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا...﴾ الآية [النحل ٩٢].

ومن الموضوعات الخطيرة التي استُعمل فيها اسلوب الترغيب والترهيب: موضوع النفقة في سبيل الله، نجد القرآن يرغب المسلمين كي تكون نفقتهم خالصة لوجه الله تعالى، لا يقصدون مع ذلك شيئاً آخر، وهو مع ذلك يحذر من أن تكون النفقة رئاء الناس، يفتخر بها المنفق ليمدحه الناس، ويثنوا عليه، وسنضرب لكل من هذين مثالين من كتاب الله.

أما الذي ينفق في سبيل الله تعالى فقد شبهه القرآن تارة بالحبة تنبت سبع سنابل، وتارة أخرى بجنة بربوة أصابها مطر كثير فآتت أكلها ضعفين، أو أصابها مطر قليل فزكت وطابت، ولكل من التشبيهين غرضه وغايته.

أما النوع الثاني: وهو الانفاق رئاء الناس أو الانفاق من مصدر غير طيب فقد شبهه القرآن بحجر صلد عليه تراب جاءه وابل فتركه صلداً وشبهه ثانياً بزرع جاءته ريح باردة فأهلكته.

---

(١) من بلاغة القرآن ص ١٩٨.

وإنما كان للقرآن الكريم عنايته بقضية الانفاق لأن أمر المال من الأمور التي تشح عليها نفس الانسان، وتلك طبيعته ﴿وأُحضِرَتِ الأنفُسُ الشحَّ﴾ [النساء ١٢٨]، فلقد رغب القرآن في هذا الانفاق، ولما كان اسلوب التشبيه من الأساليب المؤثرة في النفوس نجد القرآن يسلك هذا المسلك ويأتي بهذا الاسلوب – اسلوب التشبيه – ترغيباً في أمر الانفاق وتاكيداً له.

أولاً: قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٦١].

والمشبه به: وهو الحبة التي انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، مما لا يجهله أحد، لأن أمر الزراعة من الأمور التي يحوطها الانسان بكل عناية ورعاية في جميع العصور، فالتشبيه منتزع من الطبيعة، ثم هو بعد ذلك عنصر أساسي في الجملة، وانظر كيف اختيرت كلمة (سنابل) على (سنبلات)، والتشبيه تمثيل، لأن وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد: وهي صورة الذي يبذل قليلاً ليجني منه الكثير. ولا تنسَ ما في الآية من تجسيد وتصوير: فصورة الحبّة التي تَفَرَّعَ من ساقها شعب متعددة من الأشياء الي تراها العين وتحس بها النفس.

ثانياً: قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة ٢٦٥]، يشبه انفاقَ أولئك الذين ينفقون ابتغاء مرضاة الله، وتثبيتاً من أنفسهم في طيبه وزكائه، بجنةٍ في مكان مرتفع أصابها مطر شديد، فتضاعف محصولها فإن لم يصبها وابل فطل وهو المطر القليل، وفي التشبيه اشارة إلى أن هذه النفقة تزكو وتطيب قلّت أم كثرت.

هذا هو أسلوب الترغيب أما أسلوب الترهيب وهو التحذير من أن تكون النفقة ليست خالصة لوجه الله.

فأولاً: نقرأ في ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٢٦٤].

شبه الله نفقتهم بصفوان – وهو الحجر الأملس –، عليه تراب فحسبوه صالحاً للزرع فبذروا فيه حبهم، فلما جاءه المطر ازال التراب عنه فتركه صلداً، وذهب هباء لكل ما يتوقعه الزرّاع.

ثانياً: وقد شبه القرآن كذلك نفقة أولئك الذين ينفقون فخراً، ليمدحهم الناس في نفقتهم، بزرع جاءته ريح باردة فأهلكته – لم تبق فيه شيئاً – قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران ١١٧].

فانظر كيف شُبهت نفقة المؤمنين بتشبيهين اثنين ونفقة غيرهم بتشبيهين اثنين كذلك، والمطر الذي كان سبباً في النمو والزكاء هو الذي كان سبباً في الهلاك والخسران، وإذا نظرت إلى هذه التشبيهات جميعاً فإنك لا تجد عنصراً غريباً على أي واحد من الناس مهما اختلف الزمان والمكان.

ثانياً: الانسان في القرآن:

(أ) شبه الله المؤمنين الذين شرُفوا بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم – وقد كانوا قلة ضعفاء –، بزرع أخرج شطأه وهي تلك الفراخ والشعب التي تتشعب في ساق النبات فتحميه من الآفات فيستغلظ هذا الزرع فيستوي على ساقه، فهو يعجب الزراع في قوته ونموه، وكذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم جميعاً. وقد قوي بعضهم ببعض حتى أصبح هذا الدين قوياً فكان كما قال الله (ليغيظ بهم الكفار)، وهذا التشبيه كما تراه فيه هذا التصوير والتجسيد المحسوس مما ليس غريباً على النفس، لذلك كان له ذلك التأثير البديع، وهو تشبيه تمثيل، لأن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد.

قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح ٢٩].

(ب) أما المنافقون فنجد أن القرآن يرسم لهم صوراً متعددة، طبقاً لأحوالهم، فالمنافقون كانوا يظهرون الايمان – كما تعلم – واظهارهم للإيمان كان يدفع عنهم الأذى، حيث كانت تجري عليهم احكام الإسلام، ولكن هذه الحالة لا يمكن أن تدوم.

وللمنافقين حالة ثانية: وهو ما كانوا يشعرون به من الحرج والضيق، وذلك حينما تنزل الآيات تفضح أمرهم، فادعاؤهم الايمان لا يجديهم، وتظاهرهم به لا ينفعهم، وهناك حالة ثالثة، لا من حيث ادعاؤهم الإيمان ولا من حيث الحرج الذي يجدونه إنما روعيت فيها هيئاتهم الظاهرة التي تعجب الذين يرونهم، وهناك حالة رابعة، وهي حالتهم عندما يجيئهم الخوف ويدعون إلى الجهاد، ونحن نعلم أن القرآن الكريم يشبه كل حالة من هذه بما يناسبها ويتلاءم معها.

ففي الحالة الأولى نقرأ قول الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة ١٧]، فهو تشبيه لحال المنافقين وقد ادعوا الإسلام وتظاهروا بالإيمان، فظنوا في أنفسهم أن هذا الخداع لن تكون له نهاية، ولكن هيهات، فمثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فبددت الظلمات وأضاءت ما حوله، وبينما هو كذلك في فرحه ومرحه وسروره، وبهجته، وإذ بهذه النار تخمد وتنطفيء فلا يبقى منها شيء.

أما في حالتهم الثانية وهي حالة الحرج والضيق فنقرأ قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ١٩].

يشبه القرآن حالهم في هذ الضيق، وتلك القسوة، وذلكم الحرج، بقوم يسيرون والمطر الكثير الشديد ينزل من السماء، وقد اظلم الجو، ومع هذا المطر رعد قاصف، وبرق شديد اللمعان، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا اصوات الرعد، وهذا البرق الشديد يكاد يخطف أبصارهم، ولكن مع شدته يضيء لهم إذا مشوا فيه، فإذا ذهب وقفوا في امكنتهم، فهم في شدة على كل حال. وكذلك كان المنافقون، فهم مع ادعائهم الإسلام كانوا يخشون دائماً أن تنزل آية تنبئ عن أحوالهم وتفضحهم، فهم مضطربون دائماً، لا يستقر لهم قرار يبين هذا قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة ٦٤].

أما حالتهم الثالثة فقد شبههم القرآن بالخُشُب المسندة، فشأن الخَشَب أن يستفاد منه في البناء والسفن، وغير ذلك، أما عندما يكون مسنداً فستنخره السوس دون الاستفادة منه، فهُم وإن اعجبك مظهرهم، لكن مخبرهم وحقيقتهم ليست شيئاً، وفي هذا نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون ٤]،

وفي مثل هذا يقول الشاعر[1]:

لا يَخْدَعَنَّكَ اللُّحى ولا الصُوَرُ … تِسْعَةُ اعشارِ مَنْ تَرى بَقَرُ
تراهُمُ كالسَّحابِ مُنْتَشِراً … ولَيْسَ فيها لِطَالِبٍ مطرُ
في شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمْ شَبَهٌ … لَهُ رَوَاءٌ وَمَا لَهُ ثَمَرُ

وأما حالتهم الرابعة: فقد شبههم القرآن بحالة الذي يغشى عليه من الموت. قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد ٢٠].

(جـ) أما الكافرون فنجد لهم في القرآن الكريم تشبيهات كثيرة متعددة مع أن كل واحد يختلف عن الآخر، ذلك لأن الموضوعات التي تناولتها هذه التشبيهات ليست سواءً، ومن هنا اختلفت صور التشبيه باختلاف الأغراض.

(١) فمن حيث الإعراض عن الحق والتولي والابتعاد نجد هذه الصورة الدقيقة ونحن نقرأ قول الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر ٤٩]، فانظر إلى تلك الصورة لهؤلاء وهم يفرّون من الداعي، ويعرضون عن الحقّ، ولكن هذا الاعراض لا يزيدهم إلا حيرةً وخوفاً؛ فما أشبههم بهذه الحمر الوحشية النافرة الشاردة، وهي تفر من أسد خشية أن يفترسها.

إن التشبيه هنا مع ما فيه من إبداع التصوير وروعته، نجد فيه كذلك من دقّة التعبير وموضوعيته، ذلك أنهم شُبِّهوا بالحمر، والحمر مثال في البلادة ثم هم قد فرّوا من قسورة، وفي هذا إيحاء أن الداعي إلى الحق حريّ به أن يكون أسداً فتكون الشجاعة من أبرز صفاته، وشتان بين ما فر من أجله هؤلاء وبين ما تفرّ من أجله الحمر المستنفرة، أليسوا أضل من الحمر سبيلاً؟ وانظر إلى كلمة (مستنفرة) وما فيها من السين والتاء، وكلمة (فرّت) كل هذا وغيره من الخصائص التي حدثتك عنها في تشبيهات القرآن مما له عمله في النفس، وتأثيره في القلب.

(٢) وقد يشبه الكافرون وهم يُدْعَوْنَ إلى الحقّ وقد أحاطت بهم الغفلة، فهم لا يسمعون من

(١) روح المعاني للآلوسي ١١١/٢٨، والرَّواء – بفتح الراء: الماء الكثير يُروى به.

الداعي إلا حروفاً وأصواتاً لا يفقهون منها شيئاً، فما أشبههم بتلك الأنعام التي تسمع صوت داعيها وراعيها، ولكنّها لا تميز ما يضر مما ينفع. نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة ١٧١]، المشبه هنا: الداعي إلى الإيمان وهو يدعو أولئك الغافلين، والمشبه به: الراعي الذي يصيح بهذه الأنعام التي لا تسمع إلا دعاءً ونداءً، ووجه الشبه صورة من لا يميز بين ما يضره أو ما ينفعه.

وقريب من هذا التشبيه قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الاعراف ١٧٩]، إلا أن الفرق بين هذا التشبيه وبين الذي قبله، أن التشبيه السابق نظر إلى حال الداعي لأولئك الكافرين، أما هذا التشبيه فليس كذلك، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية فإن هذا التشبيه فيه تفصيل؛ فقد ذكر الاستعدادات التي مُكّن منها أولئك، فقد هيّأ الله لهم القلوب ليفقهوا بها الأمور وهذا ما لم يهيأ للأنعام، صحيح أنهم كانت لهم العيون والآذان التي يشتركون فيها مع الأنعام ولذلك نجد القرآن حينما شبههم بالأنعام يُضرب عن هذا التشبيه فيقول «بل هم أضل»، وإنما كانوا أضل لأن الأنعام لم تملك هذه الوسائل التي يملكونها، وهكذا نجد أن التشبيهات في القرآن بعيدة كل البعد عن شبهة التكرار وشائبته.

وقد يشبهون بالأنعام ولكن من وجه آخر وصفة غير الصفات التي مرت معنا من قبل، فالأنعام لا تبغي إلا أن ترتع وتأكل من أجل أن تملأ بطونها وليس وراء ذلك شيء، فالأكل هو الغاية. وكذلك أولئك فهم يعيشون ليأكلوا، وشتان بينهم وبين من يأكل ليعيش،، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ [محمد ١٢]، وشتان بين هؤلاء وبين من يتقوى في أكله على عمل الخير والطاعة، ومن هنا كان المؤمن يأكل في معي واحد والكافر في سبعة أمعاء.

تلك تشبيهات ثلاثة شبه الكافرون فيها بالأنعام، ولكن كان لكل واحد منها جهته وموضوعه كما رأيت.

(٣) وقد يكون المشبه اعمال الكافرين لا ذواتهم وأحوالهم، وهنا نجد أن موضوع التشبيه كذلك ليس شيئاً واحداً، فقد يعمد التشبيه ليقرر أن هذه الأعمال سوف تتلاشى مع كثرتها، بحيث لا يبقى لها أثر مهما أريد لها أن تضخّم ومهما أحيطت بها من هالات، ومهما اصطُنع لها

من دعاية، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان ٢٣].

وتشبيهات القرآن قد يُفصِّل بعضها ما يجمله الآخر، فقد يقتضي السياق اجمال الصورة دون التفصيل. نقرأ قول الله تبارك وتعالى في تفصيل التشبيه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم ١٨]، فالقرآن لم يشبِّهْهَا بالرماد فحسب، ولكنه رماد اصابته ريح شديدة وليس هذا فحسب بل في يوم عاصف كذلك، فماذا عساها تبقى منه يا ترى؟ كذلك اعمال أولئك. أرأيت دقة فيها الاستيعاب، استيعاب الموضوع المتحدث عنه أكثر من هذه الدقة أنك بكل طمأنينة تقول (لا).

وقد يعمد التشبيه إلى شيء آخر فنحن نعلم أن الأعمال ليست سواء، فهناك الأعمال التي ليست في ظاهرها سوءاً، وهناك الأعمال التي هي سوء في الظاهر والباطن، نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور ٣٩ - ٤٠].

والقارئ يدرك لأول وهلة - والله أعلم بمراده - أن الأعمال في الآية الأولى هي تلك الأعمال التي تبدو في ظاهرها خيراً ويظهر أن لها بريقاً ولمعاناً، يدلنا على ذلك أنها شبهت بسراب بقيعة فيظن من رآه أنه ماء، ويجدُّ في طلبه، ولكنه يوقن بعد ذلك أنه واهم حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ومع اسلوب التشبيه نجد الدقة في التعبير، وتظهر تلك الدقة في كلمة (الظمآن) حيث اختيرت هذه الكلمة لتصور شدة الحاجة، والضرورة الملحة على طلب الماء، كذلك ﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ فهناك قَصْدٌ في طلبه تدل عليه هاتان الكلمتان: (حتى)، (إذا)، ثم لا تنس كلمة (شيئاً) حيث استعملت بدل كلمة ماء، أي لم يجد أيَّ شيء يمكن أن يكون له وجود، وهذه الكلمة تجعل التشبيه يلتقي مع التشبيه الذي قبله، ثم ما أروع ما ختمت به الآية الكريمة ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أما النوع الثاني من الأعمال فهو السيِّء في ظاهره وباطنه، فقد جاء تشبيهها في الآية الثانية بهذه الظلمات الكثيفة في بحر لجيّ، وفيه الأمواج المتلاطمة بعضها فوق بعض، ومن فوق هذه الأمواج السحب المتلبدة، حتى إن الانسان إذا أخرج يده لم يكد يراها، وما قيل عن دقة التعبير في التشبيه الأول يقال في هذا كذلك، يدلك على هذا كلمة (أخرج) وكلمة (لم يكد)، ثم ما أجمل ما ختمت به الآية ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

(٤) وقد يكون التشبيه لفئة خاصة من الكافرين وفي حالة خاصة كذلك ونذكر لذلك مثالين من كتاب الله:

المثال الأول: تشبيه اليهود: أولئك الذين أكرمهم الله بالتوراة، وأورثهم الكتاب، ولكنهم اتخذوه ظهرياً، نبذوه وراء ظهورهم وأعرضوا عن هدايته، فحرفوا كلماته، وبدلوا أحكامه. قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة ٥]، فالمشبه به هو الحمار، ولكن ليس مطلقاً ولكنه الحمار الذي يحمل أسفار العلم المفيدة بل غزيرة الفوائد ولكن ليس له في حَملها إلا الإجهاد والمشقة والتعب، وكما أن المشبه والمشبه به مركبان فوجه الشبه كذلك، وهو صورة من يُتْعِب نفسه ويجهدها بكل نفيس دون أن يحصل من ذلك على طائل.

المثال الثاني: من أكرمه الله بالآيات والهداية ولكنه انسلخ منها قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف ١٧٥]، فالمشبه به وهو الكلب في أخص وأخس صفاته أنه يلهث في كل حال. قال الجاحظ: «فزعموا أن هذا المثال لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام لأنه قال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ فما يُشَبَّهُ حَالُ من أعطي شيئاً فلم يقبله،- ولم يذكر غير ذلك- بالكلب الذي إنْ حملت عليه نبح وولى ذاهباً، وإن تركته شد عليك نبحه، مع أن قوله يلهث لم يقع في موضعه، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد وحر شديد ومن تعب، وأما النباح والصياح فمن شيء آخر، قلنا له إن قال: (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) فقد يستقيم أن يكون الراد لا يسمى مكذباً، ولا يقال لهم كذبوا إلا وقد كان ذلك منهم مراراً فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات في بدء حرصه عليها وطلبه لها بالكلب في حرصه وطلبه فإن الكلب يعطي الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد

الحرص عليها وفرط الرغبة فيها بالكلب إذا رجع ينبح بعد اطرادك له، وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفسية في وزن طلبها والحرص عليها، والكلب إذا اتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً عليك ومدبراً عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش)[(١)].

(٥) وقد يشبه الكافرون وهم يعتمدون على معبوداتهم المتعددة فلا تغني عنهم شيئاً بما يقتضيه السياق، واستمع إلى قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ [الرعد ١٤]، قف مع روعة هذا التشبيه، ونظن أنه كان الأصل لكل التشبيهات التي استعملها الشعراء في معناه فيما بعد، وانظر إلى المشبه به: وهو الباسط كفيه إلى الماء يظن أن ذلك يغني عنه شيئاً وسيبلغ فاه وأنى له ذلك، ألا تجد في هذا التشبيه تلك الصورة التامة لأولئك الذين يدعون من دون الله، أن ذلك سيصل بهم إلى هدفهم المنشود، وغايتهم المقصودة، وما هم ببالغين ذلك.

(٦) وفي تشبيه آخر نقرأ قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت ٤١]، وإذا كان بيت العنكبوت لا يغني عنه شيئاً، فلا يقيه شراً، بل لا يؤويه لوهنه وضعفه. وإذا كانت خيوط العنكبوت من أقوى الخيوط، - كما يقول أصحاب الاختصاص - وبيته من أوهن البيوت، فإن ذلك يطلعنا على دقة التشبيه، لأن أولئك الذين اتخذوا من دون الله أولياء وقد منحهم الله العقل الذي يستنيرون به، هم الذين يهلكون انفسهم فلا يغني عنهم أولياؤهم شيئاً، وانظر اليهم إن شئت في عصر العلم وما يعانونه من التحطم النفسي، والانهيار العصبي، وسل الاحصائيات تنبئك بذلك.

(٧) وقد يشبه الكافرون المعرضون عن الآيات، وقد فقدوا الطمأنينة، وتملكتهم مشاعر الضيق، والاحساس بالحرج، بمن يصعد في السماء قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام ١٢٥]، «شُبه بمن يزاول مالا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة»[(٢)].

---

(١) الحيوان ١٦/٢ - ١٧.

(٢) روح المعاني ٢٢/٨.

(٨) وقد يشبه الذين أحاطت بهم سيئاتهم فغشيتهم الذّلة، وغطى سواد الأعمال وجوههم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس ٢٧]، فانظر إلى هذا التصوير البديع المروع المرهب، كيف انتزعت فيه قطع من الليل المظلم فجعلت غطاء لهذه الوجوه.

(٩) وقد يكون التشبيه في القرآن لأولئك الذين حلت بهم العقوبة بعد تكذيبهم لأنبيائهم، ومن ذلك ما شبه به المكذبون من قوم هود عليه السلام، وقد سلطت عليهم ريح صرصر عاتية ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة ٧]، وفي آية أخرى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر ١٩]، فكر في هذا التطابق، فقد اهلكوا بالريح، ولما كان من شأن الريح القوية أن تقتلع الأشجار، ومن أضخمها النخيل شبهوا بأعجازها.

ومثل هذا ما حدثنا القرآن عن ثمود - قوم صالح عليه السلام - ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر ٣١]، والحظيرة ما يتخذ للغنم لتأوي إليه، فانظر كيف تصبح هشيماً لأنها متخذة من القشّ وما يشبهه، ومثل هذا ما حدثنا القرآن عن أصحاب الفيل بقيادة أبرهة ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل ٥]، وللعصف صورة في النفس بعد أن يُفصل عن الحَبّ، فما بالك بصورته بعد أن يؤكل؟! فأعجاز النخل المنقعر، وهشيم المحتظر، والعصف المأكول، كلها أمور مشاهدة من جهة، وهي مما تمله النفس ولا ترغبه من جهة أخرى، ولكن ما الذي يؤثر في النفس؟ إن هذه الأشياء التافهة ليست إلا نهاية لأولئك المتجبرين المعتدين المعرضين عن الحقّ، فالقرآن يقصد من التشبيه التنبيه إلى المادة الهشة من الهشيم، والعصف المأكول ومن أين أتت وكيف تحولت؟ ومَن هؤلاء الذين تحولوا فأصبحوا كذلك؟!.

(١٠) وقد يكون التشبيه من حيث القلق النفسي وسوء العاقبة، ونمثل له بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج ٣١]، وللعلماء مسلكان في تقدير هذا التشبيه؛ بعضهم يفرق أجزاءه فيجعله

تشبيهات متعددة، وآخرون يجعلونه تشبيهاً واحداً مركباً، وهو الذي يعجبني وأميل إليه[1].

يشبه القرآن الكريم المشرك الذي حُرم طمأنينة الإيمان، فهو نهبٌ للهواجس والوساوس، تلازمه ليله ونهاره، فلا يستقر على حال، فهو في انحدارٍ دائم، يشبهه بمن خرّ من السماء، من مكان ساحقٍ مرتفع - وما أشد وقع كلمة الخرور في هذا الموقع - فهو سقوطٌ فيه مفاجأةٌ ورُعب، فمثّل المشرك وحاله كمن خرّ من السماء وبينما هو كذلك فإما أن تختطفه الطير لتجعله فرقاً ومزعاً، وإما أن يسلم منها فيهوي إلى مكانٍ سحيق، فهو انحدارٌ لا يشبهه شيء، بحيث يصير ابعدَ ما يكون عن عالمه الذي كان يعيش فيه، فهو بين حالين لا أقول أحلاهما مرّ، بل كلاهما غايةٌ في المرارة والألم، فهو إما أن تخطفه الطير حين خروره من السماء فيكون ارباً، وإما أن يهوي في مكانٍ سحيق لا قرار له، وهكذا حال المشرك وعاقبته فما أعظم القرآن الكريم في صوره وسوره.

ثالثاً: تشبيهات عامة:

وإذا كانت التشبيهات السابقة لفئات الناس فهناك تشبيهات أُخَر ليست لفئة من الناس دون فئة، ولكنها تشبيهات عامة لكل ما يحيط بهؤلاء جميعاً، ومن هذه التشبيهات:

١- الدنيا:

والانسان مطبوع على حب الحياة وربما تملكه هذه الحياة فتنسيه انسانيته، وتطغى على كلِّ معاني الخير، لذلك نجد عناية القرآن ببيان حقيقة الدنيا، وهي في الواقع عناية بالانسان نفسه، حتى لا تطغى عليه شهواته، فنجد القرآن يعقد للدنيا تشبيهات بما يحيط بهذا الانسان مما لا يجهله أحد، وهذه تارة تجيء مجملة وتارة مفصلة كما قلنا من قبل.

فمن المجمل قوله سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف ٤٥]، فقد شبهت الدنيا في سرعة زوالها بهذا النبات، الذي ينزل عليه الماء من السماء ولكنه بعد خضرته وبهجته يصبح هشيماً حتى أن الرياح لتذروه فلا تبقي له أثراً، وهناك تشبيه آخر فُصّل فيه كل من المشبه والمشبه به وهو قوله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ

(١) راجع الكشاف جـ ٣، سورة الحج آية ٣١.

الغُرُور﴾ [الحديد ٢٠]، فلقد ذكر المشبه باداة القصر، وما يستهوي الناس في هذه الدنيا فيستغرق أعمارهم جميعها، ويشغلون به أنفسهم وأوقاتهم، وماذا غير اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، أما المشبه به فهو ذلك النبات الذي أحياه الغيث فأعجب الكفار نباته ومن الممكن أن نفسر الكفار هنا بالزّراع واختيار الكلمة هنا له ايحاءاته الكثيرة ولكن سرعان ما يزول هذا العجب إذ لا يلبث فيهيج فتراه مصفراً. ولقد لوحظ في هذا التشبيه كذلك الدقة في التعبير مع جمال التصوير، نلمح هذا في كلمة (الكفار) وفي الفعل المضارع تراه ولم يقل «هاَج فاصْفَرّ» وما ذلك إلا لتستحضر الصورة المشخصة امامك وفي كلمة (ثم) الدالة على التراخي، وهو أمر لا مناص منه مهما امتدّ وقته وطال أمده.

وهناك تشبيه ثالث فُصِّل فيه المشبه تفصيلاً تاماً، وذكرت فيه الصورة بجميع أجزائها وعناصرها ذلك هو قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس ٢٤]، والتفصيل في المشبه به يوحي للنفس تفصيلاً في المشبه فالمشبه به هنا ذلك النبات الذي لا غناء للانسان وللأنعام عنه، وقد نزل عليه الماء من السماء فنما فاهتزت به الأرض وربت، وأخذت زخرفها وتزينت وبلغت غاية حسنها، ونهاية بهجتها، وهنا وقد أصبح كل شيء على أحسن ما يرام، وأجمل ما يُرى، جاءت اللحظة الحاسمة ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً﴾، والليل والنهار في هذه الدنيا يجتمعان، ولكن في أمكنة مختلفة فهنا ليل وهناك نهار، وماذا بعد ذلك؟ ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ هكذا بهذه الفاء الدالة على التعقيب التي لا تدع مهلة، ولا تقبل تسويفاً.

٢- الآخرة:

أول ما يلفت الانتباه أن القرآن الكريم وهو يبين للناس أمر البعث، وحقيقة الآخرة، لم تكن أدلته من ذلك النوع التجريدي، البعيدة عن مواطن التأثير، فجعل من اسلوب التشبيه، ومن أبرز عنصرين فيه وهما: الحسّ والنفس، البرهان الساطع، والدليل القاطع، على اثبات هذه القضايا الخطيرة الشأن اقرأ قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل ٧٧]. وقضيةُ البعث في الحقيقة أخطر قضية، لأن كل ما بعدها ينبني عليها، وها هو القرآن الكريم يسلك في ذلك أيسر المسالك، وأسهلها وأبعدها عن التعقيد، استمع إليه

يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف ٢٩]، ومن الذي يستطيع أن ينكر وجوده وأن له بداية؟، العود كالبدء، ذلك تشبيه بسيط سهل لا ينازع فيه صاحب فطرة سليمة، وعقل سوي، فهو يبعثكم كما خلقكم.

وإذا كان هذا التشبيه يستند إلى الانسان نفسه، فهناك تشبيه آخر يستند إلى ما حول هذا الانسان، مما لا تتنازع فيه الحواس، بل هو مما يجتمع عليه جميع الناس، نقرأ قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ، فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف ٥٧]، هذا هو المشبه، أترى أن أحداً يمكن أن ينازع فيه؟ أليست الرياح تحمل سحباً تساق إلى الأرض الهامدة الميتة الخاشعة؟ ينزل عليها الماء، وتخرج به الثمرات المختلفة، أما المشبه به فهو ما ختمت به الآية ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف ٥٧]، فإذا كان المشبه أمراً فطرياً فلم لا يكون المشبه به كذلك؟ أليس العقل والحس والنفس، تشترك كلها في اثبات هذا التشبيه؟ ولما كانت هذه القضية أكثر شأناً وخطراً من غيرها عمد القرآن إلى تثبيتها في النفوس في أكثر من موضوع، وبأكثر من اسلوب، والذي يعنينا اسلوب التشبيه ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف ١١]، ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر ٩]، ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق ١١].

وبعد قضية البعث نجد تصويراً لمشاهد كثيرة من مشاهد الآخرة باسلوب التشبيه، نكتفي بذكر بعضها:

(١) فيشبه الناس تارة بالفراش المبثوث. ومن ذا الذي يجهل الفراش وهو يتدافع إلى الضوء؟ ويشبهون تارة ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج ٤٣]، وكيف تكون حالتهم وهم يتدافعون بسرعة، وقوة حركة لصنم، سواء كان من أصنام الجاهلية الأولى أم من أصنام القرن العشرين، وتارة يشبهون بالجراد المنتشر، وللجراد في تصور الناس – حتى في عصرنا هذا – ايحاءات معروفة لا تنكر، فهم اليوم يحاربونه بالطائرات.

(٢) أما الجبال فتارة تشبه بالعهن المنفوش، ومن الذي يجهل الصوف في لينه وخفته؟ ولكنها في مرحلة أخرى تشبه بالسحاب ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل ٨٨]، إن قلنا إن الآية تتحدث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة، وهناك تفسير آخر للآية الكريمة، واسلوب التشبيه واردٌ على كلا التفسيرين. وتارة كالكثيب المهيل من

الرمل، وهي مراحل مختلفة تمر بها الجبال، أعني هذه التشبيهات كل منها يدل على مرحلة لها وقتها الخاص بها.

(٣) والسماء الصافية المتلألئة كما نراها في دنيانا، سيكون لها شأن آخرُ يوم القيامة.

- قال تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن ٣٧].

- وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج ٨].

فالآية الأولى ذُكر فيها تشبيهان - وسيمر بك بعض الآيات التي تتحدث عن الآخرة فيها تشبيهان كذلك - شُبهت السماءُ بالوردة أولاً وهي النَّوْرةُ المعروفة بشدة حمرتها، وذهب بعض اللغويين من المفسرين إلى أن المقصود بالوردة هنا ليست النوره - أعني الوردة المعروفة للناس - إنما هي الفرس الوردي الذي يتغير لونه بتغير فصول السنة[١].

أما التشبيه الثاني فهو تشبيه السماء بالدهان - والدهان جمع دهن - فلأن السماء يعتريها في ذلك اليوم العظيم ألوانٌ ونَوْبٌ وتميُّع وهكذا نجدُ أنَّ كلَّ تشبيه من التشبيهين يؤدي غرضاً؛ فالأول: تشبيه من حيثُ شدة الحمرة، والثاني من حيث التموُّج والذوبان.

وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ المهل: هو دُرْدِيُّ الزيت أي عَكَرُه ومن الذي لا يعرف عكر الزيت، كما يطلقُ المهلُ على مائع الفلزّ المذاب، وهو تشبيهٌ لايخلو من رعب ورهبة؛ فهذه السماءُ الصافية المتلألئة التي لا زالت توحي إلى الشعراء وتبعث في نفوسهم بديع القول وروعة الصنعة ستتحولُ يوم القيامة إلى هذا اللون من العُكرة والكدورة التي تبعث الرُعبَ والخوف في قلوب الرائين وأعينهم.

(٤) أما الجنَّةَ فتجد أن اسلوب التشبيه الذي جاء في كتاب الله يضع الصورة أمامك، ليأنس بها القلب، أو تنخلع لها النفس، فالجنة عرضها كعرض السماوات والأرض، وانظر ماذا يحدث هذا التشبيه في النفس؟ عرض السماء والأرض، أيُّ سعة تلك؟ وأنى للنفس أن تحيط بذلك؟!.

(٥) أما الحور العين فتارة يُشَبَّهْنَ بالياقوت والمرجان، وتارة بالبيض المكنون، وتارة باللؤلؤ، ولا تظنن أن الغاية من هذه التشبيهات كلها شيء واحد، إن كل تشبيه يهدف إلى غرض معين، وله ايحاؤه الخاص، فالتشبيه بالياقوت والمرجان، المراد منه الصفاء والنقاء، وأما التشبيه

---

(١) وهذا ما ذهب إليه الفراء، حيث قال: (اراد بالوردة الفرس، الوردة تكون في الربيع وردةً إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردةً حمراء فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة، فشبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل). معاني القرآن للفراء ٣/١١٧.

باللؤلؤ فَيَجْمَعُ إلى ما تقدم النفاسةَ، وكلها مما تتخذه النساء زينة لهن، وهذه الصلة بين المشبه والمشبه به مما تزيد النفس تأثراً وتفاعلاً وتعلقاً بهذا التشبيه، وأما التشبيه بالبيض فيشير إلى الرقة، وشدة الحساسية وما يتطلبه ذلك من قوة الملاحظة، والمحافظة، هذا عن الجنة، فماذا عن النار؟!.

(٦) أما النار فإنها تَرمي بِشَرَرٍ كَالقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ، فهما تشبيهان:

- الأول: تشبيهها بالقصر: وهو البيت من الحجر كما هو معروف عند العرب، وقيل: القصر: قِطع الحطب الغليظ، والأول أرجح وأولى، وهو تشبيه من حيث العِظَم، أي أن الشرارة الواحدة من شرر جهنم تشبه القصر في عِظَمها.

- **أما التشبيه الثاني:** فهو قوله تعالى: {كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ} فكما شبه شرر جهنم بالقصر من حيث عِظَمُها، شبهه بالجمالات الصفر - وهي جمع جمل - من حيثُ شكلها ولونها وكثرتها، وهذا تشبيهٌ جارٍ على سنن العرب؛ فالذي يتتبع أقوال الشعراء في الجاهلية وبعدها يجدُ مثل هذه التشبيهات، وللعرب تشبيهاتٌ بديعة تدلُّ على ذكاء واريحية وفطرةٍ ذكية وسليقة درّاكة، ألا تراهم قد شبهوا النوق وهي واقفةٌ بالقصور بينما شبهوها وهي سائرةٌ بالصقور فقالوا: (إنْ وَقَفْنَ فَمَجَادِلْ أو مَرَرْنَ فَأجَادِلْ) والمجادل القصور، والأجادل الصقور.

ولا تعجبن من قرن الجمال الصفر بالقصور الحمر في الذكر، ولا من الجمع بينهما في التشبيه، فإنك إذا نظرت إلى قريةٍ من قرى العرب وقصورها، أي أبياتها الصغيرة المحمرّة أو المصفرة بلون طينها أو ترابها أو حجارتها، يتخللها ويسرح في جنباتها نياق وجمالٌ مصفرة اللون أو مسودته، إذا وقع نظرك على ذلك لمحت أجساماً صغيرة حمراء أو صفراء أو سوداء، هذه البيوت هنا، وتلك الجِمالُ هناك في مشهدٍ واحدٍ، وإذ ذاك لا تعود تستغرب قرنهما معاً في الذكر.

وإنما منشأ استغراب هذه الأمثلة من قبل بعض الناس الجهلُ بأحوال العرب وأطوار معيشتهم واساليب حياتهم، الأمر الذي روعي من قبل القرآن الكريم في آياته واساليب خطابه)[١].

(٧) أما شجرة الزقوم، فهي طعامُ الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم، أما طلعها فكأنه رؤوس الشياطين.

---

(١) تفسير جزء تبارك / عبد القادر المغربي ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

تلك بعض تشبيهات القرآن الكريم، وتلحظ ممّا سبق:

أولاً: أن القرآن الكريم يعمد إلى اسلوب التشبيه في القضايا الخطيرة ذات الشأن، فهو لا يأتي بهذا الاسلوب إلا حينما يكون هناك أمر يراد تقريره وتثبيته في النفوس، وهذا ما يجعله يختلف عن كثير من التشبيهات عند الناس.

ثانياً: أن تشبيهات القرآن كلها لا تخلو عن كونها تشبيه محسوس بمحسوس أو معقول بمحسوس اللهم إلا تشبيهين اثنين:

أحدهما قوله سبحانه: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات ٦٥]، فإن المشبه به مما لا يدرك بالحواس، ولكن لما كان ذلك مما لا تنكر النفوس صورته، بل لا تجد نفساً إلاّ وتشمئز من هذه الصورة شبه به القرآن.

والتشبيه الثاني: قوله سبحانه في شأن عصا موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص ٣١]، إذا فسرنا الجانّ بذلك المخلوق من النار، ووجه الشبه الخفة وسرعة الحركة، وهو ما نختاره، ولكن أكثر المفسرين على أن الجانّ هي الحية الصغيرة، فيكون من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس.

ثالثاً: أن تشبيهات القرآن الكريم منها ما هو مفرد ومنها ما هو مركب، وهو تشبيه التمثيل كما عرفت من قبل.

(كذلك) في كتاب الله:

وللأستاذ أحمد أحمد بدوي - رحمه الله - في كتابه من بلاغة القرآن بحث قيم عن تشبيهات القرآن، تحدث في آخره عن صيغة (كذلك) في كتاب الله، وهو يرى أنها تجيء أكثر ما تجيء لمعان ثلاثة:

(١) التشبيه في مثل الآيات التي تحدثت عن البعث - التي ذكرناها لك من قبل - وفي مثل قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم ٣٣]، في آخر قصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين.

(٢) أن تكون بمعنى (مثل) في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف ٤٠]، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف ٤١].

(٣) أن تأتي لتحقيق الأمر وتثبيته، في مثل قوله سبحانه: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ...﴾ [آل عمران ٤٧]، فهو يرى أنها في هذين المعنيين لا تصلح للتشبيه وأن حملها على التشبيه فيه تمحل، وكثير من المفسرين ذهب إلى غير هذا، ولكل وجهة.

(الكاف) في كتاب الله:

أما الكاف فتأتي في القرآن أحياناً لا لهذا التشبيه الفني الخالص، بل لايقاع التساوي بين أمرين، ومن أمثلة هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة ٦٨ - ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ [المزمل ١٥]، فهي موازنة بينهم وبين من سبقهم، فيها بيان لما يتفقون فيه معهم، وتذكير لما أصاب أولئك السابقين ليتبصروا بما ينتظرهم من العواقب، وإنها لطريقة مؤثرة في النفس حقاً، أن تضع لها شبيهاً، وتتركها لتصل إلى النتيجة في سكينة وهدوء، لا أن تقذف بها في وجهها، فربما تتمرد وتثور.

ومن كاف التساوي، أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء ١٦٣]، وقد يلمح في ذلك الرغبة في ازالة الغرابة عن نفوس السامعين، واستبعادهم نزول الوحي على الرسول، فالقرآن يقرنه بمن لا يشكون في رسالته ليأنسوا بدعوة النبي، وقد يكون هذا التساوي مثاراً للتهكم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام ٩٤] أو مثاراً للاستنكار كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت ١٠]، فسر الاستنكار - كما ترى - هو تسوية عذاب الناس بعذاب الله.

وقد تأتي الكاف وسيلة للايضاح، وتقوم هي وما بعدها مقام المثال للقاعدة، وغيرُ خافٍ ما للمَثَلِ يُضْرَبُ من التأثير والاقناع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران ١٠]، فجاء بآل فرعون مثالاً لأولئك الذين لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً. ومن كاف الايضاح قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن ١٤]، وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة ١١٠].

ونكتفي بما ذكرناه من التشبيه في كتاب اللّه تعالى ولا ننسى أن نذكرك بأن هذا الموضوع له عناية خاصة من العلماء ومنهم ابن ناقيا البغدادي في كتابه (الجمان في تشبيهات القرآن)[1].

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٢١٢ بتصرف.

هل في القرآن تشبيه مقلوب

ذهب بعضُ الكاتبين إلى أن بعض التشبيهات القرآنية هي من التشبيه المقلوب الذي مرّ بك من قبل، ومنه قول محمد بن وهيب[1]:

وَبَدَا الصَّبَــاحُ كَــأَنَّ غُرَّتَــــهُ ... وَجْــهُ الخَلِيفَــةِ حِــينَ يُمْــتَــدَحُ

إذ الأصل أن يشبه وجه الخليفة بغرّة الصباح، وجعلوا من هذا بعض الآيات القرآنية:

(١) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة ٢٧٥].

(٢) ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل ١٧].

(٣) ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب ٣٢]

(٤) ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم ٣٥].

والذي يبدو لي أن الأمر ليس كما ذُكر، بل إنّ كل تشبيه من هذه التشبيهات جاء على صورته من غير ما قلب ولا عكس وإنّ كلَّ آيةٍ من هذه الآيات الكريمات جاء التشبيه فيها متسقاً مع السياق الذي ذُكرت فيه.

– **أما الآية الأولى:** فقد بالغوا في حلّ الربا حيث جعلوه الأصل وشبهوا به البيع، ولقد فطن الزمخشري – رحمه الله – وهو مَن هو في كشف اللثام عن ثغر البلاغة فقال: «فإن قلت: هلاّ قيل: «إنما الربا مثلُ البيع» لأن الكلام في الربا لا في البيع، فوجب أن يقال: إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه»[2].

– **وأما الآية الثانية:** فأنقل لك ما قال القاضي البيضاوي: «وكان حقُّ الكلام «افمن لا يخلق كمن يخلق»، لكنه عكس تنبيهاً على أنهم بالإشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيهاً بها»[3].

– **أما الآية الثالثة:** فالهدف منها الإلهاب؛ أي حث أمهات المؤمنين أن لا يكُنَّ كغيرهن

(١) سبق هذا البيت ص ٣٧.

(٢) الكشاف جـ١ البقرة آية ٢٧٥

(٣) تفسير البيضاوي، ٢/٢٢٣.

من النساء، لذلك جاء النظم الكريم على ما هو عليه ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَآءِ﴾، ليس الغرض إذاً تشبيه النساء بهن، فلم يكن النظم «ليس أحدٌ من النساء مثلكن».

– **أما الآية الرابعة:** فينبغي أن نلحظ فيها أنها مكية بل كانت مما نزل مبكراً في مكة المكرمة وكان كفار مكة لا يرضون أن يكونوا مثل المسلمين فكانوا يرون أن لهم العزة في الدنيا ولو كانت هناك آخرة لكانوا كذلك فقال الله تعالى:﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أي لن يكون المسلمون مثلكم، وستكون لهم العزة في الدنيا والآخرة.

والرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي فُضّل بجوامع الكلم كان لاسلوب التشبيه والتمثيل في حديثه الأثر الطيب، حثاً على فضيلة، وترغيباً في خير، أو تحذيراً من رذيلة، وتنفيراً من شر، والحق أن الموضوعات التي عرض لها اسلوب التشبيه في السنة المطهرة موضوعات خطيرة من جهة، وكثيرة من جهة أخرى، وفي كثير من الأحيان كان عليه وآله الصلاة والسلام يعمد إلى التصوير العملي ليكون وسيلة ايضاح لما يريد.

فها هو صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه يعمد إلى الأرض ليخط خطوطاً كثيرة معوجة ومتعرجة ويخط خطاً واحداً مستقيماً[(١)]، والصحابة رضوان الله عليهم ينظرون ويقول لهم: هذه كلها طرق الشيطان وسبله، وهذا صراط الله وسبيله ويقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام ١٥٣]، فانظر إلى أي مدى يمكن أن يؤثر هذا الاسلوب في النفس، لا ريب في أن له عظيم الأثر وكبير الفائدة ونحن نتأثرُ لمجرد سماعه فما بالك بالذين شاهدوه.

وقد يرى النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ما فيعمد إلى أن يقرر حقيقة لأصحابة ولمن بعده، فها هو وقد رأى سقطاً من المعز فيسأل أهانت هذه على أصحابها؟ فيقول لَلدُّنيا أهون على الله من هذا عليكم[(٢)]، فانظر إلى هذا التشبيه في ذلك القالب البديع.

وها هو صلى الله عليه وسلم يشبه المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به بالأُتْرُجَّة، وهي فاكهة ذات طعم طيب، وريح طيب، ويشبه المؤمن الذي لا يقرأ القرآن بالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ويشبه المنافق الذي يقرأ القرآن بالريحانة ريحها طيب ولا طعم لها، ويشبه المنافق الذي لا يقرأ القرآن بالحنظلة طعمها مر وليس لها ريح.

قف بربك مع هذا التشبيه وفكر فيه ملياً، وانظر إلى وجه الشبه في هذه التشبيهات الأربعة، ومطابقته للمشبه والمشبه به، وخذْ تشبيه المؤمن بالأترجة في الطعم والريح لأنه يقرأ ويعمل، ولكن الذي يزيد الأمر روعة أنك لو وقفت مع الحديث جيّداً وجدت أن الطعم جاء وجه شبه للعمل، والرائحة جاءت وجه شبه للقراءة، فالمؤمن الذي يقرأ يشبه بالأترجة في ريحها،

---

(١) رواه ابن ماجة - المقدمة - باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والحديث: عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فخط خطاً، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده على الخط الوسط فقال: «هذه سبيل الله» ثم تلا هذه الآية: {وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوهُ ولا تَتَّبعوا السبل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله}.

(٢) رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق ٢٢٧٢/٤.

والذي يعمل يشبه بها في طعمها، فهو من التشبيه المتعدد كما عرفت من قبل. أما المؤمن الذي يعمل ولا يقرأ فقد شبه بالتمر من حيث الطعم، وهكذا يمكن أن تفهم الحديث هذا الفهم في بقية أجزائه «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»(١).

وانظر إلى هذا التشبيه المركب حيث يشبه النبي صلى الله عليه وسلم من يصلي الصلوات الخمس بالذي يغتسل في اليوم خمس مرات، لا يبقى من درنه شيء «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار عذب على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فما يبقى من درنه شيء»(٢).

واستمع إلى تشبيه المؤمن للمؤمن بالبنيان يشد بعضه بعضاً، وقف أمام هذا الحديث طويلاً، واستعرض أمراض المسلمين وعللهم، وستجد أن لا علاج لها إلا بهذا القول: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»(٣).

واستمع إليه صلى الله عليه وسلم يشبه المؤمنين في «توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٤).

وسأذكر لك طائفة من هذه الأمثال والتشبيهات الرائعة لتكون مادةً لك في المعرفة والهداية:

يقول صلى الله عليه وسلم:«مثل المؤمن كمثلِ الخامَة من الزَّرع تُفيِّئُها الريحُ مرة وتعدلها مرة، ومثل المنافق كمثل الأرْزَةِ لا تزال حتى يكون انْجِعافُها مرة واحدة»(٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: «مثلُ البخيل والمُنْفِق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد من ثُدْيِّهِما إلى تَراقِيِّهما، فأما المنفق فلا ينفق شيئاً إلا سَبَغَتْ أو (وفرت) على جلده حتى تخفيَ

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب فضائل القرآن على سائر الكلام ١٩١٧/٤.

(٢) رواه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات ٤٦٣/١.

(٣) رواه البخاري كتاب «الأدب» باب «تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً» ٢٢٤٢/٥.

(٤) رواه البخاري، كتاب «الأدب» باب «رحمة الناس والبهائم» ٢٢٣٨/٥.

(٥) رواه البخاري كتاب التوحيد، باب (في المشيئة والارادة ٢٧١٦/٦. ورواه مسلم كتاب (صفات المنافقين وأحكامهم)، باب (مثل المؤمن كالزرع، ومثل الكافر كشجر الأرز).

الخامة: الطاقة القَضَّة اللينة من الزرع، تفيئها: أي تميلها، الأرز شجر حرجي من الصنوبريات، انجعافها: الانجعاف الانقلاب.

بَنَانَه وتعفُوَ أثَرُهُ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لَزِقَت كلُّ حلقةٍ مكانها فهو يُوسِّعها فلا تَتَّسع»(١)، تراقيهما: جمع ترقوة، وهي العظم البارز أعلى الصدر،، من رأس الكتف إلى ثغرة العنق. سبغت: امتدت وغطت، وفرت: كملت ونمت، تعفو أثره: تمحوه، لزقت كل حلقة: التصقت وضاقت عليه.

ويقول صلى الله عليه وسلم «تعرضُ الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً فأَيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سوداء وأيُّ قلبٍ أنكَرها نكت فيه نكتةٌ بيضاء حتى تصير على قلبين؛ على أبيضَ مثلِ الصَّفا فلا تَضُرُّه فتنةٌ ما دامت السماواتُ والأرضُ والآخر أسود مُربادّاً كالكُوزِ مُجَخِّياً لا يَعرفُ معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشرب هواه»(٢). أشربها: أي دخلت فيه دخولاً تاماً وحلت منه محل الشراب، نكت فيه نكتة: أي نقط نقطة، الصفا: هو الحجر الأملس الذي لا يلصق به شيء، مربادّاً: أي مختلطاً سوادُه بكدره، مجخياً: مائلاً.

ويقول صلى الله عليه وسلم: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها اجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»(٣).

اجادب: جمع جَدْب وهي الأرض لا تشرب الماء ولا تنبت، قيعان: جمع قاع: الأرض المستوية الملساء.

ويقول صلى الله عليه وسلم: «مَثَلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فاحسنها وأكملها وأجملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يَطُوفُونَ بالبنيان، ويعجبون منه ويقولون: لو تمّ موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»(٤).

ويقول صلى الله عليه وسلم: «مثلي كمثل رجلٍ استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَه فَيَقتَحِمْن فيها فذلك مثلي ومثلكم أنا آخُذُ بِحِجَزِكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون معها»(٥).

---

(١) رواه البخاري - كتاب (الزكاة)، باب (مثل المتصدق والبخيل)، ٥٢٣/٢ ورواه مسلم في الزكاة، باب (المنفق والبخيل)، رقم ١٠٢١.

(٢) رواه مسلم - كتاب (الايمان)، باب (بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً)، ٢٣١/١.

(٣) رواه البخاري، كتاب (العلم)، باب (فضل من عَلِمَ وَعلّم) ٤٢/١. ورواه مسلم، كتاب (الفضائل)، باب (مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم).

(٤) رواه البخاري، كتاب (المناقب)، باب (خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم) ١٣٠٠/٣.

(٥) رواه البخاري - كتاب (الرقائق)، باب (الانتهاء عن المعاصي)، ٢٣٧٩/٥.

ورواه مسلم - كتاب (الفضائل)، باب (ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين) ١٧٩٠/٤.

ويقتحمن: يهجمن ويرمين بأنفسهن، آخذ: أمسك بشدة، بحجزكم: جمع حجزه وهي معقد الإزار، وهو كناية عن وصيته صلى اللّه عليه وسلم على منع أمته من الأتيان للمعاصي التي تؤدي إلى النار.

ويقول صلى اللّه عليه وسلم: «اسمعوا وأطيعوا، ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[١].زبيبة: هي حبة العنب اليابسة والتشبيه من حيث السواد وقصر الشعر وشدة تجعده.

---

(١) رواه البخاري، كتاب (الأحكام)، باب (السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصيته)، ٢٦١٢/٦.

اغراض التشبيه وبلاغته

أغراضه:

الغرض الأساسي من التشبيه التأثير في النفس، فكلما كان التشبيه أكثر تأثيراً في النفس كان تشبيهاً فنياً بليغاً مقبولاً، وقد حاول العلماء أن يستقصوا اغراض التشبيه وهم يستقرؤون كثيراً من الأقوال البليغة، فوجدوا أن الغرض من التشبيه إنما يرجع إلى المشبه وهذا هو الأكثر، وقد يرجع إلى المشبه به، وإليك خلاصة ما قالوه:

أولاً: فمما يرجع فيه الغرض إلى المشبه:

(١) بيان امكان المشبه، ومعنى هذا أن المتكلم يأتي بالمشبه فيظن المستمع أنه غير ممكن التحقق، فيأتي بالمشبه به ليثبت هذا الامكان ويبرهن عليه. انظر إلى قوله * قد يشيب الفتى * ولا شك أن المستمع قد يقف من هذا القول موقف الإنكار، فأراد الشاعر أن يصور له هذا الأمر بصورة الممكن فقال:

قَدْ يَشيبُ الفَتَى وَلَيْـــسَ عَجِيـــباً   أنْ يُرَى النُّوْرُ في القَضِيـــبِ الرَّطِـــيبِ

وانظر إلى قوله * وما أنا منهمُ بالعيش فيهم * وهذه قضية حرية أن يرتاب فيها المرتابون، فأراد الشاعرُ أن يبين أن هذا الأمر ممكن لا ينبغي أن يرتاب فيه فقال:

وَمَا أنَاْ مِنْهُـــمُ بِالْعَيـــشِ فِيِهـــمْ   وَلكـــنْ مَعْـــدِنُ الذَّهَـــبِ الرُّغَـــامُ

ألا ترى أنه جاء بالمشبه به هنا ليثبت امكان المشبه؟ كأنما ينكر على الذين يرتابون في امكان هذا التشبيه وتحققه، ومثل هذا قول المتنبي:

فَإنْ تَفُقِ الأنـــامَ وَأنْـــتَ مِنْهُـــم   فَإنَّ المِسْـــكَ بَعْـــضُ دَمِ الغَـــزَالِ

(٢) تقرير حال المشبه حتى تتضح صورته في النفس، ويثبت في القلب ثبوتاً يصل بك إلى اليقين، ومنه قوله سبحانه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد ١٤]، ومنه قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾ [العنكبوت ٤١]، وأكثر التشبيهات في كتاب اللّه تعالى يظهر فيها هذا الغرض واضحاً جلياً، فهي لتقرير حال المشبه وتثبيته في النفس، لتُقدمَ أو تُحجِم، ومنه قولهم: «الساعي في غير طائل كالراقم على الماء»، «الطامع في النصر من أعدائه كمن يرجو من السمّ علاجاً لدائه».

(٣) بيان مقدار المشبه، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَب﴾ [النحل ٧٧]، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم وهو يشبه الانسان في هذه الدنيا بمستظل تحت شجرة: «مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»(١).

ومنه قول الشاعر:

مَا العُمْرُ إلاَّ لَيْلَةٌ كَأَنَّ الصَّبَاحَ لَهَا جَبِينُ

ويمثلون له بقول عنترة(٢):

مِنْهَا اثْنَتَانِ وأَرْبَعُونَ حَلُوبَةً سُودًا كَخَافِيَةِ الغُرَابِ الأسحَمِ

(٤) بيان حال المشبه، ومنه قول البوصيري:

والنَّفْسُ كَالْطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «الناسُ كإبلٍ مائة لا تجد فيها راحلة»(٣) ويمثلون له بقول بشار(٤):

إذَا قَامَتْ لِمِشْيَتِهَا تَثَنَّتْ كَأَنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْزُرانِ

(٥) تزيين المشبه، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَان﴾ [الرحمن ٥٨]، وقول ذي الرمة(٥):

كَحْلاءُ في بَرَجٍ صَفْرَاءُ فِيَ نَعَجٍ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ

ومنه قول أبي حسن الأنباري(٦):

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ احْتِفَالاً كَمَدِّهِمَا إِلَيْهِمْ بِالْهِبَاتِ

---

(١) رواه الترمذي: كتاب الزهد – باب (ما أنا في الدنيا إلا كراكب) وقال حديثٌ حسنٌ صحيح.

(٢) شرح ديوان عنترة ص ٢٠٥. والخافية: إحدى ريشات أربع إذا ضم الطائر جناحه خفيت.

(٣) سبق تخريجه ص ٢٧.

(٤) ديوانه ١٩٨/٤.

(٥) العمدة ٢٤/٢، ديوانه ٢٠/١. الكحلاء: الشديدة السواد، التي كأنها مكحولة، والبرج: احداق بياض العين بالسواد كله، والنعج: الأبيضاض الخالص.

(٦) ديوان المعاني ١٧٩/٢، اليتيمة ٣٤٤/٢ – ٣٤٥.

(٦) تقبيح المشبه، ويمثلون له بقول القائل:

وإذا أشَــارَ مُحَــدِّثاً فَكَأنَّـــــهُ قِردٌ يُقَــهْقِــهُ أوْ عَجُـــوزٌ تَلْطِـــمُ

ومنه قول اعرابي في وصف امرأته:

وتَفْتَـحُ - لا كانت - فَمــاً لَـوْ رَأيْتَـهُ تَــوَهَّمْتَــهُ بَـابَـاً مِــنَ النَّــارِ يُـفتَـــحُ

(٧) وقد ذكروا من اغراض التشبيه: استطراف المشبه وذلك إما لتصويره في صورة ما يمتنع في العادة، وإما لغرابة الصلة بين المشبه به والمشبه، ومثلوا للأول بتشبيه الجمر الموقد ببحر من المسك وبقول الشاعر:

وكَأنَّ مُحْــــمَـــرَّ الشَقِـــيـــقِ إذَا تَـــصَـــوَّبَ أوْ تَصَـــعَّـــدْ

أعْــــلامُ يَـــاقُـــوتٍ نُشِـــرْنَ عَلَــى رِمَـــاحٍ مِـــنْ زَبَــرْجَـــدْ

ومثلوا للثاني - وهو غرابة الصلة بين المشبه والمشبه به - بقول الشاعر:

أنْظُرْ إلَيْهِ كَــزَوْرَقٍ مِــنْ فِضَّـــةٍ قَدْ أثْقَـلَتْــهُ حُمُــولَةٌ مِــنْ عَنْبَــرِ

ثانياً: ما يرجع الغرض فيه إلى المشبه به:

وذلك في التشبيه المقلوب أو المعكوس، وهو أن تجعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً، كما تقول: «كأن رقة النسيم خلقه» ومن قول محمد بن وهيب[١]:

وبَدا الصَّبَـــاحُ كَــأنَّ غُرَّتَـــهُ وَجْـــهُ الخَلِـيفَـــةِ حِـــينَ يُمْتَـــدَحُ

ولا بد أن ننبه هنا إلى أن أغراض التشبيه كثيرة لا تنحصر فيما ذكرناه لك، ويمكنك أن تدركها بذوقك وفكرك، ولا تنس أن الغرض الرئيس هو ما يحدثه التشبيه في نفسك لتتفاعل معه فيروقك ويؤنسك.

(١) الصناعتين ٤٦، ٣٦٤ - سر الفصاحة ٢٥٣.

بلاغة التشبيه

أما بلاغة التشبيه فقد حدثناك عن طرف منها غير يسير فيما مضى عندما حدثناك عن اسباب تاثيره، وأسباب غرابته. ونزيدك هنا بأن أسلوب التشبيه مع ما فيه من اثراء أدبي. وجمال فني، وابداع في التصوير، وصورة حية وضاءة، وايقاظ للهمة، وتفتيق لأكمام الأفكار، فإنه مع ذلك كله ميدان يتسابق فيه فحول البلغاء، فيجود هذا تارة وذاك أخرى، كما يتسابق الرماة في اصابة الهدف لذلك نجد الشيء الواحد يظهر في صور مختلفة متعددة يبرزه كلٌ بالصورة التي يرتئيها وإن شئت فقل التي تبدعها قريحته. يقول الشيخ عبد القاهر: «وإنه ليأتيك من الشيء الواحد باشباه عدة ويشتق من الأصل الواحد أغصاناً في كل غصن ثمرة على حدة» ومثاله:

(١) الزند: فقد ضربوا الزند الواري مثلاً للجواد الكريم. كقول الحريري[١]:

لا، ولا رَامَ قَابِسٌ قَدْحَ زَنْدِي فَأَصْلَدَا

أي لم يطلب مني أحد شيئاً فبخلت به، ويضرب للذكي الفطن، وللناجح في أموره الظافر بمراده، قال ابن الرومي في اسماعيل بن بلبل[٢]:

مُبَارَكُ الوَجْهِ مَيْمُونٌ نَقِيبَتُهُ يُوْرِي الزِّنَادَ بِكَفَّيْهِ إذَا قَدَحَا

يريد: أنه موفق كلما طلب أمراً حصل عليه كما يحصل القادح للزناد على مراده.

كما ضربوا الزند المصلد مثلاً للبخيل الذي لا يعطي، وللبليد الذي لا يفهم، وللخائب في سعيه.

(٢) القمر وله أحوال كثيرة يمكن أن يشبه به:

أ- يشبه من ناحية الشهرة والنباهة كقولك:«كيف أعرفك بفلان؟ وهل يخفى القمر»؟.

ب- يشبه من جهة الكمال بعد النقصان، قال أبو تمام في رثاء طفلين[٣]:

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الشَّوَاهِدِ مِنْهُمَا لَوْ أُمْهِلَتْ حَتَّى تَصِيرَ شَمَائِلا

---

(١) مقامات الحريري، ص ٤٢٩، المقامة الثامنة والأربعون (الحرامية)، رام: طلب، قابسٌ: طالبُ النار، قدح زندي: استخراج ناره، فأصلدا: أي لم يصب.

(٢) ديوانه ٥٦١/٣، قصيدة (ميمونٌ نقيبته). ميمون النقيب: محمود ومشكور المختبر، يوري الزناد: يخرج ناره.

(٣) ديوانه ٣٨٠، ديوان المعاني ١٧٨/٢. الشواهد: المخايل، حجىً: عقلاً وتعقلاً، الحلم: كبر النفس والعقل، الأريحيّة: الميل إلى العطاء، النائل: العطاء، ومعنى البيت الأول: (أنه باتت فيها شواهد المكرمات إلاّ أن الموت حال دون أن تكتمل حتى تصير صفاتٍ حقيقية.

لَغَدا سكُونُهُما حِجَىً وصِبَاهُما حِلْماً وَتِلْكَ الأرْيَحِيَّةُ نَائِلا

إنَّ الهِلالَ إذا رأَيْتَ نُمُوَّهُ أيْقَنْتَ أنْ سَيَصيرُ بَدْراً كَامِلا

ومنه قول البحتري يمدح ابن كنداح القائد(١):

شَرَفُ تَزَيَّدَ بالعِراقِ إلى الّذِي عَهِدُوهُ بِالبَيْضَاءِ أوْ بِبَلَنْجَرا

مِثْلُ الهِلالِ بَدَا فَلَمْ يَبْرَحْ بِهِ صَوْغُ اللَّيَالِي فِيهِ حَتَّى أقْمَرَا

جـ – ويشبه بالقمر: في كماله بعد النقص، ثم نقصه بعد الكمال، كقول أبي الحسن أحمد بن أبي بغل(٢):

المرءُ مِثْلُ هِلالٍ حِينَ تُبْصِرُهُ يَبْدُو ضَئَيلاً ضَعِيفاً ثُمَّ يتَّسِقُ

يَزْدَادُ حَتَّى إذا مَا تَمَّ أعْقَبَهُ كَرُّ الجَدِيدَيْنِ نَقْصَاً ثُمَّ يَنْمَحِقُ

د– ويشبه كذلك بكمال النصف، كقول ابن بابك(٣):

وأعَرْتَ شَطْرَ المُلْكِ ثَوْبَ كمالِهِ والبدْرُ في شَطْرِ المسافةِ يكمُلُ

هـ – وترى البدر إذا كان قليل النور قل ظهوره ليلاً أول الشهر وآخره، فإذا امتلأ طال مكثه. ومنه قول أبي بكر الخوارزمي(٤):

أرَاكَ إذَا أيْسَرْتَ خَيَّمْتَ عِنْدَنَا مُقِيْماً وَإنْ أعْسَرْتَ زُرْتَ لِمَامَا

فَمَا أنْتَ إلاّ البَدْرُ، إنْ قَلَّ ضَوْءُهُ أغَبَّ وَإنْ زَادَ الضِّيَاءُ أقَامَا

وجه الشبه اطالة المكث عند كثرة النفع واقلاله عند قلته.

و – ظهوره في كل مكان، كقول المتنبي يمدح علي بن منصور الحاجب(٥):

كَالبَدْرِ مِنْ حَيْثُ التَفَتَّ رَأيْتَهُ يُهْدِي إلى عَيْنَيْكَ نُوراً ثَاقِبَا

(١) ديوانه ٢٤٤/١، الموازنة ١٣٦، البيضاء وبلنجرا: مدينتان في بلاد الخزر، وصوغ الليالي: المقصود تشكيل الليالي للقمر من شكل إلى شكل.
(٢) نهاية الأرب ٥٢/١، كرّ الجديدين: أي تعاقب الليل والنهار.
(٣) اليتيمة ٣٤٣/٣.
(٤) اليتيمة ٢٢٤/٤، اللِّمام: اللقاء اليسير وهو جمع لِمّة.
(٥) ديوانه ٢٥٧/١.

ز- ومن أحوال البدر ما ترى من بعده، وارتفاعه، وقرب ضوئه وشعاعه، ومنه قول البحتري[(١)]:

دَانٍ إلى أَيْدِي العُفَاةِ وَشَاسِعٌ عَنْ كُلِّ نِدٍّ في النَّدَى وَضَرِيبِ

كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي العُلُوِّ وَضَوْؤُهُ للعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

(٣) البحر: وهذا له أحوال كثيرة:

أ- فقد يشبه به في غزارته وسعته وأنه لا ينضب، كقول المتنبي[(٢)]:

كَالبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَواهِراً جُوْداً وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا

ب - يشبه به الرجل العظيم لا تنال منه سفاهة السفهاء، كقول أبي امامة مولى عبد القيس:

وإنَا وَمَا تُلْقِي لَنَا إنْ هَجَوْتَنا فَكَالبَحْرِ مَهْما يُلقَ في البَحْرِ يَغْرَقُ

جـ - وتراه يرسب فيه اللؤلؤ وتطفو فوقه الجيف، وفي ذلك شبه ابن الرومي الزمان[(٣)]:

دَهْرٌ عَلاَ قَدْرُ الوَضِيعِ بِهِ وَهَوَى الشَّرِيفُ يَحُطُّهُ شَرَفُهْ

كَالْبَحْرِ يَرْسُبُ فيهِ لُؤْلُؤُهُ سَفْلاً وتَطْفُو فَوْقَهُ جِيَفُهْ

د - وقد يشبه به في أنه يستخرج منه الدر ولكنه لا يؤمَن إن هاج واضطرب، قال الغزيّ(٤):

هُوَ البَحْرُ لا يَأْسَ مِنْ دُرِّه ولا أَمْنَ مِنْ مَوْجِهِ إنْ طَمَا

(٤) السيف: وقد شبهوا به من جهات شتى:

أ - شبهت به العزيمة في المضاء كقول ابن الرومي يمدح عبيد الله بن عبد الله[(٥)]:

فَتىً عَزْمُه سَيْفُ حُسَامٌ وسَيْفُهُ قَضَاءٌ إذَا لاقَى الضَّرِيبَةَ مُبْرَمُ

---

(١) سبق هذان البيتان ص١٩.

(٢) ديوانه ٢/٢٥٧.

(٣) ديوانه ٢/٦٠٩، قصيدة (وهوى الشريف).

(٤) مختارات البارودي ٣/٤٨.

(٥) ديوانه ٣/٢٦١، قصيدة (خصيم الليالي).

ب - وقال ابن الرومي في معنى ثانٍ[١]:

فَبِذاتِ نَفْسِكَ ما يَكُـونُ بَهاؤُهـا ... وبِمـائِهِ كـانَ الحُسَـامُ صَقِيـلا

يقول: إن النفس لا يمكن افادتها البهاء إلا إذا كانت فيها قابلية واستعداد كما أن السيف لا يمكن جلاؤه وصقله إلا إذا كان فيه بقية ماء أما إذا أفسد معدن السيف فلن يعود صقيلاً.

جـ - ويضرب مثلاً لمن يكون عنده استعداد لأمر فلا تجدي محاولة افادته اياه. يقول أبو تمام[٢]:

والسَّيْفُ مَا لَمْ يُلْفَ فيـهِ صَيْقَـلٌ ... مِنْ طَبْعِـهِ لَـم يَنْتَفِـعْ بِصِقَـالِ

وتستطيع أن تعثر على غير ذلك مما شبهوا به من جهات عدة لا من حيث ما يدرك بالحس، بل من حيث ما يدرك بالعقل والرؤية [٣].

ولما في اسلوب التشبيه من روعة، ولما له من أثر في النفس، ولما فيه من تفاوت الصور التي يبرزها المتكلم، لذلك كله وغيره كان يتصدر مجالس الأمراء والخلفاء والأدباء، فيملأعليهم مجالسهم، وهم يتذاكرون ويتدارسون أقوال الشعراء، هذا يفضّل قولاً وذاك يفضل آخر، وهم يعقدون الموازنات بين هذه الأقوال، ونذكر لك مثالين من ذلك.

أما أحدهما فما رواه الشعبي «أن الوليد بن عبد الملك وأخاه مسلمة تنازعا ذكر الليل وطوله، ففضل الوليد ابيات النابغة في وصف الليل، وفضل مسلمة ابيات امرئ القيس، فحكما الشعبي بينهما، فقال الشعبي تنشد الأبيات واسمع، فأنشد للنابغة[٤]:

كِلِيني لِهَـمٍّ يَا أُمَيْمَـةُ نَاصِـبِ ... ولَيْـلٍ أُقَاسِيـهِ بَطِـيءِ الكَـوَاكِـبِ

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْـسَ بِمُنْـقَـضٍ ... وَلَيْسَ الّذي يَرعَـى النُّجُـومَ بـآيِـبِ

وصَـدْرٍ أراحَ اللَيْـلُ عَـازِبَ هَمِّـهِ ... تَضَاعَفَ فيهِ الحُـزْنُ مِـنْ كُـلِّ جَـانِـبِ

---

(١) ديوانه ٣/١٢٥، قصيدة (لا يعدموك) في مدح إبراهيم بن المدبّر.

(٢) ديوانه ص ٤٨٣، يقول: إذا لم يكن في السيف جودة حديد تحتمل الصقال لم يُنتفع بصقاله، وكذلك هذه الغزوة؛ لو لم يكن فيها تدبير من الممدوح - وهو المعتصم - لم يُنتفع بتدبير الوزراء.

(٣) راجع أسرار البلاغة، ودراسة تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ١٠٩ - ١١٨.

(٤) ديوانه ص ٤٣، كليني: أتركيني، ناصب: ذي نصب، وليس الذي يرعى النجوم بآيب: شبه النجوم في الجو بأنعام ترعى وتخيّلَ لها راعياً لم يرجع بها إلى مراحها، وصدرٍ: معطوف على (لِهَمٍّ)، اراحَ: أرْجَعَ إليه، عازب: بعيد، تضاعف: تكاثر.

ثم أنشد لأمرئ القيس[١]:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أرخى سُدُوْلَهُ ... عَلَيَّ بِأنْوَاعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلي[٢]

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطّى بِصُلْبِهِ ... وأرْدَفَ أعْجَازاً ونَاءَ بَكَلْكَلِ[٣]

ألا أيُّها اللَيْلُ الطَّويلُ ألاَ انْجَلي ... بِصُبْحٍ ومَا الإصبَاحُ مِنْكَ بأمْثَلِ[٤]

فَيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأنَّ نُجُومَهُ ... بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذبُلِ[٥]

قال فركض الوليد برجله، فقال الشعبي: بانت القضية.

قلت: افتتاح النابغة قصيدته بقوله:

كِليني لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ ناصِبِ

متناه في الحسن، بليغ في وصف ما شكاه، من همه وطول ليله. ويقال إنه لم يبتدئ شاعر قصيدة بأحسن من هذا الكلام، وقوله:

وصدرٍ أرَاحَ اللَيلُ عَازِبَ هَمِّهِ

مستعار من اراحة الراعي الإبل إلى مباتها، وهو كلام مطبوع سهل يجمع البلاغة والعذوبة، ألا أن في أبيات امرئ القيس من ثقافة الصنعة، وحسن التشبيه، وابداع المعاني، ما ليس في أبيات النابغة، إذ جعل للّيل صلباً، وأعجازاً، وكلكلا، وشبه تراكم ظلمة الليل بموج البحر في تلاطمه عند ركوب بعضه بعضاً حالاً على حال، وجعل النجوم كأنها مشدودة بحبال وثيقة فهي راكدة لا تزول ولا تبرح ثم لم يقتصر على ما وصف من هذه الأمور حتى عللها بالبلوى، ونبه فيها على المعنى، وجعل يتمنى تصرم الليل بعود الصبح لما يرجو فيه من الروح، ثم ارتجع ما اعطى واستدرك ما كان قدّمه وأمضاه، فزعم أن البلوى أعظم من أن يكون لها في شيء من الأوقات كشف وانجلاء، والمحنة فيها أغلظ من أن يوجد لدائها في حال من الأحوال دواء وشفاء، وهذه الأمور لا يتفق مجموعها في اليسير من الكلام إلا لمثله من المبرزين في الشعر، الحائزين فيه قَصَبَ السبق، ولأجل ذلك كان يركض الوليد برجله إذ لم يتمالك أن

---

(١) ديوانه ص ١٠٧.

(٢) السدول: الستائر، يقول – وقد شبه الليل بموج البحر في تراكمه وشدة ظلمته إن الليل قد اشتمل عليه بأنواع الهموم ليختبر ما عنده من صبرٍ أو جزعٍ.

(٣) تمطى: امتد، بحوزه: بوسطه، ناء بكلكل: نهض بصدره، اردف أعجازاً: اتبع مؤخرةً – وأعجاز الأمور: أواخرها – وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، حيث المعنى (ناء بكلكل، ثم اردف أعجازاً)

(٤) وما الإصباح منك بمثل: أي أنني مهمومٌ دائماً؛ في الليل وفي الصباح، فليس حالي صباحاً بأفضل منه ليلاً.

(٥) المغار: الشديد الفتل، ينبل: اسم جبل، يقول: كأنَّ هذه النجوم شُدّت بشيءٍ مفتولٍ قوي إلى جانب هذا الجبل (يذبل).

يعترف له بفضله»[1].

وأما الثاني فما رواه الأصمعي:

قال الأصمعي: «استدعاني الرشيد في بعض الليالي فراعني رسله، فلما مثلت بين يديه إذا في المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل فلما لحظني الرشيد استدناني فدنوت، وتبين ما لبسني من الوجل فقال: ليُفْرِخْ رَوْعُك[2] فما أردناك إلا لما يراد له أمثالك. فمكثتُ هنيهةً ثم ثابت نفسي، فقال: إني نازعت هؤلاء في أشعر بيت قالته العرب في التشبيه، ولم يقع اجماعنا على بيت يكون الايماء إليه، فأردناك لفصل هذه القضية واجتناء ثمرة الخطار فيها - المراهنة -. فقلت: يا أمير المؤمنين إنّ التعيين على بيت واحد في نوع قد توسعت فيه الشعراء، وَنَصَبَتْهُ مَعْلَماً لأفكارها، ومسرحاً لخواطرها، لبعيد أن يقع النص عليه، ولكن أحسن الناس تشبيهاً امرؤ القيس[3]. قال: في ماذا؟ قلت: قوله:

كَأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَـــوْلَ خِبَائِنَـــــا ... وَأَرْحُلِنَا الجَزْعُ الَّـــذِي لَــمْ يُثَـــقَّــبِ

وقوله أيضاً[4]:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْـــباً ويَـــابِسَـــاً ... لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَـــفُ البَالـــــي

وقوله أيضاً[5]:

سَمَوْتُ إِلَيْها بَعْدَ مَا نَـــامَ اهْلُـــــها ... سُمُوَّ حَبَابِ المَـاءِ حَـــالاً عَلَــى حَـــالِ

قال فالتَفَتَ إليَّ يحيى وقال: هذه واحدة، قد نصّ على أن امرؤ القيس أبرع تشبيهاً، فقال يحيى: هي لك يا أمير المؤمنين.

ثم قال لي الرشيد فما أبرعُ تشبيهاته؟ قلت قوله في صفة الفرس[6]:

كـــأَنَّ تَشَوُّفَــــهُ بالضُحَـــــى ... تَـــشَـــوُّفُ ازْرَقَ ذي مِـــخْـــلَـــبِ

إذا بُـــزَّ عَـنــــهُ جِـــلالٌ لـــــه ... تقول: سَلِيـــبٌ، ولَـــمْ يُـــســـلَـــبِ

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٦٢.

(٢) يقال: أفْرِخَ روعه: خلا قلبُه من الهمَ

(٣) سبق البيت ص ٨١.

(٤) سبق البيت ص ٥١.

(٥) ديوانه ص ١٢٤، سموت إليها: أي المرأة التي أرادها، والمراد: نهضتُ إليها شيئاً فشيئاً لئلا يُشعر بمكاني فكنت بذلك كحباب الماء وهو يعلو بعضه بعضاً في رفق ومهل، وحباب الماء: فقاقيع الماء، حالاً على حال:أي شيئاً فشيئاً حتى صرتُ إلى الذي أردتُ.

(٦) لم يرد في ديوانه ونسبهما إليه صاحب (نضرة الاغريض)، والتشوف: الارتفاع للإشراف، السليب: المسلوب، والمسلوب يسرع به صاحبه فمن سرعتهِ - إذا نُزع عنه الجلال - تحسبه مسلوباً وليس بذلك.

فقال الرشيد: هذا حسن، وأحسن منه قوله[١]:

ورحنا بكابْنِ الماء يُجنَبُ وسْطنا ... تُصعَّدُ فيه العينُ طوْراً وترتقي

فقال جعفر: ما هو هذا التحكيم؟

قال الرشيد: وكيف؟ قال: يذكر أمير المؤمنين ما كان اختياره وقع عليه، ونذكر ما اخترناه، ويكون الحكم واقعاً من بعد. فقال الرشيد: أمرضت؟.

قال الأصمعي: فاستحسنتها منه، يقال: أَمْرَضَ الرجل إذا قارب الصواب، ثم قال الرشيد: تبدأ يا يحيى، فقال يحيى: اشعر الناس تشبيهاً النابغة في قوله[٢]:

نَظَرَتْ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا ... نَظَرَ المَرِيضِ إلى وجُوهِ العُوَّدِ

وفي قوله أيضاً[٣]:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذي هُوَ مُدْرِكِي ... وإن خِلْتُ أنَّ المُنْتَأى عَنْكَ وَاسِعُ

وفي قوله أيضاً[٤]:

مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مَوشيٍّ أكَارِعُهُ ... طَاوِي المَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرَدِ

قال الأصمعي: فقلت: أما تشبيه مرض الطرف فحسن إلا أنه قد هجنه بذكر العلة، وتشبيه المرأة بالعليل. وأحسن منه قول عدي بن الرقاع[٥]:

وَكَأَنَّهَا بَيْنَ النِّسَاءِ، أعَارَهَا ... عَيْنَيْهِ أَحْوَرُ مِنْ جَآذِرِ جَاسِمِ

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ ... فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ

وأما تشبيه الأدراك بالليل فقد يتساوى الليل والنهار فيما يدركانه[٦]، وإنما كان سبيله أن يأتي بما ليس له قسيم حتى يأتي بمعنىً ينفرد به لو شاء قائل أن يقول: قولُ النَمَري أحسن، لوجد مساغاً وهو قوله:

---

(١) يقول: رحنا بفرس كأنه (ابن الماء) في خفته وسرعته، وابن الماء: طائر، تُصَوِّبُ: تنظر إلى أسفله وأعلاه اعجاباً به، يحنب وسطنا: أي يسرع بنا.

(٢) ديوانه ص ٩٧ العُود: الزائرين.

(٣) ديوانه ص١٦٨، المنتأى البعد، والقصيدة في مدح النعمان يقول انك تدركني حيثما كنت فإنما انت الليل، فأينما حللت لا حقني الليل فلا استطيع الهروب منه.

(٤) ديوانه ص ١٦٨، وجَرَة: فيفاء واسعة بين مكة والبصرة - اربعون ميلاً - ما فيها منزل، فوحشها شديد النفور، أكَارِعُهُ، ك ما أنها قليلة الماء فيجتمع فيها الوحش، موشي أكارعه أي قوائمه بيضاء منقوشة بنقط سود، طاوي المصير: يريد ضامر البطن، والمصير جمع مصران، كسيف الصقيل يريد أنه ابيض يلمع كأنه سيفٌ مصقول، الفرد: أى المفرد الذي لا نظير له.

(٥) ديوان المعاني ١/٢٣٥، جآذر: جمع جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية، الوسنان: الناعس، أقصده: أي بلغ منه واجهده، رنقت: دارت وماجت، يريد: (أن جؤذراً - وهو ولد لابقرة الوحشية - قد اعارها عينيه وهي بين النساء ولكنه لم يعرهما في حالة عادية وإنما حين نعاسه ودوران عينيه حيث تكونان غايةً في الجمال والروعة والسحر.

(٦) لانرى أن التشبيه بالنهار هنا يعين عليه السياق، فالتشبيه بالنهار يكون في سياق الانعام أو الظهور، وبيت النابغة ليس من هذا القبيل.

لو كُنْتُ بِالعَنْقَاءِ أَوْ بِأُسُومِهَا لَخِلْتُكَ إلاَّ أَنْ تُصَدَّ تراني[1]

وأما قوله: «كَسَيْفِ الصَيْقَلِ الفَرَدِ» فالطِّرِمَّاح أحق بهذا المعنى، لأنه أخذه فجوّده، وزاد عليه، وإن كان النابغة اخترعه. وقول الطرماح[2]:

يَبْدُو وتُضْمِرُهُ البِلاَدُ كأنَّه سَيْفٌ، على شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

فقد جمع في هذا البيت استعارةً لطيفة بقوله «وتضمره البلاد» وتشبيه اثنين باثنين في قوله: «يبدو ويختفي» و «يُسَلُّ ويغمد» وجمع حسنَ التقسيم، وصحة المقابلة. قال فاستبشر الرشيد وبرقت أسارير وجهه حتى خلتُ برقاً يومض منها، وقال ليحيى: نَضَلْتُكَ[3] ورب الكعبة وامتقع يحيى وكأنّ المَلَّ[4] قد ذُرَّ على وجهه، فقال الفضل: لا تعجل يا أمير المؤمنين حتى يمر ما قلته أيضاً بسمعه فقال قل، قال: قول طرفة[5]:

يَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ حَيْزُومُها بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ المُفَايِلُ بِاليَدِ

وقوله أيضاً[6]:

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ما أَخْطَأَ الفَتَى لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِاليَدِ

وقوله أيضاً[7]:

وَوَجْهٍ كأنَّ الشَمْسَ حَلَّتْ قِنَاعَهَا عَلَيْهِ، نَقِيُّ اللَّوْنِ لَمْ يَتَخَدَّدِ

قال: فقلت: هذا حسن كله وغيره أحسن منه وقد شركه في هذا المعنى جماعة من الشعراء. وبعد: فطرفةُ صاحب واحدة[8] لا يُقطع بقوله على البحور وإنما يُعدُّ مع أصحاب الواحدات، قال ومن هم؟ قلت الحارث بن حلزة في قوله:

---

(١) العنقاء: اسمٌ للجبل العالي، الأسوم: جمع اسامة وهو اسمٌ من أسماء الأسد.

(٢) ديوانه ص ١٤٦، يبدو أي الثور الوحشي، تضمره البلاد: أي تخفيه وتغيبه، الشرف: المكان المرتفع ووجه الشبه بينه وبين السف: البياض، يقول مثله وهو ويراوح بين الاختفاء والظهور كمثل السيف يراوح بين أن يغمد أن يسل.

(٣) نَضَلْتُكَ: يقال: نَضَلَه أي غلبه في الرماء.

(٤) المَلّ: التراب الحار والرماد والجمر.

(٥) ديوانه ص ٨ (المعلقة)، حباب الماء: أمواجه، حيزومها: صدرها، الفيال: ضربٌ من اللعب حيث يُخبأ شيء في التراب ثم يأتي أحد اللاعبين (المفايل) ويشق التراب بيده فيقسمه قسمين ويسأل عن موضع المخبوء، فإذا أخطأ قيل له: فالَ رأيك، (فقد شبه الشاعر شقّ السفينة للماء بشق المفايل لكومة التراب).

(٦) ديوانه ص ٣٧، (المعلقة)، الطِوَل: الحبل الذي يُطوَّل للدابة فترعى، الثني: الطرف، يقول: إن الموت في اخطائه الفتى وتأخره عنه إنما هو بمنزلة الحبل المرخى للدابة لكنّ طرفه بيد انسانٍ أنى شاء شده وجذبه.

(٧) ديوانه ص ١١، (المعلقة)، حلت قناعها: أي القت عليه حسنها وبهجتها، التخدد: اضطراب الجلد واسترخاء اللحم، ويعني أنها في شبابها وفتاء سنها.

(٨) صاحب واحدة: أي تميز في فنٍّ معين وبرز فيه.

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

والأشعر الجعدي الجعفي في قصيدته التي أولها:

هَلْ بَانَ قَلْبُكَ مِنْ سُلَيْمَى فَاشْتَفَى وَلَقَدْ عُنِيتَ بِحُبِّهَا فِيمَا مَضَى

والأفوه الأودي في قوله[1]:

إِنْ تَرَىْ رَأْسِيَ فِيهِ قَزَعٌ وَشَوَاتِي خَلَّةٌ فِيهَا دُوَارُ

وعلقمةُ بن عبدة الفحلُ في قوله[2]:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

وسويد بن أبي كاهل في قوله[3]:

بَسَطَتْ رابِعَةُ الحَبْلَ لَنَا فَمَدَدْنَا الحَبْلَ مِنْهَا مَا اتَّسَعْ

وعمرو بن كلثوم في قوله[4]:

أَلا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا ولا تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِينَا

وعمرو بن معدي كرب[5]:

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعُ يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

قال: فاستخفت الرشيدَ الأرْيَحيَّةُ[6]. فقال: أدْنُهُ فإنك جُحَيْشُ وحدِك[7] قال: فزاد في عيني نُبلاً فقال جعفر متمثلاً:

* الْبَثْ قليلاً يلْحَقِ الهَيْجَا جَمَلْ[8] *

يعرِّض بأنه يجوز أن يدرك هو ما يحاوله، فقال الرشيد:

فَأَتَتْكَ واللَّهِ السَّوَابِقُ بَعْدَهَا وَجِئْتَ سُكَيْتاً ذا زَوَائِدَ أَرْبَعِ

(١) القزع: ذهاب بعض الشعر وبقاء البعض، الشواة: قحف الرأس أو جلدته الخَلّة: قليلة الشعر أو المهزولة قليلة اللحم، الدوار: الصداع.

(٢) المفضليات ص ٣٩١، قصيدة رقم (١١٩)، طحابك: أي اتسع بك وذهب كل مذهب.

(٣) المفضليات ص ١٩١، قصيدة رقم (٤٠)، رابعه: صاحبته يتغزل فيها، الحبل الوصل، ما اتسع: أي ما امتد، يقول: لم تبخل علينا بالوصل فبذلنا لها وصلنا ووصلناها بوصلها.

(٤) ديوانه ص ٧٧ مطلع معلقته، الأندرينا: قرى بالشام.

(٥) ديوانه ص ١٤٠، ريحانه: امرأته المطلقة، وقيل: أخته، السميعُ: المُسمِع، يؤرقني: من الأرق وهو ضد النوم (السهد).

(٦) الأريحية: الميل إلى العطاء.

(٧) جحيشُ وحدِك: أي منقطع النظير، والجحيش: المنفرد.

(٨) الهيجا: الحرب، كذا في الأصل والصواب: (لَبِّث قليلاً يلحق الهيجا حمل)بالحاء المهملة، وتتمةُ هذا الشطر (لا بأسَ بالموت إذا حان الأجل) وحمل: اسم رجل، انظر سيرة ابن هشام ٢/٢٢٦.

ورأيت الحميّة في وجهه فقال جعفر: على شريطة حلمك يا أمير المؤمنين فقال: أتراه يسع غيرك ويضيق عنك فقال جعفر: لست أنصّ على شاعر واحد إنه أحسن بيت واحد تشبيهاً ولكن قول امرئ القيس(١):

كَأَنَّ غُلَامِـــي إِذْ عَـــلاَ حَـــالَ مَتْنِـــهِ   عَلَى ظَهْـــرِ بَـــازٍ فِـــي السَّمَـــاءِ مُحَلِّـــقِ

وقول عدي بن الرّقاع(٢):

يَتَعَـــاوَرَانِ مِـــنَ الغُبَـــارِ مُـــلاءَةً   غَبْـــرَاءَ مُحْكَمَـــةً هُمَـــا نَسَـــجَاهَـــا

تُطْـــوَى إذا وَرَدَا مَـــكَانَـــاً جَـــاسِيَـــاً   وَإِذَا السَّـــنَابِـــكُ أَسْـــهَلَـــتْ نَشَـــرَاهَـــا

وقول النابغة الذبياني(٣):

فَإِنَّـــكَ شَمْـــسٌ والمُلُـــوكُ كَوَاكِـــبُ   إِذَا طَلَعَـــتْ لَـــمْ يَـــبْدُ مِنْـــهُـــنَّ كَـــوْكَـــبُ

فقلت: هذا كله حسن بارع وغيره أبرع منه وإنما يحتاج أن يقع التعيين على ما اخترعه قائله فلم يُتعرّض له أو تعرّض له شاعر فوقع دونه، فأما قول امرئ القيس «على ظهر بازٍ محلِّق». فمن قول أبي داود:

إِذَا شَـــاءَ رَاكِبُـــهُ ضَمَّـــهُ   كَمَـــا ضَـــمَّ بـــازٌ إِلَيـــهِ الجَنَـــاحَـــا

وأما قول ابن الرقاع: يتعاوران من الغبار ملاءةً فمن قول الخنساء(٤):

جَـارَى أَبَـــاهُ فَأَقْبَـــلا وَهُمَـــا   يَـــتَعَـــاوَرَانِ مُـــلاءَةَ الفَـــخْـــرِ

وأول من نطق بهذا المعنى شاعر قديم من عقيل(٥):

أَلا يَـــا دِيَـــارَ الحَـــيِّ بِالبَـــرَدَانِ   عَفَـــتْ حِجَـــجٌ بَعْـــدِي لَهُـــنَّ ثَمَـــانِ

فَلَمْ يَبْقَ مِنهَا غَيْـــرُ نُـــؤْيٍ مُهَـــدَّمٍ   وَغَيْـــرُ أَثَـــافٍ كَالـــرَّكِـــيِّ دِفَـــانِ

وَآثَارُ هَـــابٍ أَوْرَقِ اللَّـــوْنِ سَافَـــرَتْ   بِهِ الرِّيـــحُ والأَمْطَـــارُ كُـــلَّ مكَـــانِ

(١) ديوانه ص ٨٨، حال متنه: أي ظهر الفرس، وحال الفرس: موضع الراكب، والباز: طائر، يشير إلى علوّ صهوة الحصان وضخامةِ هيكله.

(٢) أمالي المرتضى ١٠٣/١، البيتان في وصف ثورين، يتعاوران: يتناوبُ كلٌّ منهما على اعارة الآخر هذه الملاءة: وهي الملحفة أو ما يفرش على السرير، مكاناً جاسياً: غليظاً لا يثير غباراً، السنابك جمع سنبك وهو طرف الحافر، ويطلق على الأرض الغليظة القليلة الخير

(٣) ديوانه ص ٥٧، والبيت في مدح النعمان.

(٤) ديوانها ص ٤٣، استعارة الملاءة للفخر يلبسها أبوها مرةً ثم أخوها مرة أخرى، يتعاوران يتبادلان الاعارة.

(٥) وهو عميرة بن جعيل بن عمرو بن تغلب، البردان: مواضع كثيرة، الجأب: الحمار الغليظ من حمر الوحش.

قِفَارٌ مَرُورَاتٌ يَحَارُ بِهَا القَطَا ... وَيُضْحَى بِهَا الجَأْبَانُ يَعْتَرِكَانِ

يُثِيرَانِ مِنْ نَسْجِ العَجَاجِ عَلَيْهِمَا ... قَمِيصَيْنِ أَسْمَالاً وَيَرْتَدِيَانِ

وأما قول النابغة: «فإنك شمس والملوك كواكب» فقد تقدمه شاعر من شعراء كندة يمدح فيه عمرو بن هند وهو أحقُّ به من النابغة إذ كان أبا عُذْره، فقال:

تَكَادُ تَمِيدُ الأَرْضُ بِالنَّاسِ أَنْ رَأَوْا ... لِعَمْرِو بنِ هِنْدٍ غَضْبَةً وَهُوَ عَاتِبُ

هُوَ الشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ سَعْدٍ فَأَفْضَلَتْ ... عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ، وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

قال فكأني ألقمت جعفراً حجراً، واهتز الرشيد من فوق سريره أَشَراً[1]، وكاد يطير منه عجباً وطرباً، وقال: يا أصمعي اسمع الآن ما وقع عليه اختياري، قلت: ليقل أمير المؤمنين أحسن الله توفيقه: فقال: قد عيّنتُ على ثلاثة أشعار اقسم بالله أنني أملك قصب السبق بأحدهما، فقال يحيى: خفِّض على همتك يا أمير المؤمنين، فيأبى الله إلا أن يكون الفضل لك ثم قال الرشيد: أتعرف تشبيهاً أفخم وأعظم في أحقرِ مشبَّهٍ وأصغره وأقذره في أحسن معرض من قول عنترة الذي لم يسبقه إليه سابق، ولا طمع في مجاراته طامع، حين شبّه ذباب الروض العازب في قوله[2]:

وَخَلا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ ... غَرِداً كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ

هَزِجاً يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ ... قَدْحَ المُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ

ثم قال: هذا من التشبيهات العُقم: قلت: هو كذاك يا أمير المؤمنين، وبمجدك اليت ما سمعت أحداً وصف شعراً أحسن من هذه الصفة؟ فقال: مهلاً لا تعجل، أتعرف أحسن من قول الحطيئة يصف لُغام ناقته؟ وتعلم أن أحداً قبله أو بعده شبه تشبيهه فيه حيث يقول[3]:

تَرَى بَيْنَ لَحْيَيْهَا إِذَا مَا تَزَغَّمَتْ ... لُغَاماً كَبَيْتِ العَنْكَبُوتِ المُمَدَّدِ

فقلت: يا أمير المؤمنين، لا والله ما علمت أن أحداً تقدّمه أو أشار إلى هذا التشبيه قبله

---

(١) أشِرَ أَشَراً: أي فرح ونشط.

(٢) شرح المعلقات ص ١٥٩، البراح: الزوال، التغريد: التصويت، الترنم: ترديد الصوت، هزجاً: مصوتاً، المكب المقبل على الشيء، الأجذم: الناقص اليد. يقول إن الذباب خلا في هذه الروضة، لم يزاولها يصوت تصويت شارب الخمر حين رجع صوته بالغناء، ثم يشبه – في البيت الثاني – حك الذباب إحدى يديه بالأخرى بقدح رجلٍ ناقصِ اليد النار من الزندين.

(٣) ديوانه ص ١٥٥، لحييها: فكّيها، تزغمت: يقال تزغم الجمل إذا ردّدَ رغاءه أي صوته في لهازمه أي العظام التي تحت حنكه، واللغام: زبدةُ أفواه الإبل.

فقال: أتعرف أبدع وأوقع من تشبيه الشماخ لنعامة سقط ريشها وبقي أثره، حيث يقول[١]:

كَأنَّمَا مُنْثَنَى أقْمَاعٍ مَا مَرطَتْ ... مِنَ العِفَاءِ بِلِيتَيْهَا الثآلِيلُ

فقلت: لا والله، فالتفت إلى يحيى بن خالد فقال: أوَجَبَ؟ قال: وجب، قال: فأزيدك؟ قال: وأيُّ خير لم يزدني منه أمير المؤمنين؟ قال قول النابغة الجعدي[٢]:

رَمَى ضَرْعَ نَابٍ فَاسْتَقَلَّ بِطَعْنَةٍ ... كَحَاشِيَةِ البُرْدِ اليمَانِيِّ المُسَهَّمِ

ثم التفت إلى الفضل فقال: أوَجَبَ؟ قال: وجب، قال: أزيدك. قال: ذاك إلى أمير المؤمنين. قال: قول الاعرابي:

بِهَا ضَرْبُ أذْنَابِ العَظَاءِ كَأنَّهُ ... مَلاعِبُ وِلْدَانٍ تَخُطُّ وتَمْصَعُ[٣]

ثم التفت إلى جعفر قال: أوَجبَ؟، قال: وجب. قال: أزيدك؟ قال: لأمير المؤمنين علو الرأي. قال: قول عدي ابن الرِّقاع[٤]:

تُزْجِي أغَنَّ كَأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ ... قَلَمٌ أصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

فقلت: يا أمير المؤمنين هذا بيت حسد عدياً عليه جريرٌ؟ قال: وكيف ذاك؟ قلت: زعم أبو عمرو أن جريراً قال لما ابتدأ عديٌّ:

عَرَفَ الدِّيَارَ تَوَهُّمَاً فَاعْتَادَهَا ... مِنْ بَعْدِ مَا شَمِلَ البِلَى أبْلادَهَا[٥]

قلت في نفسي: قد ركب مركباً صعباً سيبدع به، فما زال يتخلص من حُسن إلى حُسن حتى قال:

* تُزجي أغنَّ كأنَّ ابرة رَوْقه *

قال: فرحمته وظننت أن مادته ستقصر به فلما قال:

قَلَمٌ أصَابَ منَ الدَّوَاة مدادَهَا حالت الرحمة حسداً. قال: للّه درك يا أصمعي ثم أطرق ورفع طرفَهُ إلي وقال أتراكَ تغبنني عقلي بانحطاطك في هواي؟ فقلت: كلا واللّه يا أمير المؤمنين: وإنك لتجلُّ عن الحَرْش[٦] قال: انظر حَسَنَاً، قلت: قد نظرت قال: فالسبق لمن؟ قلت:

---

(١) ديوانه ص ٨٠، الاقماع: جمع قمعه وهي بثرة تخرج في أصول الأشعار واصله الذي على رأس الثمرة، مرطت: نتفت، العفاء: الريش الذي يكون على الصغار، بلِيتَيْهَا: مثنى لِيْت: وهو صفحة العنق الثآليل: جمع ثؤلول: وهو الحبة تظهر في الجلد كالحمصة فما دونها.

(٢) الأغاني ٤/١٢٦، الناب: الناقة المسنّة، البرد المسهم: المخطط بصور على شكل السهام.

(٣) العَظاء: جمع عظاءة وهي دابة صغيرة تعرف في بعض المناطق بالسحلية، تمصع: مصعت الدابةُ بذنبها: أي حركته من غير عَدْو.

(٤) ديوان المعاني ٢/١٣٢، تزجي: تدفع، اغن: صغير ضعيف الصوت، ابرة روقه: حدة قرنه، والدواة العلبة التي يوضع فيها الحبر والمداد: الحبر.

(٥) اعتادها: اتاها مرةً بعد أخرى، وقيل: أعاد النظر إليها مرةً بعد أخرى لدروسها وزوالها حتى عرفها، الأبلاد: الآثار.

(٦) الحرش: الخشن.

لأمير المؤمنين، قال: قد أسهمتُ لك فيه العُشرَ، والعشرُ كثير، ثم رمى بطرفه إلى يحيي وقال: «المالَ» – تهدداً ووعيداً – «الساعةَ وأولى لك» قال: فما كان إلا كـ(لا) و (ما)[1] حتى نُضِدَت البِدَرُ[2] بين يديه إلى أن كادت تحول بيني وبينه ورأيت ضوء الصبح قد غلب على ضوء الشمع، فأشار إلى خادم على رأسه أنْ مَكِّنْه وقال: «هي ثلاثة ألف ألف درهم، فدونك فاحتمل ثلاثين بَدْرَةَ وانصرف إلى منزلك»، ونهض عن مجلسه وأمر الخدم بمعاونتي على تعجيل حمله فاحتمل كل خادم بدرة ولا يكاد يستقل بها، فكانت أسعد ليلة ابتسم فيها الصباح عن ناجذ الغنى»[3].

هذا ما يسّره الله في باب التشبيه ولنحدثك الآن عن اسلوب آخر هو اسلوب المجاز، ومن الله العون وعليه التكلان.

(١) أي كالمدة التي يستغرقها التلفظ بحرف (لا) أو حرف (ما) وهو استعمالٌ معروف.

(٢) البِدَر: جمع بِدْره: وهي صرةٌ فيها عشرة آلاف درهم.

(٣) الجُمان في تشبيهات القرآن/ ابن ناقيا البغدادي ص ٢٢٣ – ٢٣٩.

الباب الثاني
المجاز

تمهيد :

نتحدث فيه عن المجاز: تعريفه، الفرق بينه وبين الحقيقة، انواعه، المجاز بين مثبتيه ونفاته.

أولاً: تعريفه:

مما ينبغي أن نبادرك به القول هنا، أن الحديث في هذا الباب عن المجاز، وانواعه، واقسامه. والقوم يذكرون مع المجاز الحقيقة، بل إن بعض الكاتبين يجعلها في عنوان الباب وصلبه، فيقول: الحقيقة والمجاز، وذِكْرُ الحقيقة؛ لا لأنها من مباحث هذا الباب، بل لأنها مقابلة للمجاز، فلكي نعرف المجاز ونتصوره لا بدّ أن نعرف الحقيقة، إذ بضدها تتمايز الأشياء.

معناهما اللغوي:

وقبل أن نحدثك عن الحقيقة والمجاز بمعناهما الاصطلاحي يجدر أن نحدثك عن المعنى اللغوي لكل من هذين اللفظين فإن معرفة المعنى اللغوي تعين وتقرب من فهم المعنى الاصطلاحي.

أما الحقيقة، فأنت تجد مادة لهذين الحرفين، - الحاء والقاف - أعني كلمة حق، والحق هو الشيء الثابت. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ [غافر ٦] وقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ [يس ٧] أي: ثبت، فالحقيقة إذن: هي الشيء الثابت إذا جعلناها اسم فاعل، أو الشيء المُثْبَت إذا جعلناها اسم مفعول، وكلاهما صحيح: لأن صيغة فعيل في اللغة تصلح أن تكون اسم فاعل أو اسم مفعول كما فُصِّلَ في موضعه، والتاء فيها ليست تاء التأنيث كالتاء في (جميلة)، و(نظيفة) و(كريمة)، إنما التاء في كلمة (حقيقة) جاءت للنقل من الوصفية إلى الإسمية كالتاء في (نطيحة)؛ وبيان هذا انك إذا قلت (نظيفة) و (جميلة) فأنت تعني وصفاً لمؤنث (كغرفة نظيفة) و(زهرة جميلة). أما إذا قلت (حقيقة) فلا تعني بهذه الكلمة وصفاً لمؤنث، ألا تراك تقول: «هذا اللفظ حقيقة»، ولو كان وصفاً كان ينبغي أن تقول: «هذا اللفظ حقيق».

فنحن نقلناها إذن من كونها وصفاً إلى كونها اسماً غير وصف، التاء تاء النقل كما في (ذبيحة) و (نطيحة) فإنهما يطلقان على المذكر والمؤنث، وإن اردت مزيداً وكنت ممن يتوقون إلى معرفة هذه القضايا اللغوية فنرشدك إلى علم الصرف فستجد فيه ضالتك المنشودة إن شاء الله

أما المجاز فهو مصدر ميمي من جاز الشيء جوازاً إذا تعدّاه، ويمكن أن يكون بمعنى اسم المكان من قولهم «جاز الطريق مجازاً» أي سلكه. الحقيقة في اللغة إذن الشيء الثابت، والمجاز في اللغة (تعدّي الشيء)، ولعلك تشتَمّ رائحة التضاد بين هاتين الكلمتين، لأن الذي يجوز المكان يتعداه ولا يثبت فيه.

معناهما الاصطلاحي:

ومن المعنى اللغوي جاء المعنى الاصطلاحي لكل منهما، فالحقيقة: هي اللفظ المستعمل فيما وضع له، والمجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينه تمنع ايراد المعنى الحقيقي: ولا بدّ أن نقف مع هذا التعريف لنشرحه ونوضحه:-

من نافلة القول أن اللغة ضرورة ملحة تدعو إليها الحاجة ليتفاهم الناس فيما بينهم، فالكلمات والالفاظ قوالب للمعاني التي يعبّر عنها الناس، فهم يعبّرون عما في نفوسهم بالكلمات، فالمعنى مُعبَّر عنه، واللفظ معبر به، ومن هنا كان لا بدّ لكل معنىً من لفظ يدل عليه حتى لا يختلط الأمر، ومن اجل أن يكون لكل لفظ مدلوله الذي يدل عليه.

ولقد كانت هذه الألفاظ بَادِيءَ بدء تساير حاجات الناس؛ معنى ذلك أنهم يحتاجون الألفاظ للأمور التي تدور بينهم، وتُلح عليهم، ولا ريب أن أي قوم من الأقوام يتصفون بالبدائية في أول نشأتهم، ثم تبدأ مراحل التطور والنمو، وإذا كان هذا شأن الأقوام والأمم فهو شأن اللغات التي يتحدث بها الأقوام كذلك. وبرهان هذا أنك لو اخذت كثيراً من كلمات اللغة العربية التي تدل اليوم على اشياء معنوية لوجدت أنها وضعت أول ما وضعت لأشياء محسوسة، ولكن مع تطور القوم اصبح لهذه الألفاظ مدلولات غير تلك التي وضعت لها أولاً.

كلمة (كتاب) مثلاً: التي تعني اليوم وسيلة المعرفة والثقافة والعلم، حينما ننظر في المعنى الذي وضعت له أولاً نجد أنها وضعت لما كانت تدعو إليه حاجة القوم في نشأتهم الأولى، فكلمة (كَتْبْ) معناها ضمُّ الخيوط بعضها إلى بعض للنسج والخياطة، وهذا الذي يحتاج إليه القوم في نشأتهم الأولى ثم وضعت بعد ذلك (للكتيبة من الجيش)، ثم وضعت بعد ذلك (لضم الحروف بعضها إلى بعض)[1].

وهكذا اكثر الكلمات العربية كما قلت لك من قبل، وهذه الكلمة على الرغم من تطور مدلولاتها، إلا أن العرب هم الذين وضعوها لكل معنى من هذه المعاني المختلفة.

فمعنى الوضع - إذن - أن يصطلح القوم على أن يضعوا لكل معنىً كلمة تدلُّ عليه، وهذا الوضع هو الذي يسمّى حقيقة؛ فأنت تدرك الآن ما قلناه في تعريفها، بأنها اللفظ الذي

---

(١) راجع هذا الموضوع مفصلاً في الجزء الأول من هذا الكتاب عند الحديث عن الفصاحة والبلاغة ص ٥.

استعمل فيما وضع له، فاستعمال الكتاب في جمع الحروف بعضها إلى بعض حقيقة لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمة لتدل على هذا المعنى، واستعمال الأسد للحيوان المفترس حقيقة لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمة لهذا النوع الخاصّ من الحيوانات ودلالة كلمة البحر على القسم المائي من الأرض حقيقة لغوية، كذلك دلالة الشمس على هذا الجرم المضيء، ودلالة السحاب على هذا النوع من الغمام، ودلالة القمر على ذلك الكوكب المنير كل أولئك حقائق لغوية لأن العرب هم الذين وضعوا هذه الكلمات لتدل على هذه الأشياء كلها.

استعمال اللفظ فيما وضع له حقيقةٌ - إذن - ولكننا حينما ننعم النظر نجد أنّ هذه الكلمات: وهي كلمة (شمس)، و(بحر)، و(أسد)، و(قمر)، تستعمل في غير هذه المعاني التي وضعت لها، فقد تستعمل كلمة الشمس للحسناء، وتستعمل كلمة أسد في الرجل الشجاع، وتستعمل كلمة السحاب والبحر في الرجل الكريم، كذلك كلمة قمر لذي الطلعة البهيّة، هذه الكلمات - إذن - نجد أنها استعملت في معنيين مختلفين: فتارة استعملت في معناها الذي وضعت له، وتارة استعملت في معاني أخرى، هناك -إذن- كلمة واحدة ومعنيان:

المعنى الأول: الذي وضعت له الكلمة أساساً.

المعنى الثاني: الذي استعملت فيه.

ولكن ترى كيف تتمُّ عملية النقل؟ أيمكننا أن ننقل كل كلمة من المعنى الذي وضعت له لنستعملها في أيِّ معنىً آخر؟. أظنك تأبى ذلك بفكرتك وفطرتك لأن هذا ستكون نتيجته الخلل، والاضطراب، وستعم الفوضى، فتُنقَلُ كلمة الكذب لمعنى الصدق، وكلمة الخير لمعنى الشر، وكلمة المدح لمعنى الذم، وسيعود الناس إلى مجتمع السفسطائية الذين لم تكن الكلمة فيه عندهم تعني مدلولاً معيناً، ومن هنا كان لا بد من صلةٍ وقرب بين المعنيين: اعني المعنى الذي وضعت له الكلمة أولاً والمعنى الذي ستستعمل فيه ثانياً.

خذ كلمة (الشمس) مثلاً، المعنى الذي وضعت له أولاً هذا الجرم المضيء، والمعنى الذي استعملت فيه ثانياً هو الوجه المتلألىء، وخذ كلمة (سحاب)، المعنى الذي وضعت له أولاً هو هذا الغمام الممطر، المعنى الذي استعملت فيه ثانياً هو الرجل الجواد، وكلمة (أسد) المعنى الذي وضعت له أولاً هذا الحيوان المفترس المعروف بشجاعته، والمعنى الذي استعملت فيه ثانياً هو الرجل الشجاع، ألا ترى إلى هذه الصلة بين المعنيين؟ اعني (الجرم المضيء والوجه المتلألىء)، و(الغمامة الحاملة للماء والرجل الجواد)، و(الحيوان المفترس والرجل الشجاع)، تدرك بعد هذا أننا لن نستطيع أن ننقل أي كلمة من معناها الأساسيّ إلى أي معنى نشاء فلا بدّ من صلة وثيقة بين المعنيين، وهذا ما يعبّرون عنه بالعلاقة، وهو ما ذكرناه في تعريف المجاز، بانه الكلمة التي استعملت في غير ما وضعت له لعلاقة.

بقي عنصر هام ضروري في تعريف المجاز، هذا العنصر لا بد منه حتى لا يختلط الأمر على المتكلم والسامع على السواء. إذا قلت «رأيت بحراً» فإن المتبادر من هذه العبارة أنه البحر

الحقيقي، ولا استطيع أن ادّعي انني اعني به الرجل الجواد ولكنني إذا قلت «رأيت بحراً يسير في القافلة» فإن هذه العبارة «يسير في القافلة» تمنع من ارادة البحر الحقيقي، وكذلك إذا قلت «رأيت شمساً بيدها كتاب» و«رأيت أسداً يكرّ بسيفه» فإن قولنا «بيدها كتاب» «ويكر بسيفه» يمنع ارادة المعنى الحقيقي للشمس والأسد، وهذا الذي يعبر عنه بالقرينة.

ارجو أن تكون بعد هذا قد استوعبت تعريف المجاز استيعاباً تاماً من أنه اللفظ الذي استعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقي. ومما تقدم لك تدرك أن المجاز لا بد فيه من خمسة أمور:

١- الكلمة:

٢. ٣ - معنيان: المعنى الحقيقي الذي وضعت له الكلمة والمعنى المجازي الذي استعملت فيه الكلمة ثانياً.

٤- العلاقة: وهي الصلة بين المعنيين ولولاها ما استطعنا أن ننقل الكلمة من معناها الأول الذي وضعت له إلى معناها الثاني الذي استعملت فيه.

٥- القرينة التي تبين لنا أن المعنى الحقيقي غير مراد وأن المعنى المجازي هو المقصود.

أمر لا بد منه:-

القضية التي ينبغي أن توجه لها عنايتك بعد هذا كله هي كيف تستطيع أن تفرق بين المعنى الذي وضعت له الكلمة وبين المعنى الذي استعملت فيه؟؟ لئن استطعت أن تعرف هذا في بعض الكلمات التي يكثر دورانها على الألسنة فكيف يمكنك أن تعرف هذا في الكلمات الكثيرة؟، والعربية - كما تعلم - غنية بثروتها والفاظها لذا فإنني أنصح لك إذا أردت أن تتذوق الكلام البليغ وتبدع في قولك أن تعدّ نفسك اعداداً لغوياً، فتستطيع عند ذلك أن تفرق بين الحقيقة والمجاز، فإذا تلوت قول الله سبحانه: ﴿إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة ٦] وقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤمَرُ﴾ [الحجر ٩٤]، ﴿إنّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾ [الحاقة ١١]، وقوله: ﴿وتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْض﴾ [الكهف ٩٩]، وقوله: ﴿وآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس ٣٧]، فكيف تدرك أن في كل آية كريمة مجازاً لطيفاً واستعارة بديعة؟؟ إن ذلك يتطلب منك ويحتم عليك معرفة المعاني التي وضعت لها هذه الكلمات، فإذا عرفت أن كلمة (الصراط) مثلاً وضعها العرب للطريق، واستعملها القرآن لتدل على الدين، وكلمة (الصدع) وضعها العرب لشق الأشياء الصُلبة واستعملها القرآن في التبليغ والجهر، وكلمة (الطغيان) وضعها العرب لتجاوز الإنسان الحدّ فيما ينبغي له واستعملها القرآن

في ارتفاع الماء، وكلمة (الموج) وضعها لحركة الماء واستعملها القرآن في حركة يأجوج ومأجوج، وكلمة (السلخ) وضعها العرب في كشط الجلد واستعملها القرآن في شأن الليل والنهار. إذا عرفت هذا تنوقت وادركت مواقع المجاز في الكلام.

ثانياً: المجاز بين المثبتين والنافين:

كانت قضية المجاز قديماً وحديثاً مثار نزاعٍ مع أن المثبتين له أكثر من النافين، ولا يعنينا الآن أن نفصّل القول في هذه القضية ونكتفي بأن نذكر لك طرفاً منها:

لم ينازع أحد من علماء البيان في اثبات المجاز، ولكن ذهب بعض اللغويين إلى أنه لا ينبغي التغالي في هذا المجاز، ولقد ردّ على هؤلاء ابن قتيبة، أما الذين انكروا المجاز فهم بعض الفقهاء والمتكلمين وتتلخص الأدلة التي استندوا إليها فيما يلي:

١- إن المجاز نوع من الكذب.

٢- إنه يدل على عجز المتكلم فهو إنما لجأ إلى المجاز لعدم استطاعته أن يعبر بالحقيقة عن مراده وهذا مستحيل أن يكون في كتاب الله لأن الكذب والعجز محالان.

ولكننا لا نسلم لهم هذا القول، فأولاً: إن هناك فرقاً بين المجاز والكذب من جهتين اثنتين.

فالمجاز مبني على التأويل – كما عرفت – والكذب ليس كذلك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المجاز له قرينة تمنع من ارداة المعنى الحقيقي والكذب ليس كذلك.

وثانياً: لا نسلم أن المجاز دليل على العجز، وإنما يؤتى به لمقتضيات بلاغية كما يؤتى به في التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل.

٣- أما الدليل الثالث الذي استندوا إليه في إنكار المجاز ولعله أقوى أدلتهم فهو: من أين عرفتم أن هذه الكلمة وضعت أول ما وضعت لهذا المعنى ثم استعملت بعد ذلك في معنى آخر؟ فلم لا تكون كلمة أسد، مثلاً قد وضعت للرجل الشجاع قبل أن توضع للحيوان المفترس؟. أو أنها وضعت للمَعْنَيَيْن في وقت واحد. وأنت تعلم أن تلك قضية بحاجة إلى دراسة واستقصاء ولكننا مع ذلك يمكن أن نَردها بما يلي:

أولاً: إن هناك كلمات يمكننا أن نحدد الزمن الذي استعملت فيه استعمالاً مجازياً، فهناك أقوال مأثورة للرسول صلى الله عليه وسلم أجمعوا على أنه لم ينطق بها أحد قبله عليه وآله الصلاة والسلام، كما أن هناك كلمات استعملت استعمالاً مجازياً وكان الذين استعملوها أول مرة من شعراء الجاهلية وهذا يدلنا على أن بعض الألفاظ كان استعمالها المجازي متأخراً عن استعمالها الحقيقي وما يصدق على بعضه، يصدق على بعضه الآخر.

ثانياً: يمكن أن نرد هذا القول كذلك بأن هناك فرقاً كبيراً بين استعمال الكلمة فيما وضعت له وبين استعمالها في غير ما وضعت له فأنت إذا استعملت كلمة (الشمس) وكلمة (البحر) وكلمة (الأسد) وكلمة (السيف)، فيما وضعت له كل من هذه الكلمات فإنها لا تزيدنا شيئاً جديداً، ولا تحتاج إلى قرينة، ولكنك حينما تستعملها في غير ما وضعت له فإنها تضفي عليها شيئاً جديداً مع احتياجها للقرينة، إن استعمال كلمة (الشمس) في الجِرم المعلوم ليس فيها أي جديد، ولكن استعمالها في (المرأة) تدل على حسنها ووضاءتها، وعلى كل حال فنحن نعذر أولئك الذين انكروا المجاز، فإنما كان قصدهم أن يردوا كثيراً من التأويلات المنحرفة عن كتاب اللّه وسنة رسوله صلى اللّه عليه وسلم، وتلك غاية نبيلة وقصد مأجور إن شاء اللّه[١].

ثالثاً: تعدد الوضع:

وما دمنا قد تحدثنا عن الوضع، فحريٌ بنا قبل أن نغادر هذا الموضوع أن نلمّ ببعض القضايا لصلتها بما نحن بصدده، عرفت أن الوضع المعتبر في المجاز هو الوضع اللغوي، فالكلمات التي استعملت فيما وضعت له سميناها (حقيقة)، والتي استعملت في غير ما وضعت له سميناها (مجازاً)، وكان حديثنا عن الوضع اللغوي، ولذا سمي هذا النوع من المجاز لغوياً، ولكن هناك جهات أخرى غير اللغة يمكن أن تتدخل في قضية الوضع، على معنى أن اللغة وحدها ليست هي التي تملك شأن الوضع وتتخصص فيه، صحيح هي الأساس في ذلك ولكن هناك جهات أخرى يمكن أن يكون لها الحقُّ في الوضع كذلك:

أولاً: وأول هذه الجهات الشرع، فهناك اشياء وضع الشرع لها اسماءً خاصةً بها، خذ كلمة (الصلاة) مثلاً وضعتها اللغة للدعاء، وفي اصطلاح الشرع: اقوال وافعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، وهكذا كثيرٌ من الكلمات التي وضعها الشرع لمعانٍ خاصة بها.

ثانياً: العرف الخاص: بعد تعدد العلوم والمعارف أصبح لكل علم مصطلحاته الخاصة به، ففي علوم الحديث مثلاً نجد هذه الكلمات: الصحيح، الضعيف، الحسن، التدليس، وفي علوم البلاغة نجد هذه المصطلحات: الفصل والوصل، القصر، الاستعارة، وفي علم النحو نجد: الاعراب، البناء، الاشتغال، التمييز، وفي علم الصرف نجد: الإعلال، الإبدال، التصغير، النسب. وفي علم النفس نجد: الدافع، الشعور، الربط، الانتباه، وهكذا كل نوع من أنواع المعارف نجد له مصطلحاته الخاصة.

ثالثاً: العرف العام: ونعني ما لم يكن لفئة خاصة، فالدابة مثلاً وضعها العرف العام لذات القوائم الأربع، والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا تعارضت هذه الجهات مع اللغة وهي

---

(١) راجع في هذا الموضوع: عبد العظيم المطعني، المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوزيه ومانعيه.

متعارضة يقيناً - فهل نعدّ هذه المصطلحات جميعاً من أبواب المجاز؟ هل نعد استعمال الشرع للصلاة في الأقوال والأفعال مجازاً؟ وهل نعدّ تعريف الصحيح عند علماء الحديث مجازاً لأن تعريفهم يختلف عن تعريف اللغة؟ وهل نعدّ تعريف الفصل عند علماء البلاغة مجازاً لأن تعريفه يختلف عن تعريف اللغة؟ وهل نعد تعريف العرف العام للدابة بأنها ذات القوائم الأربع مجازاً لأن تعريفهم يختلف عن تعريف اللغة فإنّ اللغة وضعت الدابة لكل ما يدب على الأرض؟ وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا من شأنه أن يعْسُر على كثير من الناس وللإجابة عن هذا السؤال نقول:

إن كل جهةٍ وضعت لمصطلحاتها الخاصة كلمات تدل عليها، فإن هذه الكلمات الموضوعة تصبح حقائق لا ينازع فيها أحد، فالصلاة التي وضعت للأقوال والأفعال هي حقيقة شرعية، وكذلك الصيام الذي وضع للإمساك المخصوص حقيقة شرعية، كذلك المصطلحات في أنواع العلوم والمعارف، فتعريف الفصل في علوم البلاغة أنه (ترك العطف بين الجملتين) حقيقة اصطلاحية لا نزاع فيها، كذلك تعريف الدابة بأنها التي لها أربع قوائم حقيقة عرفية. خلاصة القول أن بعض المجازات اللغوية قد تصبح حقائق شرعية أو عرفية كاستعمال كلمة (الصلاة) في الأقوال والأفعال، والعرب لم تضعها لهذا بل وضعتها للدعاء، لكن استعمال الشرع لها جعلها حقيقةً شرعية، مع أنها في أصلها مجازٌ لغوي، وحتى لا نكثّر المجاز في الكلام لا نقول إن الصلاة التي بينتها الشريعة مجازٌ لغوي؛ بل نقول إنها حقيقة شرعية، كذلك الفاعل في تعريف النحويين والحالُ والتمييز، والفصلُ والوصلُ عند البلاغيين، والقياسُ عند الأصوليين، وكذا الغريزةُ والدافع عند علماء النفس، والمربع والمثلث عند علماء الرياضيات، كلُّ أولئك وغيرها لا نطلق عليها أنها مجازٌ لغوي بل صارت حقائق خاصة؛ فهي حقائق شرعية عند الشرعيين وحقائق عرفية في مصطلحات العلوم المتعددة.

بقي أمرٌ لا بُدَّ أن ننبهك عليه، وقد تأتي له زيادةُ إيضاح فيما بعد - إن شاء الله تعالى - فتنبه له، لأنني وضعت هذا الكتاب - كما قلت في مقدمته - نتيجة معاناتي طالباً ومدرساً، فقد ظن بعض الناس أن أمر المجاز والحقيقة يرجع إلى كثرة الاستعمال وقلته، فإذا كَثُر استعمالُ كلمة في معنى من المعاني في عصرٍ ما، كان هذا الاستعمال حقيقة، وإذا قل هذا الاستعمال في عصر آخر، صار هذا الاستعمال مجازياً، وهذا لم يقله أحد من العلماء، ورحم الله الشيخ عبد القاهر، حيث نبه على أن المجاز أو الكناية لا يزيد القضية من حيث الكم، فقولك: «رأيت أسداً أو بحراً»، ليس معنى هذا أن هذه العبارة تدلُّ على كثرة الشجاعة والجود أكثر من قولك: «فلانٌ شجاعٌ جواد» إنما تزيد الاسلوب حسناً كما ستعرفه، وأزيدك على ما قاله الشيخ - رحمه الله - أن كثرة الاستعمال وقلته لا تحوّل الحقيقة إلى مجاز، فالصلاة التي كانت تستعمل كثيراً في الدعاء ولكنها الآن قل استعمالها في هذا المعنى، لم تتحول من الحقيقة إلى المجاز، فالصلاة وضعتها اللغة للدعاء، وستبقى كذلك حقيقة لغوية كثر استعمالها

أم قل. قلة الاستعمال إذن لا تحول استعمال الصلاة في الدعاء إلى مجاز، نبهتك على هذا لأنني عرفتُ أن بعض المدرسين قد ذكر هذا لطلابه.

رابعاً: أنواع المجاز:

آخر ما نحدثك عنه في هذا التمهيد أنواع المجاز، عرفت أن المجاز الذي حدثناك عنه هو المجاز اللغوي، ذلك لأن الفيصل فيه اللغة، وهناك مجاز آخر لا يرجع في مفهومه إلى اللغة. خذ مثلاً قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٤] قف مع قوله سبحانه: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ وتأمل هذه الجملة الكريمة جيداً فإنك تجد أن الكلمات استعملت فيما وضعتها لها اللغة؛ فكلمتا التذبيح والاستحياء استعملتا استعمالاً حقيقياً، ولكنك إذا أنعمت النظر فإنك تجد أن اسناد التذبيح والاستحياء لفرعون ليس اسناداً حقيقاً، لأن فرعون ليس هو الذي ذبّح الأبناء واستحيا النساء، إنما الذين فعلوا ذلك جندُهُ، كل ما في الأمر أنه كان السبب والآمر بذلك العمل.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ [غافر ٣٦] إن كلمة البناء هنا مستعملة استعمالاً حقيقياً ولكن هامان ليس هو الذي سيبني الصرح وإنما سيأمر العملة بذلك. وتجد الغيث ينزل من السماء فتقول «سال الوادي» فكلمة السيل هنا مستعملة استعمالاً حقيقياً فيما وضعت له؛ ولكن اسناد السيل إلى الوادي ليس حقيقاً، لأن الماء في الوادي هو الذي يسيل، وتقول: (فاض الكأس) والحقيقة أن الماء هو الذي فاض من الكأس.

هذه الكلمات كلها كما ترى ليس فيها مجاز لغوي، ولكن المجاز جاء في الاسناد، اسناد التذبيح إلى فرعون، والبناء إلى هامان، والسيل إلى الوادي والفيضان إلى الكأس، المجاز هنا إذن ليس لغوياً وإنما هو مجاز في الاسناد ويسمى مجازاً (عقلياً): لأن العقل هو الذي حكم بمثل هذه القضايا وليست اللغة.

المجاز - إذن - نوعان: لغوي، وعقلي؛ فاللغوي ما كان مرجعه إلى اللغة لأن الكلمة استعملت في غير ما وضعت له؛ أي في غير ما وضعت له من حيث اللغة، والمجاز العقلي ويسمى مجازاً (حُكْمِيًّا) ذلك لأن التغيير فيه ليس لغوياً إنما هو اسناد الشيء لغير ما هو له.

بقيت قضية ذات شأن في المجاز اللغوي، ولقد عرفت من قبل أن المجاز لا بد فيه من خمسة أمور: كلمة ومعنيان وعلاقة وقرينة، ونودّ الآن أن نقف مع العلاقة لنفكر فيها جيداً.

العلاقـــة:

ارجع إلى الأمثلة التي ذكرناها لك هناك، فلقد عرفت هناك أن الصلة بين المعنى الذي وضعت له (الشمس) والمعنى الذي استعملت فيه وهو (الحسناء) هي (الوضاءة)، وأن الصلة بين المعنى الذي وضعت له كلمة (أسد) وبين المعنى الذي استعملت فيه وهو (الرجل) هي (الشجاعة)، وأن الصلة بين المعنى الذي وضعت له كلمة (سحاب) والمعنى الذي استعملت فيه هو (العطاء والخير)، إذا نظرت إلى هذه العلاقات تجد أنها تصلح أن تكون وجه شبه كما مرّ معك في التشبيه، ولهذا سميت هذه العلاقة (المشابهة) فإننا نستطيع أن نشبه الرجل الشجاع بالأسد، والحسناء بالشمس، والجواد بالسحاب، ووجه الشبه: (الشجاعة)، (والوضاءةُ) و (العطاء).

ولكنْ هناك مجازاً لغوياً ليست العلاقة فيه من هذا النوع أي لا تصلح أن تكون العلاقة فيه وجه شبه؛ خذ مثلاً قول الله سبحانه: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [نوح ٧] فإنهم في الحقيقة يجعلون اناملهم في آذانهم، ولكن القرآن اطلق الأصبع وأراد الأنملة، واللغة لم تضع الأصبع للأنملة كلمة الأصبع إذن استعملت في غير ما وضعت له.

وخذ مثلاً قول الله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل ٢] فإن المقصود بالقيام الصلاة، واللغة لم تضع القيام لتدل على الصلاة فاستعمال القيام في الصلاة استعمال للكلمة في غير ما وضعت له، ولكنك إذا بحثت عن العلاقة بين الأنامل والأصابع، وبين القيام والصلاة، فستجدها بديهة تختلف عما مرت معك من علاقات.

لا يستطيع أحد أن يدعي أن العلاقة بين الأَنْمُلَة والاصبع المشابهة، ولا بين القيام والصلاة كذلك؛ إنما العلاقة أن إحدى الكلمَتين جزء من الأخرى، ففي الآية الأولى الأنامل جزء من الأصبع فقد استعمل الكل وأريد الجزء وفي الآية الثانية؛ القيام جزء من الصلاة، فلقد استعمل الجزء وأريد الكل، ولذلك سمّوا هذه العلاقة (غير المشابهة).

نخلص من كل ما تقدم إلى أن المجاز اللغوي إما أن تكون علاقته (المشابهة) أي تصلح أن تكون وجه شبه بين المعنى الأصلي الذي وضعت له الكلمة وبين المعنى الثاني الذي استعملت فيه بحيث يمكن أن يكون تشبيهاً.

وقد تكون العلاقة غير المشابهة فلا يمكننا أن نكوّن تشبيهاً بين المعنيين، والأول يسمى استعارة، والثاني يسمى مجازاً مرسلاً، فالاستعارة - إذن - مجاز لغوي علاقته المشابهة، والمجاز المرسل مجاز لغوي علاقته غير المشابهة، وهذا ما استقرت عليه كلمة البيانيين.

ومما تقدم تدرك أن المجاز ينقسم إلى قسمين:

١- المجاز العقلي.

٢- المجاز اللغوي وينقسم إلى:

أ - مجاز مرسل.

ب - استعارة.

وسنحدثك بعد هذا التمهيد إن شاء الله عن كل قسم على حده.

الفصل الأول
المجاز العقلي

اعتاد كثيرٌ من الكاتبين أن يذكروا المجاز العقلي في علم المعاني، كما فعل الشيخ عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) وصاحب التلخيص (القزويني)؛ لأنه قسمٌ من الإسناد، والإسناد وما يتصلُ به من مباحث علم المعاني، وبعض الكاتبين يذكره في علم البيان؛ لأن المجاز من مباحث علم البيان، وهذا ما اخترته لك أيها القارئ الكريم.

عرفت أن المجاز العقلي لا يكون في الكلمة نفسها، فالكلمة لم تخرج فيه عن وضعها اللغوي، إنما يكون في الإسناد فهو (اسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له)، ولا بد قبل أن نسترسل معك في الحديث عن المجاز العقلي أن نقف عند العبارة المتقدمة، ووقوفنا عندها في موضعين اثنين:

– الموضع الأول: عند قولنا «إسناد الفعل أو ما في معناه» ونقصد بـ(ما في معنى الفعل)؛ اسم الفاعل، اسم المفعول، وما يشبههما، ألا ترى أن هذه تعمل عمل الفعل؟ فترفع الفاعل وتنصب المفعول، فإذا قلت «أضاربٌ زيد عمرواً؟»، «أحاضرٌ أخوك؟»« أمفهومٌ الدرس؟»، «حُبُّك الأعداءَ خيانةٌ» فإن (ضارب) في المثال الأول رفعت الفاعل ونصبت المفعول، وكذلك (حاضر) في المثال الثاني، أما كلمة (مفهوم) في المثال الثالث، فهي اسم مفعول ورفعت بها كلمة الدرس، لأنها نائب فاعل، وفي المثال الرابع نصبت كلمة (الاعداء) لأنها مفعول به للمصدر (حُب).

– الموضع الثاني: قولنا (لغير ما هو له)، وتوضيحاً لهذه الجملة نقول: إذا قلت: «سال الماء في الوادي»، «فاض الماء من الكأس»، «فاطمة صائمة هذا اليوم»، «محمد قائم ليلته»، «نحمي أرضنا بإيماننا وشجاعتنا»، «نَبَتَ البقل في فصل الربيع».

قف أمام هذه الجمل واحدة واحدة، تجد أن الإسناد في كل منها إسناد حقيقي؛ فهو اسناد الفعل أو ما يشبهه لما هو له، ألا ترى أن اسناد (سال وفاض) إلى الماء اسناد حقيقي؟ واسناد الصوم والقيام إلى فاطمة ومحمد اسناد حقيقي، واسناد الفعل نحمي إلى ضمير المتكلم اسناد حقيقي كذلك؟ واسناد النبت إلى البقل في فصل الربيع كذلك. نستطيع أن نقول إذن إننا في هذه الجمل جميعاً اسندنا الفعل أو ما في معناه إلى ما هو له.

ولكن سعة اللغة وفن التعبير يكسبان الكلام زهواً وبهاءً حيثُ يمكننا أن نغير العبارات السابقة فنقول: «فاض الكأس»، «سال الوادي»، «نهارها صائم»و «ليلُهُ قائم»، «يحمي بلادَنا وعرضَنا ضربُ السيوف»، «انبت الربيعُ البقل»، «أشابَتْنا الهمومُ»، في هذه العبارات جميعاً نجد اننا اسندنا الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، فإن الكأس والوادي لم يسيلا، ولكن

سال الماء الذي فيهما، ومن هنا كان المجاز والعلاقة التي جعلتنا نقدم على مثل هذا هو ما بين الماء وكل من النهر والكأس من صلة وقرب؛ إذ هما مكان هذا الماء، كذلك الجملتان «نهارها صائم»، و«ليله قائم»، الاسناد فيهما مجازي لأن النهار لم يصم، ولأن الليل لم يقم، ومن هنا كان المجاز.

والذي حسّن هذا التجوز هو ما بين الصيام والقيام والنهار والليل من صلة، فكل منهما زمان للآخر، الليل زمان القيام والنهار زمان الصوم، كذلك اسناد الحماية للضرب اسناد غير حقيقي لأن الذي يحمي هم أصحاب السيوف أي الناس، والذي سوّغ هذا التجوز هو أن هذا الضرب سبب لهذه الحماية.

لعلك الآن ادركت أن المجاز العقلي وإن اختلف عن المجاز اللغوي - لأن ذاك في الكلمة وهذا في الاسناد - إلاّ أنه يشبهه من حيث حاجتهُ إلى العلاقة والقرينة، فإذا قلت: «سال النهر» فالقرينة هنا معنوية، لأن النهر لا يمكن أن يسيل أما العلاقة فهي المكانية لأن النهر مكان الماء، وكذلك قولك: «فاض الكأس»، أما العلاقة في قولنا: «نهارهُ صائم»، و(ليلُهُ قائم» فهي الزمانية؛ لأن النهار والليل زمان الصيام والقيام، وأما العلاقة في قولنا «أشَابَتْنَا الهموم» فهي السببية؛ لأن الهموم سبب للشيب، وهناك علاقات أُخر للمجاز العقلي: وهي المصدرية كقولك:«جَدَّ الجدُّ»، قال أبو فراس(١):

سَيَذْكُرُني قَوْمِي إذا جَـدَّ جِدُّهُـم ... وَفي اللَّيْلَـةِ الظَّلْمَـاءِ يُفْتَقَـدُ البَـدْرُ

ومنه قول أبي سفيان: (لقد أمِر أمرُ ابن أبي كَبْشَةَ).

ومن علاقاته المفعولية: وذلك حينما نأتي باسم الفاعل ونريد المفعول كقوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق ٥]، أي مدفوق، و «بَيْتٌ عَامِر» أي معمور و «سُمٌّ نَاقِعٍ» أي منقوع، ومنه قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص ٥٧] أي مأموناً، ومنه قوله سبحانه: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود ٤٣] أي معصوم، فانت ترى هنا أنه قد ذكر اسم الفاعل ولكن المراد إسم المفعول، فالعلاقة المفعولية كما عرفت. ومن هذا قول الحطيئة(٢):

دَعِ المَكَـارِمَ لاَ تَرْحَـلْ لِبُغْيَتِـهَـا ... وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِـي

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٢١، قصيدة (أراك عصي الدمع).
(٢) ديوان الحطيئة ص ٢٨٤.

فقد عبر باسم الفاعل هنا ولكنه يريد أنت (المطعوم المكسو) بدليل قوله «دع المكارم لا ترحل لبغيتها»، إذ لا يعقل أن يجرده من المكارم ثم يصفه بأنه يطعم الناس ويكسوهم، والبيت قاله الحطيئة في الزبرقان بن بدر رضي الله عنه فرفع الزبرقان أمر الحطيئة لسيدنا عمر رضي الله عنه فعزره وأدبه، ومنه قولنا «نهاره صائم» و «ليله قائم» أي مصومٌ فيه ومقومٌ فيه، وقد تقدم لك أن علاقة هذا الزمانية، لكن قد تختلف العلاقات باختلاف المعنى كما تختلف الأعاريب باختلاف المعاني، وسيأتي لهذا مزيدُ تفصيل إن شاء الله.

وقد تكون العلاقة الفاعلية وذلك إذا ذكر اسم المفعول واريد اسم الفاعل، ومنه قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم ٦١] فـ (مأتي) اسم مفعول، ولكن المراد اسم الفاعل أي إن وعده آت، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام ١٣٤]، ومن هذا قولهم: «سيلٌ مُفْعَم» بصيغة اسم المفعول، والمراد اسم الفاعل، وذلك من قولهم: «أفْعَم السيلُ الواديَ» إذا ملأه، فالسيل مفعِم وليس مُفعَم، ولكي تتضح لك صورة هذا المجاز نذكر لك مزيداً من الأمثلة:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (غافر ٣٦].

٢- قال تعالى في شأن فرعون: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص ٤].

واسناد البناء إلى هامان، والتذبيح والاستحياء إلى فرعون، إسناد مجازي علاقته السببية، لأن هامان سبب في البناء وهو المشرف عليه، ولأن فرعون هو السبب في التذبيح والاستحياء، والباني في الحقيقة العَملةُ والمذبِّح والمستحيي هم الجنود.

٣- قال المتنبي يصف ملك الروم بعد أن هزمه سيف الدولة(١):

وَيَمْشِي بِهِ العُكَّازُ فِي الدَّيْرِ تَائِبًا ... وَمَا كانَ يَرْضَى مَشْيَ أَشْقَرَ أَجْرَدَا

٤- وقال الفرزدق(٢):

يَحْمي إذا اخْتُرِطَ السُّيُوفُ نِساءَنا ... ضَرْبٌ تَطِيرُ لَهُ السَّواعِدُ أرْعَلُ

---

(١) ديوانه ٦/٢، يقول: وصار يمشي في دير الرهبان على العكاز تائباً من الحرب بعد أن كان لا يرضى مشي الخيل السراع - لأن الجواد الأشقر عند العرب أسرع الخيل - بعد أن يئس ونال منهُ الهم، والأجرد: القصير الشعر.

(٢) ديوانه ص ٤٩٠، اختُرط السيوف: أي استُلت، الأرعل: الذي يقطع اللحم فيدليه، المعنى: يشير إلى منعة قومه وقوتهم من خلال تصوير ضرباتهم العنيفة التي تقطع سواعد المعتدين، مما يعني حصانة نساء قومه المطلقة، فيا ليت لامتنا مثل هذه الحمية.

واسناد المشي إلى العكاز مجاز عقلي علاقته السببية، واسناد الحماية إلى الضرب مجاز عقلي علاقته السببية كذلك.

٥- وهذا مثل قولك: «بنى الإسلام لنا دولة لا تغيبُ عنها الشمس» فإن اسناد البناء للإسلام مجاز عقلي علاقته السببية.

٦- وقال آخر:

إنَا لَمِنْ مَعْشَرٍ أفْنَى أوائِلَهُمْ قِيلُ الكُمَاةِ ألاَ أيْنَ المُحامُونا(١)

٧- وقال المتنبي(٢):

والهَمُّ يَخْتَرِمُ الجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

واسناد الافناء إلى القول اسناد مجازي علاقته السببية كذلك؛ لأن القول سبب في الافناء .واسناد الاخترام والشيب والاهرام إلى الهم من المجاز العقلي وعلاقته السببية لأن الهمّ سبب في هذه الأمور.

٨- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ [الأنعام ٦] اسناد الجري إلى الأنهار اسناد مجازي، لأن الأنهار لا تجري إنما يجري الماء الذي في الأنهار، اسناد الجري إلى الأنهار - إذن - مجاز عقلي علاقته المكانية.

٩- قال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ ٣٣] اسناد المكر إلى الليل والنهار مجاز عقلي علاقته الزمانية لأنهما زمان المكر.

١٠- قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة ٢١]، العيشة لا ترضى - كما تعلم - وإنما يرضاها الناس، فَوَصْفُ العِيشة بأنها راضية مجاز عقلي علاقته المفعولية لأنها عيشة مرضية.

١١- تقول: «ذهبنا إلى حديقة غنّاء وروضة فيحاء» الحقيقة أن الحديقة مكان للصوت الجميل، والرائحة الطيبة فهو مجاز عقلي علاقته المكانية.

---

(١) الكماة: جمع كمي: وهو الشجاع المتكمي بسلاحه أي المستور به، أي أنهم ما إن يسمعوا صيحة مستغيث حتى يجيبوه وقد فني أجدادهم في هذا الأمر.

(٢) ديوانه ٤/٢٥١، يخترم: يقطع ويستأصل، الجسيم: العظيم الجسم، النحافة: الهزال، الناصية: مقدم الرأس، يقول: إن الحزن إذا استولى على المرء أذهب جسم العظيم الجسد وهزله حتى يأتي عليه الهزال، ويشيب الصبي قبل الأوان حتى يصير كالهرم من الضعف والعجز.

١٢- قال الشاعر:

قَـدْ عَـزَّ عِـزُّ الأُلَـى لاَ يَبْخَلُـونَ علـى ... أَوْطَـانِهِـمْ بِالـدَّمِ الغَالِـي إِذَا طُلِبَـا

وأنت ترى هنا أنه قد اسند الفعل إلى المصدر، وهذا مجاز عقلي علاقته المصدرية، وإنما كان مجازاً: لأن العزّ لا يَعزّ وإنما يُعَزّ به كما تقول: «يخاف الخوفُ».

١٣- قال تعالى: ﴿وإِذَا قَرَأْتَ القُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وبَيْنَ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ [الإسراء ٤٥]، ومن شأن الحجاب أن يكون ساتراً فهو مجاز عقلي علاقته الفاعلية.

تقول الخنساء في رثاء أخيها صخر(١):

تَرْتَـعُ ما رَتَعَـتْ حَتّـى إذا ادَّكَـرَتْ ... فَإِنَّمَـا هِـيَ إِقْبَـالٌ وإِدْبَـارُ

اسندت (العَجُول) التي في البيت الذي قبل هذا:

فَمَا عَجُـولٌ عَلَـى بَـوٍّ تُطِيـفُ بِهِ ... لَهَـا حَنِينَـانِ إِصْغَارٌ وإِكْبَـارُ(٢)

اسندتها إلى المصدر (اقبال وادبار) وإنما ارادت أنها مقبلة مدبرة فهو مجاز عقليّ علاقته الفاعليّة.

إن للمجاز العقلي في الكلام لشأناً عظيماً؛ ولذا فأنت تراه مرتكزاً في طبائع الناس يعبرون به وإن لم يعرفوا اسمه، ألا تسمعهم يقولون «فلان اصلحه الزواج وغيرَه المال»، و«أنت نَجَّتْك أمانتُكْ» و«فلان نفعَتْه تقوى والديه»، و«هذا رفعه العلم»، و«ذاك قتله طمعه»، و«هذه اشقاها جمالها»، و«تلك سما بها خلُقها»، و«علَّمَنا الاستعمار دروساً لا ننساها» و«هذا بيت مضيء»، ويقول بعضهم لبعض: «منزلك عامر»، و«سفرة دائمة»، إلى غير ذلك من العبارات الكثيرة وكلها من المجاز العقلي كما ترى.

ولقد أشار الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - إلى هذا اللون من المجاز مبيناً ما له من فضيلة في القول، وقد سماه (المجاز الحكمي)، ومن الخير أن ننقل لك شيئاً مما كتبه في كتابه الدلائل لنختم به الحديث، ولا يفوتنا قبل ذلك أن ننبهك على أن المجاز العقلي قد جرت عادة

---

(١) ديوانها ص ٤٨، تصف الناقة حيث تمثل حزنها على أخيها بحزن هذه الناقة التي فقدت وليدها، فإنما هي اقبالٌ وإدبارُ: لا تنفك تقبل وتُدبر فهما - أي الإقبال والإدبار- سجيةٌ لها وديدن.

(٢) العَجول: بفتح العين: الثكلى من النساء والإبل التي فقدت ولدها سميت بذلك لعجلتها في ذهابها وإيابها جزعاً، البوّ: أن يُنحر ولد الناقة ويؤخذ جلده فيحشى ويدنى من أمه، وفي الديوان: (فإنما هي اعلانٌ واسرارُ).

المؤلفين القدامى أن يذكروه في علم المعاني لا في علم البيان، كما يفعل المحدثون اليوم، وذلك عندما يتحدثون عن الاسناد الخبري، وهو الباب الأول من أبواب علم المعاني، يقسمونه إلى اسناد حقيقي، واسناد مجازي، وهو اسناد الفعل أو ما في معناه لغير ما هو له، وهو المجاز العقلي. ثم يقسمونه بعد ذلك إلى اربعة أقسام لأن كل مجاز عقلي - كما رأيت من قبل - لا بد له من طرفين: مسند، ومسند إليه وهذان الطرفان يمكنك أن تجدهما في كل مثال مما سبق كإسناد البناء إلى الإسلام في قولنا «بنى الإسلام لنا دولة»، وإسناد الصوم إلى النهار، فالطرفان إما أن يكونا:

١- حَقِيقِيَّيْن نحو «انبت الربيعُ البقل».

٢- أو مجازيَّيْن نحو «أحيا الأرضَ شبابُ الزمان».

٣- أو مختلفين نحو «احيا الأرضَ الربيعُ»، و «أنبت البقلَ شبابُ الزمان»، ولا نرى في ذلك كثير فائدة في هذا الموضوع.

وحتى لا تتشعب بك السبُل نذكر لك ما وعدناك به من كلام الشيخ - رحمه الله تعالى-. يقول: «اعلم أن طريق المجاز والاتساع في الذي ذكرناه قبل، أنك ذكرت الكلمة وأنت لا تريد معناها ولكن تريد معنى ما هو ردْفٌ له أو شبيه، فتجوَّزت بذلك في ذات الكلمة وفي اللفظ نفسه، وإذ قد عرفت ذلك فاعلم أن في الكلام مجازاً على غير هذا السبيل، وهو أن يكون التجوز في حكم يجري على الكلمة فقط وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ويكون معناها مقصوداً في نفسه، ومراداً من غير تورية ولا تعريض. والمثال فيه قولهم: «نهارك صائم»، «وليلك قائم» و «نام ليلي» و «تجلى همّي»: وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة ١٦] وقول الفرزدق(١):

سَقَاهَا خُروقٌ في المَسَامِعِ لَمْ تَكُنْ عُلَاطَاً ولا مَخْبوطَةً فِي المَلَاغِمِ

أنت ترى مجازاً في هذا كله ولكن لا في ذوات الكلم وانفس الالفاظ، ولكن في احكامٍ أُجْرِيَتْ عليها، افلا ترى أنك لم تتجوز في قولك: «نهارك صائم»، و «ليلك قائم»، ولكن في أن اجريتهما خبرين على النهار والليل. وكذلك ليس المجاز في الآية لفظة (ربحت) نفسها ولكن في اسنادها إلى التجارة، وهكذا الحكم في قوله: (سقاها خروق): ليس التجوز في نفس (سقاها) ولكن في أن اسندها إلى الخروق.

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٩٧، والبيت ليس في ديوان الفرزدق، خروق في المسامع: أي ثقوبٌ في آذان الإبل وهي سمةٌ لها، العلاط: سمة في عنق الإبل، مخبوطة: معلمة وموسومة، الملاغم: الفم والأنف والأشداق، ذكر إبل قوم من السادة ضلت، فعرف الناسُ من علاطتها أصحابَها وعنوا بها. والمعنى: لم تكن هذه سمات إبله بل سماتها خروقٌ في آذانها، ولما رآها الذائدون عن الحوض سقوها لعزة أصحابها فكأنما الخروق هي التي سقتها الماء لأنها دلت عليها فأوردتها الماء، وابعدت الذائدين عنها.

افلا ترى أنك لا ترى شيئاً منها إلا وقد أريد بها معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته؟ فلم يرد بصائم غير الصوم، ولا بقائم غير القيام ولا بربحت غير الربح، ولا بسقت غير السقي، كما لم يرد بسالت في قوله * وسالت باعناق المطيّ الاباطح * غير السيل.

واعلم أن الذي ذكرت لك في المجاز هناك من أن من شأنه أن يفخم عليه المعنى، وتحدث فيه النباهة قائم مثله ههنا فليس يشتبه على عاقل أن ليس حال المعنى وموقعه في قوله * فنام ليلي وتجلى همي * كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت: «فَنِمْتُ في ليلي وتجلى همي»، كما لم يكن الحال في قولك: «رأيت أسداً» كالحال في : «رأيت رجلاً كالأسد» ومن الذي يخفى عليه مكان العلو، وموضع المِزْيَة، وصورة الفرق بين قوله تعالى: {فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ} وبين أن يقال: «فما ربحوا في تجارتهم»، وإن اردت أن تزداد للأمر تبيناً فانظر إلى بيت الفرزدق:

يَحْمِي إِذَا اخـتُرِطَ السُّيُـوفُ نِساءَنَـا ضَـرْبٌ تَطِيـرُ لَـهُ السَّوَاعِـدُ أَرْعَـلُ

وإلى رونقه ومائه وإلى ما عليه من الطلاوة. ثم ارجع إلى الذي هو الحقيقة وقل، «نحمي إذا اخترط السيوف نساءنا بضرب تطير له السواعد ارعل»، ثم اسبر حالك هل ترى مما كنت تراه شيئاً؟ وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الابداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان، وأن يجري بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وأن يضعه بعيد المرام، قريباً من الافهام، ولا يغرنّك من أمره أنك ترى الرجل يقول: «أتى بي الشوقُ إلى لقائك»، و «سار بي الحنين إلى رؤيتك»، و «اقدمني بلدَك حقٌ لي على انسان»، واشباه ذلك مما تجده لسعته وشهرته يجري مجرى الحقيقة التي لا يشكل امرها، فليس هو كذلك أبداً بل يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، حتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها والنادرة تأنق لها».

ثم ينبه الشيخ إلى قضية دقيقة لا بد أن نشير إليها يقول:

«واعلم أنه ليس بواجب في هذا أن يكون للفعل فاعل في التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة مثل أنك تقول في «ربحت تجارتهم» ربحوا في تجارتهم وفي «يحمى نساءنا ضربٌ» «نحمي نساءنا بضرب»، فإن ذلك لا يتأتى في كل شيء، ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل – في قولك – «اقدمني بلدك حق لي على انسان»: فاعلاً سوى الحق؟؟ وكذلك لا تستطيع في قول محمد اليزيدي(١):

وَصَيَّـرنِي هَـوَاكَ وَبِـي لِحِيـنِي يُضْـرَبُ المَثَـلُ

(١) معاهد التنصيص ٨٢/١، المعنى: أي صيرني الله بهواك وحالي هذه – وهي أن يضرب بي المثل – أي أهلكني الله ابتلاءً بسبب هواك.

وقول أبي نواس[1]:

يَـزِيـدُكَ وَجْهُـهُ حُسْنَـاً إذَا مَـا زِدْتَـهُ نَـظَـرا

أن تزعم أن لـ(صيّرني) فاعلاً قد نُقل عنه الفعل فجعل للهوى كما فعل ذلك في «ربحت تجارتهم»، و «يحمي نساءنا ضرب»، ولا تستطيع كذلك أن تقدر للفعل (يزيد) في قوله «يزيدك وجهه»: فاعلاً غير الوجه، فالاعتبار إذن بأن يكون المعنى الذي يرجع إليه الفعل موجوداً في الكلام على حقيقته.

معنى ذلك أن القدوم في قولك: «اقدمني بلدك حق لي على انسان»، موجود على الحقيقة، وكذلك الصيرورة في قوله: «وصيّرني هواك»، والزيادة في قوله: «يزيدك وجهه» موجودتان على الحقيقة، إذا كان معنى اللفظ موجوداً على الحقيقة لم يكن المجاز فيه نفسه، إذ لم يكن المجاز في نفس اللفظ كان لا محالة في الحكم، فاعرف هذه الجملة واحسن ضبطها حتى تكون على بصيرة من الأمر»[2].

نقلت لك هذا النصّ من كلام الشيخ لكي تدرك ما اعطيه من دقّة فهم، وقوة ادراك ينفذ منها إلى المعاني بصفاء قريحة، ولتدرك موقف الذين كانوا عالةً عليه من عبارته هذه فلقد كان موقف الناقد المعترض، ولا بد أن نشرح لك كلمة الشيخ أولاً:

يقول: إن المجاز العقلي نوعان، نوعٌ يسهل فيه تقدير الفاعل، وجاء لذلك بمثالين اثنين قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة ١٦] فاسناد الربح إلى التجارة مجاز عقلي لأن التجارة لا تربح، إنما تكون سبباً في الربح، فالتقدير إذن (ما ربحوا في تجارتهم) فهو مجاز عقلي علاقته السببية. المثال الثاني قول الفرزدق: «يحمى نساءَنا ضربٌ» فإن الضرب سبب في الحماية وقدتقدم لك هذا من قبل.

النوع الثاني من المجاز العقلي: ما لا يسهل فيه تقدير الفاعل، بل يحتاج إلى تأمل وروية وفكر، ومثّل لذلك بقوله: «اقدمني بَلَدَكَ حقٌ لي على انسان»، و «صيرني هواك»، وقوله: «يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً»، فإن في هذه الأمثلة جميعاً مجازاً عقلياً، ففي المثال الأول: الذي اقدمه البلد حقٌ له على فلان، إذن قدومه للبلد بسبب الحق الذي له، وكذلك صيّرني هواك فإن الهوى كان سبباً في تصييره ليُضرب به المثل، وكذلك المثال الثالث كان الوجه سبباً في زيادته حسناً.

---

(١) معاهد التنصيص ٧٨/١.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٢٧ - ٢٣٠.

«النقض: الفسخ وفك التركيب، فإن قلت من أين ساغ استعمال النقض في ابطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين. ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة: «يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها، فنخشى إن اللهُ عز وجل أعزّك وأظهرك أن ترجع إلى قومك» وهذا من أسرار البلاغة، ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانته. ونحو قولك «شجاع يفترس أقرانه»، «وعالم يغترف منه الناس»، «وإذا تزوجت امرأة فاستَوْثِرْهَا»، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر، وعلى المرأة بأنها فراش»[1].

وخذ مثلاً قول أبي تمام[2]:

دِيـمَـــةٌ سَمْحَـــةُ القِيَـادِ سَـــكُـوبُ مُسْـــتَغِيْـثٌ بِهَـــا الثَّـــرَى المَكْـــرُوبُ

فانظر كيف صور الديمة بأنها سمحة القياد، ثم انظر إلى التصوير الرائع كيف صور لك هذا الجماد وهو هذا التراب هذه الصورة الحية المتحركة؟ كيف صوّرهُ بصورة من يستغيث ويستجدي؟ وإذا سألت عن سر ذلك وجماله لم تجد سبباً لذلك إلا هذا الأسلوب الاستعاري، الاستعارة المكنية، فلقد شبه الثرى برجل مسّه الكرب، وأحاطت به اللأواء، وتملكته البأساء والضراء، ولقد أضمر الشاعر كل ذلك ورمز له بكلمة واحدة هي كلمة (مستغيث)، ثم أسند هذه الاستغاثة إلى الثرى، فكأنك وأنت تراها تحس بهذه الاستغاثة، وانظر إلى البيت الحماسيّ:

قَوْمٌ إِذَا الشَّـرُّ أَبْـدَى نَاجِذَيْـــهِ لَهُـــمْ طَـــارُوا إِلَيْـــهِ زُرَافَـــاتٍ وَوُحْدَانَـــاً

ألا تراه كيف صور الشر بمفترس كَشَّرَ عن أنيابه؟، وهل تظن أن جمال ذلك يعود لغير الاستعارة المكنية التخييلية؟! المكنية لأنه شبه الشر بمفترس، والتخييلية لأنه جعل للشر ناجذين يبديهما. واستمع إلى قول الفرزدق[3]:

والشَّيْـبُ يَنْهَـضُ فـي الشَّبَـابِ كَأَنَّـــهُ لَيْـــلٌ يَـصِيـــحُ بِجَـانِبَيْـــهِ نَهَـــارُ

فهو يشبه الشيب وهو يلاحق الشباب ليزيله ويمحو آثاره، يشبه هذه الصورة بصورة الليل الذي يلاحقه النهار ليذهب أثره وليحل محلّه، هذا تشبيه تمثيل - كما رأيت - فهو تشبيه صورة بصورة، صورة سواد الشعر ليحل الشيب محله، بصورة سواد الليل الذي يطارده

(١) الكشاف ١/١١٩، روادفه: أي لوازمه، فاستوثرها: الوثيرة: الكثيرة اللحم.
(٢) ديوانه ١/٢٩١، قصيدة ٢٣، والبيت مطلع قصيدة في مدح محمد بن الهيثم بن شبانة.
(٣) ديوان الفرزدق ص ٩٠.

الآيتين الكريمتين، وكلمتي (بُنِيَ) و (شُعْبة) من الحديثين الشريفين وكلمة (دولة) وكلمة (أظفار) من البيتين السابقين، لزالت الاستعارة ولأصبح الكلام من اسلوب آخر غير اسلوب الاستعارة فلو قيل «كن ذليلاً لوالديك»، و «الإيمان بضع وستون قولاً وعملاً»، و «لا تحنثوا في أيْمانكم»، و «ذهب أثر الصيام»، و «الموت لا يفرق بين الناس». لم يكن ذلك من الاستعارة في شيء ولكن هذا الأثر الذي أبقيناه للمشبه به هو الذي دلّنا عليه.

بقيت في الاستعارة المكنية قضية خطيرة ذات شأن وأثر، وهي أن هذا الرمز للمشبه به، قد أضفناه أو أسندناه إلى المشبه، فالنقض الذي هو من لوازم الحبال أسندناه للأيْمان مع أن الأيْمان لا توصف على الحقيقة بالنقض، والاظفار التي هي من لوازم السّباع أسندناها للمنية، والمنية لا أظفار لها - كما تعلم - والجناح الذي هو من جوهريات الطير أضفناه للذل ومن البدهي أن الذل لا أجنحة له، والدولة التي هي من لوازم ذي السلطان أضفناها للصيام وهو معنىً من المعاني، والشعبة التي أسندناها للإيمان هي شيء مادي والإيمان ليس كذلك، والبناء الذي أسندناه للإسلام من لوازم البيت، لأنه شيء مادي وليس الإسلام كذلك.

هذه العملية الفنية الرائعة، وهي اضافة أو اسناد أحد لوازم المشبه به إلى المشبه تسمى استعارة تخييلية، فلقد تخيلنا أن للمنية أظفاراً وأن للإيمان شعباً وأن للأيْمان نقضاً وهكذا الأمثلة جميعها.

نستطيع أن ندرك بعد هذا أن كل استعارة مكنية لا بد أن تشتمل على استعارة تخييلية مكنية، هي مكنية لأنها حذف منها المشبه به، وهي تخييلية لأننا أضفنا أو أسندنا ما هو من لوازم المشبه به إلى المشبه - ففي قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بُني الإسلام على خمس»[1] استعارتان:

(١) مكنية وهي تشبيه الإسلام بالبيت، وحَذْفُ المشبه به والرمزُ له بشيء من لوازمه وهو البناء.

(٢) وفي اسناد البناء للإسلام استعارة تخييلية، وهكذا الأمثلة السابقة جميعاً.

ومن هنا كانت الاستعارة المكنية أبلغ، وأكثر تأثيراً في النفس، وأجمل تصويراً، ذلك لأن العمل الإبداعي فيها أدقّ منه في الاستعارة التصريحية، ألا ترى أنها تبعث الحياة فيما ليس بحي؟ وتثير الحركة، وتنمي الخيال، فتضفي جمالاً وهي تضيف إلى الأشياء صفات تزينها وتجملها.

قال الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة ٢٧].

(١) تقدم تخريجه ص ١٧٢.

إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم «الإيمان بضع وسبعون شعبة»(١) والشعبة شيء مادي كشعاب الجبال وشعاب الشجر، ففي الحديث الشريف تشبيه الإيمان وقد تعددت اصوله وقضاياه بالشجرة ذات الشعاب والفروع الكثيرة وحُذف المشبه به وهو الشجرة، ولكننا رمزنا له بشيء من لوازمه وهو الشعبة.

واستمع إلى قول الشاعر(٢):

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ

وأظنك تدرك الآن على ضوء ما تقدم لك من الآيات والأحاديث السابقة أن الشاعر أراد تشبيه المنيَة بالسَّبُع الذي لا يفرق عند افتراسه بين الناس، وكذلك المنية، وقد حذف المشبه به وهو السبع ورمز له بشيء من لوازمه وهي الأظفار. واستمع إلى قول ابن المعتز(٣):

قَدِ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ ... وَقَدْ بَشَّرَ سُقْمُ الهِلاَلِ بِالعِيدِ(٤)

يَتْلُو الثُّرَيَّا كَفَاغِرٍ شَرِهٍ ... يَفْتَحُ فَاهُ لأَكْلِ عُنْقُودِ

فقد أضاف الدولة للصيام، والدولة في الحقيقة تكون لذوي السلطان من الناس، فقد شُبِّه الصيام بصاحب الدولة بجامع النفوذ في كل وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الدولة.

ويقيني - بعد ذلك - أنك تتساءل عن سرّ الفرق بين النوعين، فالاستعارة التصريحيّة ذكر فيها المشبه به ولم يشر إلى المشبه بشيء. أما المكنية فقد حذف منها المشبه به ولكنه رمز له بشيء من لوازمه، ولكي يسهل الجواب عليك وييسر لك أمره، فإني أذكرك بما قررته لك من قبل عندما حدثتك عن أركان الاستعارة، فلقد بينت لك أن للاستعارة أركاناً ثلاثة: المستعار له وهو المشبه، والمستعار والمستعار منه وهما لفظ المشبه به ومعناه.

المشبه به يشتمل على ركنين من أركان الاستعارة، إذن هو العنصر الرئيس، لذلك لا بدّ من فرقٍ بينهما؛ لأن طبيعة كل منهما تختلف عن الآخر في الاستعارة، حذف المشبه يذهب بركن واحدٍ من أركانها فقط، وحذف المشبه به يذهب بركنين اثنين، كان لا بد إذن من أن نرمز بشيء من لوازمه وإلاّ فُقدت الاستعارة من الكلام، فلو حذفنا كلمة (جناح) وكلمة (نقض) من

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٧٢.

(٢) وهو أبو ذؤيب الهذلي، شرح اشعار الهذليين ١/ ٨٠.

(٣) ديوانه ٣/ ٨٧، الصناعتين ١٩٤.

(٤) وفي البيت مجاز آخر في قوله: (سقم الهلال) وقد حدثناك من قبل أنه مجاز مرسل علاقته السببية ولا مانع من أن تجعله استعارة مكنية كذلك فتشبه الهلال بالإنسان وتحذف المشبه به وترمز له بشيء من لوازمه وهو السقم.

٢- الاستعارة المكنية:

ولعلك تتوق نفسك إلى معرفة الاستعارة المكنية وهي التي حذف منها المشبه به وذكر المشبه، ونبدؤك بقول الله تبارك وتعالى يوصي الإنسان خيراً بوالديه: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء ٢٤] وبقوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل ٩١] ولنقف مع هاتين الآيتين.

كلمة (النقض) استعملت مرتين؛ مرة بجانب الغزل وهو ما يغزل من الصوف أو ما يشبهه، ومرة بجانب الأيْمان، وأنت تعلم أن النقض يستعمل حقيقة للأشياء المادية فهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ استعمل فيما وضع له، لأنه وضع في تفريق الأشياء المادية، ولكن استعمالها في الآية الأولى ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ استعمال مجازي لأن الأيمان ليست شيئاً مادياً - كما تعلم - ولكن: أين الاستعارة في الآية الكريمة؟.

إننا ونحن ننعم النظر في الآية الكريمة نجد أن الأيْمان قد شبهت بالحبال بجامع (الربط) في كل منهما، ثم حذف المشبه به وهو (الحبال) وبقي المشبه وهو (الأيْمان)، وقد رمزنا له بشيء من لوازمه أي أبقينا له صفة تدل عليه، وهي النقض لأن النقض في الحقيقة من لوازم الحبال فهي التي تنقض.

أما الآية الأولى فقد أمر الله الأبناء أن يَذِلوا للآباء، وقد شبه الذل بالطائر وحذف المشبه به ولكننا رمزنا له بشيء من لوازمه وهو الجناح، وهناك وجه آخر في الآية الكريمة وهو أن يشبه الجانب بالجناح فتكون الاستعارة تصريحية، وسنزيدك حديثاً عنها فيما بعد إن شاء الله.

واستمع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بُني الإسلام على خمس»(١) ولعلك تدرك بلا عناء ولا صعوبة أن هذه استعارة، فقد شبه الإسلام بالبيت فكما أن للبيت أركاناً ودعائم يقوم عليها، فكذلك الإسلام، ولكن حُذف المشبه به وهو البيت، وأبقينا له شيئاً من صفاته الجوهرية أي رمزنا له بشيء من لوازمه وهو البناء؛ لأن البناء من لوازم البيت. واستمع كذلك

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٧٢.

المشبه، واستمع إلى قول الشاعر[1]:

فَأمْطَرَت لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ ... وَرْداً وَعَضَّتْ على العُنَابِ بِالبَرَدِ

ففي البيت خمس استعارات: فقد شبه الدمع باللؤلؤ، والعيون بالنرجس، والخدود بالورد، والأصابع بالعناب، والأسنان بالبرد.

ومن بديع الاستعارة قول امرىء القيس[2]:

وَقَدْ أغْتَدِي والطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا ... بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوَابِدِ هَيْكَلِ

لما كان فرسه سريعاً يمنع الصيد من الفرار وصفه بأنه قيد، والقيد هو ما يوضع في الرِجْل من الحديد؛ فيمنع المقيد من الحركة، ومن هنا كان لطف الاستعارة، فالفرس في الحقيقة مانع للصيد من الفرار، ولكن امرأ القيس تناسى كلمة مانع وعبّر بالقيد لأن القيد أقوى من المنع لأنه يحول بين المقيّد وبين الحركة.

في الأمثلة المتقدمة جميعها استعارات حذف منها أحد طرفي التشبيه، وقد رأيت أن الطرف المحذوف هو المشبه والمذكور هو المشبه به. كل استعارة من هذا القبيل حذف منها المشبه، وذكر المشبه به تسمى تصريحية؛ لأنه صرح فيها بلفظ المشبه به.

(١) وهو الوأواء الدمشقي.

(٢) ديوان امرء القيس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ١٩، ٤٦. الوكنات: أعشاش الطير، المنجرد: الفرس القصير الشعر، ويقال إنه المنسلخ الماضي عند السباق، الأوابد: الوحش، الهيكل: الفرس الضخم، والمعنى أنه يخرج مبكراً – قبل خروج الطير من أعشاشها – بفرسه السريع الضخم الذي يمنع الصيد من الفرار.

التقسيم الثالث

الاستعارة التصريحية والمكنية

١- الاستعارة التصريحية:

عرفت من قبل أن الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه، وقد عرفت أن طرفي التشبيه هما المشبه والمشبه به، فالطرف المحذوف إذن تارة يكون المشبه وتارة يكون المشبه به. خذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة ٦] والصراط هو الطريق - كما عرفت من قبل - فقد شبه الدين بالصراط بجامع التوصيل إلى الهدف في كل منهما، وحذف المشبه وهو الإسلام وابقى المشبه به، وخذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم ١] فقد شبه الكفر بالظلمات. والإيمان بالنور وحذف المشبه، وأبقى المشبه به، وخذ مثلاً قول المتنبي(١):

تَعَرَّضَ لِي السَّحَابُ وَقَدْ قَفَلْنَا ... فَقُلْتُ إِلَيْكَ إِنَّ مَعِيْ السَّحَابَا

فقد ذكرت كلمة السحاب مرتين: المرة الأولى في الشطر الأول ويعني به السحاب الحقيقي، والمرة الثانية في الشطر الثاني ويعني به الممدوح الكريم والقرينة التي تدل على ذلك كلمة (معي)، لأنه لا يعقل أن يكون معه السحاب الحقيقي، واستمع إلى قول المتنبي(٢):

وَلَمْ أَرَ مِثْلِي مَنْ مَشَى البَدْرُ نَحْوَهُ ... ولا رَجُلاً قَامَتْ تُعَانِقُهُ الأُسْدُ

فكل من كلمتي (البدر) و (الأسد) مشبه به في الأصل وقد حذف المشبه، وقرينة ذلك كلمة (مشى) في الشطر الأول، و (تعانقه) في الشطر الثاني لأن البدر لا يمشي، ولأن الأُسْد لا تعانق.

واستمع إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء ٢٥] وأصل العنت: كسرُ العظم، وأريد به في الآية الكريمة المشقة التي يجدها الإنسان في مكابدة شهوته، كما يدل عليه سياق الآية بجامع الإيلام في كل منهما، فقد شبهت المشقة بكسر العظم، وحذف

(١) ديوان المتنبي جـ١، ص ٢٧٣ قفلنا: رجعنا، وإليك: بمعنى أكفف، يأمر السحاب بأن ينظر إلى الأمير يرجو مطره، كما ترجو الناس من السحاب مبالغة في جود الأمير حتى صار السحاب مفتقراً إلى سقياه.

(٢) ديوانه جـ٢، ص ٩٧.

نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ الأَضْيَافِ مِنَّا ... فَأَعْجَلْنَا الْقِرَى أَنْ تَشْتِمُونَا
قَرَيْنَاكُمْ فَعَجَّلْنَا قِرَاكُمْ ... قُبَيْلَ الصُّبْحِ مِرْدَاةً طَحُونَا

فقد جعل تعرضهم لمعاداتهم أو لعداوتهم مثلما يتعرض الضيف للقرى، فيجعل تقتيلهم بمثابة التعجيل بتقديم القرى للضيف كراهة شتمهم إن تأخر القرى عنهم. ويقول المعقر البارقي حليف بني عامر في يوم (شعب جبلة) لعامر وعبس على ذبيان وتميم[(١)]:

وَقَدْ زَحَفَتْ دُودانُ تَبْغِي لِثَأْرِها ... وَجَاشَتْ تميمٌ كالفُحولِ تُخَاطِرُ
فَبَاتُوا لَنَا ضَيْفاً وَبِتْنَا بِنِعْمَةٍ ... لَنَا مُسْمِعَاتٌ بِالدُّفُوفِ وَزَامِرُ
فَلَمْ نُقْرِهِمْ شَيْئاً ولكِنْ قِرَاهُمُ ... صَبُوحٌ لَدَيْنَا مَطْلَعَ الشَّمْسِ حَازِرُ
وَصَبَّحَهُمْ عِنْدَ الشُّرُوقِ كَتَائِبُ ... كَأَرْكَانِ سَلْمَى سَيْرُهَا مُتَوَاتِرُ

والاستعارة التهكمية في الأبيات غاية في الطرافة والجمال، ذلك لأن الشاعر جمع بين الضيافة والصَّبُوح فقد بات العدو في ضيافة القوم من بني عامر وعبس وكان لا بد من تقديم القرى له، وما كافى قراه عند مطلع الشمس سوى صبوح كتائب الحرب والفتك، التي ذاقوا منها الوبال والتنكيل، في الوقت الذي فيه بنو عامر ينعمون بسماع الغناء، ويطربون لضرب الدفوف، وهذه الصورة تنضم إلى الصورة الاستعاريّة لتبلغ بالمعنى أقصى حد من التهكم والسخرية الصادرة في الأساس عن انفعال قوي عميق»[(٢)].

(١) العقد الفريد ٥/١٤٤، الصبوح: ما يشربُ في الصباح، حازر: الحامض من اللبن أو النبيذ، أركان سلمى: أقدامها.
(٢) فن الاستعارة ص ٦٣ – ٦٤

ومن الاستعارة العنادية حديثك عن الشيء بضد ما تذكر، أي أن تذكر شيئاً ولكنك تريد ضدّه، وهذا قد يكون على سبيل التَّملُّح أي التَّفكُّه والتَّندُّر، كأن تقول: «رأيت شمساً» وتريد زنجية سوداء، و«رأيت حاتماً» وتريد بخيلاً، و«رأيت أسداً» وتريد جباناً، وقد يكون على سبيل التهكم كما في قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان ٧]، وأنت تعلم أن البشارة إنما تكون في الخير، وكقوله سبحانه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٩]، والمراد ما هو ضد هذين الوصفين، وما ذكره سبحانه عن قوم شعيب وقولهم له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود ٨٧]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة ٩٣]، فقوله تعالى: ﴿إيمانكم﴾ تهكم بهم وقد كثرت هذه الاستعارة في الشعر العربي. يقول الدكتور أحمد الصاوي:

«وفي اطار التهكم ذهب الشعراء الجاهليون كل مذهب في تصوير ما نزل بساحة الأعداء من قتل صاروا بعدهُ جزراً للضباع والسباع وجوارح الطير، وما ألقى في قلوبهم من رعب ففروا هاربين، ولكي يصور الشعراء الجاهليون ما كان قومهم يفعلونه بأعدائهم وهم يُصلُونهم نيران هذه الحروب الحامية الضارية راحوا يستعيرون الكأس في شماتة وتهكم لما يلقاه عدوهم من قتل وإيلام يذيقونه اياها مرة في أكثر الأحيان، ومشفوعة بما يخصصها بلون من ألوان النكال كأن تكون كالنار أو مملوءةً بالسم الناقع أو مكروهة الجرعات.

وهم وإن لم يذكروا الكأس مستعارةً يذكرون التصبيح أي تشبيه غارة الصباح بِخَمْرة الصباح على سبيل الاستعارة التصريحية الساخرة، وإذا تركوا هذا أو ذاك فكثيراً ما شبهوا العدوَّ المغير بالضيف وعبروا عن التنكيل به بالقِرى تهكماً، وفي بعض الأحيان يقرنون بين الصورتين، صورة التصبيح والقرى في أبيات متعاقبة.

هذا ولم يقتصر أمر التهكم على هذه الصورة بعينها، وإنما تراهم يستخدمون بجانب ذلك استعارة التشذيب والمعانقة تهكماً بعدوهم في أوقات الالتحام به في ساحات المعارك، وجدير بالذكر أن هذه الصور التهكمية جميعها وردت في شعر الحرب، وكأن هذا النوع من الشعر أَمَدُّ ميداناً، وأحسن جرياناً لهذا النوع من الصور لدقة المناسبة، وضرورة الفخر، ثم إنني رأيت مجال التهكم يكاد يكون منحصراً في هذه الصورة التي ذكرت»[(١)].

«... يستعير عمرو بن كلثوم القِرى في أبيات يفخر بها على بكر فيقول متهكماً[(٢)]:

---

(١) فن الاستعارة ص ٥٩.

(٢) شرح المعلقات للزوزني ص ١٢٤ - ١٢٥، والمرداة: الصخرة التي تُكْسَرُ بها الصخور.

كان المعقول من الظهور بحيث نجعله أصلاً نشبه به المحسوس، ومثاله من كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الجَارِيَةِ﴾ [الحاقة ١١]، فالطغيان أمر معقول لأنه صفة للإنسان يعني تكبره وخروجه عن حدّ الاعتدال، وهو المستعار، والمستعار له ارتفاع الماء وعلوه وهو محسوس[١] ومنه قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة ٦]، فالعتو مستعار، وهو أمر معقول، والمستعار له شدة الريح، وهو أمر محسوس، وكذلك قوله سبحانه: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد ٤]، فالمستعار الأوزار وهو معقول والمستعار له آلات الحرب وهي محسوسة وكذلك قول ميمون بن قيس:

وأعْـــدَدْتُ لِلْـــحَـــرْبِ أوْزَارَهَـــا رِمَـــاحَـــاً طِـــوَالاً وَخَـــيْـــلاً ذُكُـــوراً

التقسيم الثاني للاستعارة

تنقسم الاستعارة من حيث الطرفان - كذلك - إلى عنادية ووفاقية، ذلك لأن الطرفين أعني المستعار والمستعار له إن أمكن التقاؤهما فالاستعارة وفاقية، خذ مثلاً قول الله سبحانه ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام ١٢٢]، والمقصود أومن كان كافراً ضالاً فهديناه، المستعار الإحياء والمستعار له الهداية والإيمان، تُرى أيمكن أن تجتمع الحياة مع الإيمان أم لا؟ أليس من الممكن أن يجتمع هذان الوصفان في شخص واحد؟. إن ذلك مما لا ينكره أحد، إذن هذه الاستعارة وفاقية.

وخذ مثلاً قوله سبحانه: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالهُدَى﴾ [البقرة ١٦]، وقد عرفت أن المستعار الإشتراء والمستعار له الاستبدال، ألا يمكن أن يجتمع المستعار والمستعار له معاً؟ بلى، إن ذلك ممكن، فقد يكون الشخص مشترياً ومستبدلاً.

أما الاستعارة العنادية فهي التي لا يمكن أن يجتمع فيها طرفاها معاً، ونمثل له بقوله سبحانه في الآية السابقة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام ١٢٢]، وقد عرفت أن في قوله أحييناه استعارة وفاقية، بقيت في الآية استعارة أخرى لم نتحدث عنها، وهي في قوله تعالى: {ميتاً} وهو مستعار والمستعار له (الضلال) والموت والضلال لا يجتمعان لأن الضلالة وصفٌ للشخص في حال حياته أما إذا وصفناه بالضلال بعد موته فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان.

---

(١) سيأتي لهذا مزيد تفصيل عند حديثنا عن الاستعارة في القرآن إن شاء الله.

له هو المشبه دائماً، وهذا ما تجده هنا في هذا النوع. أعني استعارة المحسوس للمعقول، فالمستعار - كما رأيت - محسوس، والمستعار له معقول، وقد عرفت أن المستعار له هو المشبه، والمستعار هو المشبه به، ففي قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم ١] الذي مر من قبل رأيت أن كلاً من الظلمات والنور مستعار والكفر والإيمان مستعار له. ولو أردنا أن ننشيء تشبيهاً لشبهنا الكفر بالظلمات، والإيمان بالنور، وهو تشبيه معقول بمحسوس - كما ترى - .

وهو في الشعر كثير - كذلك - ومنه بيت الحماسة(١):

قَوْمٌ إذا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ ... طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوُحْدَانَاً

فالمستعار السبع ذو المخالب وهو محسوس، والمستعار له العدوان وهو معقول. ومنه قول الآخر:

صَرَمَتْ حِبَالَكَ بَعْدَ وَصْلِكَ زَيْنَبُ ... وَالدَّهْرُ فِيهِ تَصَرُّمٌ وَتَقَلُّبُ

فالمستعار الحبل وهو محسوس، والمستعار له العهد وهو معقول، ومنه قول عمرو ابن كلثوم(٢):

وَقَدْ هَرَّتْ كِلَابُ الجِنِّ مِنَّا ... وَشَذَّبْنَا قَتَادَةَ مَنْ يَلِينَا

والقتادة شجر القتاد، والتشذيب قطع أغصانها وشوكها، فالمستعار القتادة وهي شجرة محسوسة، والمستعار له القوة والشوكة أي اضعفنا قوة وشوكة من يقرب منا وينازعنا. ومنه قول الخنساء ترثي أخاها صخراً(٣):

فَقَدْ خَلَّى أبو أَوْفَى خِلالاً ... عليَّ فكلُّها دَخَلَتْ شِعَابِي

فالمستعار هو شعاب الشجرة وهي محسوسة، والمستعار له جوانب النفس وهي معقولة.

رابعاً: استعارة معقول لمحسوس:

وهو لا شك أقل من سابقه لأن تشبيه المحسوس بالمعقول لا يكون إلا نادراً، وذلك إذا

---

(١) ديوان الحماسة ١/٢٣٠.

(٢) المعلقات ص ١٢٣. هرَّت: كرهت، كأنه يقول: رهبتنا كلابُ الجن لما نفعل بالإنس، وفي رواية: (كلاب الحي) أي شعراؤه.

(٣) المفضليات، قصيدة ١٥٣ ص ٤٨.

الأشياء الصلبة أمر محسوس وهو المستعار، والمستعار له: التبليغ وهو شيء معقول.

ومنه قوله سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء ١٨]، فالقذف وهو: الإلقاء بشدة، والدمغ وأصله: كسر الدماغ أمران محسوسان، وكل منهما مستعار، والمستعار له علوُّ الحقِّ، وذهاب الباطل وهما معقولان. ومنه قوله سبحانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم ١]، فالظلمات والنور كلاهما مستعار وهما محسوسان، والمستعار له الإيمان والكفر معقولان. كذلك قوله سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة ٦]، فالصراط مستعار وهو محسوس لأنه الطريق، والمستعار له الإسلام وهو معقول، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ...﴾ [طه ١٣١]، فالمستعار وهو مد العين محسوس، والمستعار له وهو الانشغال في الدنيا والرغبة فيها معقول. وكذلك قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء ٢٢٥]، فالمستعار وهو الوادي محسوس، والمستعار له وهي المعاني التي يسلكها الشاعر والأغراض التي يعالجها الشعراء عادة أمر معقول.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَة»[(١)] فالمستعار وهو الشعبة محسوس، والمستعار له خصال الإيمان وهي معقولة، كذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «بُنِيَ الإِسْلامُ على خَمْس»[(٢)] فالمستعار البيت ذو الدعائم وهو محسوس، والمستعار له أركان الإسلام وهو أمر معقول. وهذا غيض من فيض، وأظنك تتساءل عن سبب كثرة هذا النوع؟ وإذا رجعت إلى ما قررناه لك من قبل حينما حدثناك عن التشبيه ومقدمات الاستعارة تدرك السر لكثرة هذا النوع من الاستعارة.

فقد عرفت عند الحديث عن التشبيه أنه يكثر فيه تشبيه المعقول بالمحسوس لأن المحسوس أقرب للنفس وأسبق للحس، وقد عرفت حينما حدثناك عن الاستعارة، أن المستعار

---

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب (أمور الإيمان) ٢١/١، ورواه مسلم كتاب الإيمان باب (بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان) ٦٣/١.

(٢) رواه البخاري كتاب (الإيمان)، باب (الإيمان وقول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس) ١٢/١، ورواه مسلم كتاب (الإيمان) باب (بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام ٤٥/١.

قد يجدون متنفساً لهم بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس، ونلحظ هنا أنه قدم حبل الله على حبل الناس - وهناك ملحوظةٌ أخرى وهي أن العطف كان بالواو، أي حبل من الله (و) حبل من الناس، ولم يكن (أو) فلم يقل «أو حبل من الناس» - وقد يتساءل القرّاء: قد يجد اليهود الحبل من الناس كما هو شأنهم مع أمريكا وغيرها، فكيف يجدون حبل الله؟! والجواب كما يظهر لي - والله أعلم - أن حبل الله لا يكون لهم من أجلهم؛ ولكن إنما يكون تأديباً للمسلمين، فما دام المسلمون غير ملتزمين بشرع الله فإن الله يعاقبهم بمد الحبل لليهود، وحينما يرجع المسلمون إلى تحكيم شرع الله ويتحقق قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهوديٌ خلفي فتعال فاقتله. إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود»[1]، فهناك يفقدُ اليهودُ حبل الله ويفقدهم حبل الله يفقدون حبل الناس كذلك، ويتحقق قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف ١٦٧].

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران ١٨٧]، فالنبذ وهو طرح الشيء أمر محسوس، وهو المستعار، والمستعار له: الترك والإعراض وهو شيء معقول.ومنه قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام ٦٨]، فإن الخوض: وهو الحركة في الماء أمرٌ محسوس - وهو المستعار - والمستعار له وهو الهُزء بالآيات أمر معقول، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف ٨٦]، والعوج: وهو في الأمور المادية أمر محسوس - وهو المستعار-، والمستعار له وهو الانحراف عن الحق والتبديل والتغيير أمر معقول، ومنه قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة ١٠٩]، فالمستعار البنيان وهو أمر محسوس، والمستعار له الاعتقاد وهو أمر معقول، ومنه قوله سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر ٩٤] فالصدع وهو شق

---

(١) أخرجه مسلم - كتاب الفتن واشراط الساعة - باب (لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء).

وكل من الرقاد و الموت لا يدرك بالحس. وفي الآية وجه آخر نحدثك عنه فيما بعد إن شاء الله، ومنه قوله سبحانه في وصف جهنم: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك ٨]، فالمستعار الغيظ، والمستعار له حالة النار، في انتقامها من العصاة وكلاهما أمر معقول، ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة ١٦]، فالمستعار الاشتراء والمستعار له الاستبدال وكلاهما معقول. ومنه قول عمرو بن كلثوم[١]:

أَلاَ أَبْلِغِ النُّعْمَانَ عَنِّي رِسَالَةً ... فَمَجْدُكَ حَوْلِيٌّ وَلُؤْمُكَ قَارِحُ

يريد أن يقول: إن مجده حادث وإن لؤمه قديم، أي أن مجده عارض ولكنه أصيل في اللؤم، والحولي ما مر عليه حول، فالمستعار الحول، والمستعار له حدوث المجد وكلاهما معقول ومنه قول الخنساء[٢]:

وَقَدْ جَعَلَتْ فِي نَفْسِهَا أَنْ تَخَافَهُ ... وَلَيْسَ لَهَا مِنْهُ سَلاَمٌ وَلا حَرْبُ

فالسلام والحرب مستعاران لحالتي الصفاء والغضب وكلها من الأمور المعقولة.

ثالثاً: استعارة المحسوس للمعقول:

وأما استعارة المحسوس للمعقول، فمثل قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة ٢١٤]، فالمستعار (الزلزلة)، وهي أمر محسوس، والمستعار له (الضيق والحرج) الذي يلقاه الأنبياء والمؤمنون وهو أمر معقول ومنه قوله سبحانه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران ١١٢]، فإن المستعار وهو (الحبل) محسوس، والمستعار له وهو (المعونة) معقـول، والآية الكريمة نزلت في اليهود، وهي تصوير دقيق لواقعهم مع المسلمين هذه الأيام، فاليهود ضربت عليهم الذلة دائماً؛ أي أحاطت بهم، وهذا واقعهم على مدى التاريخ كله، ولكنهم

(١) البديع / ابن المعتز ص ٣١، الصناعتين ط الأولى ص ٢١٩ حولي: ما أتى عليه حول، والقارح من الإبل: ما أتى عليه خمس سنين أي أن لؤمه قديم ومتأصل.
(٢) ديوان الخنساء ط بيروت ١٩٦٣ ص ٩.

(٩) ومنه قول بشاقة بن عمرو(١):

وَمِـــنْ نَسْـــجِ دَاوُدَ مَوْضُـــونَـــةٌ　　تَـــرى لِلْقَوَاضِـــبِ فِيـهَـــا صَلِيـــلاً

حيث استعار نسج الخيوط لسرد الدروع وكلاهما محسوس.

(١٠) ومن استعارة المحسوس للمحسوس قول المتنبي(٢):

في الخَـدِّ أنْ عَـــزَمَ الخَلِيـــطُ رَحِيـلاً　　مَطَـــرٌ تزيـــدُ بِـــهِ الخُـدودُ مُـحُـــولاَ

فالمستعار المطر، والمستعار له الدمع وكلاهما محسوس.

(١١) ومن استعارة المحسوس للمحسوس قول الحجاج: «وإن أمير المؤمنين نثر كنانته وعَجَمَ عيدانَها فوجدني أصلبَها عوداً فرماكم بي»، فالمستعار السهام، والمستعار له الرجال، وكلاهما محسوس.

(١٢) ومن استعارة المحسوس للمحسوس: قول مسكين الدارمي(٣):

لِحَافِي لِحَافُ الضَّيْفِ وَالبَيْـتُ بَيْتُـــهُ　　وَلَـــمْ يُلْـهِنِـــي عَنْـــهُ غَـــزَالٌ مُقَـــنَّـعُ

أُحَدِّثُـــهُ إنَّ الحَـدِيـثَ مِـــنَ القِـــرَى　　وَتَعْـلَمُ نَفْـسِي أنَّـــهُ سَـــوْفَ يَهْـجَـــعُ

فالمستعار الغزال، والمستعار له المرأة الجميلة، وكلاهما محسوس، وأمثلة هذا النوع كثيرة. ونرجوا أن يكون فيما ذكرناه غُنْيةٌ لك.

ثانياً: استعارة المعقول للمعقول:

ونمثل لها بقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف ١٥٤]، فالمستعار السكوت، والمستعار له الزوال والذهاب، وكلاهما معقول لا يدرك بالحس. ومنه قوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس ٥٢]، فالمستعار الرقاد، والمستعار له الموت،

(١) المفضليات ص ٥٩، قصيدة رقم ١٠، نسج داوود: يريد الدروع، موضونةٌ: أي نُسجت حلقتين حلقتين (مضاعفة)، القواضب: السيوف القاطعة، الصليل: الصوت على الشيء اليابس.

(٢) ديوانه جـ ٣، ص ٣٤٩ / أنْ عزم: أي لأجل أن عزم والخليط الذي يخالطك ويعاشرك والمراد به الحبيب والخليط أيضاً القوم الذين أمرهم واحد، ومحول الخد: شحوبها وتخدر لحمها وذهاب نضرتها، والمطر من شأنه أن تخصب به البلاد ويخضر العشب.

(٣) ديوانه ص ٥١.

(٢) ومنه قوله سبحانه: ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ [مريم ٤] فالمستعار الاشتعال، والمستعار منه النار، والمستعار له انتشار الشيب في الرأس، وكل من المستعار له والمستعار منه أمر محسوس والجامع كذلك وهو الظهور.

٣) قوله سبحانه: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ [التكوير ١٨] فالمستعار التنفس، والمستعار له الاشراق، وكلاهما محسوس، وكذلك الجامع.

(٤) ومن استعارة المحسوس للمحسوس قوله سبحانه: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ [يس ٣٧]، فالمستعار السلخ، وهو كشط الجلد، والمستعار له هو ذهاب النهار عن الليل بدليل قوله ﴿فإذا هم مظلمون﴾، والجامع عقلي لأنه تَرَتُّبُ شيء على شيء.

(٥) ومنه قوله سبحانه: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ [الذاريات ٤١] فالمستعار العقم: وهو صفة المرأة التي لا تلد، والمستعار منه المرأة، والمستعار له الريح التي ليس فيها غيث، والجامع عقلي وهو عدم النفع.

(٦) ومن هذا قوله سبحانه: ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ [الأنبياء ١٥]، فالمستعار قوله حصيداً، والمستعار منه الزرع لأنه هو الذي يحصد، والمستعار له المعذَّبون وكلها أمور محسوسة، والجامع: (الهلاك) وهو أمر عقلي.

(٧) ومن استعارة المحسوس للمحسوس قول مرارة بن منقذ(١):

تَهْلِكُ المِدْراةُ في أفْنَانِهِ ... فإذا ما أرْسَلَتْهُ يَنْعَفِرُ

والمدراة هو المشط. والمستعار الأفنان، وهي الأغصان - كما تعلم -، والمستعار له الشعر، وهما أمران محسوسان، وكذلك الجامع: وهو الطول والنعومة.

(٨) ومنه قول المسيب بن علس(٢):

وإنَّهُمُ قَدْ دُعُوا دَعْوَةً ... سَيَتْبَعُهَا ذَنَبٌ أهْلَبُ

والذَنَبُ الأهلب: كثير الشعر، وقد استعير للجيش الجرار وكلاهما محسوس.

---

(١) المفضليات ص ٩٠ قصيدة رقم ١٦.
(٢) الصناعتين ص ٢١٨.

(أ) لأن الطرفين إما أن يكونا حسيين، أو عقليين، أو أحدهما حسياً والآخر عقلياً، وتبعاً لذلك قد يكون الجامع حسياً أو عقلياً كذلك.

(ب) ومن حيث لفظهما قد يكونان: مشتقين، أو غير مشتقين.

(جـ) ومن حيث ذكرهما وعدمه فقد يذكر المستعار تارة، وقد يذكر المستعار له تارة أخرى.

(د) وقد يكونان مفردين، أو مركبين.

(هـ) وقد يمكن اجتماعهما في شيء واحد أو لا يجتمعان.

(و) وقد يذكر معهما ما يلائم المستعار له، أو المستعار منه، أو لا يذكر ما يلائم هذا ولا ذاك.

ومن حيث الجامع قد يكون الجامع أمراً قريباً مبتذلاً وقد يكون أمراً خاصاً يحتاج ادراكه إلى تأمل. تلك هي حيثيات التقسيم وإليك بيانها شرحاً وتفصيلاً.

التقسيم الأول للاستعارة

تنقسم الاستعارة باعتبار الطرفين من حيث ادراكهما بالحس أو بالعقل إلى الأقسام الآتية:

أولاً: استعارة محسوس لمحسوس: إذا كان طرفاها محسوسين والجامع قد يكون حسياً أو عقلياً.

ثانياً: إستعارة معقول لمعقول: إذا كان الطرفان عقليين ولا يكون الجامع إلا عقلياً.

ثالثاً: إستعارة محسوس لمعقول: وهذا إذا كان المستعار حسياً والمستعار له عقلياً.

رابعاً: استعارة معقول لمحسوس: وذلك إذا كان المستعار عقلياً والمستعار له حسياً.

وإليك بيان ذلك:

أولاً: استعارة المحسوس للمحسوس: ونمثل لها:

(١) بقوله سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف ٩٩] فالمستعار الموج، والمستعار له اضطراب يأجوج ومأجوج، وهما حسيان لأن كلاً من موج الماء واضطراب القوم يدرك بالحس والجامع بينهما وهو الحركة أمر حسي كذلك.

استدل بها هؤلاء لا يتم لهم بها دليل، ذلك لأن المقصود المبالغة، وتزيين الصورة بما يجلب الانتباه ويثير المشاعر وهذا لا يتنافى مع كون الاستعارة مجازاً لغوياً.

وكلام الشيخ عبد القاهر - رحمه اللّه - في دلائل الإعجاز يفهم منه هذا الرأي، إلا أنه استقر في كتاب أسرار البلاغة على أنها مجاز لغوي. وهو ما نرجحه ونميل إليه.

قرينة الاستعارة

والاستعارة كأي نوع من أنواع المجاز لا بد لها من قرينة وهذه القرينة قد تكون أمراً لفظياً، وذلك كالقول السابق:

* شمس تظللني من الشمس *

وقد تكون أمراً مَعنوياً يُفهم من السياق، وسيمر بك كثير من الأمثلة لكلا النوعين.

الجامع في الاستعارة

لا ريب أنك تذكر وجه الشبه أحد أركان التشبيه، ولما كان الشأن في الاستعارة تشبيهاً مضمراً في النفس حذف أحد طرفيه كما عرفت، فلا بد أن يكون بينها وبين التشبيه نوع مماثلة، ووجه الشبه في التشبيه هو المعنى الذي أُلحق من أجله المشبه بالمشبه به، ولكننا في الاستعارة نسميه إسماً آخر، نسميه (جامعاً) وهو ما أطلقنا عليه اسم (علاقة) حينما تحدثنا عن المجاز وأقسامه:

بعد هذا تتبين أن الاستعارة لا بد فيها من الأمور التالية.

(١) المستعار والمستعار له والمستعار منه وهذه أركان الاستعارة.

(٢) القرينة: لفظية كانت أم معنوية ملفوظاً بها أم مدركة من السياق.

(٣) الجامع: وهو الجهة التي يشترك فيها المستعار منه والمستعار له.

أقسام الاستعارة

وإذا كنا قد قسمنا التشبيه من قبل باعتبارات مختلفة فإن للاستعارة تقسيمات كذلك باعتبارات متعددة، وسنحاول إن شاء اللّه أن نلم لك بأخطرها شأناً، وأكثرها فائدة.

فمن حيث الطرفان تنقسم الاستعارة أقساماً متعددة:

المستعار منه هو معنى المشبه به، وأن المستعار - وهو الكلمة - لفظ المشبه به، ويمكنك أن تستنتج قاعدة أخرى وهي أهمية المشبه به في الاستعارة، إذ إنه الأساس لركنين من أركانها المستعار والمستعار منه، أما المشبه فليس إلا ركناً واحداً فقط، وهو المستعار له، واحرص على هذه القاعدة لاحتياجنا لها فيما بعد.

• الاستعارة مجاز لغوي أم عقلي

حدثناك من قبل أن الاستعارة مجاز لغوي، وهذا ما يرتأيه جمهور البيانيين، ذلك لأن الاستعارة نُقل فيها المستعار من المعنى اللغوي الذي وضعته اللغة إلى معنى آخر، ويدعي بعضهم أن الاستعارة مجاز عقلي، لأننا حينما أطلقنا كلمة الأسد على الانسان فإن العقل كان له شأن وتدخل في هذا الاطلاق، ويحتجون لقولهم هذا بأن الاستعارة لو لم تكن مجازاً عقلياً لما كان فيها ما يدعو إلى العجب، ومعنى هذا: لو كانت الاستعارة مجازاً لغوياً لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الغرابة لأننا نعرف أننا نقلنا كلمة من معناها اللغوي لمعنى آخر، فحينما نقول: «كلّمت شمساً»، ونريد حسناء فليس في هذا ما يدعو إلى الغرابة لأننا نعلم أن كلمة (الشمس) استعملت استعمالاً غير حقيقي، وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب - كما قلنا من قبل - لكننا وجدناهم يعجبون من مثل هذه الاستعارة، وليس هذا العجب إلا لأنها مجاز عقلي كان للعقل الأثر كل الأثر فيه.

واستمع إلى قول الشاعر:

قَامَتْ تُظَلِّلُني مِنَ الشَّمْسِ ... نَفْسٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن نَفسي
قَامَتْ تُظَلِّلُني وَمِنْ عَجَبٍ ... شَمْسٌ تُظَلِّلُني مِنَ الشَّمْسِ

وقول الآخر:

لا تَعْجَبُوا مِن بِلَى غِلالَتِهِ ... قَد زَرَّ أَزْرَارَهُ عَلَى القَمَرِ

فالشاعر الأول يعجب من أن شمساً تظلله من الشمس، ولو كانت الاستعارة مجازاً لغوياً لعرف أن الذي يظلله انسان بهي الطلعة، ولا داعي حين ذلك للعجب لأن من الأمور الطبيعية أن يظلل انسانٌ انساناً آخر من الشمس. أما الشاعر الثاني فإنه يبين لمن يخاطبهم أن لا يعجبوا من بلى غلالته، والغلالة ثوب ضيق يلي جسم الإنسان، يقول: لا تعجبوا من بلى ثوبه فإن هذا الممدوح قد زرّ أزراره على القمر، ولو كان القمر استعارة لغوية أي انسان بهي الطلعة ما كان ليبلى الثوب الذي يلبسه لأول مرة، إنما يبلى الكتان - كما يقولون - إذا لامس القمر الحقيقي. أما عند ملامسة جسم الإنسان فلا، وأنت خبير بأن قضية التعجب التي

أركان الاستعارة

لا بد لكل استعارة من أن تشتمل على أركان ثلاثة:

(١) المستعار.
(٢) المستعار له.
(٣) المستعار منه.

ونود أن تكون على ذكر مما قررناه لك عند تعريف المجاز وعناصره الخمسة لأن ذلك يعينك على معرفة ما نريده هنا، ولكن كيف نفهم هذه الأركان الثلاثة في الاستعارة، المستعار والمستعار له والمستعار منه، لِنُنعم النظر في الآية الكريمة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الر، كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم ١]، في هذه الآية الكريمة استعارات ثلاث، الظلمات، النور، الصراط، ولكل من هذه أركانها الثلاثة، وإليك البيان:

في الاستعارة الأولى؛ المستعار: كلمة (الظلمات)، والمستعار له: (الكفر) ولا بد أن تتساءل هنا: فأين المستعار منه؟ وأذكرك بما قلته لك عند تعريف المجاز، بأنه لا بد فيه من كلمة ومعنيين؛ المعنى الذي وضعت له الكلمة أولاً، والمعنى الذي استعملت فيه ثانياً، والمستعار هنا كلمة (الظلمات)، وهل يستعار الشيء إلا من صاحبه ومالكه؟ إذن لفظة (الظلمات) لا بد أن نستعيرها من معناها الذي وضعت له، فمعنى الظلمة إذن هو المستعار منه.

وقل هذا في الاستعارة الثانية، فالمستعار: (النور)، والمستعار له: (الايمان)، أما المستعار منه فهو المعنى الذي وضعت له كلمة (النور)، أما الاستعارة الثالثة ففي كلمة (صراط) فالمستعار كلمة (الصراط)، والمستعار له (الإسلام)، والمستعار منه المعنى الذي وضعته العرب لكلمة (الصراط).

وعلى ضوء ما سبق يمكنك أن تستنتج أركان الاستعارة في قولنا: «عجبت من شمس تحمل بيمينها قمراً» و«رأيت أسداً يضيء المصحفُ قلبَه»، و«عرفت بحراً يعطي بكلتا يديه»، فالمستعار في هذه الاستعارات الثلاث كلمات: (الشمس)، (الأسد)، (البحر)، أما المستعار له (فالحسناء)، (والرجل الشجاع)، (والجواد)، والمستعار منه هو: المعنى الذي وضعته العرب لكلمة (الشمس) وهو ذلك الجرم المعروف، والمعنى الذي وضعوه لكلمة (أسد) وهو ذلك السبع المعروف، والمعنى الذي وضعوه لكلمة (بحر) وهي تلك البقعة المائية من الأرض.

ويمكنك بعد هذا أن تدرك هذه القاعدة وهي أن المستعار له دائماً هو المشبه، وأن

المبحث الثاني
الاستعارة

الاستعارة في اللغة من العاريَّة، وهي نقل الشيء من شخص إلى شخص، وفيها معنى الرفع والتحويل، يقال: استعار فلان من كنانته سهماً، إذا رفعه وحوله منها إلى يده، وهذا ما يرشد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث النبوي الشريف: «مثلُ المنافِقِ كالشاةِ العائرة بين غَنَمَيْن»[1]، بمعنى أنها تنتقل وتتحول لا تستقر على أمر، وهذا المعنى أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هؤلاءِ وَلَا إِلَى هؤلاء﴾ [النساء ١٤٣]، ولقد عرفنا من قبل أن هناك صلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، ومن هنا كانت الاستعارة في الاصطلاح ناتجة عن هذا المعنى اللغوي ومنبثقة عنه. ومع كثرة التعريفات التي قيلت في الاستعارة إلا أنها تلتقي جميعاً حول معنى واحد: وهو أن الاستعارة نقل اللفظ من معناه الذي عرف به ووضع له إلى معنى آخر لم يعرف به من قبل.

وإذا كانت الاستعارة بين الناس لا تكون إلا بين فئة يعرف بعضها بعضاً فليس للمستعير أن يستعير إلا ممن يعرفه وله به صلة، وإذا كانت هذه العاريَّةُ تصبح من اختصاص المستعار له ولكنها لا تخرج عن ملك صاحبها، وإذا كان الشيء المستعار لا بد من أن يكون مناسباً للمستعار له، إذا كان كل ذلك صحيحاً مقبولاً فإننا نجد ذلك كله في الاستعارة الاصطلاحية. إن الذي يستعير ثوباً من غيره، لا بد أن يكون هذا الثوب مناسباً للمستعار له، فإن كان ضيقاً أو متسعاً فالاستعارة لا تفيد ولا تجدي، والاستعارة في الاصطلاح كذلك لا بد فيها من صلة بين المستعار منه والمستعار له، إذ لا يصح أن نستعير لفظاً من معنى لمعنى آخر لا صلة له به.

قيمة الاستعارة:

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الاستعارة هي من أدقّ أساليب البيان تعبيراً، وأرقّها تأثيراً، وأجملها تصويراً، وأكملها تأدية للمعنى، ولا غَرْوَ فهي منبثقة عن التشبيه الذي حدثناك عنه من قبل، وهل هي في الأصل إلا تشبيه!؟ ولكنه تشبيه مضمر في النفس، ومعنى هذا أننا لم نأت بتشبيه ما لنجعل منه استعارة، ولكننا نضمر تشبيهاً ما في أنفسنا، ونحذف أحد طرفيه فندّعي أن أحد الطرفين هو عين الآخر، فالاستعارة تشبيهٌ حُذِفَ أحد طرفيه، فبيئة الاستعارة الأولى التي ولدت فيها ومقوماتها الأساسية هي النفس، وهذه قضية لا بد أن تتنبه لها.

(١) رواه مسلم. كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ١٧.

(١١) وقال ابن المعتز[١]:

قَــدِ انْقَضَــتْ دَوْلَـــةُ الصِّيَـــامِ وَقَــدْ بشَّـــرَ سُقْـــمُ الهِـــلالِ بِالعِيـــدِ

والسقم إنما يكون للأحياء، والذي أراده الشاعر ضعف الهلال، ولكن لما كان الضعف غالباً سبباً عن السقم وكان السقم سبباً في الضعف صح هذا المجاز، فهو مجاز مرسل علاقته السببية[٢]

(١) ديوانه ٣/٨٧، الصناعتين ١٩٤، ديوان المعاني ١/٣٣٤.

(٢) وقد يكون البيت من باب الاستعارة - كما ستعرفه إن شاء الله - .

عبر الشاعر في البيت الثاني عن القصيدة بالقافية، والقافية جزء من القصيدة، فاطلق هنا الجزء وهو القافية وأراد الكل وهو القصيدة، فالمجاز مرسل علاقته الجزئية[1].

(٧) وقال الشاعر يصف غيثاً:

أَقْبَلَ فـي المُسْتَـنِّ مِـنْ رَبَابِـهِ أَسْـنِمَـةُ الآبَـالِ فـي سَحَـابِـهِ[2]

أسنمة: جمع سنام وهو ما علا من ظهر البعير، وأراد به الشاعر الغيث لأن الأسنمة لا تنزل من السماء إنما هي مسببة عن الغيث فعبر عنه - الغيث - باسنمة الآبال لأنها مسببة عن النبات وهذا النبات مسبب عن الغيث فالمجاز مرسل علاقته السببية.

(٨) وقال السَمَوْأل[3]:

تَسيلُ عَلَى حَـدِّ الظُّبَـاتِ نُفُوسُنَـا وَلَيْـسَ عَلَـى غَيْـرِ الظُّبَـاتِ تَسِيـلُ

يريد بالنفوس الدماء لأنها التي تسيل ووجود النفس في الجسم سبب في وجود الدم فيه فالعلاقة السببية[4].

(٩) ويقول المتنبي في ذم كافور[5]:

إنِّـي نَزَلْـتُ بِكَـذَّابِيـنَ ضَيْفُـهُـمُ عَـنِ الـقِرَى وَعَـنِ التَّرْحَـالِ مَحْـدُودُ

يريد أنه نزل ببلد كذابين لأن الكذابين لا يُنزل بهم وإنما بمكانهم، فالمجاز مرسل علاقته الحالية.

(١٠) وقال الشاعر:

لا أَرْكَـبُ البَحْـرَ إنَّـي أَخَـافُ مِـنْـهُ المَعَـاطِـبْ[6]

طِيـنٌ أَنَـا وَهْـوَ مَـاءٌ والطِـينُ فـي المَـاءِ ذَائِـبْ

يريد بالبحر السفن التي تسيرُ فيه، فاطلق المحل وأراد الحال، فالمجاز مُرسل وعلاقته المحلِّية، وفي البيت الثاني: قوله «طينٌ أنا» فهو مجازٌ مُرسل علاقته اعتبارُ ما كان.

---

(١) وإنما صح استعمالُ الجزء هنا لأن القافية هي من أخطر أجزاء القصيدة.

(٢) الرباب: السحاب الأبيض، المستن: يقال إستنت العين أي سال دمعها، والمقصود هنا نزول الغيث من السحاب

(٣) ديوانه ص ٥٥، الظبات: جمع ظُبَة وهي حد السيف.

(٤) وإن أردنا بالنفس الإنسان والدم جزء منه، كان مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية.

(٥) ديوان المتنبي ١٤٢/٢، يقول: هم كذابون، فلاهم يقرونه ولا هم يتركونه يرحل عنهم، محدود: ممنوع.

(٦) المعاطب: جمع معطب وهو مكان العطب أي الهلاك.

(٢) ومنه قول جرير بن عطية[١]:

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... رَعَيْنَاهُ وإِنْ كَانُوا غِضَابَا

ومن البدهي أن السماء لا تُرعى، وتلك قرينة المجاز، فالذي يُرعى هو النبات، ولما كانت السماء سبباً فيه حسنت هذه الكلمة في موضعها.

(٣) وقال عنترة[٢]:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ ... ليسَ الكَرِيمُ عَلَى القَنَا بِمُحَرَّمِ

أي شككت بالرمح جسمه، وإنما عبّر بالثياب لمجاورتها للقلب، فالمجاز مرسل علاقته المجاورة.

(٤) قال ابن الزيّات:

أَلا مَنْ رَأَى الطِّفْلَ المُفَارِقَ أُمَّهُ ... بُعَيْدَ الكَرَى عَيْنَاهُ تَنْسَكِبَانِ

يريد بالعينين دمعهما، لأن الدمع هو الذي يسيل فالعين محل للدموع، أطلق المحل وأراد الحالّ، فالمجاز مرسل علاقته المحلية[٣].

(٥) وقال الشاعر:

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولا لِقَبْرِهِ ... سَقَتْكَ الغَوَادِي مَرْبَعَاً ثُمَّ مَرْبَعاً[٤]

أي المّا على قبر معن، فاطلق الحال في القبر وهو معن وأراد المحل، فالمجاز مُرسل علاقته الحالّية.

(٦) وقال معن بن اوس المزني في ابن أخته[٥]:

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ القَوَافِي ... فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

---

(١) العمدة ٢/٢٦٦.

(٢) ديوانه ص ٢١٠ والبيت من معلقته.

(٣) ذكر صاحبا البلاغة الواضحة - رحمهما الله - أن هذا مجازٌ مرسل، والذي يبدو لنا أنه مجازٌ عقلي، إذ يقال فيه ما قيل في (سال الوادي) و (فاض الكأس) ص ١٤٣، ولكلٍ وجهه.

(٤) الغوادي: جمع غادية: وهي السحابة تمطر غدوةً، المربع: الموضع يقام فيه زمن الربيع.

(٥) ديوانه ص ٧٢.

٩ - الآليَّة: وهو أن تكون الكلمة المستعملة آلة لما هو مراد. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم ٤] والمراد (بلغتهم)، واللسان - كما نعلم - آلة للّغة، وقال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء ٨٤]، وذلك إذا كان معنى الآية (اجعل لي ذكراً حسناً) لأن اللسان آلة له، ويمكن أن يكون سبباً فيه فتكون العلاقة سببية، وقد تفسر الآية تفسيراً آخر: وهو أن يراد بلسان الصدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأن الآية الكريمة وردت على لسان أبينا إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم، ومن دعائه كما جاء في كتاب الله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة ١٢٩] وعلى هذا التفسير يكون في الآية مجاز مرسل وعلاقته الجزئية لأن اللسان جزء من الإنسان، وصح استعمال الجزء هنا لأن عليه المعوّل فيما ذكر من أجله وهو تبليغ الدعوة[١].

١٠ - المجاورة: وهو أن يسمى الشيء المستعمل باسم ما يجاوره كاطلاق اسم الراويّة على المَزادة، والراوية هي الدابة التي تحمل المزادة، والمزادة: القِرَبُ التي يوضع فيها الماء، فيقولون «خلت الراوية من الماء» ويريدون المزادة.

وقد ذكروا علاقات كثيرة للمجاز المرسل، وامثلةً كثيرةً لكل علاقة، يظهر منها التصنع والتكلف[٢]، ومما سبق تدرك أنك إن أردت أن تعرف علاقة المجاز المرسل فانظر إلى الكلمة المستعملة، فإن كانت سبباً والمعنى المراد مسبباً فالعلاقة سببية، وإن كانت مسبباً والمعنى المراد سبباً فالعلاقة المسببية، وإن كانت كلاً والمعنى المراد جزءاً فالعلاقة كلية، وإن كانت جزءاً والمعنى المراد كلاً فالعلاقة الجزئية، ولنذكر لك الآن بعض الأمثلة على المجاز المرسل من الشعر.

امثلة على المجاز المرسل من الشعر

(١) قال المتنبي[٣]:

لَـهُ ايـادٍ عَلـيَّ سَـابِقَـةٌ   أُعُـدُّ مِـنْهَـا ولا أُعَـدِّدُهَـا

فاليد هي التي تمنح النعم فهي سبب فيها، فالعلاقة هنا السببية.

---

(١) وتدرك من هذه الآية الكريمة أن علاقة المجاز تختلف باختلاف المعنى المراد من الكلام وسيأتيك مزيد تفصيل لهذا الكلام إن شاء الله.

(٢) راجع الاتقان للسيوطي رحمه الله، والفوائد المشوقة لابن النقيب الحنفي والذي كان يُنسب لابن القيم.

(٣) ديوانه ٢٨/٤.

﴿لا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه ٧٤] وأنت تعلم أنه إنما كان مجرماً في الدنيا، ومن هذا القبيل قولك: «أكلت قمحاً»، و«شربت بُنّاً» وأنت قد أكلت الخبز، وشربت قهوة البنّ.

٦- اعتبار ما يكون: وهو أن يُسمّى الشيء المستعمل باسم ما يؤول إليه في المستقبل قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات ١٠١] وفي آية أخرى ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر ٥٣]، ولا شك أن العلم، والحلم سيؤول إليهما الأمر في المستقبل، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح ٢٧]، وأنت تعلم أن المولود عند ولادته لا يكون كذلك وإنما يؤول إليهما فيما بعد. وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر ٣٠] ومن مات لا يخاطب. وقال تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف ٣٦] والمعصور إنما هو العنب الذي سيؤول إلى الخمر.

٧- الحاليّة: وهي أن يكون اللفظ المستعمل حالاً في المعنى المراد، فنطلق اسم الحالِّ ونريد المحل، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران ١٠٧] فالمراد من الآية الكريمة أنهم خالدون في الجنة، ولكن لما كانت الجنة محلاً للرحمة، والرحمةُ حالةٌ في الجنة، حَسُن أن يحلَّ أحد المعنَيَيْنِ محل الآخر، أو إحدى الكلمتين محل الأخرى، وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار ١٣] وأنت تعلم أن الجنة محل للنعيم، وهو حالٌّ فيها.

ومنه قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف ٣١] والمراد اللباس، ولما كان اللباس محلاً للزينة، والزينة حالّة فيه، استعمل أحد المعنيين وأريد الآخر، ومثله قولك: «نَزَلْتُ بِبَني فلان» وأنت تريد ارضهم ودارهم، ولما كانت الديار محلاً لهم، وهم حالون فيها اطلقنا إحدى الكلمتين على الأخرى.

٨- المحليّة: وهو أن يكون اللفظ المستعمل محلاً والمعنى المراد حالاً فيه، قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق ١٧] والمراد أهل النادي الذي يحلون فيه، وقوله سبحانه: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف ٨٢] والمراد أهلها. وتقول «قرر المجلس كذا» والمراد المجتمعون، و«ذهبت الجامعة في رحلة علمية» والمراد من فيها، و«ملأت الكأسَ من الابريق» وأنت تريد من الماء الذي فيه.

- يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة ٦] وهذا لا شك استعمالٌ حقيقيٌ لليد.

- ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم لأمهات المؤمنين - عليهن رضوان الله -: «أسْرَعُكُنَّ بي لحوقاً أطْوَلُكُنَّ يداً» [(١)]. فهذا مجازٌ مرسل لأنه عبّر بطول اليد عن العطاء، وهي سببٌ فيه، فهو مجازٌ مرسل علاقته السببية.

- وقد يكون اطلاق اليد من باب الاستعارة، استمع في ذلك إلى قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - ويا ليت المسلمين والعالم يفقهون هذا القول العظيم- : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يدٌ على من سواهم»[(٢)].

- وقد يكون اطلاق اليد من باب الكناية، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[(٣)] - كما سيمر معك في باب الكناية، فانظر إلى فخامة اللغة ولغة الفخامة واعلم أن هذا مما لا تختص به هذه اللفظة وحدها (اليد) فهو في اللغة كثير.

٤ - الكُلِّية: وذلك حينما نستعمل الكل ونريد الجزء، قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [البقرة ١٩] وأنت تعلم أن الأصبع لا يمكن أن يُجعل كلُّه في الأذن، ولكن لما كان الغرض التمثيل لحال المنافقين بحال ذوي الصيِّب الذين تزعجهم أصوات الرعد، فلو استطاعوا أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم لفعلوا ذلك، عبّر بالأصبع واراد الأنملة، فالعلاقة بين الأصبع، والأنملة، علاقة الجزء بالكل، وهذا ما سوّغ المجاز وحسّنه، ومن هذا القبيل قولك (شربت ماء الفرات). وأنت إنما شربت جزءاً منه.

٥- اعتبار ما كان: وهو أن يسمى الشيء المستعمل باسم ما كان عليه من قبل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء ٢]: حيث سمّى البالغين الذين آنسنا منهم رشداً (يتامى). وأنت تعلم أن اليتيم لا يجوز أن يعطى مالاً، ولكن الذي سوّغ المجاز هنا، أنهم كانوا كذلك في الماضي، ومثله قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ

---

(١) أخرجه مسلم - كتاب (فضائل الصحابة) باب (١٧) من فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها حديث رقم (٢٤٥٢)

(٢) أخرجه الترمذي - كتاب (الجهاد) باب (في السرية تُرد على أهل العسكر) حديث رقم (٢٧٥١).

(٣) رواه البخاري - كتاب (الإيمان) باب (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) ١٣/١ ومسلم - كتاب الايمان باب (تفاضل الإسلام وأي أمور أموره أفضل (٦٥/١).

قام رمضان ايماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»[1].

ومن المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية قوله سبحانه: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء ٩٢] ولا شك أن المقصود تحرير الإنسان المؤمن، والرقبة جزء منه، ومن هذا اطلاق العين على الجاسوس، تقول: «ما اجدر امتنا أن تبث العيون لتَتَّقِيَ مَكرَ عدوِّها».

وإذا رجعت إلى الأمثلة السابقة تدرك أن العلاقة الجزئية في المجاز لكي تؤدي غرضاً بيانياً لا بد لها من شروط فليس كل جزء يمكن أن يعبِّر به عن الكل، ألا ترى أن الرقبة التي عبِّر بها عن الانسان، هي من الأمور التي لا حياة بدونها؟؟ إذ لا يمكن أن نتصور انساناً يعيش وقد انتزعت رقبته، ثم انظر إلى العين التي استعملت واريد بها الجاسوس، ألا ترى أنها أكثر الأجزاء واخطرها شأناً لمن أراد مراقبة الأعداء؟؟ ثم انظر إلى القيام الذي استعمل وأريد منه الصلاة، ألا ترى أنه من اشرف اركانها وأعظمها؟؟.

الجزء الذي عبر به عن الكل في المجاز المرسل، لا بُدَّ له من أحد هذه الشروط التي ذكرناها لك في الأمثلة السابقة وهي:

أ- أن يكون انتفاء الجزء يستدعي انتفاء الكل كما في الرقبة.
ب - أن يكون الجزء هو المُعَوَّلَ عليه أكثر من غيره من الأجزاء، كالعين التي أريد بها الجاسوس.
جـ - أن يكون الجزء ذا أهمية كالقيام بالنسبة للصلاة.

فإذا اردت أن تعبر عن فصاحة فلان من الناس تعبيراً مجازياً - تقول: «إنه لساننا الناطق»، لأن اللسان هو السبب المباشر في الكلام، وهكذا لا يجوز أن تعبر باللسان عن الجاسوس، ولا بالعين عن الخطابة، ولا باليد عن التفكير. فاليدُ في الأصل هي الجارحة، وقد منَّ اللّه بها على بعض مخلوقاته، فللإنسان يدان وجمعها أيدي، وقد تطلق اليد ويُعبِّر بها عن القوة أو العطاء أو النعمة، فإن أريد بها هذا المعنى الأخير جمعت على (أيادي) وهذا من دقة العربية وإحكامها ولا عجب، ألم يجعلها اللّه تعالى قوالب لكلامه سبحانه: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر ٢٨].

وأنبهك هنا على شيء آخر وهو أن العبارة تستعملُ فيها الكلمة فتكون من اسلوب المجاز المرسل حيناً والاستعارة حيناً والكناية حيناً آخر، كما أن هذا الاستعمال قد يكون استعمالاً حقيقياً، وإليك البيان:

(١) رواه مسلم، كتاب (صلاة المسافرين وقصرها)، باب (الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح) ١/٥٢٣.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ [الأعراف ٢٦] فإن اللباس إنما هو من بعض النباتات المسببة عن الماء. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر ٦] ولعلك تدرك أنه قد يكون في هذا النوع أكثر من سبب واحد وأكثر من وساطة واحدة كما في الآيتين السابقتين[1].

ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة ٦] فإن المعنى: (إذا اردتم القيام إلى الصلاة)، لأنه لا يعقل أن يقوموا إلى الصلاة غير متوضئين، فالغَسل مسبب عن الارادة، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل ٩٨] أي: (إذا أردت قراءة القرآن)، لأن الاستعاذة قبل القراءة وليست بعدها فالإرادة سبب والاستعاذة مسبب، وقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف ٤]، فإن مجيء البأس لا يترتب على الاهلاك لأنه هو الاهلاك نفسه، بل يترتب على الارادة، والمعنى - والله اعلم - (أردنا اهلاكها فجاءها بأسنا) فإرادةُ الاهلاك سبب، ومجيء البأس مسبب عنه.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾ [النساء ١٠] فالنار مسببة عما أكلوه ظلماً وعدواناً.

٣- الجزئية: تكون علاقة المجاز المرسل الجزئية إذا كان اللفظ المستعمل جزءاً من المعنى المراد وذلك كقوله سبحانه: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة ١٠٨] والحديث عن مسجد الضرار، والمراد من القيام الصلاة، ولما كان القيام جزءاً من الصلاة، حَسُنَ أن يستعمل فيها ويدل عليها، ومثله قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل ١ - ٢] ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «من

---

(١) فاللباس المذكور في الاية الكريمة منسوج من القطن أو الصوف أو الكتان، والصوف أخذ من الماشية أو من بعض الأنعام، والنبات سبب فيه، والماء سبب للنبات، فكلمة اللباس التي امتن الله علينا بإنزالها من السماء مرت في أكثر من مرحلة، وكان لها أكثر من سبب، لأن الله نزل لنا الماء، واللباس مسبب عنه، ولكن بينهما وسائط متعددة، وكذلك تقول في {وانزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج}.

الفصل الثاني المجاز اللغوي

المبحث الأول: المجاز المرسل

المجاز المرسل مجاز لغوي – كما عرف من قبل – علاقته غير المشابهة، وسمي مرسلاً، لأن الارسال هو الاطلاق، فهو مطلق في علاقاته، أي ليس له علاقة معينة كما هو الشأن في الاستعارة، فالاستعارة علاقتها المشابهة كما عرفت، وللمجاز المرسل علاقات كثيرة، ولكن بعضها لا يخلو من تكلف وسنذكر لك أكثر هذه العلاقات دوراناً في الكلام البليغ.

١- السببية: وذلك إذا كانت الكلمة المذكورة التي استعملت في غير ما وضعت له سبباً في المعنى المراد من القول، خذ مثلاً قولهم: «رعينا الغيث» فإن المراد من هذا القول انهم رعوا النبات، فكلمة (الغيث) استعملت في غير ما وضعت له، ولكن هذا الغيث سبب في النبات، وهذا ما سوَّغَ المجاز في هذه الكلمة.

ومن المجاز المرسل: اطلاق اليد على النعمة لأنها سببها، تقول: «لفلان يد عندي»، ومنه اطلاق اليد على القدرة، ومن المجاز المرسل قولهم لراعي الابل: «إن له عليها لأصبعا»، ذلك لما لحركة الأصبع من حسن التدبير والتسيير، ولعل من المفيد أن ننبهك هنا على أمرٍ قد يلتبس عليك.

عندما حدثناك عن المجاز العقلي ذكرنا أن من علاقاته السببية، وقد تتساءل: ما الفرق بين السببية في المجاز العقلي والسببية في المجاز المرسل؟ والحقيقة أن الفرق بينهما كبير وإن كانت التسمية واحدة، فالسببية في المجاز العقلي لم تخرج بالكلمات عما وضعت له في اللغة، فقوله سبحانه: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة ١٦] استعملت فيه كلتا الكلمتين اعني (الربح) و (التجارة) في المعنى الذي وضعته اللغة لكل منهما، أما في قولنا: «رعينا الغيث» و «حلّت يد فلان عندي» فإن كلمتي (الغيث) و (اليد) استعملت كل منهما في غير ما وضعت له، فقد استعمل الغيث في النبات، واليد في النعمة.

٢- المُسَبَّبِية بفتح الباء الأولى: وذلك حينما يكون اللفظ المذكور مسبباً عن المعنى المراد، ويكون المعنى المراد سبباً في اللفظ المذكور، استمع إلى قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر ١٣] وأنت خبير بأن الله يكرم عباده بانزال الماء من السماء، وهذا الماء يكون سبباً في الرزق، فالرزق مُسَبَّبٌ عن الماء.

أرجو أن تكون قد ادركت ما يريده الشيخ. ولكن الذين جاؤوا بعده ردّوا قوله زاعمين أنّ الشيخ غاب عن فكره الفاعل الحقيقي في الأفعال السابقة (صيرني، اقدمني، يزيدك): وهو اللّه سبحانه، أي (اقدمني اللّه)، و (صيرني اللّه)، و (يزيدك اللّه)، وأظنك يزداد عجبك إذا عرفت أن الذين ردوا كلام الشيخ هم الذين اختصروا كتبه، واذهبوا كثيراً من رونقها، وكان أولهم الإمام الرازي - رحمه اللّه - ومن بعده السكاكي صاحب المفتاح، ثم الخطيب صاحب التلخيص، هؤلاء الاعلام الثلاثة هم الذين ردّوا كلام الشيخ زاعمين أنه لم يدرك الفاعل الحقيقي، ولولا أن العلامة الفاضل السعد - رحمه اللّه - سعد الدين التفتازاني ويا ليتنا نرزق مثله في فهمه وادراكه، أقول لولا أنه ردّ كلام أولئك واجاب عن الشيخ لبقي كلام الشيخ غير مقبول عند الكثير من الناس.

قال السعد - رحمه اللّه - في شرحه المختصر على التلخيص بعد أن ذكر اعتراض الرازي والسكاكي والقزويني: «وفي ظني أن هذا تكلف، والحقُّ ما ذكره الشيخ»[١] يعني الشيخ عبد القاهر، وقد علق الدسوقي في حاشيته على كلام السعد بقوله: «قوله: (وفي ظني أن هذا...) أي الذي قاله المصنف (صاحب التلخيص) تبعاً للرازي والسكاكي تكلفٌ، وذلك لأن تقدير الفاعل الموجود وهو اللّه تعالى في مثل هذه الأفعال السابقة تقديرٌ لما لا يُقصدُ في الاستعمال ولا يتعلق به الغرض في التراكيب؛ وعبارةُ بعض الشيوخ إنما كان تكلفاً لأن الفاعل مَنْ قام به الفعل، ولا يُقال: إنه تعالى قام به السرور وغيره مما ذكر)[٢].

إن ما ذهب إليه الشيخ رجع فيه بحسه المرهف إلى آيات من الكتاب الحكيم وإلى كثير من النصوص البليغة، ولا يغيب عن الشيخ أن اللّه فعّال لما يريد، كل الذي أراد أن يقرِّرهُ أن اسناد الفعل للفاعل ليس من الضرورة أن يمر بمرحلتين، أن يسند إلى فاعله الحقيقي أولاً، ثم يسند إلى فاعله المجازي بعد ذلك؛ بل قد يسند من أول وهلة إلى الفاعل المجازي، وهذا كلام دقيق كما قلت لك من قبل.

واعلم أن السكاكي صاحب المفتاح قد انكر المجاز العقلي وعدّ ذلك من باب الاستعارة المكنية وهو قول لا يستقيم وبخاصة إذا اردت تطبيقه تطبيقاً عملياً.

---

(١) شروح التلخيص للسعد التفتازاني وعليه حاشية الدسوقي ٢٦٣/١.

(٢) المرجع السابق.

يقول الشيخ: إن أي فعل من هذه الأفعال يصعب أن تجد له فاعلاً غير الذي ذكر له، ويخلص الشيخ من هذا إلى أنه لا يشترط في كل فعل في المجاز العقلي أن يكون قد استعمل أولاً للفاعل الحقيقي، وأن يستعمل بعد ذلك للفاعل المجازي - كما رأينا في الآية السابقة - {فما ربحت تجارتهم} وفي بيت الفرزدْق: «يحمي إذا اخترط السيوف» البيت، ففاعل (ربح) على الحقيقة التجار، وفاعل (يحمي) على الحقيقة المقاتلون، وهناك نوعٌ آخر من المجاز العقلي يُسند فيه الفعل إلى فاعله المجازي ابتداءً من غير أن يكون له فاعل حقيقي، لكن العقل يدرك بعد تأمل أن هذا الاسناد مجازي، فقوله: «يزيدك وجهه حسناً» اسناد الزيادة إلى الوجه مجازٌ قطعاً، لأن الوجه لا يزيد في الحقيقة، لكن هذا الفعل (يزيد) ليس له فاعلٌ حقيقي يمكن أن تقدره له كما قدرنا للفعل (ربح) فاعلاً هم (التجار).

النهار، صورة شيء أسود يطارده شيءٌ أبيض، ولكن الذي يعنينا الآن ما نحن بصدده، وهو ما في البيت من تصوير بالاستعارة المكنية التخييلية، ففي البيت استعارتان ألا ترى كيف أثار الحركة والحياة في الشيب وهو ينهض بالشباب؟ والنهوض من صفات الأحياء - كما تعلم - فقد شبه الشيب بذي حياةٍ وقدرةٍ على النهوض وهذه المكنية وقد اسند النهوض إلى الشيب وتلك تخييلية.

أما الاستعارة الثانية فهي في الشطر الثاني فقد شبه النهار بذي الحاجة الذي يصيح لبلوغ حاجته، وحذف المشبه به ورمز له بكلمة (يصيح) ثم أسندها إلى النهار وهذه التخييلية - كما عرفت - وانظر إلى قول ابن المعتز[١]:

إذ تَرُومُ الثُّرَيَّا فِي الغُرُوبِ مَرَامَا
كَكَبٍّ طِمِرٍّ كَادَ يُلْقِي اللِّجَامَا

فقد شبه الثريا وهي تسير في غروبها برأس الطمرِّ الهاوي إلى الأرض وقد كاد يلقي لجامه، ويعنينا ما في البيت من استعارة مكنية، فقد شبهت الثريا وهي تسرع نحو الغرب بذي حاجة يروم تحقيقها، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله: (تروم) لأن الروم إنما يكون عن قصد، وهذه الاستعارة المكنية، واسناد (تروم) إلى (الثريا) استعارة تخييلية، ألا ترى أن هذه الاستعارة بعثت الحياة في الثريا؟ ونشرت في جوانبها الإحساس؟، وأظنك تدرك الآن جمال هذه الاستعارة وتستطيع أن تتبين مواقعها، وتميّز مواضعها.

فإذا سمعتهم يقولون: «هو يصفو ويكدر»، و «يمر ويحلو». أدركت أن هذه استعارات مكنية لأنهم قصدوا تشبيهه بالماء وبالعسل وبالصاب[٢]، ثم حذفوا المشبه به ورمزوا له بشيء من لوازمه وهو يصفو ويكدر ويمر... الخ، فإن الصفاء والكدر من صفات الماء، والحلاوة من صفات العسل، والمرارة من صفات الصاب، واسنادها إلى الرجل استعارة تخييلية.

وإذا سمعت قول الحجاج «أني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها»، فأنت تدرك أن هنا استعارتين مكنية وتخييلية حيث شبه الرؤوس بالثمار، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (أينعت) و (حان قطافها)، وهذه الاستعارة مكنية، واسناد الايناع للرؤوس هو التخييل.

وهذا هو سعد بن ناشب يقول:

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ
وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبَاً

---

(١) ديوان ابن المعتز ص ٦٣١، ككب: من اكبَّ على الشيء إذا هوى عليه، الطِمِرّ: الفرس الكريم الرشيق.
(٢) الصاب: شجر مر له عصارة بيضاء كاللبن.

وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ   وَلَمْ يَرْضَ إِلاَّ قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَاً

فأنت ترى أنه قد شبه العزم بشيء يعني الإنسان، لأنه لا يلقى بين العينين إلا ما يعني الإنسان ويشغله ويروم تحقيقه بجامع العناية في كل وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (ألقى بين عينيه) على سبيل الاستعارة المكنية، واسناد الإلقاء إلى العزم استعارة تخييلية. وما أبدع قول المتنبي(١):

وَتُحْيِي لَهُ المَالَ الصَّوَارِمُ وَالقَنَا   وَيَقْتُلُ مَا تُحْيِي التَّبَسُّمُ وَالجِدَا

ففيه استعارتان مكنيتان، الأولى: وهي في الشطر الأول، حيث شبه المال وقد جمع بعد تفرق، وكَثُر بعد قلة، بالميت أعيدت له الحياة، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الحياة. كما شبه تفريق المال بعد جمعه بالحي، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (القتل)، واسناد الحياة والقتل إلى المال تخييل.

واستمع إلى قول البحتري، من قصيدة له يحدثك فيها عن الربيع(٢):

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ يَخْتَالُ ضَاحِكَاً   مِنَ الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَا
وَقَدْ نَبَّهَ النَّوْرُوزُ فِي غَلَسِ الدُّجَى   أَوَائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بِالأَمْسِ نُوَّمَا
يُفَتِّقُهَا بَرْدُ النَّدَى فَكَأَنَّهُ   يَبُثُّ حَدِيثَاً كَانَ أَمْسِ مُكَتَّمَاً

فانظر إلى هذه الصورة الجميلة التي تمتلىء حيويةً ورقةً، وانظر إلى صور الاستعارة البديعة، فهذا الربيع قد جاءك طلقاً متبختراً، كأنما هو فخورٌ بحلته القشيبة، وها هو يَفْتَرُّ عن ابتسامات مختالاً ضاحكاً، فهي استعارةٌ مكنيةٌ كما عرفت، حيث شبه الربيع بإنسانٍ ذي بزةٍ وهيئةٍ جميلة، وها هو يختالُ ضاحكاً من حسنه، فانظر إلى هذه الاستعارة المكنية التخييلية المرشحة - إذ ذُكر فيها ما يلائم المشبه به -.

ثم انظر إلى البيت الثاني، وها هو النيروز (شمُّ النسيم) - كما يعرفُ في بعض البلدان - ينبه ويوقظ في غلس الليل وظلمته هذا الورد الذي كان يبدو عليه كَسَلُ النوم، وها هو بردُ الندى - وما أجملَ بردَ الندى - يفتق أكمام هذه الأزهار وتلك الورود، وها هي بعد أن تصحوا

---

(١) ديوان المتنبي ٢/٤.

(٢) ديوانه ٤/٢٠٩٠، الطلق: المشرق، النوروز= النيروز: وهو أكبر أعياد الفرس، ومعناه بالفارسية: اليوم الجديد، الغلس: ظلمة آخر الليل، يبث: ينشر.

يرسم الشاعر هنا لنا صورة الربيع، ويقدم لنا أجزاء الصورة متتابعة المعاني، إذ يمهد في البيت الأول لهذه اليقظة الحلوة التي تنبه بها الطبيعة من غفوةٍ كادت أن تكون مواتاً، ثم يصور لنا في البيتين التاليين هذا التنبيه الحالم الوادع. ديوان البحتري - تحقيق حسن كامل الصيرفي ١/١٥.

كأنما يتحدثُ بعضها مع بعض أو لكأنما تحدثُ الناظر إليها - بعد أن تفتقت - حديثاً لم يكن من قبل، لأنها كانت نوَّماً ذابلةً ذاوية.

وقبل أن انتقل بك إلى تقسيم آخر، لا بدَ أن تعلم أن فضل الاستعارة المكنية يكمن في أنها تبعثُ الحياة والحركة في الأشياء كلها، فهي يَقظةٌ تخاطبك وتكلمك، ألا رأيت إلى التراب كيف يستغيث، وإلى الربيع كيف جاءك مختالاً ضاحكاً، ولكن حذار أن تظنَّ أن في هذا القول انتقاصاً من الاستعارة التصريحية، فكلٌ لها صورتها الجميلة. وإذا كانت الاستعارة المكنيةُ تبعث الحياة في الأشياء؛ فإن في الاستعارة التصريحية صوراً للمعاني الذهنية الفكرية المجردة، تجسدت فكانت توجيهات حيَّةً في مجالات الحياة جميعها، كما بينته لك من قبل، وكما سأبينه لك فيما بعد - إن شاء الله - في قوله سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر ٩٤] وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء ١٨]. كلٌّ من الأسلوبين إذن - اسلوب التصريحية واسلوب المكنية - له مسوغاته وسياقه وعناصره المؤثرة الجميلة.

التقسيم الرابع: الاستعارة التحقيقية والتخييلية

وعلى ضوء ما عرفت، هناك تقسيم رابع للاستعارة وهي أنها تقسم إلى تحقيقية وتخييلية، فالتحقيقية: ما يكون فيها المستعار له أمراً محققاً إما حسّاً كما تقول «رأيت أسداً» وتعني الرجل الشجاع، وهو أمر محقق الوجود في الخارج، وإما عقلاً كقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة ٦]. فالمستعار له وهو الإسلام أمرٌ محقق ومتصور في العقل وإن لم يكن له وجود محسوس. أما التخييلية فهي التي يكون المستعار له فيها أمراً متخيلاً غير متحقق، وذلك كاثبات الجناح للذل، والدولة للصيام، والالقاء للعزم، والاحياء أو القتل للمال.

ونظن أن الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - هو أوّل من فصّل الأمر وبين الفرق بين هذين النوعين موضحاً قيمة الاستعارة المكنية التخييلية، وما تقوم عليها من أسس جمالية، وتصوير بديع خلاب، يقول:

« والثاني: أن يؤخذ الإسم عن حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يشار إليه، فيقال هذا هو المراد بالإسم والذي استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائباً منابه. ومثاله قول لبيد[1]:

---

(١) ديوانه ص ٣١٥، البيت رقم ٦٢ من معلقته، وغداة ريح: أي رب غداة ريح أي شديدة الريح، كَشَفْتُ، وفي رواية (وَزَعْتُ): أي كَفَفْتُ، قرّة: برد، يقال قِرّة وقَرّ كما يقال ذِلّة وذُل. إذ أصبحت بيد الشمال زمامها: أي إذا أصبحت الغدوة الغالب عليها ريح الشمال وهي أبرد الرياح، والمعنى: أنه إذا اشتد البرد كففته بإطعام الطعام واشعال النيران.

وغَـداةِ ريـحٍ قـد كَشَـفْـتُ وَقِـــرَةٍ   إذْ أصْبَحَــتْ بِيَــدِ الشَّمَـــالِ زِمَامُهـــا

وذلك أنه جعل للشمال يداً، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه، يمكن أن تجري اليد عليه كاجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك: «انبرى لي أسدٌ يزأر»، و«سللت سيفاً على العدو لا يُفل»، والظباء على النساء في قوله: «من الظباء الغيد» والنور على الهدى والبيان في قولك: «أبديت نوراً ساطعاً». وكاجراء اليد نفسها على من يعز مكانه كقولك: «اتنازعني في يدٍ بها أبطش، وعين بها أبصر»، يريد إنساناً له حكم اليد وفعلها، وغَناؤها ودفعها، وخاصة العين، وفائدتها وعزة موقعها، ولطف موضعها، لأن معك في هذا كله ذاتاً ينص عليها، وترى مكانها في النفس إذا لم تجد ذكرها في اللفظ. وليس لك شيء من ذلك في بيت لبيد، ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدير المصرِّف لما زمامه بيده، ومقادته فِي كفه، وذلك كله لا يتعدى التخيل والوهم، والتقدير في النفس، من غير أن يكون هناك شيء يُحَس، وذات تتحصل، ولا سبيل لك إلى أن تقول: كنى باليد عن كذا وأراد باليد هذا الشيء أو جعل الشيء الفلاني يداً كما تقول: كنى بالأسد عن زيد وعنى به زيداً وجعل زيداً أسداً، وإنما غايتك التي لا مطلع وراءها أن تقول: أراد أن يثبت للشمال في الغداة تصرفاً كتصرف الإنسان في الشيء يقلبه، فاستعار لها اليد حتى يبالغ في تحقيق التشبيه.

وحكم الزمام في استعارته للغداة حكم اليد في استعارتها للشمال، إذ ليس هناك مشار إليه يكون الزمام كناية عنه، ولكنه وَفَّى المبالغة شرطَها من الطرفين فجعل على الغداة زماماً يكون اتم في اثباتها مصرَّفة، كما جعل للشمال يداً ليكون أبلغ في تصييرها مصرفة.

وَيفْصِل بين القسمين: أنك إذا رجعت في القسم الأول إلى التشبيه الذي هو المغزى من كل استعارة تفيد وجَدْتَه يأتيك عفواً كقولك في «رأيت أسداً»، «رأيت رجلاً كالأسد» ورأيت مثل الأسد أو شبيهاً بالأسد، وإن رُمْتَهُ في القسم الثاني وَجَدْتَه لا يواتيك تلك المواتاة، إذ لا وجه لأن يقول: «إذ أصبح شيء مثل اليد للشمال» أو «حصل شبيه باليد للشمال» وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه ستراً وتعمل تأملاً وفكراً وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحدّ الأول»[1].

وخلاصة ما يريده الشيخ - رحمه الله - أن الاستعارة التحقيقية هي التي لها تحقق في الواقع، كالأسد الذي استعير للشجاع، والشمس التي استعيرت للحسناء، والبحر الذي استعير للجواد، فتلك أمورٌ محققةٌ في الواقع ولها وجودٌ خارجي، أما التخييلية فليست كذلك، فليس لها وجودٌ خارجي ولا تحققٌ واقعي، ألا ترى أنه ليس للشمال يد ولا يمكن أن يكون وليس للريح زمام، إنما هي سعة خيال الشعراء.

---

(١) أسرار البلاغة تعليق محمد النجار ص ٤٩.

اجراء الاستعارة

وقبل أن نواصل حديثنا عن أقسام الاستعارة، نرى لزاماً علينا أن نقف وقفة ميدانية، نحدثك فيها عن إجراء الاستعارة ونبادرك القول بأن اجراء الاستعارة لا نعني به إلا أن تروز نفسك، وتختبر ادراكك اختباراً عملياً، بعد أن عرفت نظرياً بعض الجوانب في اسلوب الاستعارة. ونمثل لك هذا الإجراء بقضية الإعراب في النحو، وتقطيع الشعر في العروض، والميزان في الصرف، فمن أحاط بقواعد النحو وعرف مسائله، واستجمع أصوله وفصوله، فإنك لا تطمئن لمعرفته إلا عندما تجده بارعاً في اعراب الجمل، مبيناً مواقع اجزاءها من الإعراب، فإن لم يستطع ذلك فإن معرفته للقواعد وإلمامه بالفصول لا تجديه شيئاً، كذلك الذي يدرس فن العروض، فإنك لا تعدّه حاذقاً إلا إذا كان يستطيع تقطيع البيت من الشعر، وبيان ما فيه من علل، وما يجوز وما لا يجوز، كذلك الذي يدرس علم الصرف، لا بد لكي يكون ذا مهارة وخبرة أن يزن الكلمات التي تمر به، ويدرك مواطن الإعلال والإبدال، والقلب ومواطن التصغير وكيفيته، وأحوال النسب.

اجراء الاستعارة - إذن - هو الثمرة العملية التي يختبر بها دارس البيان. ولنذكر لك بعض الأمثلة لتقيس عليها غيرها، فإجراء الاستعارة في قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر ٩٤]، تقول فيه: شبَّه التبليغ بالصدع بجامع المشقة في كلٍ، وحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، ثم اشتق من الصدع فعل الأمر (إصْدَعْ) بمعنى (بَلِّغْ) على سبيل الاستعارة التبعية، التي سنحدثك عنها فيما بعد إن شاء الله. وتقول في قوله تعالى: ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾ [آل عمران ١٠٣] شبه العهد بالحبل بجامع النجاة في كلٍ، وحذف المشبه وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

وتقول في قوله سبحانه: ﴿إعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد ١٧] شُبِّهت الأرض الهامدة، وقد أنبتت واهتزت وربت، بالمَيِّت نُفخت فيه الروح، وحذف المشبه به، ورمز له بشيءٍ من لوازمه وهو الاحياء على سبيل الاستعارة المكنية، واسناد الاحياء إلى الأرض استعارة تخييلية. ولك أن تجري الاستعارة على وجه آخر فتقول: شبه التزيين بالاحياء بجامع الفائدة في كلٍ، واشتق من الاحياء (يحيي) بمعنى (يُزيِّن) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية وسيأتي لهذا مزيد تفصيل إن شاء الله.

وتقول في قوله سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ [آل عمران ١١٨] شبهت الولاية والمودة بين المؤمنين وغيرهم بباطن الثوب الذي يلي الجسم، بجامع

القرب في كل، وحذف المشبه وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. وتقول في قول ابن المعتز(١):

جُمِـــعَ الحَـــقُّ لنا فِـــي إمَـــامٍ   قَتَـــلَ البُخْـــلَ وأحْيَـــا السَّمَـاحَـا

شبه البخل برجل مقتول، وشبه السماحة برجل بُعثت فيه الحياة بعد القتل، وحذف المشبه به في الموضعين ورمز له بشيء من لوازمه وهو (قَتَلَ) و (أحْيَا)، على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية.

وإذا أردت أن تجري الاستعارة في قولك: «يفتك بنا عدونا بسلاحه، ونحن نقتله بالتصريحات» شبه ما نتوهمه مما يؤذي العدو بالقتل، على سبيل الاستعارة التصريحية التهكمية. وتقول في قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك ١٥] شبهت الأرض وقد سخرها الله لنا، بالحيوان المذلل، وحذف المشبه به – وهو الحيوان – ورمز له بشيء من لوازمه وهي المناكب على سبيل الاستعارة المكنية، واضافة المناكب إلى الأرض استعارة تخييلية. وتجري الاستعارة في قول ابن المعتز(٢):

سَالَتْ عَلَيْهِ وُجُوهُ الحَـيِّ حِـينَ دَعَـا   أنْصَـارَهُ بِوُجُـوهٍ كالـدَّنَـانِيـرِ

فالسيل – كما تعلم – للماء واسندها لوجوه الحي، شبه سرعة الناس في إجابة دعوته – الممدوح – بالماء في سرعة سيله وتدفقه، وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية. واسند السيل الذي هو من لوازم المشبه به – الماء – إلى المشبه على سبيل الاستعارة التخييلية.

أما قوله سبحانه: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُور﴾ [الملك ٧]، وقوله سبحانه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ [الفرقان ١٢] فلك أن تقول في الآية الأولى: شبه جهنم بصاحب الصوت البشع، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الشهيق، على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية، ولك أن تجري الاستعارة هكذا: شبه ما يُسمع من غليان جهنم بالشهيق. بجامع الاستبشاع في كلٍ، وحذف المشبه، وذكر المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية. وتقول في الآية الثانية: شبهت جهنم بمن يرقب عدوه ويتحفز للإيقاع به، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (رأى) على سبيل الاستعارة المكنية، وأسندت الرؤية لجهنم على سبيل الاستعارة التخييلية.

---

(١) ديوانه ص ١٢٣.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١١٨، بوجوه كالدنانير: أي مشرقة متلألئة مسرورة وذلك من الثقة بشجاعتهم والزهو بزعيمهم.

وكما أجريت الاستعارة في قوله: ﴿سمعوا لها شهيقاً﴾ نجريها في قوله: ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ وستعلم أن اجراء الاستعارة يمكن أن تَتَّبِعَ فيه أكثر من طريقة واحدة، وتَسْلُكَ فيه أكثر من سبيل، وسنزيدك إلماماً بهذا الموضوع - بإذن الله - بعد أن نكمل لك بقية أقسام الاستعارة لتكون الفائدة أتم وليكون الموضوع أكثر شمولاً.

التقسيم الخامس

الأصلية والتبعية

كانت التقسيمات السابقة للاستعارة - كما رأيت - باعتبارات مختلفة، فتارة من حيث المحسوس والمعقول أي من حيث ما يدرك بالحواس أوْ لا، ومن حيث اجتماع ركنيها أو عدم اجتماعهما، ومن حيث وجود المشبه أو المشبه به، ومن حيث تحقق المستعار له أو عدم تحققه، ونقسمها الآن من حيثية أخرى وهي لفظ المستعار، ففي هذا التقسيم ننظر إلى لفظ المستعار، من أي فئة هو، من فئات الكلمة المعروفة: الإسم، والفعل والحرف؟، ولنرى كذلك أي الفصائل التي ينتسب إليها؛ أينسب إلى فصيلة المشتقات أم إلى فصيلة الجوامد؟ وأنت تعلم أنهم قد قسموا الكلمة إلى إسم وفعل وحرف، وقسموا الإسم إلى جامد ومشتق، ويعنون بالمشتق ما أخذ عن غيره. أما الجامد فقد يكون اسم جنس: كالأسد، والانسان، وقد يكون اسم معنى: كالقتل، والطغيان، والصدع، وأظن الفرق بينهما واضحاً لا يحتاج إلى شرح، فاسم الجنس له وجوده في الخارج، أما اسم المعنى فليس من هذا القبيل إنما يقوم بغيره، ألا ترى أنه ليس هناك شيء اسمه القتل له وجوده في الخارج إنما هو معنىً يقوم بغيره كالقاتل الذي حدث منه القتل، والمقتول الذي وقع عليه، وكذلك الطغيان، والصدع، والعدل، والإيمان.

إذا عرفت هذه المقدمات فاعلم أنهم قد نظروا في هذا التقسيم للفظ المستعار فوجدوه تارةً جامداً، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم ١]، وكقول المتنبي السابق:

وَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى البَدْرُ نَحْوَهُ ... وَلا رَجُلاً قَامَتْ تُعانِقُهُ الأُسْدُ

وتارة وجدوه مشتقاً، ومن المشتقات: الفعل واسم الفاعل، واسم المفعول، واسما الزمان والمكان، واسم الآلة، فإذا كان المستعار اسماً جامداً سميت الاستعارة أصلية، وإذا كان المستعار مشتقاً سميت الاستعارة تبعية، ومن الاستعارة التبعية - كذلك - أن تكون الاستعارة في الحرف أو اسم الاشارة، وتدرك من هذا أن الأعلام الشخصية لا تجري فيها الاستعارات، إلا إذا اشتُهر العَلَمُ بصفة من الصفات فأصبح صالحاً لأن يكون مشبهاً به، فقد اشتُهر حاتم

بالكرم، وسحبان بالخطابة، وباقل بالفهاهة[١]، فأصبحت هذه الأعلام صالحة لأن يشبه بها لا من حيث هي أعلام شخصية، ولكن من حيث ما اشتُهرت به من صفات، وعلى هذا فإن أبا بكر - رضي الله عنه - اشتُهر بحروب الردة لما كان له من فضل قمعها، فيمكن أن تستعير هذا الاسم لمن يقف مثل هذا الموقف، وكذلك اشتُهر عمر - رضي الله عنه - بالعدل فيمكن أن تستعير هذا الاسم لمن عرف بالعدل في سيرته وحكمه، ومثل هذا (المتنبي) في الشعر، و (أبو رِغال)[٢] في الخيانة، و (صلاح الدين) في التحرير، و (بطرس الناسك)[٣] في الحقد على الإسلام، والاستعارة في هذه جميعاً استعارة أصلية.

يمكنك أن تمثل للاستعارة الأصلية إذن بقولك: «لا بد لهذا الليل من آخر»، و «ولا بد أن يحمل المشعل صلاح الدين»، و «سيلاقي أبو رغال مصيره»، و «ما أحوج الردة التي نحياها اليوم إلى أبي بكر».

أما الاستعارة التبعية فيمكن أن نمثل لها بقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة ١٦]، وبقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف ١٥٤]، وبقوله سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر ٩٤]، وبقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف ٩٩]، وبقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة ١١]، هذه الاستعارات جميعها - كما ترى - أفعال بعضها ماضٍ، وبعضها مضارع، وبعضها أمر، ففي الآية الأولى الاستعارة في قوله سبحانه: (اشتروا)، وفي الآية الثانية في قوله: (سكت)، وفي الآية الثالثة في قوله سبحانه: (اصدع). وهكذا فعْلا (يموج) و (طغى) في الآيتين الرابعة والخامسة، وقبل أن نبين لك الاستعارات في هذه الآيات لا بد من الاشارة إلى علة التسمية. فتسميه الاستعارة بالأصلية لأنها لم تُبْنَ على غيرها. أما التبعية فلأنها مبنية على استعارة أخرى فهي تابعة لها في اجرائها، بيان ذلك:

إن قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ المقصود به (استبدلوا الضلالة بالهدى)، لأن الضلالة لا تشترى كما نعلم، ولكنها يمكن أن تُستبدل بغيرها، ولكننا عند إجراء الاستعارة، لا نقول: شبه (استبدلوا) بـ (اشتروا)، إنما نقول: شبه الاستبدال بالشراء

---

(١) أي التلعثم بالنطق وعدم القدرة على الافصاح.

(٢) هو قسيّ بن منبه من بني اياد، صاحب القبر الذي يرجَمُ إلى اليوم بين مكة والطائف، يضربُ مثلاً للخيانة لأنه كان دليل الحبشة لما غزوا الكعبة وهلك معهم.

(٣) أحد قادة الحروب الصليبية كان فصيحاً شديد التأثير في تحريض الأوروبيين على الحروب الصليبية.

وحذف الاستبدال. أو نقول إذا أردنا أن نتناسى التشبيه ألبتة: استعير الشراء للاستبدال ثم اشتق منه (اشتروا) بمعنى (استبدلوا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وفي الآية الثانية يقال: استعير السكوت للزوال لأن الغضب لا يسكت وإنما يزول، واشتق من السكوت (سكت) بمعنى (زال)، ويقال في الآية الثالثة: استعير الصدع للتبليغ واشتق منه (إصْدَعْ) بمعنى (بلِّغ)، أما الآية الرابعة فيقال فيها: استعير الموج للحركة أو الاضطراب واشتق منه (يموج) بمعنى (يضطرب)، وهكذا في الآية الخامسة تقول: شُبه ارتفاع الماء الخارج عن حدّ الاعتدال بالطغيان واشتق من الطغيان (طغى) بمعنى (ارتفع).

وهكذا تقول في ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ [آل عمران ١١٢] شبه الدوام واللزوم بالضرب بجامع الاحاطة والبقاء في كل، واشتق منه (ضُربت) بمعنى (لزمت)، وفي قوله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد ١٧]، استعير الإحياء للتزيين. واشتق منه (يُحْيِي) بمعنى (يُزَيِّن) وفي قول ابن المعتز السابق:

جُمِعَ الحَقُّ لَنَا في إمَامٍ ... قَتَلَ البُخْلَ وأحْيَا السَّمَاحَا

استعير القتل لانتفاء البخل واشتق منه (قَتَلَ) بمعنى (أَذْهَبَ) واستعير الإحياء للوجود واشتق منه (أحيا) بمعنى (أوْجَدَ وأبقى).

ومن الاستعارة التبعية قولهم: «نطقت الحال بكذا»، «كلمتني عيناه»، «قالت أسارير وجهه»، ومنه قوله:

أشَارَت بِطَرْفِ العَيْنِ خِيْفَةَ أهْلِهَا ... إشَارَةَ مَحْزُونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ

فَأيْقَنْتُ أنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَبًا ... وَأهْلاً وَسَهْلاً بِالحَبِيبِ المُتَيَّمِ

فاثبات النطق للحال، والتكلم للعينين، والقول للطرف، استعارات تبعية، فقد شبه وضوح الدلالة بالنطق والتكليم، واستعير المشبه به للمشبه، واشتق من النطق والتكليم والقول (نَطَقَ) و (تَكَلَّمَ) و (قَالَ) بمعنى (ظَهَرَ).

الاستعارة التبعية في الفعل:

والاستعارة في الفعل يمكن أن ندركها من الفاعل، كالأمثلة السابقة في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ﴾ [الأعراف ١٥٤]، و «نطقت الحال بكذا»، وقد ندركها من المفعول كما في قوله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وقول ابن المعتز:

(قتل البخل وأحيا السماحا)، ألا ترى أنه لولا المفعول به هنا لم يكن في الكلام استعارة؟ لأن اسناد الاحياء إلى اللّه حقيقة، واسناد القتل كذلك إلى الإمام حقيقة، وقد تكون هناك استعارة في الفعل ولكننا لا ندركها من الفاعل ولا من المفعول به الأول وإنما ندركها من المفعول الثاني. خذ مثلاً قولنا: «نقري عدونا» ألا ترى أن هذه الجملة لا تحتمل استعارة لأن (نقري) معناه (نكرم) ويمكن أن يكون ذلك على سبيل الحقيقة لكنك إذا قلت: «نقري عدونا سهاماً مسمومة» فإنك لا تشك أن في الكلام استعارة ولكنك أدركتها من المفعول الثاني وهو قولك: (سهاماً) لأن السهام لا تصلح للقرى، وعلى هذا جاء قول القطامي(١):

لَمْ تَلْقَ قَوماً هُمُ شَرٌّ لإخْوَتِهِمْ ... مِنّا عَشِيَّةَ يَجْرِي بِالدَّمِ الوَادِي

نُقْرِيهِمُ لَهْذَمِيَاتٍ نَقُدُّ بِهَا ... مَا كَانَ خَاطَ عَلَيْهِمْ كُلُّ زَرَّادِ(٢)

وكل الذي عرفته عن الاستعارة في الفعل إنما هي باعتبار مدلوله ومعناه. وقد ذكروا أن هناك استعارة أخرى في الفعل لا من حيث معناه ومادته وإنما من حيث هيئته وصيغته، وأنت تعرف أن الفعل قد يكون ماضياً، أو مضارعاً، فإذا استعملت صيغةً مكانَ صيغة كأن تستعمل صيغة الماضي مكان صيغة المضارع، فإنهم عدّوا ذلك من الاستعارة، ذلك لأن صيغة الماضي استعملت في غير موضعها. مثّلوا لذلك بقوله سبحانه: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل ١]، ومعنى هذا أن أمر اللّه سيأتي بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقالوا في اجراء الاستعارة: إنه شبه الإتيان في المستقبل بالإتيان في الماضي بجامع التحقق في كل، لأن وعد اللّه لا يتخلّف، واستعار لفظ المشبه به للمشبه ثم اشتق من الإتيان (أتى) بمعنى (يأتي) على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية والقرينة لفظية وهي قوله: {فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف ٤٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف ٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف ٥٠]، فهذه الأفعال الماضية أريد منها المستقبل؛ لأنها حديث عن يوم القيامة، ولكننا شبهنا المستقبل بالماضي بجامع التحقق والوجود في كلٍ، ثم

---

(١) ديوان القطامي عمير بن شييم التغلبي ٢/٦٣، أسرار البلاغة تحقيق هـ. ريتر ص ٥١.

(٢) نقريهم من قريت الضيف، واللهذم من الأسنة: القاطعة، واللهذميات منسوبة إليها، والقدُّ: القطع، وضَمَّنَ (خاط) معنى (قدَّ) فعدّاه بـ (على)، وزَرَدَ الدُّروعَ وَسَرَدَهَا: نَسَجَهَا.

اشتق من النداء (نادى) بمعنى (ينادي)، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة معنوية، لأن الحديث عن يوم القيامة، وقال الشاعر:

وأَعْلَمُ أَنَّنِي سَأَكُونُ رَمْسَاً إذا سَارَ النَّوَاعِجُ لا يَسِيرُ
فَقَالَ السَّائِلُونَ لِمَنْ حَفَرْتُم فَقَالَ الْمُخْبِرُونَ لَهُمْ وَزِيرُ(١)

فقد عبّر بالماضي في قوله: «فقال المخبرون» وأراد المضارع.

واعْلَمْ أنني ذكرت هذا مجاراةً للقوم فقد أوردوا هذا في كتبهم فكرهت مخالفتهم، فالقرآن الكريم كثيراً ما يستعمل الماضي في مكان المضارع، أو المضارع في مكان الماضي، وذلك لاستحضار الصورة لتكون أكثر تأثيراً في النفس، فهو حينما يذكر يوم القيامة – مثلاً – يذكر لنا مشاهده التي تحدث فيه بصيغة الماضي لأنه جسد لنا هذا اليوم كأننا نعيشه، وكثيراً ما يذكر لنا أشياء مضت بصيغة المضارع لتكون مستحضرةً أمامنا.

اجراء آخر للاستعارة

إذا تأملت الاستعارات السابقة جميعاً وجدت أن كل استعارة تبعية تجيء قرينتها استعارة مكنية، ولكي نبين لك الأمر جلياً نذكرك بما عرفته من قبل، بأن كل استعارة وكل مجاز لا بد له من قرينة تمنع من ارادة المعنى الحقيقي.

خذ مثلاً الآية السابقة {اشْتَرَوْا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} وهي استعارة تبعية كما عرفت وابحث عن قرينتها ستجد أن هذه القرينة هي الضلالة. وخذ مثلاً قوله سبحانه: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ} وقد عرفت أن الاستعارة في قوله (سكت). وإذا بحثت عن قرينتها وجدتها في كلمة الغضب وهكذا الاستعارات الباقية.

وعلى هذا يمكنك اجراء الاستعارة إجراءً آخر غير الذي عرفته من قبل، عرفت من قبل أننا شبهنا الاستبدال بالاشتراء واشتققنا منه (اشتروا) بمعنى (استبدلوا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والوجه الآخر الذي يمكننا أن نجري عليه الاستعارة أن نقول: شبهت الضلالة بالسلعة، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (اشتروا) على سبيل الاستعارة المكنية، ونقول في قوله سبحانه: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ شُبه الغضبُ بالإنسان، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السكوت على سبيل الاستعارة المكنية. ونقول في قول ابن المعتز * قتل البخل وأحيا السَّماحا * شبه كُلاً من البخل والسماحة بالإنسان، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو القتل والإحياء.

---

(١) تفسير الطبري ١/٧٠، الرمس: القبر، النواعج: جمع ناعجة وهي الناقة السريعة

كل استعارة تصريحية تبعية – كما رأيت إذن – يمكن أن نجريها استعارة مكنية، ولكن حذار أن تجري الاستعارتين معاً فتعدّها تصريحية مكنية في وقت واحد، فلا بدّ أن تلزم الاستعارة حالة واحدة، وأنت مخيرٌ في أيهما شئت، ولكن تبقى قضية الذوق الفيصل فيما ينبغي أن ترجحه من هذين الوجهين، خذ مثلاً قول المتنبي في وصف أسد(١):

وَرْدٌ إذَا وَرَدَ البُحَيْرَةَ شَارِبَاً ... وَرَدَ الفُرَاتَ زَئِيرُهُ والنِّيلا

والزئير كما تعلم هو صوت الأسد وليس من شأنه أن يرد وإنما من شأنه أن يصل، فيقال: (وصل صوته إلى كذا) ولا يقال (ورد)، إذن لا بد من استعارة في قوله (ورد) فقد شبه وصول صوت الأسد إلى الفرات بورود الماء بجامع انتهاء كلٍ إلى غايته، ثم استعير لفظ الورود وهو المشبه به إلى الوصول وهو المشبه، واشتق من (الورود)، بمعنى (الوصول) (ورد) بمعنى (وصل) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، أما أنها تصريحية فلأنها ذكر فيها لفظ المشبه به وهو الورود الذي اشتقت منه (ورد)، وأما أنها تبعية فلأنها جرت في المشتق وهو (ورد)، ويمكنك أن تجري الاستعارة على وجه آخر فتقول شبه الزئير بحيوان ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (ورد). ويقيننا أنه وإن جاز ذلك من الناحية الصناعية إلا أننا لا نرجحه من حيث فنّ الذوق. وهذا ما حرصت أن أنبهك عليه، إلاّ أنك في اجراء الاستعارة لا ينبغي أن تطغى عليك الناحية الصناعية بل عليك أن تحكّم الذوق فيما تختاره وترتأيه، وإليك مثلاً آخر:

قدمت لك قول أبي تمّام عند الاستعارة المكنية:

دِيْمَةٌ سَمْحَةُ القِيَادِ سَكُوبُ ... مُسْتَغِيثٌ بِهَا الثَّرَى المَكْرُوبُ

وقد عرفت أن المشبه به محذوف وأن هنا استعارتين مكنية وتخييلية، ولكن يمكنك أن تجري الاستعارة اجراءً آخر فتقول: شبهت حاجة التراب إلى الماء بالاستغاثة، فاستعير المشبه به للمشبه واشتق من الاستغاثة (مستغيث) بمعنى محتاج على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، لأن (مستغيث) اسم فاعل، والقرينة التي تمنع من ارادة المعنى الحقيقي (الثرى) لأنه ليس من شأنه أن يستغيث.

قل لي بربك وأنت توازن بين هذا الطريق في اجراء الاستعارة وبين ما قبله، أترتابُ في أن الذوق والفن والجمال الذي يحرك جوانب النفس ويثير مكامن الشعور، إنما هو في الطريق الأول الذي أجريت فيه الاستعارة على أنها مكنية. وخذ مثلاً قول ابن المعتز الذي قدمته لك من قبل * تروم الثريا * حيث أجرينا الاستعارة فذكرنا أنها مكنية تخييلية، وعلى القاعدة التي

---

(١) ديوانه ٣/٢٥٤.

عرفت يمكنك أن تجري الاستعارة بطريق آخر تجعلها تصريحية تبعية بأن تشبه سير الثريا بالروم وتستعير المشبه به للمشبه، وتشتق من الروم (يروم) بمعنى (يسيرُ)، ولكن هل تجد الحركة والحياة والشباب الذي وجدته هناك؟ اللهم لا!.

وتلك قضية اثرت أن أنبهك عليها لأني لم أجد أحداً من الفضلاء والكاتبين أشار إليها، مع أنها تستحق الاشارة - كما رأيت -.

الاستعارة التبعية في غير الفعل

وكما تكون الاستعارة التبعية في الفعل تأتي كذلك في غيره من المشتقات، فمن مجيئها في اسم الفاعل، قولك لأحد التلاميذ: «هذا قاتِلُك عاقَبْتُهُ عقاباً شديداً»، والقتل ازالة الحياة، ولكنك تقصد الضرب المؤلم، فقد شبهت الضربَ الشديد بالقتل بجامع الإيلام في كل، وبعد أن استعرت القتل للضربِ اشتققت منه (قاتل) بمعنى ضارب على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة الخطاب لأن المقتول لا يخاطب. ومن مجيئها اسمَ مفعول قولك، «هذا مقتول فلان» أي مضروبه، وتقول - وقد سُئلتَ عن كتاب لأحد المستغربين المنتسبين لهذه الأمة باسمائهم - : «إنه مخزون الشر» وتُسأل عن تصريحات لأحد الساسة فتقول: «إنها مجتمع الهزائم»، أو تصف اذاعة الأعداء فتقول: «إنها مرتكز الكذب» فكل من (مرتكز) و (مجتمع)(١) و(مخزون) اسم مفعول.

ومن مجيئها اسمَ تفضيل قولك: «هذا أقْتَلُ من فلان» أي أشد ضرباً. ومن مجيئها في اسم الآلة قولك لمن أراد أمراً من إنسانٍ ما «مفتاحُه فلان» تعني صديقاً له أو موظفاً معه، فقد شبهت الصداقة بالفتح بجامع الوصول للغاية في كل، ثم استعير من الفتح (مفتاح) وهو اسم آلة. وقول الرجل لزوجه: «أنت منشار جيبي ومطرقة رأسي» فلقد استعار النشر لفراغ الجيب، والطرق لتعب الرأس واشتق منهما اسمي آلة وهما (منشار) و (مطرقة)، وأن تتحدث عن رجل بأنه (مقراض الأعداء) أو عن أحد اللاهين بأنه (مزمار الحيِّ).

ومن مجيئها اسم مكان قوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَاۜ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس ٥٢]، فلقد حدثناك من قبل عن الاستعارة في الاية الكريمة من أنها استعارة معقول لمعقول، حيث شبه الموت بالرقاد وكلاهما معقول، وإنما جاز هذا التشبيه لأن الرقاد أمر طبعي فيهم، فهم ينامون ويستيقظون، ثم حذف المشبه، فالاستعارة تصريحية، وهي أصلية - كذلك - لأن مرقد مصدر ميمي بمعنى الرقاد. ولكننا الآن نجري لك

---

(١) وقد تكون كل من (مجتمع) و (مرتكز) اسم مكان

الاستعارة في الآية الكريمة على وجه آخر، وإياك أن تجد حرجاً في هذا فمن الممكن أن يكون للمثال الواحد أكثر من جهة: فتارة نجعله استعارة، وتارة مجازاً مرسلاً، كما رأينا في مثل قوله .سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان ٧].

والذي يعنينا هنا أن كلمة (مرقد) في الآية الكريمة يمكن أن تفسر بمكان الرقود وهو القبر ويقال في اجراء الاستعارة شبه الموت بالرقاد واستعير لفظ المشبه به للمشبه واشتق منه مرقد بمعنى القبر على سبيل الاستعارة التبعية.

ويمكن أن تمثل للاستعارة في اسم الزمان بقولك: «يا للأسف ما بال أمتنا تعيش في مغرب صباها، حبذا لو نشهد مطلَع شمسها» فإن المغرب والمطلع اسما زمان - كما تعلم - وأنت تقصد زمان الضعف والقوة، فاستعرت المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، ومثل هذا قولك: «متى نرى مغربَ شمس العدوّ ومرقدَه» فهنا استعارتان تبعيتان إحداهما في اسم الزمان والأخرى في اسم المكان.

الاستعارة في الحرف:

بقي أن نحدثك عن الاستعارة التبعية في الحرف ولعلك تتساءل: أليس الحرف جامداً والاستعارة التبعية إنما تكون في المشتقات؟ ثم كيف تكون الاستعارة في الحرف والحرف لا يدل على معنى في نفسه؟ إنما يدل على معنى في غيره؟ فكيف تكون الاستعارة في الحرف أولاً؟ ولماذا سميت تبعيه مع أن الحرف ليس من المشتقات ثانياً؟ وهي قضية جديرة بالتجلية والبيان.

قسّم النحويون الكلمة إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنىً، فالإسم ما دل على معنى في نفسه غيرَ مقترن بزمان، والفعل ما دل على معنى في نفسه مقترناً بزمان والحرف ما دل على معنى في غيره، ألا ترى أن (هل) لا يفهم معناها إلا إذا اقترنت بغيرها، كذلك (مِنْ) و (على) و (في)، وبحسب وجود الحرف في الجملة يكون معناه، فإذا قلت: «جئت من البيت إلى المسجد»، «الطلاب في الحجرة»، «صعد على المنصة»، فإننا ندرك أن (مِنْ) للابتداء، و(إلى) للانتهاء و(في) للظرفية، و(على) للاستعلاء.

إذا عرفت هذا كله، فاعلم أنهم حينما جعلوا الاستعارة في الحرف فإنهم لم ينظروا إلى الحرف نفسه، وإنما نظروا إلى متعلق معنى الحرف، ومتعلق معنى الحرف من المشتقات ولكي نتصور ذلك لا بد من أن نمر بمراحل ثلاث:

أولاً: الحرف.
ثانياً: معنى الحرف.
ثالثاً: متعلق هذا المعنى.

وسنمثل لك بما يسهل لك هذه القضية إن شاء الله. مثلاً قوله سبحانه يحدثنا عن حقد فرعون وغيظه وهو يقول للسحرة الذين آمنوا برب هارون وموسى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طـــه ٧١]، وأنت تعلم أنَّ (في) للظرفية، وتعلَم كذَلك أنَّ التصليب يكونُ على جذوع النخلَ - ولا يغرنك ما يقال من أن (في) بمعنى (على) فحروف الجر لا تتناوب كما يرى المحققون - لا بد من معرفة السبب الذي اختيرت من أجله كلمة (في)، وهذا ما سنعرفه عند حديثنا عن الاستعارة في القرآن. إن ما يعنينا الآن اجراء هذه الاستعارة، ولا بأس أن نذكرك قبل هذا الاجراء بالأمور الثلاثة التي حدثناك عنها: الحرف، ومعناه، ومتعلق المعنى. فالحرف (على)، ومعناه الاستعلاء ومتعلق هذا المعنى هؤلاء المستعلون المصلبون على جذوع النخل. والحرف الثاني (في)، ومعناه الظرفية، ومتعلق الظرفية، هؤلاء المظروفون في جذوع النخل.

ففي الآية الكريمة: شبه متعلق معنى (على) بمتعلق معنى (في)، ومعنى (على) الاستعلاء ومعنى (في) الظرفية، فشبه متعلق الاستعلاء بمتعلق الظرفية، أي شبه المستعلي على الشيء بمن هو حالٌ فيه بجامع الثبوت، فشبه المصلوبين وهم على جذوع النخل بمن هو في هذه الجذوع نفسها، هذه الاستعارة التبعية في الحرف. وإليك مثالاً آخر:

يقول الأب عن ابنه العاق «علَّمْتُهُ ليُؤْذِيَني» ألا ترى أن الأب لم يعلم الأبن ليؤذيه؟ وإنما علمه ليكرمه، وهذه اللام تسمى لام التعليل، فمن أسباب تعليم الأب لأبنه أن يبرّه ويوقره، ولكن العاقبة كانت شيئاً آخر، فاستعيرت اللام التي هي للعلة للدلالة على العاقبة، بجامع ترتب كل منهما على ما قبله.

ومثل هذا قولنا «ضَحَّيْنَا فَخُضْنَا أكثرَ من حربٍ مع عدونا لنُهزَم ولنتنازلَ عن الأرضِ والمقدسات» ونحن لم ندخل الحرب من أجل هذا إنما دخلناها لنرضي الله ونرفع راية الدين، ونحرر الأرض، ونحمي العرض، لكن عاقبة الحروب كانت - كما نراه الآن - واللام للتعليل - كما عرفت - فشبه متعلق معنى التعليل بما آل إليه الأمر من العاقبة التي رأيت لَتَرتُّبِ كلٍ منهما على ما قبله، فإن كلاً من الانتصار، وتحرير الأرض، والتفريط فيها، مترتب على ما قبله وهو دخول الحرب، فالانتصار لا بد له من حرب والنتيجة المخزية تترتب على الحرب كذلك.

واظنك تدرك الآن الاستعارة التبعية في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص ٨]، وهم لم يلتقطوه لهذا، إنما علة الالتقاط أن يكون لهم قرة عين، ولكن لأن كلا من هذين الأمرين: اعني كونه عدواً وحزناً، وكونه قُرَّةَ عين مترتب على الالتقاط، شبهت العلة بالعاقبة واستعير معنى اللام الدالة على التعليل للدلالة على العاقبة على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية.

وهكذا يمكنك أن تمثل للاستعارة التبعية في الحرف: «المسلم في قمة الجبال مسكنه، بل في الشهب منزلته» والمراد (على).

أما الإستعارة في اسم الإشارة فكقولك: «هذا حقٌ» وأنت تعلم أن الاشارة للمحسوس، ولكننا استعرنا اسم الاشارة من المحسوس للمعقول بجامع تحقق الوجود في كل منهما على سبيل الاستعارة التبعية.

ارجو أن يكون قد استبان لك أمر هذه الاستعارة ولنواصل الحديث عن أقسامها. ولنصل الحديث عن أقسام الاستعارة بعضه ببعض.

التقسيم السادس: الاستعارة التمثيلية

ما أظنك إلا أنك تذكر تشبيه التمثيل ولا زالت صورُهُ الخلاّبة البديعة تحتل من نفسك محلّها، وتبعث فيك الاعجاب، والحق أن بين الاستعارة التمثيلية والتشبيه التمثيلي نسباً وصلة، فالتشبيه التمثيلي - كما رأيت - هو تشبيه مركب، وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد، ليس إذن تشبيهاً مفرداً، كذلك الاستعارة التمثيلية، فانواع الاستعارات التي مرت بك من قبل هي استعارات مفردة، ولذا فهي تسمى مجازاً مفرداً، ولذا يطلق بعضهم على الاستعارة التمثيلية اسم المجاز المركب.

الاستعارة التمثيلية إذن أن تشبه صورة بصورة لما بينهما من صلة من حيث المعنى ثم تحذف الصورة الأولى - المشبه - ويبقى المشبه به، خذ مثلاً قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة ١٨٩]، هدف الآية الكريمة - والله اعلم بمراده - توجيه للمسلمين أن لا ينشغلوا بغير ما يعود عليهم بالخير والفائدة، فلقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهلال ما باله يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يعود كما بدأ، فارشدهم الله تبارك وتعالى إلى أنه من الأحرى بهم أن يسألوا عما يجديهم، وأن يعيشوا مع واقعهم، وأن تكون للأمور اولوياتها، فقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ فقد شبهت حالة الذي يعنى بغير ما يجديه، وينشغل بغير واقعه، ويعطي الأولوية في البحث لما من شأنه التأخير، ويترك ما من شأنه أن يُبْحث،- كما هو شأن أمتنا اليوم - شُبِّه حال هذا بحال الذي يأتي البيت من ظهره، فهو مضطر أن ينقب ويخرب ليستطيع دخول البيت، وكان من حقه أن يلج البيت من بابه فهو أيسر من جهة، وليس فيه الضرر والخراب من جهة أخرى. فأنت ترى أنه قد

ذكر المشبه به وهو من يأتي البيت من ظهره ولا يأتيه من بابه وهو صورة مركبة، ألا ما أحْوَجَ أمتنا إلى أن تعمل بهذا التوجيه الرباني؛ حتى تستطيع أن تدرك غايتها وتلحق بالركب قبل أن يفوت الأوان، وتصلح من شأنها قبل أن يتسع الخرق على الراقع، ليتها تنبذ هذه الخلافات الجانبية التي لا أقول إنها لا تجديها شيئاً؛ بل إنها - ويعلم الله - تمزق ذاتها وتُطمع فيها عدوّها فتهون عليه بعد أن تهون على الله تعالى.

ومن الاستعارة التمثيلية قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين»(١) وقد قاله صلى الله عليه وسلم لأبي عَزَّةَ الشاعر، وقد كان يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فلما أُسِر أظهر الندم، فمنّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه عاد بعد ذلك إلى سيرته الأولى، فلما أُسِر المرة الثانية، رغب أن يُمَنَّ عليه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم هذا القول العظيم، الذي صار مثلاً يضرب.

تلك هي الاستعارة التمثيلية وهي مما اشتُهر على السنة الناس حتى أولئك الذين لم يدرسوا البلاغة أو الاستعارة أو المجاز، ألا تسمعهم يقولون لمن يزاول أمراً يمكن أن يكون فيه خطر عليه واضرار به «فلان يلعب بالنار»، ويقولون فيمن لا يسير على سنن أبيه في الصفات الطيبة «النار تخلف رماداً»، ويقولون في عكس هذا «من الشوك يُجنى الورد»، وفيمن يعمل عملاً لا طائل تحته «هو يحرث في البحر»، ويقولون في الخطأ يكون سببه كبير القوم: «إن التلْم الأعوج من الثور الكبير» يعنون الاعوجاج في حرث الأرض جاء من الثور الكبير لأنهم يحرثون على ثورين، ويقولون لمن باشر العمل بعد انتهائه «يحج والناس راجعون»، ويقولون لمن لا يسد غيرُهُ مسدَّه «إذا حضر الماء بطل التيمم».

والاستعارة التمثيلية يعدّونها من أكثر الاستعارات بلاغة وتأثيراً، وإذا اشتهرت صارت مثلاً، وحينئذ لا ينبغي أن يغيّر فيه شيء، والمثل هو ما شُبّه مَضْرِبُه بمورده أي تشبهُ الحالة التي ضرب لها بالحالة التي قيل فيها أول مرة، فإذا لم يحسن انسان عمله ولقي من جرّاء ذلك ضرراً، قيل له: «يداك أوْكَتا وَفُوكَ نفخ» والوكاء الربط، وهذه الجملة قيلت أول مرة لرجل ملأ قربته من الماء، وبعد أن نفخها وربطها لم يحسن ربطها فلما رفعها حُلّ رباطُها، وسقطت من يده، فابتغى المساعدة من بعض الناس فقيل له: «يداك اوكتا وفوك نفخ» أي: يداك ربطتا القربة وفمك نفخها، فأصبح مثلاً يضرب لكل من تشبه حالته حالة ذلك الشخص.

وهذا مثل آخر يضرب لمن فوت فرصة وضيع شيئاً كان ضمن إمكاناته: «الصيفَ ضَيَّعتِ اللبن» وقد قيل أول مرةٍ لامرأة تركت زوجها وأبت أن ترجع إليه، ولكنها فيما بعد أدركت ندمها وطلبت الرجوع، فقال لها: «الصيفَ ضيَّعْتِ اللبن» فأصبح يضرب مثلاً لكل من

---

(١) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) ٥/٢٢٧١، ومسلم - كتاب (الزهد) - باب (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) ٤/٢٩.

تشبه حالته حالة هذه المرأة، فإذا قيل لرجل أو رجال فإنه يقال كما ورد (بكسر التاء). ويقال لمن يظلم ظلماً مزدوجاً، ويحيف على الناس في أكثر من جهة «أَحَشَفَاً وسُوءَ كَيْلَه» وسببه أن بعضهم اشترى تمراً فأعطاه البائع تمراً رديئاً من جهة، ويخسه الكيل من جهة ثانية، فقال له «أحشفاً وسوء كيله» والحشف: التمر الرديء، فيضرب لكل من أشبهت حالته حالة ذلك الشخص.

ومن الاستعارة التمثيلية قولهم لمن يحاول شيئاً لا يستطيعه لعدم قدرته عليه «تبتغي الصيد في عريسة الأسد» وعريسة الأسد مكانه، ومن الاستعارة التمثيلية لمن عاد بعد سفر «عاد السيف إلى قِرابه»، ولمن وُسِّد إليه الأمر الذي يستحقه «أخذَ القوسَ باريها».

ومن الاستعارات التمثيلية قولهم: «فلان يرقم على الماء»، و «ينفخ في غير فحم»، و «يضرب في حديد بارد»، لمن يعمل العمل لا طائل تحته. ولا يُرجى منه خير.

ومن الاستعارة التمثيلية قولهم: «إنك لا تجني من الشوك العنب»، و «إنما تزرع ما تحصد»، شبهت حال من يريد الخير دون أن يعمل بأسبابه، ومن يرجو الشيء ممن ليس أهلاً له بحال من يريد عنباً من الشوك. ومنه قول الشاعر صالح بن عبد القدوس:

إذَا وَتَـرْتَ امْـرأً فَاحْـذَرْ عَدَاوَتَـهُ   مَنْ يَزْرَعِ الشَـوْكَ لاَ يَحْصُـدْ بِـهِ عِنَبَـاً

ومن الاستعارة التمثيلية قول الإمام الشافعي رضي الله عنه[1]:

أأَنْثُـرُ دُرَّاً بَيْـنَ سَارِحَـةِ الغَـنَـمْ   وأُنْشِـدُ مَنْظُـوماً لِرَاعِيَـةِ النَّعَـمْ

فقد شبه حال الذي يلقي الحِكم في غير أهلها، والعلم لمن لا يعرف قدره بمن ينثر الدر أمام الماشية، ومن الاستعارة التمثيلية ما يقال للحكيم يضع الأمور في نصابها «أصاب المحَزّ، وطَبَّقَ المفصل»، و «وضع الهَناءَ مواضع النَّقَب»، فقولهم: «أصاب المحز وطبق المفصل» يقال للجزار الذي يضرب بالسكين فيصيب بها المفصل الذي يسهل فيه الحزّ، وقولهم: «وضع الهناء موضع النقب» والهناء: القطران والنقب: جمع نقبة وهي محل الجرب في الإبل وهو داء يصيب الأنعام.

ومن الاستعارة التمثيلية قولهم: «قَبل الرِّماء تُملأ الكنائن» والكنانة هي ما توضع فيه السهام، فقد شبهوا حال الذي يريد أن يعمل عملاً قبل أن يعدّ له عدته بحال الذي يريد الرمي قبل أن يملأ كنانته بالسهام. ومن الاستعارة التمثيلية قولهم لمن قال قولاً حاسماً: «قطعتْ جَهِيزَةُ قولَ كلِّ خطيب» وقولهم:

إذا قَالَـت حَـذَامِ فَصَـدِّقُـوهَا   فَـإنَّ القَـوْلَ مَـا قَالَـتْ حَـذَامِ

---

(١) ديوان الشافعي ص ١١١.

وقولهم: «عندَ جهينةَ الخبرُ اليقين»، ومن الاستعارة التمثيلية قول المتنبي(١):

وَمَــنْ يَــكُ ذا فَــمٍ مُــرٍّ مَرِيــضٍ يَـجِــدْ مُــراً بِــهِ المَــاءَ الــزُّلالاَ

يقال لمن لا يفرق بين الجيّد والرديء، لأن المتنبي قاله لمن يعيبون عليه شعره.

وأظنك لا يعسر عليك بعد ما عرفت اجراء هذه الاستعارة، وأنت تجد أن المشبه فيها قد حذف، وذكر المشبه به حيث استعير لفظه للمشبه، ويمكنك أن تجعل من هذه الاستعارة قوله سبحانه: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد ٤]، فالمشبه اطفاء نار الكفر.

• هل هناك مجاز مركب غير الاستعارة؟؟

ونتساءل الآن، وقد عرفنا من قبل أن المجاز اللغوي إما أن يكون استعارة أو مجازاً مرسلاً، نتساءل: هل المجاز المركب في الاستعارة وحدها فحسب؟.

أكثر الكاتبين من الأقدمين يرون أن المجاز المركب كما يكون في الاستعارة يكون في المجاز المرسل كذلك، وإن كان كثير من المحدثين لا يشير إلى هذا الموضوع. فالمجاز المرسل عندهم قسمان: (مفرد): وهو الذي حدثناك عنه من قبل، (ومركب): ويعنون به كل جملة خرجت في معناها عن غرضها الأساسي، ولنرجع بك ولترجع أنت بذاكرتك كذلك إلى علم المعاني.

عرفت هناك أن الغرض الأساسي من إلقاء الخبر أمران اثنان: الفائدة، ولازم الفائدة(٢)، ولكنك عرفت أن هذا الخبر قد يخرج عن هذين الغرضين الأساسيين إلى أغراض كثيرة تُعرف من السياق، وقد ذكرنا لك هناك جملة من هذه الأغراض كالتحسر، والاستعطاف، واظهار الضعف إلى غير ذلك من الأغراض الكثيرة، فقوله سبحانه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم ٤]، وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ [آل عمران ٣٦]، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران ١٨٥]، هذه الجمل وأمثالها خرج الخبر فيها عن حقيقته، وكل جملة من هذا النوع استعملت في غير ما وضعت له لأن الخبر وضع للفائدة أو لازمها، فإذا دلَّ على شيء آخر، فإن هذه الدلالة لا تكون حقيقية، ألم نعرف المجاز بأنه استعمال اللفظ في غير ما وضع له؟ وهذه الجمل الخبرية استعملت في غير ما وضعت له، ومثل هذا الاستعمال يعدّونه مجازاً مرسلاً مركباً. ولما كان المجاز المرسل متعدد العلاقات - كما عرفت من قبل - فإن مثل هذه الجمل تكون العلاقة فيها اللزوميّة، لأن كلاً من التحسر، والضعف، والاستعطاف وما أشبهها لازم للخبر.

---

(١) ديوان المتنبي جـ٣، ص ٢٤٤، الزلال: العذب الصافي الذي يزل في الحلق.

(٢) راجع كتاب (البلاغة فنونها وافنانها) جـ١، ص٦٦ للمؤلف.

خلاصة القول: أن كل جملة خبرية لم يكن الغرض منها الفائدة أو لازمها هي مجاز مرسل مركب علاقته اللزومية، ولا تظنن هذا في الجمل الخبرية وحدها فهو في الجمل الانشائية كذلك، وقد عرفت من قبل أن الجمل الانشائية قد تخرج عن موضوعها الأساسي وغرضها الأصلي[1]. عرفت مثلاً: أن أدوات الاستفهام وهو من الانشاء قد تخرج إلى معانٍ كثيرة غير الاستفهام، وكذلك الأمر والنهي، والتمني والنداء، فأيُّ قسم خرج عن معناه الذي وضع له، وغرضه الذي سيق من أجله فهو مجاز مرسل مركب علاقته اللزومية، فإذا قصد من الاستفهام النفي أو التقرير أو التعجب أو أيّ غرضٍ آخر فهو مجاز مرسل مركب، وكذلك الأمر إذا قصد به التهديد، أو الارشاد أو التعجيز، فهو مجاز مرسل مركب. وقل هذا في أقسام الانشاء جميعها.

وعلى هذا تدرك أن قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة ٩١]، مجاز مرسل مركب علاقته اللزومية لأن صيغة الاستفهام خرجت عن حقيقتها التي وضعت لها إلى معنى آخر هو الأمر، لأن المعنى (إنْتَهُوا). وأن قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ [التوبة ١٣]، مجاز مرسل مركب لأن الاستفهام خرج عن حقيقته إلى شيء آخر وهو النهي، وأن قول أبي ريشة:

أُمَّتِي هَلْ لكِ بَينَ الأُمَمِ مِنْبَرٌ لِلسيْفِ أو لِلْقَلَمِ

مجاز مرسل مركب لأن أداة الاستفهام خرجت عن حقيقتها إلى معنىً آخر وهو التقريع. وأن قوله سبحانه: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت ٤٠]، مجاز مرسل مركب، لأن صيغة الأمر فيه خرجت عن مدلولها الذي وضعت له إلى معنىً آخر وهو التهديد، والعلاقة في هذا كله اللزومية، هذه المعاني الفرعية لازمة للمعاني الأصلية الرئيسة التي وضعت لها هذه الصيغ أعنى الاستفهام والأمر وغيرهما.

ومن هنا تدرك أن المجاز قسمان: مفرد ومركب، وكما قُسِّم المفرد إلى استعارة ومجاز مرسل، يقسم المركب أيضاً إلى استعارة ومجاز مرسل، إلا أن الاستعارة تسمى تمثيلية فهي فرع عن تشبيه التمثيل، والمجاز المرسل المركب لا يسمى كذلك، وأن هذا المجاز يكون في جملة خبرية أو انشائية خرجت عن معناها الأصلي. ولنعد الآن لنحدثك عما بقي من أقسام الاستعارة.

(١) راجع كتاب (البلاغة فنونها وأفنانها) جـ١ للمؤلف ص ١٠٢ وما بعدها.

التقسيم السابع: تقسيمها من حيث الجامع

الجامع في الاستعارة هو ذلك الذي سميناه وجه الشبه في التشبيه، وإنما كان جامعاً لأننا بوساطته استطعنا أن نجمع بين حقيقتين بعيدة كل منهما عن صاحبتها، وإلا فكيف استعرنا الصدع للتبليغ، والموج للحركة، والطغيان لارتفاع الماء، والشمس للحسناء، والسحاب للجواد، في كل من هذه الأمثلة حقيقتان أو شيئان متباعدان كالشق والتبليغ مثلاً، أو الشمس والحسناء، وهذا الجامع ينبغي أن يكون في المستعار منه وهو المشبه به أقوى منه في المستعار له وهو المشبه.

(١) وقد عرفت أن هذا الجامع قد يكون محسوساً إذا كان طرفا الاستعارة حسيين مثل قوله سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس ٣٧]، وقد يكون معقولاً كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الانبياء ١٨] كما مر معك من قبل فارجع إليها إن شئت.

(٢) كما أن هذا الجامع قد يكون داخلاً في مفهوم الطرفين اعني المستعار له والمستعار منه، وتسمى الاستعارة الداخلية، وقد لا يكون كذلك، بل يكون صفة مشتركة بينهما، ومثال هذا - اعني كونه صفة مشتركة - قولك: «رأيت أسداً يحمي شمساً من الذئاب» - فهذه استعارات ثلاث - فالجامع وهو الشجاعة في الاستعارة الأولى، والحسن في الاستعارة الثانية، والغدر في الثالثة. كل هذه صفات مشتركة بين طرفي الاستعارة، المستعار منه والمستعار له، فالشجاعة صفة مشتركة بين الأسد والرجل، كذلك الحسن بين الشمس والفتاة، والغدر بين الانسان وبين الذئب.

الجامع هنا ليس داخلاً في مفهوم أحد الطرفين، ولعلك تتساءل: ما معنى كونه ليس داخلاً في مفهوم أحد الطرفين؟ وإليك الجواب:

مفهوم أي شيء هو تعريفه وحقيقته، فمفهوم الإنسان الحيوان المفكر الناطق، أو الجسم الحسّاس المتحرك بالارادة، ومفهوم الأسد الحيوان المفترس، ومفهوم المسجد البناء المعدّ للعبادة، والجامع الذي ذكرناه في الأمثلة السابقة ليس داخلاً في مفهوم أي من الطرفين، فالشجاعة ليست داخلة في مفهوم الإنسان ولا الأسد، وكذلك الحُسن ليس داخلاً في مفهوم الشمس ولا المرأة، لأننا حينما نعرفهما لا نجد كلمة الحسن جزءاً من التعريف. وإذا عرفت هذا فلنرجع إلى القسم الأول وهو ما كان الجامع فيه داخلاً في طرفي الاستعارة.

استمع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف ١٦٨]، وإلى

قوله صلى الله عليه وسلم يبين لنا أن خير الناس: «رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إِلَيْها»[(١)]، وإلى قول الحماسي:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ   طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

ففي الآية الكريمة استعير التقطيع للتفريق، لأن المراد: (وفرقناهم في الأرض)، والجامع بين التقطيع والتفريق هو انفكاك الأجزاء بعضها عن بعض، وهو في التقطيع أشد وأقوى، وهذا الجامع تجده أمراً لا بد منه في مفهوم كل من التقطيع والتفريق، وإذا أردت أن تعرّف التقطيع، عرفته بأنه زوال الأجزاء بعضها عن بعض وكذلك التفريق.

وكذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم، استعير الطيران للعَدْو، والجامع وهو الاسراع في الحركة للوصول إلى الهدف داخل في مفهوم كل من الطيران والعَدْو، ويمكننا أن نجري هذا في قوله سبحانه: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ ١٩]، إذا فسرنا التمزيق بالتفريق.

(٣) وتنقسم الاستعارة باعتبار الجامع تقسيماً ثالثاً وهو الذي يعنينا أكثر من غيره لما له من أثر في الاستعارة وحسنها وجمالها، وهو تقسيمها من حيث الجامع إلى قريبة وبعيدة أو عاميّةٍ وخاصيّة، وبعضهم يطلق على القريبة: (المُبْتَذَلَة) وما نظن أن كل قريبة كذلك. ونرجع بك لتستذكر الحديث عن التشبيه حينما قسمناه إلى قريب وغريب وذكرنا أسباب الغرابة، وعلى ضوء ما قررناه هناك يمكنك أن تدرك أن كل استعارة لا يكون الجامع فيها أمراً يحتاج إلى تأمل، فهي استعارة قريبة كقولك: «رأيت شمساً»، و «وردت بحراً» وأن كل استعارةً كان الجامع فيها أمراً يحتاج إلى تأمل واستنتاج، فهي استعارة خاصية، يقول الشيخ عبد القاهر - رحمه الله -:

« اعلم أن من شأن هذه الأجناس أن تجري فيها الفضيلة وأن تتفاوت التفاوت الشديد، أفلا ترى في الاستعارة العاميَّ المبتذل كقولنا: «رأيت أسداً»، و «وردت بحراً»، و «لقيت بدراً» والخاصيَّ النادر الذي لا تجده إلا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه أفراد الرجال كقوله:

* وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأباطِحُ[(٢)] *

---

(١) رواه مسلم، كتاب الامارة، باب (فضل الجهاد والرباط) ٣/١٥٠٣. ممسك بعنان الفرس: أي متأهب ومنتظر وواقف بنفسه على الجهاد في سبيل الله. هيعة: الصوت عند حضور العدو.

(٢) هذا عجز بيت مختلف في نسبته وهو:

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا   وَسَالَت بِأَعْنَاقِ المَطي الأَبَاطَحُ

والمطي: جمع مطية وهي الدواب والأنعام، والأباطح: جمع بطحاء: وهي الأودية. فهو يقول: إن تلك الأودية لم يجر فيها الماء وإنما جرت فيها أعناق تلك المطي وعبّر بالأعناق كنايةً عن كثرتها وازدحامها وسرعتها في المشي.

أراد أنها سارت سيراً حثيثاً في غاية السرعة. وكانت سرعةً في لين وسلاسة كأنها كانت سيولاً وقعت في تلك الأباطح فجرت بها، ومثل هذه الاستعارة في الحسن واللطف وعلوِّ الطبقة في هذه اللفظة بعينها قول الآخر:

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الحَيِّ حِينَ دَعَا   أَنْصَارَهُ بِوُجُوهٍ كَالدَّنَانِيرِ[1]

أراد أنه مطاع في الحي، وأنهم يسرعون إلى نصرته، وأنه لا يدعوهم لحربٍ أو نازلِ خَطْبٍ، إلا أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه، حتى تجدهم كالسيول تجيء من ها هنا وها هنا، وتنصبُّ من هذا أو ذاك حتى يغص بها الوادي ويطفح منها.

ومن بديع الاستعارة ونادرها، إلا أن جهة الغرابة فيه غير جهتها في هذا، قول يزيد بن مسلمة بن عبد الملك[2] يصف فرساً له، بأنّهُ مؤدب وأنه إذا نزل عنه وألقى عنانه في قَرَبُوس[3] سرجه، وقف مكانه إلى أن يعود إليه:

عَوَّدْتُهُ فِيمَا أَزُورُ حَبَائِبِي   إِهْمَالَهُ وَكَذَاكَ كُلُّ مُخَاطِرِ
وإِذَا احْتَبى قَرَبُوسُهُ بِعَنَانِهِ   عَلَكَ الشَكِيمَ إِلى انْصِرَافِ الزَّائِرِ[4]

فالغرابة ها هنا في الشبه وفي أن استدرك أن هيئة العنان في موقعه من قربوس السرج، كالهيئة في موقع الثوب من ركبة المُحْتَبي، وليست الغرابة في قوله:

*** وسالت بأعناق المطي الأباطحُ ***

---

(١) بوجوه كالدنانير: أي مشرقةً متلألئة مسرورة وذلك من الثقة بشجاعتهم وزهواً بزعيمهم، ولو كانوا خائفين لجاؤوا متثاقلين بوجوهٍ باسرةٍ عليها غبرة الخوف وظلمة الكآبة.

(٢) لا يوجد ذكر لشاعر بهذا الاسم ولعل الصواب أنه لمحمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، انظر دلائل الإعجاز – تحقيق ياسين الأيوبي هامش ص ١٢١.

(٣) القربوس: هو حِنْو السرج، أي الأعواد المعوجة من عيدانه.

(٤) الاحتباء: هو أنَ يُشدَّ الرجل ركبيته إلى بطنه بنحو ثوبٍ يمتدُ من جانبيه إلى ظهره. ويحتمل أن يكون فاعل احتبى هو (القربوس) بتنزيله منزلة الرَجُل المحتبي، فكأن القربوس ضمَّ الفرسَ ورأسَهُ إليه بالعنان كما يضم المحتبي ركبتيه إليه، ويحتمل أن يكون (قربوسَه) مفعول (احتبى) مضمناً معنى (جمع)، ويكونُ الفاعلُ ضميراً عائداً على الفرس، والمعنى: جمع هذا الفرس قربوسه إليه بعنانه كما يضم المحتبي ركبتيه إليه بثوبٍ ونحوِه، والاحتمال الثاني اتمُّ وادخل في تحقيق التشابه؛ لأن القربوس في الهَيْئَةِ أعلى من فم الفرس، وهذه الحالة هي التي تنطَبقُ على حالة الاحتباء، إذ إن ركبتي المحتبي تكونان في الهيئةِ أعلى من ظهره، والعنان : اللجام، والشكيم والشكيمة: هي الحديدة المعترضة في فم الفرس، وقد أراد بالزائر نفسه، وإنما عبر عن نفسه بالزائر لدلالته على كمال تأدب فرسه. انظر: المنهاج الواضح / حامد عوني ٣/٢٤٢.

على هذه الجملة[١] وذلك أنه لم يُغْرِبْ لأنْ جعل المَطِيَّ في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأَبْطُح فإن هذا شَبَهٌ معروف ظاهر ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها بأن جعل (سال) فعلاً للأباطح، ثم عداه بالباء، ثم بأن ادخل الأعناق في البيت فقال: «بأعناق المطي» ولم يقل بالمطيّ ولو قال: سالت المطيّ في الأباطح، لم يكن شيئاً، وكذلك الغرابة في البيت الآخر ليس في مطلق معنى سال، ولكن في تعديته بعلى والباء، وبأن جعله فعلاً في قوله: «شعاب الحي» ولولا هذه الأمور كلها لم يكن هذا الحسن، وهذا موضع يدق الكلام فيه. وهذه أشياء من هذا الفن.

نَفْسِي فِداؤُكَ مَا ذَنْبِي فَأَعْتَذِرُ ... اليَومُ يَوْمَانِ مُذْ غُيِّبْتَ عَنْ بَصَرِي

لَقَدْ تَأَنَّقَ فِي مَكْرُوهِيَ القَدَرُ[٢] ... أُمْسِي وَأُصْبِحُ لاَ أَلْقَاكَ واحزَنَا

– سوارُ بن المضرَّب وهو لطيف جداً:

نَسِيمٌ لا يَرُوعُ التُرْبَ وانِ[٣] ... بِعَرْضِ تنُوفَةٍ للرِيِّحِ فيها

– بعض الأعراب[٤]:

تَقْذِي عُيُونُهُمُ بِهِتْرٍ هَاتِرِ ... وَلَرُبَّ خَصْمٍ جَاهِدِينَ ذَوِي شَذَا

وَخَسَأْتُ باطِلَهُم بحقٍّ ظَاهِرِ[٥] ... لُدٍّ ظَأَرْتُهُمُ على ما ساءَهُم

– ابن المعتز[٦]:

---

(١) أي على هذا النمط.

(٢) اليوم يومان: يريد أن طول اليوم تضاعف عليه لألم البُعد، تأنق في مكروهي القدرُ: أي تفنن في تعذيبي القدرُ، تأنق في الشيء: أي اتقنه وجوّده وتفنن فيه.

(٣) تنوفه: الأرض الواسعة البعيدة الأطراف التي لا ماء بها ولا أنيس، وانٍ: من الونى وهو الضعف أو التعب، فانظر كيف وصف النسيم بالضعف والتعب لأنه لا يثير التراب، وانظر إلى تعبيره عن اثارة التراب بـ (يروع).

(٤) وهو ثعلبة بن صغير ويقال: ابن أبي صغير، المفضليات رقم (٤).

(٥) الشذا: الحدة والأذى والشرّ، تقذي عيونهم: أي تقذف القذى وهو الوسخ الأبيض في مجرى الدمع. وهناك رواية (تقذي صدورهمُ) الهِتر: سقط القول وباطله. اللُدّ: جمع ألد وهو الشديد الخصومة، والظأر: أن تجعل أربع نياق فأكثر على حوار واحد ترضعه، يريد أنه جمع عليهم حججاً كثيرة، وفي كتب اللغة ظأره على ما يسوءه: أكرهه على الشيء وأصله: حَمْلُ الناقة على ارضاع حوار غيرها.

(٦) ديوانه (من الطرديات) ص ٢٧.

(٧) في الديوان: (حتى إذا ما عرف الصيد الضّار) أي الضاري: وهو الكلب ومعنى (انصار): أي انضم وانجمع أو مال، يصف بازي الصيد.

حتـى إذا ما عرف الصَّيْدَ انْصَـــــارْ   وأذِنَ الصــبــحُ لنــا فــي الإبــصارْ (٧)

المعنى: حتى إذا تهيأ لنا أن نبصر شيئاً، لما كان تعذر الإبصار منعاً من الليل، جعل امكانه عند ظهور الصبح اذناً من الصبح. وله[١]:

بَخِيـــلٌ قَـــدْ بُلِـــيــتُ بِـــهِ   يَكُـــدُّ الـوَعْـــدَ بالحُـــجَـــجِ[٢]

وله[٣]:

يُنَاجِينيَ الإخْلاَفُ مِـنْ تَحْـتِ مَطْـلِهِ   فَتَخْتَصِمُ الآمالُ واليَـأْسُ فـي صَـدْرِي[٤]

ومما هو في غاية الحسن - وهو من هذا الفن - قول الشاعر وأنشده الجاحظ[٥]:

لَقَـدْ كُنْـتَ فِـي قَـوْمٍ عَلَيْـكَ أشِحَّـةٍ   بِنَفْسِـكَ إلاّ أنَّ مَا طَـاحَ طَـائِـحُ

يَـوَدُّونَ لَوْ خَاطُـوا عَلَيْـكَ جُلُودَهُـمْ   وَلا تَـدْفَـعُ المَـوْتَ النُّفُـوسُ الشَحَائِـحُ[٦]

قال:

وإليه ذهب بشار في قوله[٧]:

وَصَاحِـبٍ كَـالـدُّمَّـلِ المُـمِـدّ   حَمَلْتُـهُ فِـي رُقْعَـةٍ مِـنْ جِلْـدِي

ومن سرِّ هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع، ترى لها في بعض ذلك ملاحة لا تجدها في الباقي، ومثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة (الجسر) في قول

(١) ديوانه ١/٣٣١.
(٢) يكد الوعد بالحجج: أي يدفع الوعد بايراد الحجج، وهناك رواية أخرى وهي:
بخيلٌ قد (شقيتُ) به   يكد الوعد (باللجج)
واللجج: هو التمادي في الناد.
(٣) ديوانه ٢/٢٥٩.
(٤) الاخلاف: اخلاف الوعد، المطل: المماطلة بالوعد وعدم الوفاء به.
(٥) البيان والتبيين ١/٥٠.
(٦) طاح: هلك، أي ما هلك، وقُدِّر له الهلاك فهو طائح؛ أي هالك لا محالة، لا يردُّ عنه الهلاك رادٌّ.
(٧) ديوانه ٢/٢٢٧، المُمِدّ: من أمد الجرح أي حصلت فيه المِدة وهي ما يجتمع في الجرح أو الدمل من قيح.
(٨) ديوانه ١/٢٠٠، والقصيدة في مدح المعتصم بالله، يجتاب: يقطع المسافة، واللجة: معظم الماء.

أبي تمام[8]:

لاَ يَطْمَعُ المَــرْءُ أنْ يَجْتَــابَ لُجَّتَـــهُ ... بِالقَوْلِ مَـا لَـمْ يَكُـنْ جِسْـراً لَـهُ العَمَــلُ

وقوله[1]:

بَصُـرْتَ بِالرَّاحَـةِ العُظْمَـى فَلَـمْ تَرَهَــا ... تُنَــالُ إلاَّ عَـلَـى جِسْـرٍ مِـنَ التَّعَـبِ

فترى له في الثاني حسناً لا تراه في الأول ثم تنظر إليها في قول ربيعة الرَّقّي[2]:

قُولِـي نَعَـمْ، وَنَعَـمْ إنْ قُلْـتِ وَاجِبَـةٌ ... قَـالَـتْ عَسَـى، وَعَسَـى جِسْرٌ إلـى نَـعَـمِ

فترى لها لطفاً وخلابة وحسناً ليس الفضل فيه بقليل.

ومما هو أصل في شرف الاستعارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصداً إلى أن يلحق الشكل بالشكل، وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد. مثاله قول امرئ القيس[3]:

فَقُلْـتُ لَـهُ لَمَّـا تَمَطَّـى بِصُلْبِـهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْـجَـازاً وَنَـاءَ بِـكَـلْـكَـلِ

لما جعل للّيل صلباً قد تمطى به ثنى ذلك فجعل له أعجازاً قد أردف بها الصلب، وثلث، فجعل له كلكلاً قد ناء به فاستوفى له جملة أركان الشخص وراعى ما يراه الناظر من سواده إذا نظر قدامه وإذا نظر إلى خلفه وإذا رفع البصر ومده في عرض الجو»[4].

ومن كلام الشيخ ندرك أن الاستعارة قد تكون قريبة من حيث الجامع، ولكن مجيئها على نظم مخصوص يكسبها جمالاً وروعة، ويزيدها حسناً وابداعاً، وقد مثل الشيخ بما سمعت من قبل. * وسالت بأعناق المطيِّ الأباطح * وبقول الآخر:

سَالَتْ عَلَيْـهِ شِعَـابُ الحَـيِّ حِـينَ دَعَـا ... أَنْصَـارَهُ بِوُجُـوهٍ كَالـدَّنَـانِـيـرِ

وأنت تعلم أن استعارة السيل لسرعة السير أمر مألوف ومعروف، ولكن القالب الذي وضعت فيه الاستعارةُ أكسبها هذه القشابةَ[5] والطلاوة، فلم يقل سالت المطيُّ بالأباطح، ولم

---

(١) ديوانه ١٧/١، والقصيدة في مدح المعتصم أيضاً.

(٢) ديوانه ص ٩١.

(٣) سبق شرح البيت ص ١٢٣.

(٤) دلائل الإعجاز ص ١١٧

(٥) القشيب: الشيء الجديد النظيف الحسن.

يقل * سال عليه أنصاره * ولو قيل هذا لكانت الاستعارة قريبة ليس فيها رَوْج حسنٍ ولا ريح عطر، ولكنه أسند السيل للأباطح مع أنه حريٌ به أن يسند للمطي، ثم ذكر كلمة الأعناق وهي لفتة من الشيخ أفاد منها كل من جاء بعده.

وقد تكون الاستعارة قريبةً كذلك، إلا أنها تتضمن معنىً لتصبح ذات غرابة فتدخل في سلك الاستعارات البعيدة الخاصة. انظر إلى قول المتنبي[(١)]:

لم تَلْقَ هذا الوَجْهَ شَمْسُ نَهارِنَا   إلاّ بِوَجْهٍ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءُ

ألا ترى أن قوله «ليس فيه حياء» هو الذي خلع على هذا البيت الحياة.

والخلاصة أن الاستعارة الخاصة هي التي يبدع فيها المتكلم، فيجمع بين الأشياء التي تكون أكثر غرابة، انظر إلى قول كثيّر يمدح عبد العزيز بن مروان[(٢)]:

غَمْرُ الرِّدَاءِ إذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكَاً   غَلِقَتْ لِضِحْكَتِهِ رِقَابُ المَالِ

ألا ترى أن استعارة الرداء للعطاء لا يفطن لها كل واحد، فكما أن الرداء يستر صاحبه ويقيه كل شر؛ فإن العطاء كذلك يردّ عنه كثيراً من المثالب.

ومن الاستعارات البديعة الغريبة ما ذكره صاحب العمدة لِطُفَيْل الغَنْوي، وهو ممن اعجب به أئمة اللغة كثعلب وغيره[(٣)]:

فَوَضَعْتُ رَحْلِي فَوْقَ نَاجِيَةٍ   يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنَامِهَا الرَّحْلُ

وفي رواية (جَعَلْتُ كُورِي فَوْقَ نَاجِيةٍ)، والناجية الناقة السريعة، وهو كناية عن أنه كثير الأسفار لا يريح ناقته أبداً، والاستعارة التي تعنينا في قوله «يقتات شحم سنامها الرحلُ»، أن وجود الرحل على الناقة دائماً ينتقص من شحم سنامها، ذلك لما في كثرة السفر وطوله من المشقة على الناقة، فعبر عن انتقاص الرحل من الشحم بالاقتيات، فشبه الانتقاص بالاقتيات لأن في كليهما إزالة، فالإقتيات فيه إزالة للقوت، وكذلك الانتقاص، ثم اشتق من الاقتيات (يقتات) بمعنى (ينتقص)، وهي استعارة تصريحية تبعية كما عرفت، ولك أن تجري الاستعارة

---

(١) ديوان المتنبي ١/١٥٥، يقول: لا حاجة للشمس مع ضيائك ونورك، ومن ثم كان طلوعها وقاحةً منها وقلة حياء، واستعار للشمس وجهاً للمشاكلة.

(٢) شروح التلخيص ٤/٣٥٥، الإيضاح ٢/١٧١، غمرُ الرداء: كناية عن الكرم وسعة الفضل، غلقت: أي استحقت لسواه كما يقال: (غلق الرهن) أي أصبح المرهون حقاً للراهن، رقاب المال: أي ازمّتها، فقد شبهها بالماشية، والمعنى (أن من كرمه أن مجرد ابتسامة في وجه من يسأله تكفي لأن يصبح المال حقاً للسائل.

(٣) العمدة لابن رشيق ١/٢٧٤.

بوجه آخر، وهو أن يشبه الرحل بذي حياة، ويحذف المشبه به ويرمز له بشيء من لوازمه وهو (يقتات) على سبيل الاستعارة الأصلية المكنية، واسناد الاقتيات إلى الرحل استعارة تخييلية، فانظر أي الطريقين تبتهج بها نفسك ولا تنس القاعدة التي أرشدتك إليها من قبل.

- وفي هذا المعنى يقول كلثوم بن عمرو العتابي:

وَمِـــنْ فَــوْقِ أَكْـوَارِ المَهَــارى لُبَــانَـــةٌ أَحَـــلَّ لَهَـــا أَكْـــلَ الـــذُرى وَالغَـــوَارِبِ[1]

والذرى والغوارب: جمع ذروة، وغارب: ومنه المثَل: «لا زال يفتل له في الذروة والغارب» وهو مثل يضرب لمن يتصنع ويتلطف لإنسانٍ ما حتى يبلغ حاجته منه، شبهت حاله بحال من يتلطف للبعير حتى يذلله، فهي استعارة تمثيلية.

وشبيه به قول أبي تمام[2]:

فَقَــدْ أَكَلُـوا مِنْهَــا الغَــوَارِبَ بِالسُّـــرى فَصَـــارَتْ لَـهَـــا أَشْبَاحُهُــمْ كَـــالـغَوَارِبِ

وزاد أبو تمام على صاحبيه تشبيهاً بديعاً كما رأيت.

ومن الاستعارة الخاصية قول الشاعر:

عَــزَمَاتُـــــهُ مِثْـــلُ النُّجُـــومِ ثَوَاقِبَـــاً لَـــوْ لَـمْ يَكُــنْ للثـــاقِــبَـــاتِ أُفُـــولُ[3]

«فإن تشبيه العزم بالنجوم في الثقوب - وهو النفوذ - مبتذلٌ قريب ولكن وصف الأفول وعروضه للثاقبات دون العزمات، وما في ذلك من الدلالة على أن المشبه اتم من المشبه به في وجه الشبه. أبْرَزَ التشبيه في صورة ممتعةٍ وكساه خيالاً بديعاً رائعاً»[4].

ويُعد من هذا الضرب قولُ أبي دلامة يصف بغلته[5]:

أرى الشَهْــبَـــاءَ تَعْجِـــنُ إذْ غَــدَوْنَـــا بِرِجْلَيْـــهَـــا وَتَـــخْبِـــزُ باليَـــدَيْـــنِ

«شبه حركة رجليها حيثُ لم تثبتا على موضع تعتمدُ بهما عليه، وهوتا ذاهبتين نحو

(١) المرجع السابق، أكوار: جمع كُوْر: وهو القطيع من الإبل أو البقر المهارى: وفي رواية المطايا، لبانةٌ: الحاجة من غير فاقة الذرى: جمع ذروة: وهي أعلى السنام، الغوارب: جمع غارب: وهو السنام.

(٢) ديوان أبي تمام ٢٠٩/١ والبيت من قصيدة في مدح أبي دلف القاسم العجلي، الغوارب: مرّ في البيت السابق. يقول: إنهم ارهقوا المطايا وأنهكوها في السير حتى ذابت اسنمتها وبدوا وهم على متونها كأنهم أسنمةٌ لها.

(٣) عزماته: جمع عزمة وهي التصحيح والعزم، الثواقب: النوافذ في الظلمات، الأفول: الغروب، وجواب الشرط محذوف تقديره: (لتم التشبيه).

(٤) المنهاج الواضح / حامد عوني ١٥٩/٣.

(٥) شروح الايضاح ٣٩/٥.

(٦) أسرار البلاغة ص ٢٣٠

يديها بحركة يدي العاجن فإنهما لا تثبتان في موضع بل تَزِلّان إلى قُدّام لرخاوة العجين، وشبه حركة يديها بحركة يدي الخابز، فإنه يثني يده نحو بطنه، ويحدث فيها ضرباً من التقويس»(٦).

وبالجملة فإن في ثنايا تراثنا الأدبي كثيراً من هذه الاستعارات البديعة ونرجوا أن يكون ما ذكرناه نافعاً لك، ودافعاً يدفعك للتنقيب ويدفع عنك التثريب.

لاَ تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

التقسيم الثامن: تقسيم الاستعارة باعتبار الملائم إلى مرشَّحة ومجرَّدة ومطلقة

هذا التقسيم للاستعارة ليس باعتبار أحد أجزائها، وليس باعتبار الطرفين، وليس باعتبار الجامع كذلك، وإنما هو باعتبار ما يناسب ويلائم أحد طرفي الاستعارة – اعني المستعار له أو المستعار منه –، ولذا آثرت تأخير هذا التقسيم، لأنه يتعلق بشيء خارج أركان الاستعارة وعناصرها، وهو مما يدق مسلكه، لذا أرجو أن تتنبه له فتُجِدَّ له سيرك، وتُكِدَّ له فكرك وهو حري بذلك كله.

عرفت أن أركان الاستعارة المستعار والمستعار منه والمستعار له، فالمستعار هو لفظ المشبه به، والمستعار منه معناه، والمستعار له هو المشبه وإذا نظرت إلى أي استعارة ما، سواء كان مما ذكرناه لك، أم مما لم يذكر فإنك ستجد أنها قد يذكر معها ما يناسب المشبه به – أعني المستعار والمستعار منه –، أو ما يناسب المشبه وهو المستعار له، بيان ذلك:

إن الاستعارة جمعت بين حقيقتين مختلفتين، وكل منهما لها أوصاف خاصة بها، فالمستعار له، له أوصاف تختص به لا يتصف بها المستعار منه، كذلك المستعارُ منه يتصف بأوصافٍ لا يمكن أن يتصف بها المستعار له، إذا قلت «رأيت بحراً» فالمستعار وهو البحر له أوصاف خاصة به كتلاطم الأمواج، واللجة، والساحل، والعمق، وكثرة الدرّ، والمستعار له وهو الانسان له أوصاف خاصة به كذلك كالمشي، والعطاء باليدين، والابتسام. وإذا قلت: «رأيت أسداً» فإن المستعار وهو الأسد له أوصافه الخاصة به كالزئير، وتلبد الشعر، وطول الأظفار. وللمستعار له أوصاف خاصة به كذلك، كالضرب بالسيف، والرمي بالنبال، وحمل السلاح، وإذا قلت: «رأيت شمساً» فإن المستعار وهو الشمس له أوصافه الخاصة به كالتوهج والرفعة، والمستعار له، له أوصافه كذلك كالتبسم والمشي والحياء.

ومما ييسر لك هذا الأمر أن نذكرك بقرينة الاستعارة وبخاصة في قسميها التصريحية والمكنية، إن أي استعارة تصريحية إذا بحثت عن قرينتها فإن هذه القرينة هي مما يلائم

المشبه ويناسبه، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف ٩٩]، هذه استعارة تصريحية، لأنه شبه اضطراب يأجوج ومأجوج بالموج، وإذا بحثت عن قرينة هذه الاستعارة فلن تجدها إلا كلمة (بعضهم) و (في بعض) وأظنك لا ترتاب بأن هذا يلائم المشبه ولا يلائم المشبه به.

وإذا نظرت إلى قوله:

* شمس تظللني من الشمس *

فإن القرينة هنا (تظللني) وهي مما يلائم المشبه، وإذا قرأت قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة ١٦]، فهذه استعارة تصريحية لأنه شبه الاستبدال بالاشتراء، والقرينة (الضلالة) وهي مما يلائم المشبه، وأخيراً:

* فقلت إليكَ إن مَعي السَّحابا *

استعارة تصريحية والقرينة (معي) وهي تلائم المشبه.

أما الاستعارة المكنية فلقد عرفت أنها هي التي يحذف منها المشبه به، ويرمز له بشيء من لوازمه، فالقرينة في الاستعارة المكنية تلائم المشبه به. ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء ٢٤]، وقوله: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة ٢٧]، وقول الشاعر:

* وإذا المنيّة انشبت أظفارها *

وقد ذكرنا لك هذا من قبل.

قرينة الاستعارة التصريحية تلائم المشبه إذن، وقرينة الاستعارة المكنية تلائم المشبه به، إلا أننا في تقسيمنا هذا نبحث عن شيء غير القرينة زائد عليها، فهم يقسمون الاستعارة بعد استيفاء قرينتها إلى مرشحة ومجردة ومطلقة، ذلك أن الاستعارة إذا ذكر معها ما يلائم ويناسب المشبه به فهي المرشحة أو الموشحة، والترشيح هو التقوية، يقال: رشّحت الصبي باللبن إذا قويته، وإنما كانت كذلك، لأن الاستعارة قائمة على تناسي التشبيه، وأنت تستعير لفظ المشبه به للمشبه، فإذا ذكرت معها ما يلائم المشبه به فقد زدتها قوة لأنك تناسيت المشبه تناسياً تاماً. أما إذا ذكر مع الاستعارة ما يلائم المشبه فهي استعارة مجردة لأنك جردتها مما يناسب المشبه به، ونزلت بها عن رتبتها السابقة بذكرك معها ما يلائم المشبه، فكأنك تشير إليه وتذكّر به من نسيهُ. أما إذا لم يذكر معها شيء من هذين - أي ما يلائم المشبه به أو المشبه -

فهي الاستعارة المطلقة، وإنما كانت مطلقة لخلوها عن الترشيح والتجريد، وهناك حالة ثانية للمطلقة كذلك، وهي أن يُذكر معها الأمران، أي ما يلائم المشبه به وما يلائم المشبه، ومن هنا تدرك أن قرينة الاستعارة التصريحية، وإن كانت تلائم المشبه إلا أن الاستعارة لا تسمى مجردة، وأن قرينة الاستعارة المكنية وإن كانت تلائم المشبه به إلا أن الاستعارة لا تسمى مرشحة، لأن الترشيح والتجريد لا يكون لهما دور إلا بعد أن تستوفي الاستعارة قرينتها. وأعلى هذه المراتب الترشيح ثم الاطلاق وأضعفها التجريد لما عرفت من قبل.

خلاصة القول أن الاستعارة تنقسم إلى مرشحة ومجردة ومطلقة، فالمرشحة ما ذكر معها ما يلائم المشبه به، والمجردة ما ذكر معها ما يلائم المشبه، والمطلقة ما لم يذكر معها شيء، أو ذكر الملائمان معاً، والترشيح والتجريد لا يكونان إلا بعد أن تستوفي الاستعارة قرينتها. وأظنك قد استَوعبت هذا كله من الناحية النظرية ولتُعِدَّ نفسك الآن لتقطف ثمرة هذا الغرس بما ستتذوقه من الناحية التطبيقية العملية.

أولاً: الاستعارة المرشحة:

(١) قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة ٦] هذه استعارة تصريحية - كما عرفت من قبل -، فقد استعير الصراط للإسلام، والقرينة طلب الهداية من الله، أما كلمة مستقيم فإنها تناسب الطريق وتلائمه، إذن ذِكْر الاستقامة ترشيح للاستعارة.

(٢) قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة ١٦]، استعير الشراء للاستبدال - كما عرفت من قبل - على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة الضلالة، لأنها تستبدل ولا تُشترى. بقي قوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ وهذا الوصف يناسب المستعار وهو الاشتراء، الاستعارة مرشحة إذن.

(٣) قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء ١٨]، والقذف والدمغ مستعاران - كما عرفت من قبل - لغلبة الحق وذهاب الباطل، وقوله سبحانه: ﴿فإذا هو زاهق﴾ يلائم المشبه به فالاستعارة مرشحة.

---

(١) ديوان الهذليين / القسم الثاني ص ١٥٠.

(٤) قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا...﴾ [الملك ١٥]، حيث شُبهت الأرض بالحيوان، ثم ذكرت المناكب وهي للحيوان، وليس الترشيح إلا هذا.

(٥) قال أحد الصعاليك وهو أبو خراش وله قصة معروفة[١]:

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بِالرِّقَابِ السَّلاسِلُ

وقد كان بينه وبين هذه المرأة صلة في الجاهلية فلما أسلم بيَّن لها أن الأمر قد تغير، وأن الإسلام قد حال بينه وبين الفحش والرذيلة، فشبه الإسلام بالسلاسل، وحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية، والقرينة معنوية بالطبع، وذكر الاحاطة بالرقاب مما يلائم المشبه به وهي السلاسل، وهكذا ندرك أن الاستعارة مرشحة.

(٦) قال البحتري:

وَأَرَى المَنَايَا إِنْ رَأَتْ بِكَ شَيْبَةً ... جَعَلَتْكَ مَرْمَى نَبْلِهَا المُتَوَاتِرِ

فقد شبه المنايا بالانسان، القرينة (أرى) لأن المنايا لا تُرى كما تعلم، وقوله: «مرمى نبلها» شيء يلائم المشبه به، لأن الانسان هو الذي يُرمى بالنبل فهي استعارة مرشحة.

(٧) وقال السريّ الرَّفَّاء[١]:

وَقَدْ كَتَبَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ صَحَائِفاً ... كَأَنَّ سُطُورَ البَرْقِ حُسْناً سُطُورُهَا

فهذه استعارةٌ مكنية حيث شبه الربيع بالانسان، ورمز له بشيء من لوازمه وهي الأيدي، واضافتها للربيع على سبيل الاستعارة التخييلية والتخييلية قرينة المكنية - كما عرفت من قبل - وقوله صحائف ترشيح لأنه يلائم المشبه به وهو الانسان.

(٨) وأظنك لو تأملت قول المتنبي[٢]:

أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فِي شَبِيبَتِهِ ... فَسَرَّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى هَرَمِ

أدركت أن فيه استعارة مرشحة حيث شبه الزمان بانسان، وقد استوفت الاستعارة قرينتها وهي في قوله: «أتى الزمان بنوة» ثم ذكر الشبيبة والهرم، وهي تلائم المشبه به.

---

(١) ديوان السري الرفاء ص ٢٣٣.

(٢) ديوان المتنبي ٤/٢٩٦.

(٣) ديوان أبي تمام ٢/٢٧٥، والقصيدة في مدح أبي دلف.

(٩) كذلك قول أبي تمام(٢):

نامَتْ هُمُومـــيَ عَنّـــي حِـــينَ قُلْـــتُ لَهَـــا   هذا أَبُـــو دُلَـــفٍ حَسْبِي بِـــــهِ وَكَفَـــى

تجد فيه استعارة مرشحة كذلك، حيث شبه الهموم بانسان، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو قوله (نامت) وهذا الفعل هو قرينة الاستعارة المكنية، فقد استوفت الاستعارة قرينتها كما رأيت. أما قوله: «فقلت لها» فهو يلائم المشبه به، لأن الهموم لا تخاطب فالاستعارة مرشحة.

ثانياً: الاستعارة المجردة:

(١) قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات ٤١]، شبه الريح الذي ليس فيه مطر بالمرأة التي لا تلد، فلفظ العقم خاص بالمرأة وقد استعير للريح، والاستعارة تصريحية وقد استوفت قرينتها، ثم قال سبحانه: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات ٤٢]، وهذا وصف يناسب الريح ويلائمها، فقد ذكر في هذه الاستعارة ما يلائم المشبه فهي مجردة.

(٢) قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ [الحاقة ٦]، فقد شبهت الشدة بالعتو، فالاستعارة تصريحية، ثم قال: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾ وهذا يناسب الشدة ويلائمها، فالاستعارة مجردة.

(٣) قال سبحانه: ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل ١١٢]، فقد شبه الجوع وما يتركه من أثر في النفس باللباس الذي يحيط بالجسم كله، والاذاقة تلائم المشبه وهو الجوع، فالاستعارة مجردة، ولو قال كساها الله لكانت مرشحة، لأن الكسوة مما يناسب اللباس، وسيأتيك عن هذه الاستعارة البديعة مزيد تفصيل.

(٤) قال أحد شعراء الجاهلية(١):

---

(١) شرح ديوان الحماسة.

(٢) ديوان المتنبي ٣٤٩/٣، أن عزم: أي لأجل أن عزم.

دَعَوْتُ بَنِي قَيْسٍ إِلَيَّ فَشَمَّرَتْ   خَنَاذِيذُ مِنْ سَعْدٍ طِوالُ السَّواعِدِ

فقد استعار الخناذيذ، وهي كرام الخيل لكرام الرجال، وذكر التشمير وهو مما يلائم المشبه وهم الرجال.

(٥) قال المتنبي[٢]:

فِي الخَدِّ أَنْ عَزَمَ الخَلِيطُ رَحِيلاً   مَطَرٌ تَزِيدُ بِهِ الخُدُودُ مُحُولا

المستعار المطر، والمستعار له الدمع، والقرينة قوله: «في الخدّ»، ثم قال: «تزيد به الخدود محولا» وهذا مما لا شك يناسب الدمع ويلائمه، ولما كان الدمع هو المشبه كانت الاستعارة مجردة.

(٦) وقال المتنبي[١]:

وَحَجَّبَتِ النَّوى الظُّبْيَاتِ عَنِّي   فَسَاعَدَتِ البَراقِعَ والحِجَالا[٢]

المستعار الظبيات، والمستعار له الحسناوات، وقد استوفت الاستعارة قرينتها في قوله: (وحجَّبت النوى)، وذكر البراقع والحجال يناسب المشبه ويلائمه، لأن البراقع والحجال ليست من صفات الظباء، الاستعارة إذن مجردة.

(٧) وقال سعيدُ بن حُميد[٣]:

وَعَدَ البَدْرُ بِالزِّيَارَةِ لَيْلاً   فَإِذا مَا وَفَى قَضَيْتُ نُذُورِي

المستعار البدر والمستعار له المرأة الواعدة، وقد استوفت الاستعارة قرينتها، وهي قوله «في الزيارة» ثم قال: «إذا وفى» وهذا وصف يلائم المشبه فالاستعارة مجردة.

ثالثاً: الاستعارة المطلقة:

وقد عرفت أن المطلقة قسمان ما لا يذكر معه شيء مما يلائم المشبه أو المشبه به، أو ما يذكران فيهما معاً، وسنمثل لك لكل واحد من هذين على حدة، فمن القسم الأول الذي لم يذكر فيه شيء مما يلائم المشبه والمشبه به.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة ١١]، وقوله سبحانه:

---

(١) ديوان المتنبي ٣/٣٢٨.

(٢)النوى: البعد والفراق، الحجال: الخدور. يقول: لما ارتحلوا احجبتهم عن عيني، فساعدت النوى ما كان يحجبهن عني من قبل من البراقع والخدور.

(٣) طبقات ابن المعتز ٢٠٠ – ٢٠١، أسرار البلاغة ص ٢٩١.

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم ١]، وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء ٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف ١٥٤].

قال قُرَيْط بن أُنَيْف:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ ... طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

وهذه استعارة مطلقة فقد شبه الشر بالسبع، والقرينة أبدى ناجذيه ولم يذكر في البيت شيء يلائم المستعار أو المستعار له.

القسم الثاني: ولنمثل لك للاستعارة المطلقة التي ذكر فيها ما يلائم الطرفين:

تقول: «تعال إلى بحرٍ يُغرق من يعانده ويرفق بمن يسانده» فقولنا يغرق يناسب المستعار وقولنا يرفق يناسب المُستعار له، وقال بدر بن يوسف الذهبي:

هَلُمَّ يَا صَاحِ إِلَى رَوْضَةٍ ... يَجْلُو بِهَا العَانِي صَدَا هَمِّهِ

نَسِيمُهَا يَعْثُرُ فِي ذَيْلِهِ ... وَزَهْرُهَا يَضْحَكُ فِي كُمِّهِ

في قوله: «همه» استعارة مكنية شبه فيها الهم بمعدن يصدأ، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو صدأ، والقرينة اثبات الصدأ لِلْهَمِّ، و(العاني) يناسب المشبه، و (يجلو) يناسب المشبه به، فالاستعارة مطلقة.

وقال زهير بن أبي سلمى(١):

فَشَدَّ وَلَمْ يُفْزِعْ بُيُوتاً كَثِيرَةً ... لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

ففي البيت الثاني استعارة مطلقة، فإن قوله شاكي السلاح ملائم للمستعار له لأن الأسد ليست له هذه الصفة، وقوله: «له لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّم»، يلائم المستعار لأن هذه من خصائص الأسد، ومثله قول الآخر(٢):

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ رِيشُهُ الكُحْلُ لَمْ يَضُرْ ... ظَوَاهِرَ جِلْدِي وَهْوَ لِلْقَلْبِ جَارِحُ

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٢٨، فشدّ: الشّدّة - الحملة، أم قشعم: كنية المنية، يقولُ واصفاً حصين: (فحمل حصين على الرجل الذي أراد قتله بأخيه، ولم يخف بيوتاً كثيرةً؛ أي لم يتعرض لغيره عند ملقى رحل المنية.
شاكي السلاح: أي كامل السلاح (من الشوكة وهي العدة)، مُقذَّف: أي يُقذَفُ به كثيراً إلى الوقائع، اللبَد: جمع لبدة الأسد وهي ما تلبد من شعره، اظفاره لم تقلّم: يريد أنه لا يعتريه عيبٌ ولا ضعف.
(٢) الطراز ٢٣٧/١.

الاستعارة في كتاب الله

ليس غرضنا في هذا البحث أن نحدثك عن أقسام الاستعارة في الآيات الكريمة، فلقد مر معنا الكثير من ذلك، وإنما غرضنا أن نلقي الضوء ما استطعنا على خصائص الاستعارة القرآنية ومميزاتها، وما فيها من مقومات الحس وعناصر الجمال، ولقد حاول بعض الكاتبين قدامى ومحدثين - مشكورين - أن يبرزوا بعض هذه الخصائص، فمن القدامى الرماني في رسالته (النُكَت في إعجاز القرآن)، ومن المحدثين الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه (من بلاغة القرآن) وسنطلعك على طرف من كل منهما فيما بعد إن شاء الله.

وأول ما نبادرك به القول، أن من أول خصائص الاستعارة القرآنية: حسن التصوير، فليست الاستعارة مجرد كلمة استعملت في غير ما وضعت له، ولكنها مع هذا تبرز لك المعنى المتحدث عنهُ بصورة خلابة جذابة، تجسم لك المعنى وتشخصه، فتنتشر ظلاله في النفس فيحدث في جوانبها حركة حيّةً، ترهف الحسَ، ولكي تستكمل هذه الصورة عناصرها، لا بدّ من عنصر آخر في الاستعارة القرآنية، ونعني بهذا العنصر اختيار الكلمات لتكون قوالب لهذه الاستعارات، فهذه الألفاظ، ألفاظ منتقاة مختارة، لا يمكن أن يسدَّ غيرها مسدها مهما بذل في سبيل ذلك من محاولات.

واختيار اللفظة اختياراً موضوعياً، نتج عنه عنصر ثالث من جمال العناصر في هذه الاستعارة، ونعني به الايجاز، ذلك لأن اللفظة المختارة يستقل بها المعنى فلا يكون فضفاضاً، كما أنها تكون مستقرةً في مكانها ليست قلقة ولا مضطربة، ومن هنا جاء الايجاز، إذ المعنى المراد المعبر عنه بهذه اللفظة لا يمكن أن يستوفى بمثلها من الألفاظ، فإذا أردت أن تغيرها فأنت بحاجة إلى ألفاظ كثيرة، وقد لا تسد هذه الألفاظ مسدها كذلك. وهناك عنصر جمالي آخر للاستعارة القرآنية يتصل بالنظم، فإذا كانت العناصر السابقة تخص اللفظة المفردة، فإن هذا العنصر يتصلُ بالجملة التي ركبت فيها الاستعارة.

هذا كله مما يتصلُ بجمال الصورة ودقة اللفظ، وإحكامه، وهناك أمرٌ آخرُ تختصُ به الاستعارة القرآنية جديرٌ بالإعجاب؛ ذلكم هو المعنى والمضمون الذي يتصل بموضوع الآية الكريمة، وهذه الخصائص التي حدثتك عنها حديثاً موجزاً، مما يتصلُ باللفظ والمعنى والشكل والمضمون، سيأتيك خبرها مفصلاً، فأعدَّ لها نفسك وعقلك وحسك، ومن الله العصمة، وعليه التكلان.

بَصَائِرُ يَجْتليها كلُّ ذِي بَصَرٍ   وَحِكْمَةٌ يَجْتَليها كُلُّ ذِي أَدَبِ

(١) قال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء ١٨]، والاستعارة - كما مرَ معك - في كلمتي القَذَف والدمغ، واختيار هاتين الكلمتين منتهى

الإعجاز لما فيه من قيمٍ فذة، فالقذف هو الإلقاء بقوة، ولكنه القاء ما هو ضخم وكبير، والدمغ هو كسر الدماغ الذي تزول به الحياة، القذف إذن لا بد فيه من عنصرين، أحدهما: يتصل بالقاذف؛ وهو أن يكون ذا حزم وعزيمة، والآخر يتصل بالمقذوف؛ وهو أن يكون ضخماً عظيماً.

اختيار الكلمتين إذن فيه ايجاز واختصار - كما رأيت - ولكن ليس هذا فحسب، ألا ترى أن في اختيار الكلمتين كذلك بعثاً للقوة في نفوس المؤمنين لكي يكونوا ذوي بأس، هذا من جهة وارشادهم من جهة ثانية كيف يصوّبون سهامهم حتى يصيبوا من عدوهم مقتلاً، لذا أوثرت كلمة (الدمغ)، فقد تكسر رِجْل عدوك أو يده، وقد تصيب أي موضعٍ من جسمه، لكنّ ذلك كله لا يحول بينه وبين أن يرد عليك سهامك في نحرك، لا يحولُ بينه وبين أن يوقعك في مصائده، لأن اصاباتك التي اصبته بها لم تَحُلْ بينه وبين أن يستغرق في تفكيره ومكره ليرد لك الكيلَ كيلين، أظن أنك أدركت الآن، بل أقول تذوقت هذا الأثر الذي تَرَكَتْه كلمة (الدمغ) في نفسك، هكذا تعلمنا هذه الاستعارة القرآنية كيف نحكم الخناق على عدونا، حتى لا تمكنه فرصته ولا تذهب غصته. ثم قف أمام هذه الصورة الموحية المُحَسَّة مرة أخرى وانظر إلى النظم الذي رتبت فيه، (نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) فانظر إلى موقع (الباء) وموقع (على)، وإلى هذه الفاءات المتعاقبة، وانظر إلى ما تفيده من الاستعلاء والسرعة، سرعة ازهاق الباطل كأنه لا يجد الفرصة التي يستطيع فيها أن يملك أنفاسه أو يستجمع قواه، ليست القضيةُ - إذن - قضية استعارة فحسب.

(٢) قال سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر ٩٤]، عرفت نوع الاستعارة من قبل، ولكننا نود هنا أن نقف عند اختيار هذه الكلمة، لندرك ما تحمله حروفها من معنىً، ولا تنس أن الآية مكية التنزل، وأنت تعلم ما في الصدع - وهو الشق للأشياء الصلبة -، ما فيه من مشقةٍ وكسرٍ، ألا ترى أن اللفظة الكريمة تشعر المسلمين بعظم الرسالة والمسؤولية الملقاة على عواتقهم، وما ينبغي أن يقوموا به من عمليات ليكسروا الحواجز وينقبوا الأسوار التي تحول بين الإسلام وبين قلوب أولئك المعرضين؛ ثم انظر إلى ما فيها من ايجاز، ولو أنه قال: (اجهر بما تؤمر) أو (بلغ) لفاتت معانٍ كثيرة، افادتها هذه الكلمة.

وقد يخطر ببالك فتتسائل: «ألَمْ تذكر كلمة التبليغ في القرآن الكريم؟!»، أقول لك: بلى، وذلك قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الرسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة ٦٧]، وهذا وأيم الله لهو شاهدُ صدقٍ وحقٍ على أن القرآن الكريم كتابُ الله، تربع على قمة البيان وتسنم ذروة الاستاذية، إن القرآن الكريم يعبر بالاستعارة حيناً، كما في قوله: (فاصدع) وبالحقيقة حيناً، كما في قوله: (بلِّغ)، حسب ما يتطلبه السياق وتقتضيه المناسبة، وتدعو إليه الحاجة.

إن الآية الأولى ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ مكيةٌ كما علمت؛ فهي من سورة الحجر، وليس بخافٍ عليك ما كان يلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من شدة المشقة وهم يبلغون دعوة الله، أما الآية الأخرى ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فهي مدنيةُ التنزل - من سورة المائدة - وأنت خبيرٌ بالفرق العظيم بين ما كان يلقاه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في مكة المكرمة، وبين ما كان في المدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم -. تلكم هي عظمةُ فنّ القولِ وجماله، وصحة المعنى وتمامه.

(٣) قال تعالى حاكياً عن فرعون ما قاله للسحرة: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه ٧١]، وكل الذي عرفناه عن هذه الاستعارة أنها استعارةٌ في الحرف، حيث استعير متعلق معنى (في) لمتعلق معنى (على) كما حدثناك من قبل، ولكن يبقى بعد ذلك العنصر الابداعي في هذه الاستعارة، ألا ترى أن كلمة (في) تصور لنا نفسية فرعون ومَن على شاكلته وهم كُثر تصويراً تاماً، هذه النفسية التي تمتلئ غيظاً وحقداً على أولئك المؤمنين الذين كان يرجو بهم الغلبة، كل هذا تصوره كلمة (في) بهذا الايجاز، وكلمة (على) بالطبع لا تفيد الكثير من هذا، وإياك أن تستمع لمن يقول إن حروف الجر تتناوب، وإن (في) بمعنى (على)، إن هذه الكلمة تقول لنا إن فرعون لا يريد أن يصلبهم على الجذوع فحسب، بل يودّ أن تتلاشى أجسامهم في جذوع النخل، فانظر إلى هذا المعنى الذي جاءت من أجله الاستعارة، وهل يكفي أن تقول إنها استعارة حرف لحرف؟.

(٤) قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة ٥٧]. والجموح صفة الفرس، وهي التي إذا حمل عليها لا يردّها اللجام، وما أظنه كافياً أن يقال إنه شبه اسراعهم في السير بالجموح على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، إن اختيار الكلمة يبين لنا هذا الهلع الذي يسيطر على المنافقين، وكيف أنهم يتمنون لو استطاعوا أن يحثوا السير رغم كل الموانع والأسباب، ثم انظر إلى الصيغة التي جاءت فيها الاستعارة وهي صيغة الفعل المضارع الدال على التجدد، ثم انظر إلى الضمير الذي جاء للتخصيص ولتقوية الحكم وهو قوله تعالى (وهم).

(٥) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر ٨٧ - ٨٨]، وفي اية أخرى: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ

الدُّنيا﴾ [طـه ١٣١]، وقل لي بربك، هل تجد استعارة بديعة اشتملت على روائع الحسن كهذه - مع كثرة الاستعارات البديعة في أقوال الناس - لا تمدنّ عينيك، وأين هذا من قولنا: (لاتطمح)، (لا تتمنّ) و (لا ترغب)، وفكر في كلمة (ولا تمدنّ) وكيف جاءت عقب التفضل بإيتاء السبع المثاني والقرآن العظيم مؤكدة، وذكر العينين معاً، وما تشير إليه هذه الجملة من الرغبة، ذلك أن الذي يمدّ عينيه إلى شيء ما لا يكون إلا بعد أن تهيمن على النفس الرغبةُ في هذه الحاجة.

مد العينين إذن لشيء ما، ناشئ عن الرغبة الملحة في النفس، ثم انظر إلى قوله: (واخفض جناحك)، وما فيها من لين الجانب والحنو كما يحنو الطائر على صغاره ليمنعهم من كل عاد وليرد عنهم كل أذىً. وكذلك كان سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٦) قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل ١١٢]، فكّر ملياً في هذه الاستعارة، أنت تعلم أن المناسب للإذاقة الطَعْم، والمناسب للباس الكسوة، ولكن القرآن لم يقل اذاقها الله طعم الجوع كما لم يقل كساها الله لباس الجوع ولو قيل هذا لبقي الكلام من قبيل الاستعارة، ولكن اختيار الكلمة في القرآن - كما قلنا من قبل - اختيار له أسسه ومسوغاته، فلماذا جاء النظم الكريم على ما هو عليه؟ لماذا أُوثرت كلمة الإذاقة على كلمة الكسوة فقال: (اذاقها) ولم يقل: (كساها)؟.

أظنك لا تماري في أن ما تحدثه الاذاقة من أثرٍ في النفس لا تحدثه كلمة (كسوة)، فالإذاقة هي التي تترك في النفس أثراً لا نجده لكلمة (كسوة) إن كان لها أثر، أما لِمَ أوثرت كلمة لباس على كلمة طَعْم، فأنت تعلم أن الاحاطة التي في اللباس لا نجدها في الطعم، فالطعم إنما يكون في جزء من اجزاء الجسم. أما اللباس فمن شأنه الاحاطة التامة بالجسم، ولهذا جاء التعبير القرآني على هذا المنوال دون قولنا «أذاقها طعم الجوع» أو «كساها لباس الجوع».

والخلاصة أنه عبر بالإذاقة لأن أثرها في النفس أعظم من أثر الكسوة، وعبر باللباس لأن احاطته أعظم من احاطة الطعم، فنظر في كل من الكلمتين إلى ناحية، نظر في كلمة الإذاقة إلى الأثر وفي كلمة اللباس إلى الاحاطة وصدق الله، ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود١] وصدق الله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الفرقان ٧].

(٧) قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة ١١]، وقد عرفت نوع الاستعارة من قبل، والسؤال: لِمَ أوثرت كلمة (طغى)؟ فإذا عرفنا أن هذا اللفظ جاء مناسباً للسياق الذي جاء فيه، استطعنا أن نتذوق الاستعارة، ألا ترى أن القوم ما أصابهم هذا العذاب إلا بسبب طغيانهم، هذا الطغيان الذي ليس له مثيل. واقرأ قول الله تبارك وتعالى يحدثنا عن قوم نوح بعد أن حدثنا عن غيرهم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم ٥٠ - ٥٢].

(٨) قال تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم ٤]، فانظر إلى كلمة الاشتعال ولم أوثرت على كلمة الانتشار؟ وانظر إلى الشيب كيف يدب شيئاً فشيئاً ثم يهجم ليزيل كل أثر للشباب، كما تشتعل النار بعد أن تأخذ ببعض أجزاء الحطب، وليسَ هذا فحسب، انظر كيف اسند الاشتعال إلى الرأس ولم يقل اشتعل شيب الرأس ولو قيل هذا لبقيت الاستعارة على ما هي عليه. وقارن بين هذا وبين قولك «اشتعلت النار في البيت» و «واشتعل البيت ناراً»، وسل الله الرحمة للشيخ عبد القاهر الذي نبه على هذه الدقيقة.

(٩) ومن بدائع الاستعارات في القرآن أنه يأتيك بالكلمة في موضع ثم يختار غيرها في موضع آخر، مع أن المتعلق للكلمتين واحد، خذ كلمة (القلوب) مثلاً: تجد أن القرآن الكريم تارة استعمل لها كلمة (الربط)، وتارة كلمة (الختم)، والربط والختم كلاهما فيه إحكام إلا أن الختم جاء في معرض الذم ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة ٧]، وجاء الربط في معرض الامتنان ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال ١١]، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص ١٠]، فما سرُّ هذه الدقيقة القرآنية.

من المعلوم أن الختم على الشيء يكون لشيءٍ في داخله، ولا زلنا نسمع أنه إذا كان هناك مكانٌ فيه ريبة ومحذور، فإنهم يقولون: «خُتم بالشمع الأحمر» أما الربط فإنما يكون بشيءٍ أو على شيءٍ اودَعْتَه ما هو ثمينٌ ونفيس، فهم يربطون على ما فيه نفائسهم، لذلك جاءت الآيات القرآنية تشير إلى هذين المعنيين في مواضع كثيرة، ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ في سورة البقرة، و ﴿خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ في سورة الجاثية، أي صارت - تلك القلوب غير قابلةٍ لخروج شيءٍ من الكفر منها، أو دخولِ شيءٍ من الإيمان إليها، أما الربط فإنه يعني احتفاظها بما فيها من إيمانٍ كما يحتفظ الشيء المربوط بما فيه من نفائس.

(١٠) وقريب من هذا (السمع)، كما في الآية السابقة ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى

سَمْعِهِمْ)، وحينما كان الحديث عن الفتية الذين آمنوا بربهم قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ [الكهف ١١]، فالختم على السمع يقال فيه ما قيل في الختم على القلوب، أما الضربُ على الآذان فليس فيه تعطيلٌ لها، ولا إزالةٌ لقدرتها، ولا ذهابٌ لعنصر الحياة فيها، بل كان أمراً أرادهُ الله تعالى خارجاً عن اصابةِ هذه الحاسّة، لحِكَم تتّصلُ بهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى.

(١١) وقريبٌ من هذا (الصَبُّ والافراغ) حيث نقرأ قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾ [البقرة ٢٥٠]، وقوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر ١٣]، ما أعظم هذه الاستعارة، فمع ما فيها من روعة التعبير وجمال التصوير، نجدُ فيها ما يهزّ النفس ويرعب القلب ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، أما الصبُّ فهو الاراقة الكثيرة، وأما السوطُ فهو الخلط، والأمم التي استحقت هذا كانت كثيرة الذنوب معقدة الفواحش، والجزاء من جنس العمل، فالكثرة يلائمها الصبّ، وتعدد السيئات يلائمها السوط، وهكذا نفهم من الآية الكريمة أن عاقبة المفسدين أن يصب عليهم العذاب، أي يُراقُ عليهم كأنما هو أبواب القرب المفتحة، وأن يكون هذا العذاب أنواعاً متعددة، فكثرة العذاب وشدته تبينها كلمة (فصبٌ)، وتنوع العذاب تشير إليه كلمة (سوط)، ولقد تحقق هذا قديماً وتحقق حديثاً، فما أكثر ما يعانيه العالم اليوم - وقد خرج عن جادة الحق - من أنواع البأساء والضراء، فالأمراض الجسمية والنفسية والعقليةُ، والضيقُ والقحط والخواء الروحي، كلها وغيرها مما تشير إليه الآية الكريمة ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾. أما الافراغ في قوله: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾ فإنما يكون من وعاء يُفرغ منه، وهكذا افراغ الصبر إنما هو فيضٌ من رحمة الله، فتأمل وقل لي بربك، هل تذوقت ما في الآيتين من روعةٍ، وفنٍ وجمال؟!.

(١٢) قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام ١٢٢]، وكل الذي أريد أن اقفك عليه في هذه الاستعارة، أن كلمة (مَيْت) التي وردت في الآية الكريمة تختلف عن كلمة (مَيِّت) فالميّت هو الذي من شأنه أن يموت سواء مات أم لم يمت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر ٣٠]، أما (مَيْت) فلا تقال إلا لمن تحقق موته، وأظنك أدركت الآن سبب استعمالها في كتاب الله تعالى.

ما نظن أننا نستطيع أن نقف أمام كل استعارة من كتاب الله، واكتفي بما ذكرته لك وسأنقل لك كما وعدتك بعض ما قاله العلماء، فمن ذلك ما ذكره الرماني فقد قسم البلاغة إلى

عشرة أقسام أحدها الاستعارة وقد ذكر لها أمثلة كثيرة من كتاب الله نختار لك بعضها:

«قال الله عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان ٢٣]، حقيقة (قَدِمْنَا) هنا (عمدنا)، و (قدمنا) أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من السفر، لأنه من أجل امهاله لهم عاملهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فرءاهم على خلاف ما أمرهم، وفي هذا تحذير من الاغترار بالامهال، والمعنى الذي يجمعهما العدل، لأن العمد إلى ابطال الفاسد عدل والقدوم أبلغ لما بيّنّا».

«... وقال عز وجل: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة ٦]، حقيقته (شديدة) والعتو أبلغ منه لأن العتو شدة فيها تمرد، وقال تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ﴾ [الملك ٨]، شهيقاً: حقيقته صوتٌ فظيعٌ كشهيق الباكي، والاستعارة أبلغ منه وأوجز والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت. ﴿تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ﴾ حقيقته: من شدة الغليان بالاتقاد، والاستعارة أبلغ منه، لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس مدرَك ما يدعو إليه من شدة الانتقام، فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل، وفي ذاك أعظم الزجر وأكبر الوعظ وأدل على سَعة القدرة وموقع الحكمة».

«... وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ [المدثر ١١]، (ذرني) ها هنا مستعار، وحقيقته: ذر عقابي ومن خلقت وحيداً بترك مسألتي فيه، إلا أنه أُخرج لتفخيم الوعيد مخرج ذرني واياه لأنه أبلغ، وإن كان الله تعالى لا يجوز عليه المنع، وإنما صار أبلغ لأنه لا منزلة من العقاب إلا وما يقدر الله تعالى عليه منها اعظم. وهذا اعظم ما يكون من الزجر... وقال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال ٧]، اللفظ ها هنا بالشوكة مستعار وهو أبلغ، وحقيقته السلاح، فَذَكَرَ الحد الذي به تقع المخافة واعتمد على الإيماء إلى النكتة، وإذا كان السلاح يشتمل على ماله حدّ وما ليس له حد، فشوكة السلاح هي التي تبقى».

« وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف ١٤٩]، هذا مستعار، وحقيقته : ندموا لما رأوا من أسباب الندم، إلا أن الاستعارة أبلغ للإحالة فيه على الاحساس لما يوجب الندم بما سقط في اليد فكانت حاله أكشف في سوء الاختيار لما يوجب من الوبال»[1].

(١) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ص ٨٥ - ٩٤.

وننقل لك الآن شيئاً من كتاب (من بلاغة القرآن) للدكتور أحمد أحمد بدوي: «قال سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف ٩٩]، فكلمة (يموج) لا تقف عند حدّ استعارتها لمعنى (الاضطراب) بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشاداً لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر، ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب، ولا تأتي كلمة (يموج) إلا موحية بهذا المعنى ودالة عليه، وقال سبحانه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم ٤]، وهنا لا تقف كلمة اشتعل عند معنى (انتشر) فحسب، ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس في بطء وثبات، كما تدب النار في الفحم مبطئة، ولكن في دأب واستمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقي ولا تذر، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب، حتى لا يذر شيئاً إلا التهمه وأتى عليه وفي اسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحي بهذا الشمول الذي التهم كل شيء في الرأس...».

«وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس ٣٧]، فكلمة (نسلخ) تصور للعين انحسارَ الضوء عن الكون قليلاً قليلاً، ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطء، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفياً من ظلمة الليل، وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات ٤٢]، ففي العقم ما يحمل إلى النفس معنى الاجداب الذي تحمله الريح معها».

«... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة ٢٣٧]، فإنك تشعر في كلمة العقدة بهذا الربط القلبي الذي يربط بين قلبي الزوجين...».

«... وتأمل كذلك قوة كلمة (زلزلوا) في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة ٢١٤]، ولو أنك جهدت في أن تضع كلمة مكانها ما استطاعت أن تؤدي معنى هذا الاضطراب النفسي العنيف».

«... وقوله سبحانه: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف ٧٧]، وكأنما الجدار لشدة وهنه وضعفه يُؤْثِرُ الراحة لطول ما مر به من زمن»[1].

ويمكنك أن تقف أمام أي استعارة من كتاب الله لتجد روعة الابداع وجمال الايقاع وبهاء الصورة.

ولعلك تدرك الفرق بين هذين الاسلوبين، اسلوب الرماني العالم المتكلم، واسلوب الدكتور بدوي، الأديب والناقد. وكيف أن كلاً منهما تناول الاستعارة، فاسلوب الرماني اسلوب الدقة الكلامية والتحديد المنطقي، ولكن صاحب كتاب (من بلاغة القرآن)، بعيد عن هذا الوادي، فهو يطلعك على براعة التصوير، وما في ذلك للخيال من خصوبة، ولاختيار الكلمة من روعة. وليس هدفنا أن نفاضل بين الرجلين - رحمهما الله - أو بين القديم والحديث، ولكل وجهة هو موليها.

(١) من بلاغة القرآن ص ٢١٧ - ٢٢١.

المجاز المرسل في كتاب الله

ولا تظنن أن الاستعارات القرآنية وحدها هي التي حازت السبق، بل إن أنواع المجاز جميعاً كانت لها هذه المنزلة، صحيح أن الاستعارة هي أكثر أنواع المجاز تجسيداً للصورة وسأذكر لك بعض الأمثلة من المجاز المرسل.

(١) خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [نوح ٧]، اتظن أن اختيار كلمة الأصابع بدل الأنامل جاءت من أجل المجاز فحسب؟، ليس الأمر كذلك، إن هذا المجاز جاء في سياق الحديث عن المنافقين وما أصابهم من الحيرة، فهم من الصواعق والرعد القاصف يود أحدهم لو استطاع أن يجعل أصبعه كله في أذنه، فالتعبير بالأصبع إذن جاء تصويراً لهذا الهلع الذي ملأ قلوبهم، وهيمن على نفوسهم.

(٢) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل ١]، إن التعبير بالقيام بدل الصلاة جاء لهدف عظيم، ذلك أن القيام هو من أكثر أركان الصلاة التي يكابد الإنسان فيها نفسه، كيف لا وهو محل تلاوة الكتاب الكريم.

(٣) قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف ٨٢]، ولم يقل: (وسل أهلها)، ألا ترى أن هذه العبارة تدل على ما يعتمل في نفوس أخوة يوسف عليه السلام، ليبرهنوا على صدقهم؟ بإنهم يتمنون أن لا يسأل الناس فحسب، بل كل شيءٍ في القرية من أرض وبيوت وغير ذلك، لأن ذلك كله سينطق بصدقهم.

(٤) قال تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء ٢]، ألا ترى أن التعبير باليتامى له هدفه، فهو يريد أن يشعر الأوصياء بأن هؤلاء وإن بلغوا مبلغ الرجال و[آنستم منهم رشداً]، فلا تظنوا أن ذلك يهوّن شأن المحافظة على أموال هؤلاء، فكما حافظتم على أموالهم في صغرهم، فلا بد أن تؤدوها لهم كاملة غير منقوصة.

(٥) قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق ١٧]، واختير المجاز هنا كأنه يقول: «لِيَدْعُ كلَّ من يُستنصر به من بشر وحجر وآلهة في زعمه».

(٦) قال تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران ١٠٧]، واختيار المجاز هنا ما أظنه خافياً عليك، إذ كل هذه ليست إلا مظهراً من مظاهر رحمته تعالى. وهكذا لو استعرضت كل مجاز مرسل في كتاب الله تعالى لوجدت هناك سراً استعمل من أجله المجاز، هذا فضلاً على ما فيه من ايجاز.

المجاز العقلي في كتاب الله

(١) قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القصص ٤]، واسناد التذبيح إلى فرعون اشارةً إلى بطشه وقسوته من جهة، وإلى أن جنده إمعاتٌ من جهة أخرى.

(٢) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ [النمل ١٣]، وهو اشارة إلى ما في الآية من وضوح الدلالة، فهي كافية في كل حين.

(٣) قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم ٦١]، ولم يقل آتياً، ليبين أن لله التصرف في كل شيء (فمأتي) اسم مفعول، كالمضروب لا بدّ له من ضارب، كذلك (المأتي) بحاجة إلى من يأتي به.

(٤) قال تعالى: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء ٤٥]، ويقال فيه ما قيل فيما قبله. فالحجاب لا يستر بنفسه وإنما الله الذي يجعله كذلك.

وصدق الله تلك آيات الكتاب الحكيم.

الاستعارات في كلامه صلى الله عليه وسلم

ولنذكر لك طرفاً من جوامع الكلم التي اعطيها النبي الكريم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم.

(١) فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «بُني الإسلام على خمس»[١]، ألا ترى أن تشبيه الإسلام بالبيت له ايحاءاته الكثيرة ونفحاته المتعددة؟، أليس البيت هو الذي يؤوي من فيه ويستره؟ أليس البيت هو الذي تجتمع فيه الأسرة؟، أليس البيت هو الذي يقي أصحابه عواديَ الأذى وغوائل السوء؟ والحقّ أن هذا شأن الإسلام لكل من دخل فيه حتى أولئك المنافقين لأنه يحقن دمائهم.

(٢) ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وستون شعبة»[٢] ألا تجد أن تشبيه الإيمان بالشجرة، ذات الفروع الكثيرة والأفنان المتعددة، يشير أولاً إلى قوة هذه الشجرة وكثرة ثمارها وعدم سهولة تسلقها؟، ثم ألا تجد أن الإيمان كذلك؟.

(١) سبق تخريجه ص ١٧٢.
(٢) سبق تخريجه ص ١٧٢.

فانظر إلى جوامع كلمه - صلى الله عليه وسلم - وكيف استعار البيت للإسلام والشجرة للإيمان، ويعلمُ الله أن في ذلك قمة البيان، لا من حيثُ التصوير فحسب بل من حيث الدقةُ والموضوعية. استعير البيتُ للإسلام لأن البيت كما قلنا يؤوي من فيه ليشعروا بالطمأنينة؛ ذلكم لأن البيت سكن لأصحابه، وصدق الله ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل ٨٠]، لذا قد نجد الذين اسلموا بألسنتهم دون قلوبهم نفعهم هذا الإسلام في دنياهم، فكان لهم سكناً، لكنهم لم تهنأ نفوسهم بما وراء هذا مما فرح به المؤمنون، لذا استعيرت الشجرة للإيمان؛ لأنها هي التي يُتفيأ ظلها أولاً، ثم هي بعد ذلك وقبله صاحبة الثمار التي يذوق حلاوتها المؤمنون. البيت استعير للإسلام إذن لأنه سكنٌ فحسب، أما الشجرة ففيها ما وراء هذا من ظلٍ وحلاوةٍ وطيب ثمر وزكي رائحة، قف أمام هاتين الاستعارتين النبويتين العظيمتين وانعم النظر ثم انعم وانعم، وقل لي بربك. أيُّ بيان وأيُّ موضوعية ودقة في التعبير، وسمو في المعنى يمكن أن تجده في هاتين وغيرهما من كلامه صلى الله عليه وسلم، ورحم الله أمير الشعراء حيث يقول:

فَمَا عَرَفَ البَلاغَةَ ذُو بَيَانٍ إذَا لَمْ يَتَّخِذْكَ لَهُ كِتَابا

(٣) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تستضيئوا بنار المشركين»[١] والمقصود به - والله أعلم - (لا تعتمدوا على آرائهم ولا تركنوا إليهم) ثم انظر إلى استعمال كلمة النار بدل النور وما تحمله من دقة وموضوعية وجمال صورة، وهل النار إلا محرقة أكثر من كونها صالحة للاضاءة؟ وهل يجني المسلمون من استعانتهم بالمشركين وولائهم لهم غير هذه النار التي تحرق كلَّ شيء، وما تذرُ من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وماذا جنينا من ولائنا وخضوعنا لأمريكا وغيرها إلا البوار والوبال.

(٤) يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[٢]، إن غزوة أُحد كانت من أعظم الغزوات التي ركز عليها القرآن الكريم وذلك لما فيها من عبر ودروس، لا عجب إذن أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم هذا القول. ويرى بعض الكاتبين أن هذا من قبيل المجاز المرسل حيث عبر بالمحل الوارد وأراد الحالّ، ولكن الذي تميل إليه النفس، ويطمئن إليه القلب: أن الحديث من باب التصوير بالاستعارة، فقد شُبِّه أُحد بصاحب المناقب الطيبة الذي من شأنه أن يُحِبَّ ويُحَبّ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الحبّ على سبيل الاستعارة المكنية، واسناد الحب إلى أُحد استعارة تخييلية، والنبي عليه وآله الصلاة والسلام يوجه المسلمين إلى أُحد لكي تبقى آثاره ودروسه النبراس الهادي

---

(١) رواه الإمام أحمد ٣/٩٩.

(٢) رواه البخاري كتاب (الجهاد) باب (فضل الخدمة في الغزو) ٣/١٠٥٨.

للمسلمين، وليدركوا أن ما أصاب المسلمين في أُحد ليس إلا سنةً من سنن الله، وسنن الله لا تتخلف، فهذه الاستعارة البديعة موحية بإيجازها بكل ما من شأنه أن يحول بين المسلمين وبين أن ينجرفوا في أودية الأوهام التي يمكن أن تسول بها لهم أنفسهم وشياطينهم فيعتمدوا على أنهم مسلمون بالإسم وينسوا ما كان يوم أُحد وفي أُحد.

(٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: «الصوم جُنَّة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النار»[(١)] وفي الحديث نفسه «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروه سنامه الجهاد»، وفي هذا الحديث يقول صلى الله عليه وسلم: «وهل يَكُب الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» فانظر كيف جعل للإسلام عموداً وذروة سنام، وهما استعارتان بديعتان، فقد شبه الإسلام ببيت واسع، وجعل الصلاة العمود من هذا البيت، فهي استعارة مكنية تخييلية كما عرفت من قبل، وجَعْلُ الصلاة عمودَ الإسلام دليل على شرفها ومنزلتها وكونها الأساس الذي لا يغني عنه شيء.

(٦) أما قوله صلى الله عليه وسلم: « والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»[(٢)] فانظر كيف شبه الخطيئة بالنار، وانظر إلى جمال هذا التشبيه. إن الخطيئة لا تحرق صاحبها في الأخرة فحسب، وانما هي نار في الدنيا كذلك، تأتي على كل عناصر الخير في صاحبها. وبعد أن أدركت جمال التشبيه نقف مع جمال الاستعارة، ولا تنس كذلك ما في الصدقة من استعارة حيث شبهت بالماء، لأن الماء هو الذي يطفئ النار، ولكن الصدقة هي التي تطفئ الخطيئة، ذلك أن الانسان عندما يتصدق فإنما يتغلب على شحه من جهة، ويذهب تأجج نار الشهوة من نفسه من جهة أخرى.

(٧) بقيت في الحديث الشريف استعارتان هما في الحقيقة أجود الاستعارات إحداهما قوله صلى الله عليه وسلم: «وهل يَكُبُ الناسَ على وجوههم في النار إلا حصائد السنتهم»[(٣)] واللسان من أعظم الجوارح خطراً على صاحبه.

يَمُوتُ الفَتَى مِنْ عَثْرٍ بِلِسانِهِ   وليس يموت المرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

وآلة الحصاد كالمنجل تأخذ كل مافي طريقها نافعاً أو غير نافع، مفيداً أو غير مفيد، واللسان الذي لا يتحرى الحق كذلك، فالاستعارة مكنية، فقد شبه اللسان بالمنجل مثلاً وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهي الحصاد، واضافته الى اللسان إستعارة تخييلية.

(٨) والثانية قوله صلى الله عليه وسلم: «وذروة سنامه الجهاد»[(٤)] وإذا كان الاسلام قد شُبه بالبيت أولاً، وقد ذكرنا مافي ذلك من ايحاءات وماله من ظلال، فلقد شبه هنا بسفينة

---

(١) رواه ابن ماجة، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ١٣١٤/٢.
(٢) رواه ابن ماجة، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ١٣١٤/٢
(٣) رواه ابن ماجة، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ١٣١٤/٢.
(٤) رواه ابن ماجة، كتاب (الفتن) باب (كف اللسان في الفتنة) ١٣١٤/٢

الصحراء ذلكم الجمل، الذي كانوا يعولون عليه في قطع المسافة من جهة، وحمل الاثقال من جهة، وكانوا يجدون فيه الجمال والراحة من جهة ثالثة، ثم انظر كيف جعل الجهاد ذروة السنام، وذروة السنام ارفع مافي الجمل وأعلاه، أليس في ذلك إيحاء للمسلمين وحث لهم بهذا التصوير النبوي البديع الرائع بأن الجهاد وهو القمة التي تتلاشى أمامها أمور كثيرة، وإذا كان الجهاد ذروة سنام الإسلام فهو حث للمسلمين، أن يصعدوا إذا أرادوا أن يسعدوا.

(٩) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «يا أَنْجَشَةُ رِفْقاً بِالقَوَارِير»[١] وهذه استعارة عجيبة لأنه صلى الله عليه وسلم شبه النساء في ضعف النحائز، ووهن الغرائز، بالقوارير الرقيقة التي يوهنها الخفيف ويَصْدَعُها اللطيف، فنهى عن أن يسمعهن ذلك الحاوي ما يحرك مواضع الصبوة وينقص معاقد العفة»[٢].

(١٠) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تَسْأَلِ المرأةُ طَلَاقَ أُختِها لِتَكْفَأَ ما في إنائها»(٣) وفي هذا الكلام استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام، أراد أن المرأة لا ينبغي لها أن تطلب طلاق أختها، لتتصل بالزوج الذي كان لها طلباً لأن تَجُرَّ حظها إليها وتستبد بالنفع عليها، فتكون كأنها اكتفأت ما في انائها أي أمالت الاناء إلى نفسها فقلبته لتستفرغ ما فيه وتستأثر عليها به. يقال كَفَأْت الإناء إذا كَبَّتْهُ، واكتفأته إذا شربت ما فيه أجمع، أو أكلت ما فيه أجمع»[٤].

وهذه لعمر الحق تربية للأخلاق ما أشد حاجتنا إليها.

وهذا الاسلوب كثير في كلامه صلى الله عليه وسلم كقوله: «هَذِهِ مَكَّةُ رَمَتْكُمْ بِأَفْلاذِ كَبِدِها»، «إن الإسلام لَيَأْرِزُ إلى المدينة كما تَأْرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحْرِها»[٥].

أما اسلوب الاستعارات التمثيلية وما فيه من جمال وايجاز فذاك هو سحر البيان:

(١) فمن هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «إن المُنْبَتَّ لا أَرْضاً قطع ولا ظَهْراً أبقى» وفي هذا من النهي عن الغلو ما فيه.

---

(١) رواه البخاري كتاب (الأدب)، باب (المعاريض مندوحة الكذب) ٥/٢٢٩٤.

(٢) المجازات النبوية/ الشريف الرضي ص ٣٥، والنحائز: الطبائع مفردها نحيزة.

(٣) رواه البخاري، كتاب (البيوع)، باب (لا يبيع على بيع أخيه) ٢/٧٥٢، ورواه مسلم، كتاب (النكاح)، باب (تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن له أو يترك) ٢/١٠٣٣.

(٤) المجازات النبوية ص ٥٠.

(٥) رواه البخاري كتاب (فضائل المدينة، باب (الايمان يأرز إلى المدينة) ٢/٦٦٣، ليأرز: لينضم أهله ويجتمعون، جحرها: سكنها الذي تأمن إليه.

(٢) ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم - وإن كان فيه ضعف - «إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ».

(٣) ومنه بديع القول: «لا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ» - قاله عليه الصلاة والسلام لأبي عزة الشاعر، وقد أسر في بدر، لكن النبي صلى الله عليه وسلم منَّ عليه وأطلقه ثم أسر في أحد فطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يمن عليه فقال: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» وقد ذهب بعض الكاتبين إلى أن المقصود بهذا الشاعر نفسه، وهو تعريض بأنه ليس مؤمناً، لأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولكن الذي نراه غير هذا المعنى، وهو أن المؤمنين لدغوا من هذا الشاعر أول مرة ولكنهم بعد ذلك تركوا هذا الجحر وما فيه، وها هم الآن يتعرضون للدغ مرة ثانية والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، فهو تشبيه لهذا الشاعر بالأفعى.

(٤) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «هذا حين حَمِيَ الوَطِيس»[١] والوطيس هو التنور الذي يخبز فيه، وأول من نطق بهذا الرسول عليه وآله الصلاة والسلام وهي استعارة تمثيلية، يشبه أمر الحرب حينما يشتد أوارها بالوطيس حينما تشعل فيه النار.

المجاز المرسل في قوله صلى الله عليه وسلم:

أما اسلوب المجاز المرسل في قوله صلى الله عليه وسلم فهو كثير كذلك وهو من الأساليب المعبرة المبنية على الايجاز

(١) استمع إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «اليد العليا خيرٌ من اليد السُفلى»[٢] وما فيه من فضيلة التوجيه وحسن الارشاد، وروعة العفة تتوج المسلم دائماً، وأنت تعلم أن المقصود إنما هو صاحب اليد، ولكن لما كانت اليد هي التي تأخذ وتعطي عبر بها، فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية.

(٢) وانظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن مكة حَرَّمَهَا الله»[٣] وقد حرم الله ما فيها وما حولها، فهو مجاز مرسل علاقته المحلية - كما عرفت -.

(٣) وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «إن من أكبر الكبائر أن يَسُبَّ الرجلُ والديه ! قالوا وكيف يسب الرجل والديه يا رسول الله؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب

---

(١) رواه مسلم، كتاب (الايمان)، باب (في غزوة حنين) ٣/١٣٩٩.
(٢) رواه مسلم، كتاب (الزكاة)، باب (بيان أن افضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح) ٢/٧١٧.
(٣) رواه البخاري كتاب (العلم)، باب (ليبلغ الشاهد الغائب) ١/٥١.
وأخرجه مسلم كتاب (الحج)، باب ،تحريم مكة وصيدها وخلاها) رقم ١٣٥٤.

أمَّه فيسبُّ أمَّه» [1] فانظر إلى قوله صلى اللّه عليه وسلم: «أن يسب الرجل والديه» إنه مجاز مرسل علاقته السببية كما ترى، ولكن هل تظن أن روعته تقف عند هذا الحدّ؟ ألا تجد فيه هذا الإلهاب، وذلك التحذير الذي من شأنه أن يحمل المسلم ليبتعد عن كل ما من شأنه عقوق والديه؟.

(٤) واستمع إلى قوله صلى اللّه عليه وسلم: «عَجِبَ رَبُّنا من قوم يُقادون إلى الجنة بالسلاسل»[2] وهم في الحقيقة إنما يقادون لدار الإسلام التي توصلهم إلى الجنة، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية، ويظهر لي أننا يمكن أن نوجه الحديث توجيهاً آخر، فنجعله من باب الاستعارة التمثيلية فنشبه حال الذي يُحْمَل على الخير حملاً، ويرغم عليه إرغاماً بحال من يقاد إلى الجنة بالسلاسل، وقد عرفت من قبل أن النص الواحد يمكن أن نلمح فيه وجوهاً بيانية كثيرة باعتبارات متعددة.

(٥) واستمع إليه صلى اللّه عليه وسلم وهو يُعِدُّ لغزوة تبوك «من كان معه فَضْلُ ظهرٍ فَلْيَعُدْ به على من لا ظَهْرَ له»[3] ويقصد بالظهر هنا الركوبة المعدّة للجهاد، ولما كان الظهر هو المقصود عبر به عن الدابة من اطلاق الجزء على الكل، فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية.

(٦) أما قوله عليه الصلاة والسلام: «إلبسوا من ثيابكم البَياض»[4] والثياب ليست إلا محلاً للبياض فهو مجاز مرسل علاقته الحالية.

(٧) واستمع إلى قوله صلى اللّه عليه وسلم: «الولدُ للفراش وللعاهر الحجر»[5] ففي الجملة الأولى مجاز مرسل علاقته المحلية، وفي الجملة الثانية مجاز مرسل علاقته الآلية لأن الفراش محل والحجر آلة.

(٨) أما قوله صلى اللّه عليه وسلم: «من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»[6] فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون.

---

(١) رواه مسلم كتاب (الايمان)، باب (بيان الكبائر وأكبرها) ٩١/١. ورواه أحمد ١٦٤/٢.

(٢) رواه البخاري كتاب (الجهاد)، باب (الأسارى في السلاسل) ١٠٩٦/٣.

(٣) رواه مسلم كتاب (اللقطة)، باب (استحباب المؤاساة بفضول المال) ١٣٥٤/٣.

(٤) رواه الترمذي كتاب (الجنائز)، باب (ما يستحب من الأكفان) ٢١٥/٤.

(٥) رواه البخاري كتاب (البيوع)، باب (تفسير المُشَبَّهات) ٧٢٤/٢.

ومعنى الحديث: (الولد للفراش): الولدُ تابع لصاحب الفراش وهو من كانت المرأة موطوءة له حين الولادة، (وللعاهر الحجر) للزاني الخيبة والحرمان ولا حق له في الولد. والعرب تكني عن حرمان الشخص بقولها: «لها الحجر وله التراب».

(٦) رواه البخاري كتاب (الزكاة)، باب (وجوب الزكاة) ٥٠٦/٢.

وفي هذا الحديث يتكلم الرسول الكريم عن الاعرابي الذي سأله عن أصول الإسلام وعزم على الالتزام بها من غير زيادة ولا نقصان.

(٩) واستمع إلى قوله صلى الله عليه وسلم يُرَغِّبُ في زيارة المريض: «من عاد مريضاً لم يَزلْ في خُرْفَةِ الجنة حتى يرجع»[١] وعائد المريض إنما يعوده في بيته، إلا أن هذا العمل من شأنه أن يوصل فاعله إلى خرفة الجنة، وهو مكان جني ثمرها، فهو من اطلاق المسبب وارادة السبب، هو مجاز مرسل إذن علاقته المسببية.

(١٠) ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»[٢]، وشد الرحال إنما هو ناشئ عن العناية والاجلال، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية كذلك. وهذا كثير في كلامه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) رواه مسلم كتاب (البر والصلة والآداب)، باب (فضل عيادة المريض) ٤/١٩٨٩.
وفي رواية (مَخْرَفَة) وهي سكة بين صفين من نخل، يخترف (يجني) من أيهما شاء.
وقيل: المخرفة: الطريق. أي أنه على طريق تؤديه إلى طريق الجنة. أما (خرفة الجنة) فهي اسم ما يجنى من النخل حتى يدرك.
(٢) رواه البخاري كتاب (التطوع)، باب (فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة) ١/٣٩٨.
ورواه مسلم كتاب (الحج)، باب (سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره) ٢/٩٧٥.

المجاز العقلي في قوله صلى الله عليه وسلم:

(١) قال صلى الله عليه وسلم: «عليكم هدياً قاصداً، فإنَّهُ من يُشَادَّ هذا الدِّينَ يَغْلِبْهُ»[١] وهو مجاز عقلي علاقته المفعولية كما عرفت من قبل لأن المراد هدياً مقصوداً.

(٢) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «كلُّ هوىً شَاطِنٍ في النَّار» وهذا مجاز لأنه وصف الهوى بالشطون وهو البعد وأراد به تباعد صاحبه عن الرشد، وترامیه إلى الغيّ، وقال أبو عبيدة: «الشاطن ها هنا المُعْوَجّ عن الحق، والهوى على الحقيقة ليس بجسم فيوصف بالقرب والبعد والزوال واللبث، وسمي الشيطان شيطاناً لأنه شطن عن أمر ربه أو أبعد في مذاهب غيه، ومنه قيل نَوِيٌّ[٢] شَطُوان وبئرٌ شَطُوان ومن ذلك سمي الحبل شطناً لأنه يبلغ القعر العميق والماء البعيد. وفي هذا الخبر أيضاً مجاز آخر، وهو أنه عليه الصلاة والسلام جعل الهوى الشاطن في النار، ومراده صاحب الهوى الشاطن وهو الذي يمتد به هواه فيقذفه في المضالّ ويحمله على المزالّ، ونظير هذا: الخبر الآخر، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالصدق فإنه من البرّ وهما في الجنة واياكم والكذب فإنه من الفجور وهما في النار»[٣] وأراد عليه الصلاة والسلام صاحب الصدق والبرّ، وصاحب الكذب والفجور»[٤].

وإن أردت مزيداً من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم فكتب السنة زاخرة ونرشدك إلى المجازات النبوية للشريف الرضيّ، وإلى الفصل الذي كتبه أديب العربية الأستاذ مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - في كتابه إعجاز القرآن.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٢٢/٤ من حديث أبي برزة الأسلمي.

(٢) النويّ: الرفيق في السفر.

(٣) أخرجه ابن ماجة/ أبواب الدعاء حديث رقم (٣٨٤٩)- ص ٥٥٠
وأخرجه الإمام أحمد - مسند أبي بكر الصديق - حديث رقم (٥)، (١٧).

(٤) المجازات النبوية ص ٧٦.

بلاغة الاستعارة

اسلوب الاستعارة من أكثر الأساليب تأثيراً في النفس، وارهافاً للحس، ولذا فقد كثرت في الكلام المطبوع من شعر الجاهليين، كما كثرت في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، من قبل أن تقعد له القواعد، وقد تقدم لنا من قبل تقسيم الاستعارة إلى خاصية وعامية، وبينا أن من روعة الاستعارة أنها تجمع بين الحقائق المتباعدة، فهي إذن ليست محسناً بلاغياً ككثير من المحسنات، إنما هي جوهر الأسلوب الأدبي وركيزته الأولى، صحيح أن هذه الاستعارة لا ينبغي أن تكون متكلفة، ولذا نجد النقاد عابوا على بعض الشعراء بعض استعاراتهم.

إن وظيفة الاستعارة إذن لا تقف عند مجرد التزيين والتحلية، كما أنها ليست شرحاً ولا توضيحاً، وليست تقوية ولا تدعيماً لمعنى نثري، وإنما تبدو قيمتها في الحقيقة في أنها وسيلة اكتشاف العالم الداخلي للشاعر، بكل ما فيه من خصوصيّة وتفرد وتميز، لا تستطيع اللغة العادية التجريدية أن تعبر عنه أو توصله إلى القارئ، وعلى ذلك يتحدث ناقد معاصر عن الاستعارة فيقول:

«الاستعارة تقرب بين حقيقتين بعيدتين إحداهما عن الأخرى كل البعد، وقد تجردتا من أي علاقة يمكن فهمها، فهذه الاستعارة أكثر من أن تكون مجرد استعارة عادية، وربما هي التي تتضمن الاداة المثلى في المعرفة»[1].

ولقد عرفنا عندما تحدثنا عن التشبيه أن الشيء الواحد يمكن أن يكون مشبهاً به من جهات كثيرة، وهذا المعنى أكثر وضوحاً في الاستعارة، ولا عجب إذن أن الاستعارة يمكن أن تكون سبباً في تغيير كثير من الأخلاق، فلطالما كانت سبباً في كرم بخيل وجوده وجرأة جبان وشهرة خامل، أليست تظهر الجماد بصورة الناطق؟ أليست تكسو الأشياء الجرداء حُللاً قشيبة[2] خضراء؟ ألم تر كيف اعطتك المعاني الكثيرة بأقل الألفاظ، وهي مع ذلك كله تجسدُ لك الانفعالات والمشاعر، ألم تر أنك تلمس فيها الجدّة فتأنس إليها نفسك، فتجد الكلمة الواحدة تصاغ في أكثر من قالب وتصور بأكثر من ريشة واحدة؟، ومع ذلك فإنك تجد لكل صورة عناصر جمالها الخاصة بها، وأسباب الحسن، وملاعب العواطف.

---

(١) فن الاستعارة دراسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي/ د. أحمد عبد السيد الصاوي - الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الأسكندرية ص ٣٤٤.

(٢) القشيب: الشيء الجديد النظيف الحسن.

ولقد مر معك الكثير من هذا، وأزيدك على ما تقدم فنقف أمام هذين المثالين أحدهما قول كثير(١):

غَمْرُ الرِّدَاءِ إذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً ... غَلِقَتْ لِضِحْكَتِهِ رِقَابُ المَالِ

أما المثال الآخر(٢):

يُنَازِعُني رِدَائِيَ عَبْدُ عَمْرٍو ... رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرِو بْنِ بَكْرِ

لِيَ الشَطْرُ الَّذي مَلَكَتْ يَمِينِي ... وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرِ

ذكرت كلمة الرداء في كل من البيتين كما رأيت وهي مستعارة في كلا الموضعين، ولكن الذي يزيدك عجباً أنها استعيرت في البيت الأول لغير ما استعيرت له في البيت الثاني، فقد استعيرت في البيت الأول للمعروف، والمعنى الذي تصوره الشاعر والذي يجمع بين المستعارٍ والمستعار له، أي بين الرداء والمعروف بديع لطيف المأخذ، ذلك أن الرداء يستر صاحبه ويردّ عنه سوءاً ويقيه ضرراً، وليس المعروف في ذلك كله بأقل من الثوب، وكلمة (غمر) جاءت تجريداً للاستعارة لأنها تلائم المشبه وهو المعروف، لأن الغمر: الكثير، فلا يقال كثير الثوب ولكن كثير المعروف، ثم يكمل الصورة بقوله: «إذا تبسم ضاحكاً غلق لضحكته رقاب المال» يقال غلق الرجل، إذا ضجر وغضب، وغلق الرهن في يد المرتهن إذا لم يستطع صاحبه أن يرده إليه. ومعنى البيت أن الممدوح إذا تبسم ضاحكاً غضبت الأموال وأيقنت أنها ذاهبة من عند صاحبها مملوكة لغيره.

ولنأت للمثال الثاني الذي ذكرت فيه كلمة (الرداء). ولكنه ليس المعروف هنا، إنما هو السيف، واستعارة الرداء للمعروف رأينا فيها جمال الصورة ودقة المسلك ولطف المأخذ، ولكن ما معنى استعارة الرداء للسيف؟، فإذا عرفنا أن السيف يقي صاحبه الشر، ويردّ عنه غائلة السوء وعوادي الأذى، أدركنا جمال الاستعارة ودقتها وما لها من شأن، إلا أن الاستعارة الأولى كانت مجردة لأنها ذكر فيها ما يلائم المشبه وهي كلمة الغمر لأنها تلائم المال، أما هذه فمرشحة، لأنه ذكر فيها ما يلائم المشبه به وهو الرداء، وهي كلمة (الاعتجار) لأن الاعتجار هو التلفع والتلفف بالثوب، ولنكمل الحديث عن هذه الصورة.

فلقد عبر عن السبب الذي من أجله مد السيف إلى عبد عمرو بالمنازعة، فكأن السيف وهو بينهما يتجاذبه كل منهما فيقول له رويدك يا هذا، ليكن السيف بيننا وليأخذ كل منا بشطر

---

(١) لايضاح ٢/١٧١، شروح التلخيص ٤/٣٥٥.

(٢) الكشاف ٢/٤٩٨، اعتجر: يقال اعتجر بالعمامة إذا لفها على رأسه.

منه. أما أنا فلي الشطر الذي ملكته يدي ويعني به مقبض السيف، وأما أنت فخذ الشطر الآخر واعتجر به وهذا من قبيل التهكم، فقد عبر عن اختراق السيف لصدره بالاعتجار والتلفع، ولذا فهم يقولون: إن الاستعارة أبلغ من الحقيقة، ولكن ليس معنى هذا أن المعنى الذي تدل عليه الاستعارة أكثر من المعنى الذي تدل عليه الحقيقة، فإذا قلت «رأيت بحراً» وتعني الجواد الكريم فليس معنى هذا أن هذا القول - اعني قولك - «رأيت بحراً» - يدل على الكرم أكثر من قولك «رأيت جواداً» أو «رأيت كريماً»، أي أن الاستعارة ليس فيها زيادة كمٍ على ما في الحقيقة، كذلك إذا قلت: «رأيت أسداً» و «رأيت شجاعاً»، لا تدل الأولى على أنه أكثر شجاعة، كل ما تدل عليه الاستعارة أنها تقرب المعنى وتؤكده وتزيده وضوحاً، ولقد فطن الشيخ عبد القاهر إلى هذه الحقيقة فهو يقول: «اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق اثباته لها وتقريرد إياها...

كذلك ليست المزية التي تراها لقولك «رأيت أسداً» على قولك «رأيت رجلاً لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجرأته»، أنك قد افدت بالأول زيادة في مساواته بالأسد، بل إنك افدت تأكيداً وتشديداً وقوة في اثباتك له هذه المساواة، وفي تقريرك لها، فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته بل في ايجابه والحكم به.

وهكذا قياس المثيل ترى المزية أبداً في ذلك تقع في طريق اثبات المعنى دون المعنى نفسه، فإذا سمعتهم يقولون: إن من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعاني نبلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفاً، وأن تفخمها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين فإنهم لا يريدون الشجاعة والقِرى وأشباه ذلك من معاني الكلم المفردة، وإنما يعنون اثبات معاني هذه الكلم لمن تثبت له، ويخبرّ بها عنه»(١).

بعد هذا يمكننا أن نجمل خصائص الاستعارة ومميزاتها فيما يلي:

١- التزيين أو التجميل.
٢- الاختصار أو الايجاز.
٣- الجِـــــــدَّة.
٤- الايضـــــاح.

وقد تضمن كلام الشيخ عبد القاهر هذه الخصائص، يقول: «اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي في هذا الضرب دون الأول، وهي أمدّ ميداناً وأشد افتتاناً، وأكثر جرياناً وأعجب

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٤/ تعليق محمد عبد المنعم خفاجي.

حسناً وإحساناً، وأوسع سعة، وأبعد غوراً وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً [١]، من أن تُجمع شُعَبُها وشُعُوبها وتحصر فنونها وضروبها، نعم واسحر سحراً، وأملأ بكل ما يَملأ صدراً ويُمْتع عقلاً، ويؤنس نفساً ويوفر أنساً وأهدى إلى أن تُهدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال، وعُني بها الكمال، وأن تُخرج لك من بحرها جواهر إن باهَتْها الجواهر مدت في الشرف والفضيلة باعاً لا يقصر وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر وردت تلك بصفرة الخجل ووكلتها إلى نسبتها من الحجر، وأن تثير من معدنها تبراً لم تر مثله، ثم تصوغ فيها صياغات تعطل الحلى، وتريك الحلى الحقيقي، وأن تأتيك على الجملة بعقائل يأنس إليها الدين والدنيا وشرائف لها من الشرف الرتبة العليا، وهي أجل من أن تأتي الصفة على حقيقة حالها، وتستوفي جملة جمالها.

ومن الفضيلة الجامعة فيها: أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً وتوجب له بعد الفضل فضلاً،، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحدة من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد وفضيلة مرموقة وخلابة موموقة.

ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدَفة الواحدة عدة من الدرر وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر.

وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حدّ البلاغة، ومعها يستحق وصف البراعة، وجدتها تفتقر إلى أن تُعيرها حلاها، وتقصر عن أن تنازعها مداها، وتصادفها نجوماً هي بدرها وروضاً هي زهرها، وعرائس ما لم تعرها حليها فهي عواطل وكواعب ما لم تحسنها فليس لها في الحسن حظ كامل، فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينةً والمعاني الخفية بادية جليّة.

وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها، ولا رونق لها ما لم تزنها، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطف الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون»[٢].

وكل الذي تقدم كان حديثاً عن الاستعارة نفسها، وينبغي أن لا تنسى أننا ينبغي أن نضيف إلى ما ذكرناه من قبل قضية لها شأنها وخطرها، وهي أن الاطار الذي توضع فيه

(١) الغور: هو ما انخفض من الأرض، والنجد: ما ارتفع منها.
(٢) أسرار البلاغة ص ٤٦ - ٤٨ / تحقيق محمد عبد العزيز النجار.

الاستعارة، والقالب الذي يحيط بها، لا بد أن يكون متناسباً متلائماً في قوته وحسنه، فتجمل به الاستعارة وتكمل، ولا تكون كالدرة النفيسة في العلبة الرخيصة، أو كالعرق الأخضر في الأرض الجرداء. ذلك أن الاستعارة وما يشبهها من الأساليب البلاغية يمكن أن تسمو بالمعنى الذي تحدثت عنه، وإن لم يكن شيئاً يذكر، كما أن المعنى الجيِّد قد يذهب بجودته القالب الركيك الذي صيغ فيه. يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات: «وربما جعلوا سر البلاغة في جمال الصياغة، قال أبو هلال: «وليس الشأن في ايراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أوَد النظم والتأليف، وليس يُطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت... ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة يبالغون في تجويدها، ويَغلون في ترتيبها ليدلوا على براعتهم... ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كداً كثيراً»[١].

والحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي أناقة الديباجة ووثاقة السرد ونصاعة الايجاز وبراعة الصنعة فإذا كان مع كل ذلك المعنى البكر والشعور الصادق كان الإعجاز. وليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ وبراعة التركيب من أن المعنى المبنول أو المرنول أو التافه قد يتسم بالجمال ويظفر بالخلود إذا جاد سبكه وحسن معرضه، ولا بأس أن أقدم إليك مثلاً من آلاف الأمثلة بلغ معناه الغاية في السوقية والفحش، ومع ذلك تحب أن تسمعه وتحفظه وتعيده لأنه بلغ من سر الصناعة غاية تطلع دونها أكثر الأقلام.

قال أبو العيناء الأعمى لابن ثوابة: «بلغني ما خاطبت به أبا الصقر وما منعه من استقصاء الجواب إلا أنه لم ير عرضاً فيمضغه ولا مجداً فيهدمه»، فقال له ابن ثوابة: «ما أنت والكلام يا مكدّي[٢]».

فقال أبو العيناء: لا ينكر على ابن ثمانين سنة قد ذهب بصره وجفا سلطانه، أن يعوّل على اخوانه... ثم رماه بمعنى فاحش مكشوف فقال له ابن ثوابة «الساعة آمر أحد غلماني بك»، فقال له أبو العيناء: «أيهما؟ الذي إذا خلوت ركب، أم الذي إذ ركبت خلا؟».

فانظر في هذه الجملة الأخيرة تراه رمى ابن ثوابة في نفسه وفي زوجه، وهما معنيان سوقيان يترددان كل ساعة على ألسنة السبّابين من أوشاب العامة، وإنك مع ذلك تقف من هذه الجملة موقف المشدوه المعجب، تحرك بها لسانك، وتعمل فيها فكرك، وتعرضها على مقاييس البلاغة وشروطها فتطول على كل قياس وتزيد على كل شرط. تأمل هذا الإيجاز البارع بحذف

(١) انتهى كلام أبي هلال، ثم يتابع الزيات كلامه: (والحقُّ أن أظهر الدلالات....
(٢) المكدّي: الذي يسأل الناس.

متعلقات الفعلين (خلا وركب) وفيها جوهر المعنى واصابة الغرض؛ تجد سر البلاغة كله فيه لأن هذا الحذف مع وضوح المعنى قد نزه الكلام عن صراحة الفحش وصان المتكلم عن ذكر القبيح، فلو أنه قال خلوت بكذا وخلا بكذا، وركبت كذا وركب كذا، لانْحَطَّ الكلام عن مقام البلاغة وصار بهذر العامة وكان بِحَسب البليغ هذا الايجاز المشرق ولكنه ضم إليه أنواع البديع (العكس) ، (اسلوب الحكيم) فعكس الفعلين واستعملهما في معنيين مختلفين، وكل ذلك في غير تكلف ولا تعسف ولا غموض.

فأنت ترى أن الصياغة وحدها هي التي سمت بهذه المعاني الخسيسة إلى أفق البلاغة فتداولتها الألسن وتناقلتها الكتب، وليس حال المعنى في ذلك حال اللفظ فإن اللفظ في ذاته كالموسيقى يخلب الأذن ويلف الشعور وإن لم يترجم، أما المعنى فكالكهرباء، إذ لم يكن لفظه جيِّد التوصيل انقطع تياره فلا يعرب ولا يطرب، اقرأ قول القائل:

لَمَّا أطَعْنَاكُمْ في سُخْطِ خَالِقِنا ... لا شَكَّ سَلَّ عَلَيْنا سَيْفَ نِقْمَتِهِ

ثم وازن معناه الشريف ونسجه السخيف، بما رويت لك من كلام أبي العيناء، فلا يسعك إلا أن تقول كما أقول:

«إن القذر يوضع في آنية الذهب فيقبل ويحمل، وإن المسك يوضع في نافجة[1] الطين فيرفض ويهمل»[2].

والذي قاله الأستاذ الزيات – رحمه الله – ومع ما استوفاه من تأمل وتأنق إلا أن من الحق أن نقرر هنا أن المعنى الذي استوفى جمال الصياغة وعناصر البلاغة، لا ينبغي أن يكون فيه اسفاف ورعونة، فَيُودي ويذهب بالقيم التي تنمي الفضيلة وتسمو بالحق، والذي نراه أن القيم على تعددها ينبغي أن يؤازر بعضها بعضاً، فقيمة الجمال حريٌ بها أن تشد من أزر الحق والخير، ولا تنفصل هذه القيم بعضها عن بعض بما يترتب على هذا الانفصال والانفصام من اضرار ومفاسد، فإذا انفردت قيمة الجمال عن قيمة الحق فسد الخُلُق، وإذا انفصلت قيمة الخير عن قيمة الجمال فسد الذوق، اذكر لك مثالين لتوازن بينهما من حيث الشكل والمضمون، والنتيجة مترتبة عليهما معاً.

أما الأول: «فما روي عن سيدنا عليٍّ كرم الله وجهه: «ألا إن الخطايا خيل شُمُسٌ حُمِلَ عليها أهلها، وخُلِعَتْ لُجُمُهَا، فَتَقَحَّمَتْ بهم في النار. وإن التقوى مطايا ذُلُلٌ حُمِلَ عليها أهلها، وأُعْطُوا أزِمَّتَها، فَأوْرَدَتهم الجنة) تجد هنا صورتين: صورة الفرس الشموس لم يروض ولم

(١) النافجة: وعاء المسك.
(٢) دفاع عن البلاغة ص ٢٥ – ٢٨.

يلجم فيندفع براكبه جامحاً لا ينثني حتى يتردى به في جهنم، وصورة الناقة الذلول قد سلس خَطْوُها وخف عنانها فتنطلق بصاحبها في رسيم كالنسيم حتى تدخل به الجنة. ثم تجد عاطفتين: عاطفة النفور من الألم الذي يشعر به الخاطئ المستطار وقد جمحت به خطاياه الرُّعْن في اوعار الأرض حتى ألقته في سواء الجحيم، وعاطفة الميل إلى لذة المتّقي الوادع وقد سارت به تقواه سيراً ليناً حتى ابلغته جنة النعيم.

ذلك من حيث المضمون، أما من حيث الشكل فتجد اختيار الألفاظ المناسبة كالمطايا وما يلائمها من الانقياد والايراد هنا، وكالخيل وما يوائمها من الشماس والتقحم هناك. والفروق الطبيعية بين هذين الحيوانين في هذين المكانين لا تخفى على ذي لب، ثم تجد بعد ذلك هذا التأليف المتوازن المحكم الرصين وهذه المقابلة البديعية بين عشرة معان لا تكلف في صوغها ولا تعسف»[1].

والمثال الثاني فهذه الأبيات التي نقلها ابن الأثير في المثل السائر وهو يتحدث عن الاستعارة وهو قول عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن:

لَما نَظَرتِ إلَيَّ عَنْ حَدَقِ المَها ... وَبَسَمْتِ عَنْ مُتَفَتِّحِ النُّوَّارِ
وَعَقَدْتِ بَيْنَ قَضيبِ بَانٍ أهْيَفٍ ... وَكَثِيبِ رَمْلٍ عُقْدَةَ الزُّنَّارِ
عَفَّرْتُ خَدِّيَ بالثَّرَى لَكِ طائِعَاً ... وَعَزَمْتُ فِيكِ عَلَى دُخُولِ النَّارِ[2]

«وهذه الأبيات لا تجد لها في الحسن شريكاً، ولأن يسمى قائلها شحروراً أولى من أن يسمى ديكاً»[3].

وانظر إلى القيمة في كل من القولين وستجد البون الشاسع.

وخلاصة القول أننا كما ينبغي أن نعتد بجمال الصياغة في الاستعارة البليغة، وروعة الاسلوب وجودة السبك، وأصالة المعنى، فحري أن لا نهمل القيمة التي تبعث بها الاستعارة إلينا، حتى لا تطغى قيمة على قيمة، وإذا كان ذلك عاماً في الأساليب البلاغية، فهو في الاستعارة أولى لما لها من أثر في النفس.

وانقل هنا كلمة للأستاذ عبد الحميد الفراهي، اختم بها هذا الباب، يقول: «فاعلم أن النطق زهرة تخرج من كمال الفهم، وصلاح البنية، فليس لأحد من الحيوان فِطَانَةٌ كفطانة

(١) دفاع عن البلاغة ص ٦٣ - ٦٤.
(٢) المها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية، النوّار: الزهر، البان ضربٌ من الشجر.
(٣) المثل السائر لابن الأثير ٢٧٧/١.

الانسان، ولا لسان كلسانه، فمن كان أكملَهم علماً وجسماً كان أشرفَهُم، ولا يخفى عليك أن اللسان طوعُ الفهم بعدما سُوِّيت خلقتهُ فهو آلةٌ يقلبها العقل. وهذا الأمر يهديك إلى أنّ حسن النطق ليس في الحقيقة من جهة نَغْمَتِه، كنغمة البلبل، بل حسنه في كونه آلةً صحيحةً للعقل، لكيلا يَقْصُرَ أدنى الإقصْار عن افصاح ما أراده العقل، وعن ابلاغه إلى قلب السامع، فالنطق هو الرسول بين العقل والعقل، فاجعل هذا الأمر الفطري أُمَّ الأمر، وقطبَ رحاه، لا المحاكاة؛ فإنها أمر ثانوي لتكتسب به وسائل النطق، فلو لم يكن النطق في الانسان لما استطاع المحاكاة، فإن نظرنا من جهة الحكمة إلى أسباب الكلام تبين لنا أن قوة النطق هو العلةُ الفعليةُ. وأما المعاني ثم الألفاظ فهما المادة، فالنطق يأخذ المعاني ويلبسهما الفاظاً، سواء كانت مما ابتدعها أو مما تعلمها الانسان بوسيلة المحاكاة، وأما العلة الغائيه فرسالة العقل، فإن الأمر العام الذي يجري إليه النطق ليس غير هذا، وأما اللذة فليس من غاية الكلام بل ما من قوة إلا وفي استعمالها لذَة، كأنَّ كلَّ قوة بطبعها تشاقُّ البروز إلى الفعل، فالجاهل يستعمل القوة للذةِ والعاقل لحكمتها، فحكمتها أحق بإسم الغاية. وأما العلة الصورية فحسن الكلام، فلا يكون كماله إلا من جهة كمال الإبلاغ، فالإبلاغ هو معيار حسن الكلام.

واعلم أن حسن البلاغ وكماله يحتوى حسن ما يُبَلِّغه من الصور والمعاني، وهو أولى باللِّحاظ فلا نقيم وزناً لكلامٍ أَبْلَغَ بكمال الصحة شيئاً خبيثاً من نفس متدنسة، فالخَرَسُ أحسنُ من هذا النطق، وهذا رأي يستدعي بياناً لصحته، فإن أبا جعفر قدامة صاحب نقد الشعر وهو أول من جعله فناً من العلوم، قال قولاً يضل به الغافل، وإن كان له وجه صحيح فقال: «ليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودةَ النجارة في الخشب مثلاً رداءتُهُ في ذاته»، وقال أيضاً: «إن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائناً ما كان أن يجيده في وقته الحاضر، فلم يرد من الشعر إلا شيئاً نازلاً، وبضاعةً دنيةً كما هو وجه أكثر المنتسبين إليه، وإليهم الاشارة في قوله تعالى: ﴿والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾ [الشعراء ٢٢٤] ونحن نلتمس محاسن الكلام كما يليق به، وكما وضعته الفِطرة الإلهية، ويقتضيه كمال قوة النطق، ويستعمله الشاعر أو الخطيب الجدير بهذا الإسم»[١].

فاعلم أن الشعر ليس إلا قسماً من أقسام الكلام، والكلام ليس اسماً للجرس المحض، بل هو شيء مركب من المعنى والصوت، والشيء المركب يحكم بحسنه لِحاظاً إلى أصل الأمر فيه. مثلاً إنك لا تصف بالملاحة وجه رجل أعور أفطس إذا وجدت إحدى عينيه

---

(١) هنا انتهى كلام قدامة، ثم يتابع الفراهي كلامه: فاعلم أن الشعر...

مليحة، فكذلك الأمر في حسن الكلام، نعم إن شئت قلت: إن وزن هذا الشعر أو صوته حسن. ثم نُؤْزِرُ هذا الرأي بأمر اقرب إلى الكلام من جهة الإبلاغ، وهو أن الكلام لا يبلغ قلب العاقل إلا أن يكون معناه شريفاً، ولا اعتبار لتأثر الحمقى والأشرار، فإننا إنما نعطي الأشياء اسماً لحاظاً إلى سلامة الحال، وإلا لزمك أن تسمي الكلام حسناً وقبيحاً معاً، أو لا تسميه شيئاً. وهذا أمر يتضح لك كل الإتضاح إذا بحثنا عن اسباب بلوغ المعاني القلوب، فترى أن الألفاظ ربما تصرف عن قواعدها الصحيحة العامة لأجل المعنى الذي يبلغ نفسه بقوة فيه ويجد الألفاظ حجاباً وثقلاً عليه، كما أن مَلَكاً جعل نفسه سفيراً، فالبليغ هو المعنى، واللفظ مركبه، فالمعنى أجدر باللحاظ في حسن الكلام. فذانك برهانان، ثم نعززهما بثالث: وهو أن العرب لم يحمدوا الكلام إلا لحسن معناه، وليس لهم نزوع إلى قولٍ أدّى الخبث، فإنهم يذمونه ويستحقرونه، كما قال زهير بن أبي سلمى[(١)]:

وَذِي نِعْمَــةٍ تَمَّمْتَهــا وَشَكَــرْتَهـــا ... وَخَصْــمٍ يَكَــادُ يَغْلِــبُ الحَــقَّ باطِلُـــهْ[(٢)]

دَفَعْــتَ بِمَعْــرُوفٍ مِــنَ القَــوْلِ صَائِـبٍ ... إذا مَــا أَضَــلَّ النَّاطِقِـــينَ مَفَــاصِلُـــهْ[(٣)]

وَذِي خَطَلٍ فــي القَــوْلِ يَحْسَــبُ أَنَّـــهُ ... مُصيِــبٌ فَمَــا يُلْمِــمْ بِــهِ فَهْــوَ قَائِلُـــهْ[(٤)]

عَبَــأْتَ لَــهُ حِلْمَــاً وَأَكْرَمْــتَ غَيْــرَهُ ... وَأَعْرَضْــتَ عَنْــهُ وَهْــوَ بَــادٍ مَقَــاتِلُـــهْ[(٥)]

فانظر كيف جعل معروف القول صائبه، وبيّن أن حسن القوافي ربما يضل الناس، ولكن بازاء المعروف يضمحل رونقه، فإذا جاء الحق زهق الباطل، ثم كيف استحقر من يقول كل ما يجري على لسانه. ولم يرد أنهما لم يبلغا معناهما، ولكنه عده غير صائب نكر، ذا خطل يرده القلب، فهل تظن أنهم يسمون أمثاله بليغاً، أم تظن إن رأيت بذيئاً يَشْتِمُ أحداً، ذاهباً في كلِّ مذهب من الاستعارة والتشبيه، ومصوراً لكل أمرٍ قبيحٍ، فهل تسميه بليغاً أو فصيحاً، فهذا يبين لك أن حسن الكلام تابعٌ لحسن المعنى، فلا تسمي الكلام حسناً إلا بعد أن حَسُن معناه، ولا نترك للكلام فضيلة إلا صحة الاداء، فإذا أدى الكلام من قلب المتكلم أدى حقه، ولكنه مع ذلك غير بليغ إن لم يكن المعنى مما يبلغ القلب، وكثر في كلام العرب ذم الفحش والخنا والهجر

---

(١) ديوانه ص ٥٦، والقصيدة في مدح حصين بن حذيفة.

(٢) يقول: تُنعِمُ فتتمِّمُ ما انعمت به، وإذا أُسديَتْ إليك نعمةٌ شكرتها.

(٣) دفعت بمعروف: يريد: وربَّ خصمٍ دفعتهُ بمعروف من القول، مفاصله: من قولهم (طبق المفصل) أي أن الجزار الحاذق إذا أراد أن يقطع اللحم اصاب المفصل، فأراد أنه إذا لم يهتدِ الناطقون إلى مفاصل الكلام، فإنك مهتدٍ إليها.

(٤) الخطل في القول: الخطأ، ما يُلْمِمْ به: أي ما يحظره من الكلام، وهذا في وصفِ خصمه.

(٥) عبأت له حلماً: أراد: حلمت عليه وصفحت عنه وقد بدت لك مقاتله.

والبذاذة [١]، حتى إذا خلط شعرهم بهذه المساوئ صار ساقطاً، ألا ترى كيف أمر الحجر بقتل ابنه امرئ القيس لقول الشعر، وسماه الناس ضليلاً. وكيف ذموا النابغة لمدحه الملوك. والعرب تحب مدح الشاكر وذم الساخط وتأنف عن مدح المتذلل»[٢].

---

(١) البذاذة: رثاثة الثياب.

(٢) جمهرة البلاغة / المعلم عبد الحميد الفراهي - سلسلة الدائرة الحميدية / طبع بالهند سنة ١٣٦٠هـ، ص ٩ - ١١.

البــاب الثـــالث
الكنــاية

تعريفها وأركانها:

والكناية لغة أن نتكلم بالشيء ونريد غيره، وهي مصدر كالعناية والرماية والهداية، يقال هدى هداية، ورعى رعاية ورمى رماية وكنى كناية، والظاهر أن فعلها من ذوات الياء، كنى يكنى مثل هدى يهدي ورمى يرمي، وحكى بعضهم فيه لغة أخرى وهي أنه واوي واستشهدوا له بما أنشده الجوهري[(١)].

وإنِّي لأكْنُو عَنْ قَــدُورٍ بِغَـيْـرِهَا   وَأعْــرِبُ أحْـيَـانَاً بِهَـا وَأُصَـارِحُ

(وقَدُر) بفتح القاف وضم الدال: اسم امرأة. والأول أفصح لأنهم يقولون في المصدر (كناية) ولم يقولوا (كناوة).

ومعرفة المعنى اللغوي تمهد لنا للمعنى الاصطلاحي، ومن هنا فقد عرفوا الكناية في الاصطلاح (بأن تريد المعنى وتعبر عنه بغير لفظه) كأن تريد اثبات الكرم لانسان ما، ولكنك تعبر عنه بغير اللفظ الموضوع له، فتقول مثلاً: (كثير الرماد) ولاشك أن كثرة الرماد لم توضع لمعنى الكرم، وهذا الذي اختاره الشيخ عبد القاهر – رحمه الله– ، وقريبٌ منه التعريف الذي اشتهر فيما بعد للكناية وهو (أن تطلق اللفظ وتريد لازم معناه مع قرينه لا تمنع من ارادة المعنى الحقيقي).

وهذا التعريف نستطيع ونحن نلقي الضوء عليه أن نفرق بين الكناية وبين المجاز، فلقد عرفت أن المجاز لابد فيه من قرينة تمنع من ارادة المعنى الحقيقي، أما القرينة في الكناية فلا تمنع من ارادة المعنى الحقيقي، بل يجوز ارادته كذلك، وإنما قلنا يجوز ارادته لأن بعض الكنايات لايمكن أن نحملها على المعنى الحقيقي للفظ، ومع ذلك فإن هذا لايدخلها في المجاز، فالمعول في الكناية إذن أن تعبر عن المعنى بغير لفظه.

ومما سبق تدرك أن الكناية لابد لها من أركان ثلاثة:

١- اللفظ المكنى به.
٢- المعنى المكنى عنه.
٣- القرينة التي تجعل المعنى الحقيقي غير مراد سواء كانت هذه الارادة ممكنة أم غير ممكنة.

---

(١) الصحاح ٢/٤١٥

وإليك أمثلة توضح ذلك كله:

إذا أردت أن تعبر عن ترف امرأة من النساء وعزها وغناها، يمكنك أن تعبر عن ذلك بقولك: « فلانة نؤوم الضحى» فنؤوم الضحى هو اللفظ الذي كنيت به، والترف والدلال هو المعنى الذي كنيت عنه، والقرينة معنوية يدل عليها السياق ولا ريب أن بإمكانك أن تريد المعنى الحقيقي كذلك، أي أنها كثيرة النوم تظل نائمة إلى هذا الوقت، وكذلك إذا قلت: «فلان كثير الرماد» فإنك تكني به عن كرمه، فالركن الأول: اللفظ الذي كنيت به، وهو «كثير الرماد» والركن الثاني: المعنى الذي كنيت عنه، وهو (الكرم) والركن الثالث: القرينة التي فُهِمَتْ من تضاعيف الكلام وسياقه.

وهذا اللفظ قد لايكون له وجود، فكثرة الرماد مثلاً لا وجود لها اليوم لأن أكثر الناس لا يستعملون الحطب، ومع هذا فتظل هذه الكناية باقية صحيحة الاستعمال بينة في اسلوبها وقد نكني عن طول فلان بأنه (طويل النجاد) وهي حمائل السيف، وأنت تعلم أنه لا سيف اليوم ولا سكين ولكن هذه الكناية باقية وقد تعبر عن كرم شخص وعزه بقولك: «المجد بين ثوبيه» كناية عن عزه وسؤدده، وأنت خبير بأن هذا التعبير لايجوز أن نحمله على الحقيقة لأن المجد ليس شيئاً محسوساً حتى يلقى بين الثوبين.

بعد هذا تدرك أن اسلوب الكناية من الأساليب البيانية التي يتسابق فيها البلغاء وتتفاوت فيها أقدامهم ومنازلهم لأنه يحتاج الى اللمحة الذكية والغوص على المعنى، والمجيء باللفظ الذي يمكن أن يدل عليه دون تكلف أوتصنع، فنحن في الكناية ننطق باللفظ وبالجملة من القول، لكننا نريد بها معنى اخر ولا نريد يقيناً معناها الحقيقي، ولا يضيرنا بعد ذلك أكان المعنى الحقيقي ممكناً كقولك: «نؤوم الضحى» و «كثير الرماد» أم غير ممكن كقولنا: «المجد بين برديه» وسواء كان لهذا اللفظ وجود، أم لم يكن له وجود كقولنا «كثير الرماد» و «طويل النجاد» فقد لايكون رماد ولانجاد ولكن تبقى للفظ قيمته التعبيرية واسلوبه البياني.

أقسام الكناية

ولقد اطبق العلماء على تقسيم الكناية الى أقسام ثلاثة، ذلك لأنهم بعد البحث والاستقصاء وجدوا أن المعنى المكنى عنه اما أن يكون صفة كقولهم: « كثير الرماد» فإنه كناية عن الكرم، والكرم صفة – كما تعلم – لأنهم يقصدون بالصفة الصفة المعنوية وليس النعت عند النحويين واما أن يكون موصوفاً وذلك كقول أمير الشعراء(١):

وَلِي بَيْنَ الضُلُوعِ دَمٌ وَلَحْمٌ ... هُمَا الوَاهِي الذي ثُكِلَ الشَّبَابَا

(١) الشوقيات ٦٧/١.

فقد كنى بقوله هذا عن القلب، واما أن يكون نسبة والنسبة هي اثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، وذلك كالمثال المتقدم « الكرم بين برديه» والمراد اثبات الكرم للمدوح وسنحاول توضيح كل من هذه الاقسام الثلاثة ومن الله العون.

أولاً: الكناية عن الصفة:

ولكي يسهل عليك معرفة هذا القسم نبادرك القول بعلاماته ومميزاته، فضابط هذا القسم أن تذكر الموصوف وتنسب له صفة، ولكنك لاتريد هذه الصفة وإنما تريد لازمها ففي قولك: «فلان كثير الرماد» ذكر للموصوف وهو فلان، وذكر لصفته وهي كثرة الرماد ولكنك لم ترد هذه الصفة نفسها، بل أردت صفة لازمة لها وهي الكرم لأن كثرة الرماد تنشأ عن كثرة النار، وهذه تنشأ عن كثرة الحطب وهي تنشأ عن كثرة الطبخ، وذلك نتيجة كثرة الضيفان، والكرم لازم لذلك كله وفي قولك: «خديجة نؤوم الضحى» ذكر للموصوف (خديجة) وذكر لصفتها (نؤوم الضحى) ولكنك لم ترد الصفة نفسها وإنما أردت لازم هذه الصفة وهو الترف، لأن (نوم الضحى) ناتج عنه.

وفي قولك: «فلان طويل النجاد» ذكر للموصوف وذكر لصفته ولكنك تريد غيرها (طول القامة) ذلك لأن السبب في طول النجاد طول القامة، وقولك: «نحن أمة لانملك قلم الرصاص» كناية عن حرية التعبير، و «نحن أمة لاتملك سكيناً» كناية عن الضعف، فلقد ذكرت الموصوف، ولكن الصفات التي ذكرتها ليست هي المقصودة بالذات، إنما قصدت ما تنشأ عنه هذه الصفات، وقولك: «ما أضيع الذين يطأطئون الجباه لغير الله» فلقد ذكرت الموصوف وذكرت له صفة وأردت لازمها وهو الذل.

ومن هذا قولهم: «فلان جبان الكلب مهزول الفصيل» كناية عن الكرم، فإن (جبان الكلب) هو من اعتاد كلبه رؤية الزائرين، ومن عادة الكلب أن ينبح كلما رأى غريباً في البيت، لكن كثرة الزائرين جعلت الكلب يترك نباحه، وكثرة الزائرين تدل على الكرم كما تعلم ومن هذا قول الشاعر(١):

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي ... جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزُولُ الفَصِيلِ

وأبدع من هذا قول نصيب(٢):

لِعَبْدِ العَزِيزِ عَلى قَوْمِهِ ... وَغَيْرِهِمُ مِنَنٌ ظَاهِرَة

(١) هذا البيت لابن هرمة، الصناعتين ص ٢٤٢.
(٢) القصيدة في مدح عبد العزيز بن مروان، ديوان نصيب بن رباح ص٩٩.

فَبَابُكَ أَسْهَلُ أَبْوَابِهِمْ ... وَدَارُكَ مَأْهُولَةٌ عَامِرَةْ
وَكَلْبُكَ آنَسُ بِالزَّائِرِينَ ... مِنَ الأُمِّ بِابْنَتِهَا الزَّائِرَةْ

وأبدع منه قول الآخر[1]:

يَكَادُ إذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيفَ مُقْبِلاً ... يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ

فانظر الى هذه المبالغة في الكناية كيف جعل الكلب يكاد يكلم الضيفان، ويرحب بهم مع أنه لا يستطيع النطق، وأما قولهم مهزول الفصيل فهو كناية عن الكرم كذلك، فالفصيل ابن الناقة، إلا أن كثرة الضيوف وما يشربونه من لبن النياق، تجعل الفصل مهزولاً لأنه لا يشبع من لبن أمه، ومنه قول الشاعر وقد تقدم من قبل:

لاَ أُمْتِعُ العُوذَ بِالفِصَالِ وَلاَ ... أَبْتَاعُ إلاَّ قَرِيبَةَ الأَجَلِ

فهو كناية عن الكرم لأنه لا يمتع النوق بأبنائها وفصلانها، فإنه ينحرها، كما أنه لايبتاع الا قريبة الأجل، فهي لا تمكث في بيته بل تنحر عند دخولها بيته.

ومن هذا النوع من الكنايات قول الشاعر:

لاَ يَرْفَعُ الضَّيْفُ عَيْناً فِي مَنَازِلِنَا ... إلاَّ إلى ضَاحِكٍ مِنَّا وَمُبْتَسِمِ

وهذه كناية بديعة أخرى عن الكرم، إذ يلزم من الضحك والابتسام في وجه الضيف الحفاوة به وهذا يستلزم الكرم، وهو من (الايماء) الذي سيمر بك بعد قليل.

وابدع منه قول المتنبي في رثاء أحدهم[2]:

أَلَسْتَ مِنَ القَوْمِ الأُلى مِنْ رِمَاحِهِمْ ... نَدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلاَهُمُ مُهْجَةُ البُخْلِ

فانظر كيف استعار للبخل مهجةً، ثم للكرم رماحاً طعنت هذه المهجة، فهذه كناية عن كرمهم وافنائهم للبخل بجودهم.

ومنه قول الخنساء في أخيها صخر[3]:

---

(١) هذا البيت لإبن هرمة، الحماسة ٢٤٨/٢

(٢) القصيدة في رثاء أبي الهيجاء عبدالله بن سيف الدولة
الألى: بمعنى اللذين، نداهم: كرمهم، يقول: - مخاطباً الميت - :
أنت من القوم الذين كرمهم من سلاحهم، والبخل من قتلاهم، أي أنهم أفنوا البخل بجودهم

(٣) لم أجد هذا البيت في ديوانها.

طَوِيلُ النِّجَـــادِ رَفِيــعُ العِــمَــادِ   كَــثِــيــرُ الرَّمَــادِ إِذَا مَــا شَــتَــا

وهذه ثلاث كنايات عن ثلاث صفات، الأولى كناية عن الطول وهي (طويل النجاد)

والثانية عن السؤدد والرياسة وهي: (رفيع العماد) والثالثة عن الكرم وهي (كثير الرماد).

ومنه قول المتنبي[(١)]:

فَــمَــسَّــاهُمْ وَبسْطُهُمُ حَــرِيرٌ   وَصَــبَّــحَــهُمْ وَبُسْطُهُــمُ تُرَابُ

يعني أنهم كانوا في المساء يتصفون بالعز والأمن، ولكن أصبحوا يتصفون بالذل، وهما كنايتان بديعتان (فبسطهم حرير) كناية عن عزهم وغناهم و(بسطهم تراب) كناية عن ذلهم وفقرهم، ومنه قول المتنبي[(٢)]:

تَشْـتَكِي مَـاَ اشْـتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّـوْقِ   إِلَيْـهَـا وَالشَّـوْقُ حَـيْثُ النُّحُـــولُ

وهي كناية بديعة كذلك كنى بها عن صفة، وهي كذب محبوبته يقول انها تشتكي مر الفراق، كما اشتكيه، ولكنها كاذبة في شكواها وفيما تدعيه من شوق، فإن الشوق الصادق يبرح بصاحبه فيجعله نحيل الجسم، وهذا ما أصابني بالفعل، أما هي فليست كذلك، ومنه قوله يصف فرسه[(٣)]:

وَأَصــرَعُ أَيَّ الوَحْشِ قَــفَّــيْـتُــهُ بِــهْ   وَأَنْــــزِلُ عَنْــهُ مِــثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

يقول إن فرسه سريع أيا كان الوحش الذي يتبع هذا الفرس، ولكنه حين ينزل عنه لا يجد له تعباً ولا نصباً ولا سآمة، فكلتا حالتيه سواء، حينما يركبه وحينما ينزل عنه، فهو فرس كريم عتيق، ومنه قوله في مديح سيف الدولة[(٤)]:

إِلى كَمْ تَـرُدُّ الرُّسْلَ عَــمَّــا أَتَوْ لَهُ   كَــأَنَّهُمْ فِــيــمَــاَ وَهَبتَ مَــلاَمُ

ومعنى البيت: أنك ترد رسل ملك الروم الذين جاؤوا يطلبون الهدنة، غير مبال ولا متردد، وهذا الرد المنبعث من الثقة والقوة والجرأة والشجاعة، وما أشبه ردك لهؤلاء بردك الملامة عن نفسك بما وهبت من عطايا للسائلين، فكلمة (ملام) متعلقة بـ(ما وهبت) فهنا صفتان: الشجاعة والجود وقد كنى عنهما كما رأيت.

---

(١) ديوان المتنبي ٢١٣/١.
(٢) ديوان المتنبي ٢٦٧/٣.
(٣) ديوان المتنبي ٢٠٤/١
(٤) ديوان المتنبي ١١٠/٣

ومنه بيت الحماسة[1]:

لاَ يَسْـــأَلُونَ أَخَـــاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُـــمْ ... فِي النَّائِبَـــاتِ عَلَى مَـــا قَـــالَ بُرْهَانَاً

والمقصود بهذا القول أن يبين شجاعتهم واسراعهم في اجابة الداعي وقال النابغة يصف نساءً وهن في الأسر[2]:

يُخَطِّطنَ بِالعِـــيدَانِ فِي كُلِّ مَنْـزِلِ ... وَيُخْـــبِـــئْنَ رُمَّـــانَ الثُّـــديِّ النَّوَاهِدِ

وشبيه بهذا قول ذي الرمة[3]

عَـشِـيَّـةَ مَـــالِي حِـيلَةٌ غَـيْـــرَ أَنَّنِي ... بِلَقْطِ الحَـصَى والَخطِّ فِي الأرض مُـولَعُ

أَخُطُّ وأَمْـــحُـــو الخَطَّ ثُمَّ أُعِـــيـــدُهُ ... بِكَفِّـــــيَّ والغِـــرْبَانُ فِي الدَّارِ وَقَّعُ

والتخطيط بالعيدان كناية عن الهم والحزن. (والغربان في الدار) كناية عن خلوها من الناس.

ومنه قول طرفة بن العبد[4]:

أَنَا الرَّجُلُ الضَّـــرْبُ الذِي تَعْـــرِفُـــونَـهُ ... خَـــشَـــاشٌ كَـرَاس الحَـيَّـــةِ المُتَـــوَقِّـدِ

وهذا كناية عن الحذق والذكاء والمهارة.

ومنه قول أبي تمام في مدح ابن شبانة[5]:

فَـــإِنْ أَنَا لَمْ يَحْـمَـــدْكَ عَنِّي صَـــاغِـــراً ... عَـــدُوُّك فَـــاعْلَمْ أنني غَـيْـــرُ حَـــامِـــدِ

يقول مخاطباً ممدوحه: إذا لم يبلغ مدحي لك مبلغاً من الحسن والجمال بحيث يجبر حسنهُ عدوك أن يحفظه وينشده – وبالتالي يكون هذا قمة الصغار والذل له، إذ يتغنى بمدح عدوه – يقول إذا لم يكن مدحي كذلك فلا تعدني مادحاً. فانظر كيف كنى عن جودة مدحه، ثم تخيل أي سعة من الخيال تمتع بها الشاعر وأي مستوى من الذوق بلغ.

(١) شرح ديوان الحماسة ٢٣/١.

(٢) ديوان النابغة ص ٩٧، العمدة ١/ ٢٠٦.

(٣) ديوان ذي الرمة ص ٢٧٤ .. (والغربان في الدار وقع) أي الدار خالية والغربان فيها.

(٤) ديوان طرفة بن العبد ص ١١٤، الضرب: الخفيف اللحم، خشاش: رجل لطيف الرأس ماض سريع الدخول في الأمور، المتوقد: الشديد النشاط

(٥) ديوان أبي تمام ٧٧/٢، والقصيدة في مدح محمد بن الهيثم بن شبانة، وأراد أبو تمام بمدح عدو ممدوحه: حفظه مدحه – أي مدح أبي تمام – وانشاده اياه

ومن الكنايات المشتهرة كذلك (فلانة ناعمة الكفين) (نقية الثوب) و (فلان طاهر الذيل) فالجملة الأولى كناية عن الترف والدلال، وفي الثانية كناية عن العفة والثالثة كذلك، ومن الكنايات المشتهرة «قرع فلان سنه» كناية عن الندم، لأن الإنسان حينما يندم يقرع أسنانه بعضها ببعض، و «فلان هجر الفأر بيته» كناية عن الفقر، «وفلان يشار اليه بالبنان» كناية عن الشهرة، و «فلان عريض القفا» كناية عن البله والخمول أو الغباء، ومنها قولهم «فلان يمشي على بيض» إذا كان بطيئاً في مشيته، و«فلان ركب جناحي نعامة» كناية عن سرعته، ومنها قولهم «فلان يمشي على ثلاثة» و «فلان لوت الليالي كفه على العصا»، هما كنايتان عن الكبر والهرم، «فلان قلع أسنانه» كناية عن التجربة والحنكة، و« فلان لا يرى غيره» كناية عن الكبر والاعجاب بالنفس، وقولهم «فلان منخرق الجيب» كناية عن كثرة الانفاق، «قوي الساعد مفتول العضلات» كناية عن القوة «رابط الجأش» كناية عن الشجاعة، «كثير الاخوان، لين الجانب» عن حسن الخلق واليسر في المعاملة.

هذه الكنايات إذا امعنت فيها النظر وجدت أن كل واحدة منها ذكر فيها الموصوف وذكرت له صفة، إلا أنها لم تكن هي المرادة، انما المراد صفة غيرها، وهذا ضابط الكناية عن الصفة – كما عرفت من قبل – وهنا أمر آخر لابد أن أنبه عليه ارجع الى الكنايات السابقة تجد أن بعضها كثرت فيه الوسائط على حين قلت في بعضه الآخر، كما أنك تجد بعض الكنايات واضحة المأخذ، سهلة الاستنتاج، بينما يحتاج بعضها الآخر الى تأمل وفكر، خذ مثلاً قولنا «فلان كثير الرماد» ألا تجد أن هنا وسائط كثيرة بين المكنى به والمكنى عنه، أعنى بين كثرة الرماد والكرم، لأن كثرة الرماد تستلزم كثرة النار وهذه تستلزم كثرة الحطب، وهذا يستلزم كثرة الطبخ، وهي تستلزم كثرة الضيفان المستلزمة للكرم، لكن قولنا «فلان طويل النجاد» و «فلانة بعيدة مهوى القرط»، وهما كنايتان عن الطول لا تستلزمان شيئاً، فإن طول النجاد يلزم منه طول القامة، وكذلك (بعيدة مهوى القرط) وهو ممتد من شحمة الأذن الى الكتف.

فهاتان كنايتان لا تحتاجان الى تأمل – كما رأيت– إحداهما كثرت فيها الوسائط، ويسميها السكاكي تلويحاً، والأخرى قلت فيها الوسائط ويسميها السكاكي ايماءً واشارة أما إذا كانت الكناية محتاجة الى تأمل كقولنا «فلان عريض القفا» أو «عريض الوسادة» وهما كنايتان عن البله والغباء – كما عرفت – لكن الأولى نجد فيها الوسائط أكثر من الثانية، فإنها تسمى رمزاً عند السكاكي فالسكاكي نظر في تقسيم الكناية – إذن – إلى كثرة الوسائط وقلتها من جهة والى سهولة الاستنتاج من جهة أخرى فإذا كانت الكناية سهلة الادراك وكثرت فيها الوسائط سماها تلويحاً كقولنا: «كثير الرماد» واذا قلت وسائطها مع سهولتها سماها اشارة وايحاء كقولنا: «طويل النجاد» «بعيدةُ مهوى القرط»، أما إذا كانت بحاجة الى تأمل وفكرٍ فإنه يسميها رمزاً سواء كثرت وسائطها كقولنا: «عريض القفا» أم قلت كقولنا «عريض الوسادة».

ثانياً: الكناية عن الموصوف:

ضابط هذا النوع من الكناية أن نذكر الصفة والنسبة ولا نذكر الموصوف المكنى عنه، عرفت في القسم الأول وهو الكناية عن الصفة أننا ذكرنا الموصوف ونسبنا له صفة ما، ولكن لم تكن هي الصفة المرادة، و أظنك تلمح من هذا التعريف أن الكناية لابد فيها من موصوف وصفة ونسبة، ففي الكناية عن الصفة نذكر هذه الثلاث، الا أن الصفة المذكورة غير الصفة المرادة، فقولنا: «فلان كثير الرماد» ذكرنا فيه الموصوف ونسبنا له صفة معينة كنينا بها عن صفة أخرى.

أما في هذا القسم فنحن نذكر الصفة والنسبة فحسب ولا نذكر الموصوف، ولكي يتضح لك الفرق بين القسمين، ينبغي أن تعلم أن الصفة في القسم الأول كانت كناية عن صفة أخرى، أما الصفة في هذا القسم فإن الغرض من ذكرها أن نتوصل بها الى الموصوف المحذوف المكنى عنه، استمع مثلاً الى قول شوقي الذي تقدم:

وَلي بَيْنَ الضُّلُوعِ دمٌ وَلَحْمُ ... هُمَا الوَاهِي الذي ثُكِلَ الشَّبَابَا

وهو كناية عن القلب، ألا ترى أن المذكور هنا، والذي كنى به عن القلب ليس في الحقيقة الا صفة لهذا القلب، فالقلب بين الضلوع والقلب دم ولحم. وهذه الصفات كما ترى لا يتصف بها الا القلب ألا ترى انه لو اقتصر على الدم واللحم ماصلح أن يكون كناية عن القلب، لأن اليد دم ولحم وكثير من الجوارح يمكن أن تكون كذلك، ولكن الذي حسن الكناية هنا في هذا البيت أن مجموع هذه الصفات المذكورة لا تصدق الا على القلب، ومن أمثلة هذا القسم قوله سبحانه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف ١٨]، ولكي تتذوق الكناية نبين لك أن الآية الكريمة جاءت رداً على العرب في جاهليتهم، وقد كانوا يكرهون البنات ويئدونهن ومع ذلك كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، فجاءت الآية ناعية عليهم مقررة جهلهم، مسفهة أحلامهم وعقولهم، يقول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالبَنِينَ﴾ [الزخرف ١٥ - ١٦] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾[الزخرف]١٩.

ومعنى الآيات أنكم اصطفيتم البنين لكم وجعلتم البنات لله، جعلتم له من ينشأ في الحلية ولا يكون في خصومته مبيناً قوياً وهذه صفة للنساء كما تعلم، فإنهن ينشأن في الحلي ولا يبنَّ في خصامهن وهو ما عناه شاعرهم حين قال(١)

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتَالُ عَلَيْنَا ... وَعَلَى الغَانِيَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

(١) وهو عمرو بن أبي ربيعة.

ففي الآية الكريمة كناية، فاللفظ المكنى وهو قوله: (من ينشأ في الحِلْيَة....) أما المكنى عنه فهو النساء، وإذا نظرت الى الصفة وهي التنشئة في الحلية وجدتها مختصة بالنساء ولكن في أيامنا هذه استوى فيها الماء والخشبة وأصبح كل يشبه الآخر، وهذا يذكرنا بقول المتنبي[1]:

وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابُ

وفيه كناية عن الموصوف كذلك، فهو يقول: إن رجالهم أصبحوا كالنساء لأن قوله «من في كفه قناة» كناية عن الرجال، و«من في كفه خضاب كناية عن النساء.

ومنه قول الشاعر[2]:

وَالقَادِسِيَّةُ حَيْثُ زَاحَمَ رُسْتُمُ كُنَّا الحُمَاةَ نَهُزُّ كَالأَشْطَانِ

الضَّارِبِينَ بِكُلِ أَبْيَضَ مُخْذَمٍ وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الأَضْغَانِ

فإن مجامع الأضغان كناية عن القلب، لأنها صفة له في الحقيقة، ومنه قول البحتري في قصيدته التي يتحدث فيها عن طعنه للذئب[3]:

فَأَتْبَعْتُهَا أُخْرَى فَاضْلَلْتُ نَصلَهَا بِحَيْثُ يَكُونُ اللُّبُ وَالرُّعْبُ والحِقْدُ

يريد أنه طعنه في قلبه ولكنه لم يذكر القلب، وانما ذكر صفة كنى بها عن القلب، وهي قوله: «حيث يكون اللب والرعب والحقد» ومنه قول الآخر:

قَوْمٌ تَرَىَ أَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ الوَغَى مَشْغُوفَةً بِمَواطِنِ الكِتْمَانِ

فـ(مواطن الكتمان) صفة القلوب وقد كنى بها عنه، وهكذا اذا قلت «صفا لي مجمع لب فلان» فأنت تريد القلب، ولكنك لم تذكره وانما كنيت عنه بصفته، وهكذا تراهم يكنون عن القلوب بهذه الاوصاف المختلفة الا أنها جميعاً تختص بالقلب كمواطن الكتمان، وهو كذلك مجمع اللب والرعب والحقد وهو موطن الأسرار كما يقول أبو نواس في الخمر:

وَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا إلى مَوْطِنِ الأسْرَارِ قُلْتُ لَهَا: قِفِي

(١) ديوان المتنبي ٢١٣/١.
(٢) وهو عمرو بن معدي كرب، ديوانه ص ١٧٤، والبيت من قصيدة قالها بعد فتح نهاوند على يد النعمان بن مقرن.
(٣) ديوان البحتري ٣٧١/١.

وهو الدم واللحم بين الضلوع - كما قال شوقي. ومنه قول المعري في وصف السيف[1]:

سَلِيلُ النَّارِ دَقَّ وَرَقَّ حَتَّى كَأَنَّ أَبَاهُ أَوْرَثَهُ السُّلاَلاَ

فقد كنى عن السيف بهذه الأوصاف التي سمعت من الدقة والرقة.

ومن الأمثلة المتقدمة تدرك أن الكناية عن الموصوف تنقسم الى قسمين، فاللفظ المكنى به قد يكون وصفاً واحداً، (كموطن الأسرار) و (مجمع اللب والرعب والحقد)، وإما أن يكون أوصافاً متعددة لابد منها جميعاً لتحقق الكناية، ألا ترى الى قول شوقي الذي كنى به عن القلب بأنه بين الضلوع وبأنه دم ولحم، ولو أنه اقتصر على الدم واللحم ما صلحت هذه الكناية.

ويمكن أن نمثل لك بمثال آخر، وهو ما يذكره القوم في كتبهم «زارني حَيٌّ مُسْتَوي القامة عَرِيضُ الأظْفَارِ» فمجموع هذه الصفات كناية عن الإنسان، ولو أخذنا كل صفة على حدة ما صلحت هذه الكناية، فلو اقتصرنا على كلمة (حي) لشارك الإنسان جميع الأحياء، ولو اقتصرنا على (مستوى القامة) فقط، لشمل ذلك بعض الجمادات أو بعض الحيوانات كالتمساح، ولعلك معي في أن هذا المثال ليس ذا قيمة فنية أو روعة بيانية، مع أن الأقدمين والمحدثين اجتمعوا على ذكره، ولم تعدم اللغة أمثلة حية مستلهمة من الواقع، كأن تكني بلون وطعم وشكل عن فاكهة معينة، وباللين والطيب والحسن والحساسية عن المرأة.

ولم لا نمثل لذلك ونحن نستصرخ الأمة ونهيب بها كي تقضي على المكر والجبن والبخل والطغيان، والافساد والحقد أليست هذه الصفات جميعاً يمكن أن نكني بها عن اليهود، لأن مجموعها منطبق عليهم.

ثالثا: الكناية عن النسبة:

في القسمين السابقين كنينا بصفة عن صفة تارة، وبالصفة عن الموصوف تارة أخرى ولكننا في هذا القسم الثالث سنسلك مسلكاً آخر سنذكر الصفة والموصوف الا أننا بدلاً من أن ننسب هذه الصفة لصاحبها فسوف ننسبها لشيء آخر والنسبة هي اثبات شيء لشيء أو نفيه عنه. فالنسبة في قولنا «المؤمنون اعزاء» هي اثبات العزة للمؤمنين، وفي قولنا «المؤمن ليس جباناً» النسبة نفي الجبن عن المؤمن.

---

(١) السليل: الولد.، السلال، والسل: داء يَدْنَفُ الإنسان منه، يقول: إن هذا السيف ولد النار لأنه نشأ في النار حين أخرج من المعدن، فتراه دقيق الشفرتين حتى كأنه ورث داء السل من أبيه، فدنف: أي أجهده العشق. شروح ديوان سقط الزند ٩٨/١.

ولنبادرك بمثال ينير لك الطريق، اذا قلت «فلان المجد بين ثوبيه» و «الكرم بين برديه» فانت انما تريد أن تثبت له الكرم والسيادة، وقد ذكرت هاتين الصفتين، كل مافي الأمر أنك لم تنسبهما لصاحبهما، فلم تقل الكرم والمجد لفلان، وإنما نسبتهما لشيء آخر (البردين والثوبين). ولما كانت النسبة اثبات شيء لشيء أو نفيه عنه، فلابد أن نمثل لهذا القسم بنوعين من الأمثلة:

الأول: ماكانت الكناية فيه اثباتاً.

والثاني: ماكانت فيه نفياً.

أمثلة القسم الأول

ومن أمثلة القسم الأول: المثال السابق، ومنه قولك: «لقد كثر المكر في ساحة اعدائكم أيها العرب، وها هو المكر قد نسج في ثيابهم» فهذه صفات كما ترى لم ننسبها للعدو مباشرة، إنما نسبت لشيء آخر: للساحة وللثوب، ولعل في هذا الأسلوب تزييناً للقول، ولعله أكثر تأثيراً في النفوس كذلك. ومن هذا قول زياد الأعجم(١):

إنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُروءَةَ وَالنَّدىَ ‌ ‌ ‌ فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَىَ ابْنِ الحَشْرَجِ

فقد ذكر هذه الصفات ولم ينسبها لإبن الحشرج مباشرة وانما جعلها في قبة مضروبة عليه ومنه قول أبي نواس(٢):

فَمَا حَازَهُ جُودٌ وَلاَ حَلَّ دُونَهُ ‌ ‌ ‌ وَلَكِنَ يَسِيرُ الجَوُدُ حَيْثُ يَسِيرُ

ففي الشطر الثاني من البيت كناية عن نسبه لأنه يريد أن يثبت الجود للممدوح ولكنه كنّى عن ذلك فجعل الجود ملازماً له يسير حيث يسير ومنه قول الشاعر:

لاَيَنْزِلُ المَجْدُ إلاَّ فِي مَنَازِلِنَا ‌ ‌ ‌ كَالنَّوْمِ لَيْسَ لَهُ مَأْوَىً سِوىَ المُقَلِ(٣)

ففي الشطر الأول كناية يراد بها نسبة - هي اثبات المجد لهم - ذلك أن قصر نزول المجد على منازلهم انما هو اثبات المجد لهم.

ومنه قول المتنبي في مدح كافور(٤)

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٢، وابن الحشرج: هو عبدالله بن الحشرج من سادات قيس وأحد ولاة الدولة الأموية، كان جواداً كثير العطاء.

(٢) البيت من قصيدة في مدح الخطيب بن عبدالحميد العجمي ديوانه ص ٢٩٩.

(٣) ولا تنس أن في البيت تشبيهاً ضمنياً، كما مر معك في باب التشبيه.

(٤) ديوان المتنبي ١/١٥٨، يزري: أي يستهين.

إنَّ فِي ثَوْبِكَ الذي المَجْدُ فِيهِ ... لَضِيَاءً يُزرِي بِكُلِّ ضِيَاءِ

والأصل أن يضيف المجد والنور للممدوح ولكنه نسبهما لثوبه، وقال الشاعر:

اليُمْنُ يَتْبَعُ ظِلَّهُ ... وَالمَجْدُ يَمْشِي فِي رِكَابِهْ

واليمن والمجد صفتان له ولكنه نسبهما لظله وركابه.

أمثلة القسم الثاني:

ومثال الكناية عن النسبة في النفي قول الشنفري الأزدي(١):

يَبِيتُ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُهَا ... إذا مَا بُيُوتٌ بِالمَلامَةِ حِلَّتِ

فهو وصف للمرأة بالعفة، ونفي للملام عنها ولكنه لم يصرح بهذا بل نفى نسبة اللوم عن بيتها ومنه قول العرب« مثلك لايبخل» وهي كناية عن نفي البخل عنه ومنه قولك: «المسلم لايعطى الذلة»ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(٢) وهي كناية عن أن من يؤذي المسلمين ليس مسلماً، وإن لم يذكر الموصوف هنا إلا أنه فهم من الحديث الشريف.

خلاصة القول أن الكناية عن النسبة هي اثبات الصفة لغير الموصوف أو نفيها عن غيره مع أن المراد اثباتها له أو نفيها عنه.

ففي قوله «المجد بين ثوبيه» المكنى به نسبة المجد للثوبين، والمكنى عنه اثبات المجد للممدوح المتحدث عنه.

هذه أقسام الكناية أرجو أن تكون قد بانت لك وظهرت أقسامها بجلاء ولا مانع أن يشتمل المقطع الواحد على هذه الأقسام جميعاً. استمع الى هذا القول، الذي هو نفثة فؤاد مُعَنًّى، وصرخة محزون ملهوف. أصيح بها – ويعلم الله– وقد بلغ السيل الزبى، دونما تكلف ولا تصنع، راجياً أن تجد محلها في القلوب كيف لا وقد نسجت من ذكرى الخامس عشر من أيار، ذكرى اغتصاب فلسطين: «يا أبناء الصحراء ويانبال السماء، إن عدوكم الذي أرضع لبان الحقد وازدحمت ساحاته مكراُو اشتملت ثيابه على الكراهية واللؤم، قد لبس لكم ثوب النمر وقلب لكم ظهر المجن ولابد له من رابطي الجأش مفتولي السواعد في أثوابهم آساد هواصر، فوجهوا سهامكم الى مجامع حقده ومواطن غله، أليس من العار أن تسمعوه سجع الحمام ويسمعكم زئير الأسد، فلتكن العزة حيث تسيرون، والقوة حيث تحلون وترحلون

---

(١) المفضليات ص ٤١.

(٢) سبق الحديث ص١٥٦.

فلتطبقوا عليه بمقابض حديدية، ولا تنسوا أن اسلافكم قد بنوا أبياتهم في الشهب، ومشوا فوق رؤوس الحقب، واستولوا على الزمان في ريعان شبابه، وزاحمت هاماتهم نجوم السماء رفعة وعطروا بسيرتهم كل ناحية وبقعة»

هذه الكلمة إذا تأملتها وجدت فيها أقسام الكناية الثلاث ويمكنك أن تستخرج كل قسم على ضوء ما عرفته من قبل.

بين الكناية والتعريض

تباينت آراء البيانين واختلفت كلمتهم، فمنهم من ذهب الى أن الكناية والتعريض شيء واحد، ومنهم من جعل التعريض قسماً من الكناية، وآخرون ذهبوا الى أن الكناية تختلف عن التعريض، ولعلنا نذهب هذا المذهب، فلقد عرفت أن الكناية هي الستر وهي أن تعبر باللفظ وتريد لازم معناه، فهناك صلة بين اللفظ المكنى به والمعنى المكنى عنه، حيث ينتقل الفكر من الملزوم الى اللازم.

أما التعريض فهو امالة الكلام الى عرض - بضم العين- وهو: الجانب والناحية تقول: (عرضت بفلان) وذلك إذا قلت قولاً لغيره وأنت تعنيه هو - إياك أعني واسمعي ياجارة - فالتعريض إذن أن نذكر جملة من القول نريد بها شيئاً آخر، ولكن هذا الشيء لا يفهم بطريق اللزوم كما رأينا في الكناية، وانما يفهم من السياق. وقد حدثناك في علم المعاني في باب القصر حيث بينا لك أن القصر بـ (إنما) يدل على التعريض، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر٩] ، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام ٣٦] ، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ [فاطر ٢٨] وقول العباس بن الأحنف[1]:

أَنَا لَمْ أُرْزَقْ مَحَبَّتَهَا   إِنَّمَا للعَبْدِ مَا رُزِقَا

ومثل قولك: «إنما الصديق عند الضيق» ففي هذا كله تعريض فارجع اليه[2].

ونزيدك هنا فنبين لك أن باب التعريض باب واسع لا يقتصر على (إنما) وحدها. خذ مثلاً قول الحماسي[3] الذي قدمناه لك في الكناية:

لاَ يَسْأَلُونَ أَخَاهُم حِينَ يَنْدُبُهُمْ   في النَّائِبَاتِ عَلَى مَاقَالَ بُرْهَاناً

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٤٥.
(٢) راجع البلاغة فنونها وأفنانها للمؤلف جـ ١ ص٢٨٦.
(٣) الحماسة جـ ١، ص ٢٣.

وقد قدمنا لك أنه كناية عن صفة، ولكنك إذا عرفت السياق الذي قيل فيه تدرك أن فيه تعريضاً كذلك، فقد قاله الشاعر وهو يلوم قومه لأنهم لم ينجدوه، فهو في ظاهره ثناء على قوم، هم المذكورون في أول القصيدة.

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَـازِنٍ لَمْ تَسْـتَـبِحْ إِبِلـي بَنُو اللَّقِـيطَةِ مِنْ نَسْلِ ابْنِ شَـيْـبَـانَا

وهو مع ذلك تعريض بقومه. دليل ذلك قوله:

إذاً لَقَـامَ بِنَصْـرِي مَـعْـشَـرٌ خُـشُنٌ عِنْـدَ الحَـفِـيظَةِ إِنْ ذُو لَوْثَـةٍ لاَنَا

قَـومٌ إِذا الشَّـرُّ أَبْدَى نَاجِـذَيْهِ لَهُمْ طَـارُوا إِلَيـهِ زُرَافَـاتٍ وَوُحْـدَانَا

لاَ يَسْـأَلُونَ أَخَـاهُمْ حِينَ يَنْدُبُـهمْ فِي النَّائِبَـاتِ عَلَى مَـا قَـال بُرْهَاناَ

ولعمرو الحق إن هذه الأبيات جديرة أن تقال اليوم، وها هم أهل فلسطين يتعرضون لأقسى أساليب البشاعة من اليهود الحاقدين، حتى إنهم ليضربونهم من الجو بسلاح الطائرات الغاشمة الأمريكية (ف١٦). كذلك المسلمون في بقاع الدنيا؛ ففي الشيشان يتعرض المسلمون الى الحقد الروسي، وفي البوسنا يتعرضون للحقد الصربي، وفي غير هذه المواطن من العالم، فمتى يستيقظ المسلمون؟! نرجوا أن يكون قريباً.

وخذ ما حدثناك عنه من قبل «لايجد الفأر في بيته شيئاً» فإذا عرفت أن امرأة عرضت لقيس بن سعد وقالت: «اشكو اليك قلة الفأر في بيتي» ففهم مقالتها وأجاب سؤالها، فملأ بيتها طعاماً وكساء، أدركت أن ذلك من باب التعريض.

ونحسب أن ابن الأثير – رحمه الله – من أكثر البيانيين الذين تحدثوا في هذا الموضوع فوفاه حقه وإليك طرفاً من قوله: «وأما التعريض فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: «والله إني لمحتاج وليس في يدي شيء وأنا عريان والبرد قد آذاني» فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب، لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دل عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع، وعليه ورد التعريض في خطبة النكاح كقولك للمرأة: «إنك الخلية وإني لعزب» فإن هذا وأمثاله لا يدل على طلب النكاح حقيقة ولا مجازاً، والتعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، وإنما سمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عرضه، أي من جانبه، وعرض كل شيء: جانبه.

وأعلم أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معاً، فتأتي على هذا تارة وعلى هذا أخرى، وأما التعريض فإنه يختص باللفظ المركب، ولا يأتي في اللفظ المفرد ألبته، والدليل على ذلك أنه

لا يفهم المعنى فيه من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز، وانما يفهم من جهة التلويح والاشارة وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ولكنه يحتاج في الدلالة عليه الى اللفظ المركب»[1].

«.... وأما التعريض فقد سبق الاعلام به وعرفناك الفرق بينه وبين الكناية، فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمِ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء ٦٢] وغرض ابراهيم صلوات الله عليه وسلامه من هذا الكلام اقامة الحجة عليهم، لأنه قال:﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وذلك على سبيل الاستهزاء وهذا من رموز الكلام، والقول فيه إن قصد إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه واثباته على اسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من الزام الحجة عليهم، والاستهزاء بهم....».

«... ومن هذا القسم أيضاً قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود ٢٧]، فقوله تعالى: ﴿مَا نَرَاكَ إِلا بَشَراً مِثْلَنَا﴾ تعريض بأنهم أحقّ بالنبوة منه، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملأ وموازٍ لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم بها؟ ألا ترى إلى قولهم: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾.

وكان مروان بن الحكم والياً على المدينة من قبل معاوية فعزله، فلما قدم عليه قال له: عزلتك لثلاث لو لم تكن إلا واحدة منهن لأَوْجَبَتْ عزلك: احداهن أني أمّرتك على عبد الله بن عامر وبينكما ما بينكما فلم تستطع أن تشتفي منه، والثانية كراهتك أمر زياد، والثالثة: أن ابنتي رملة إِسْتَعْدَتْكَ على زوجها عمر بن عثمان فلم تُعْدِها، فقال له مروان: أما عبد الله بن عامر فإني لا أنتصر منه في سلطاني، ولكن إذا تساوت الأقدام علم أين موضعه، وأما كراهتي أمر زياد فإن سائر بني أمية كرهوه، وأما استعداء رملة على عمر بن عثمان، فوالله إنه لتأتي عليَّ سنةٌ وأكثر وعندي بنت عثمان فما أكشف لها ثوباً – يريد بذلك أن رملة إنما استعدت لطلب الجماع – فقال له معاوية: يا ابن الوَزَغ[2] لست هناك، فقال له مروان: هو ذاك، وهذا من التعريضات اللطيفة.

ومثله في اللطافة ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذاك أنه كان يخطب

---

(١) المثل السائر ص ١٩٨.

(٢) الوزغ: دابّة صغيرة تعرف في بعض المناطق بالسحليّة.

يوم جمعة، فدخل عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال عمر: أيّة ساعة هذه؟ فقال عثمان: ياأمير المؤمنين، انقلبتُ من أمر السوق فسمعت النداء فما زِدْتُ على أن توضأت فقال عمر: والوضوء أيضاً، وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل؛ فقوله: «أية ساعة هذه» تعريض بالإنكار عليه لتأخره عن المجيء إلى الصلاة وترك السبق إليها، وهو من التعريض المعرب عن الأدب.

ووقفت في كتاب العقد على حكاية تعريضية حسنة الموقع، وهي أن امرأة وقفت على قيس بن عبادة، فقالت: أشكو إليك قلة الفأر في بيتي، فقال: ما أحسن ما ورّت عن حاجتها، املئوا لها بيتها خبزاً وسمناً ولحماً.

ومن خفي التعريض وغامضه ما ورد في الحديث النبوي وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول: «والله إنكم لتُجَبِّنُونَ وَتُبَخِّلُون وَتُجَهِّلُون، وإنكم لمن ريحان الله، وإن آخر وطأة وَطِئَها اللهُ بِوَجّ». اعلم أن وجّاً وادٍ بالطائف، والمراد به غُزاةُ حُنَيْن، حنين: وادٍ قبل وجّ، لأن غُزاة حنين أُوقع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين، وأما غزوتا الطائف وتبوك اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيهما وطأة: أي قتال، وإنما كانتا مجرد خروج إلى الغزو من غير ملاقاة عدو ولا قتال، ووجه عطف هذا الكلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «وإن آخر وطأة وَطِئَها الله بوجّ» على ما قبله من الحديث وهو التأسف على مفارقة أولاده، لقرب وفاته، لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان، ووفاته صلى الله عليه وسلم كانت في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة وبينهما سنتان ونصف، فكأنه قال وإنكم لمن ريحان الله، أي من رزقه، وأنا مفارقكم عن قريب إلا أنه صانع[1] عن قوله وأنا مفارقكم عن قريب بقوله: «إن آخر وطأة وطئها الله بوجّ» وكان ذلك تعريضاً بما أراده وقصده من قرب وفاته صلى الله عليه وسلم.

ومما ورد من هذا الباب شعراً قول الشُّمَيْذَر الحارثي:

بَنِي عَمِّنَا، لا تَذْكُرُوا الشِّعْرَ بعدَمَا ... دَفَنْتُم بِصَحْرَاءِ الغُمَيْرِ القَوَافِيَا

وليس قصده ها هنا الشعر، بل قصده ما جرى في هذا الموضع من الظهور عليهم والغلبة، إلا أنه لم يذكر ذلك بل ذكر الشعر وجعله تعريضاً بما قصده: أي لا تفخروا بعد تلك الواقعة التي جرت لكم ولنا بذلك المكان.

ومن أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن مَسْعدة الكاتب إلى المأمون في أمر بعض أصحابه، وهو: «أما بعد؛ فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين ليتطول في إلحاقه بنُظرائه من

---

(١) أي عرّض أو كنى.

الخاصة، فاعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعدّي طاعته، فوقّع المأمون في ظهر كتابه قد عرفت تصريحك له وتعريضك لنفسك وقد أجبناك إليهما»[1].

الكناية في كتاب الله تعالى

جرياً على ما عودناك من قبل، نذكر لك شيئاً من الكناية في كتاب الله تعالى وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم.

كتاب الله هو نهاية البلاغة وهو أعلى طبقات البيان، ارفعها عماداً وأكثرها مداداً، ولأسلوب الكناية من ذلك نصيب وافر، إلا أن للكناية في القرآن الكريم أهدافاً متعددة، وأسباباً متنوعة وأغراضاً ذات شأن.

١- فقد تأتي الكناية في كتاب الله تعالى لتصور لك المعنى المعقول في صورة محسوسة، وقد عرفت ما للحسيات من أثر في النفوس.

استمع إلى قوله سبحانه وهو يرد على ذوي العقائد الفاسدة، الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومع هذا فهم إذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظل وجههُ مسوداً وهو كظيم، يقول تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف ١٨]، وقفْ أمام هذه الكناية البديعة الرفيعة الموحية.

قال الزمخشري: «ينشأ في الحلية أي يتربى في الزينة والنعمة وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحتج به على من يخاصمه... وفيه أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المصايب والمذام، وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: «اخشوشنوا وتَمَعْدَدُوا وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى»[2].

واستمع إلى قوله سبحانه ينفر من البخل وينهى عن التبذير: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء ٢٩]، وانظر إلى هذه

---

(١) المثل السائر ٢١٢ - ٢١٥.

(١) الكشاف ٤/٢٤٣. (تَمَعْدَدُوا): أي عيشوا عيشةَ العَرَبِ الأوَل: أي عيشةً خشنة فيها شظفٌ وشدة؛ لا عيشة المترهلين؛ لأنها تؤدي إلى الترف والبطر، فتحول بينكم وبين الجهاد والعمل، واللفظ (تمعددوا) نسبةً إلى معد أبي العرب الأول.

الصورة المحسوسة التي تصل إلى جذور النفس، فصورة اليد المغلولة إلى العنق يمكن لكل واحد أن يتصورها بدون عناء ولا تكلف، ولم يجعلها مغلولة فحسب، ولكنها إلى العنق كذلك، ووازن بين هذا التعبير وبين قولنا اجتنب البخل؛ تجد فروقاً كثيرة بين اللفظين، وانظر إلى قوله كل البسط لتدرك أن النهي ليس عن أي حالة من حالات البسط، وإنما عن البسط الذي فيه تفريط.

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات ١٢]، فانظر إلى هذه الصورة في النهي عن الغيبة {أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه} أليس النيل من العرض كتمزيق اللحم؟ وهل هناك شيء تنفر منه النفس أكثر من أكل لحم الانسان؟ فكيف إذا كان هذا الانسان أخاً؟! وانظر إلى قوله (ميتاً) وكيف تزيد هذه الصورة بشاعة واشمئزازاً، وإذا كان اللحم المأكول لحم ميت فكذلك المغتاب تنال منه وهو لا يدري ولا يعلم، فالقرآن يرشدنا إلى أننا ينبغي أن ننفر من الغيبة كما ننفر من هذه الصورة، صورة أكل لحم الأخ ميتاً، تلك صورة محسوسة لشيء معنوي، عبر عنها بهذه الكناية الموحية الهادفة.

وقف مع قوله سبحانه: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن ٥٦]، وهي كناية عن العفة، ولكن أين هذا التعبير من قولنا: «هن عفيفات»، فالتعبير القرآني يصور لنا أن هؤلاء النسوة قد قصرن الطرف عن غير أزواجهن، فهذه القناعة وتلك العفة طبيعة فيهن، فهن لا يتجاوزن بنظراتهن أحداً من الرجال.

٢- ومن أهداف الكناية في القرآن الايجاز، وإن كانت تلك ميْزة في الأساليب القرآنية جميعاً، إلا أن في هذا النوع زيادة إيجاز. انظر إلى قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة ٢٤]، وقد جاءت الآية الكريمة في سياق التحدي ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة ٢٣]، أي إن لم تستطيعوا أن تأتوا بسورة من مثله، ولن تستطيعوا ذلك فاتركوا العناد، وانقادوا لهذا النبي وآمنوا بهذا القرآن. فانظر كيف كنى عن هذا كله وغيره بهاتين الكلمتين الجامعتين (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) وما فيهما من روعة الايجاز ونهايته ومثله قوله سبحانه: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ [الحج ٧٧]، وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة ٧٩].

٣- ومن أهداف الكناية في كتاب الله تعالى (التهذيب)؛ لنتعلم الأدب في الحديث حتى لا تثير

العبارات نزوات النفوس، وكوامن العواطف، وسهام الغرائز، وأين هذا مما سمّوه أدباً مكشوفاً - وما هو بأدب - استمع إلى قوله سبحانه: ﴿ما المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلا رَسُولٌ قد خلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُسُلُ وأمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يأكُلانِ الطَّعامَ﴾ [المائدة ٧٥]، وقف أمام قوله: ﴿يأكلان الطعام﴾، والكناية لفظ اطلق وأريد لازم معناه - كما عرفت - وماذا ينتج عن الأكل، إنه التَغَوُّط، ولكن القرآن اكتفى بالملزوم فكنى بالأكل عما بعده، وهذا يتنافى مع الألوهية، فما أبدع هذا المنطق وما أنظف هذا الاسلوب. واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿نساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأتُوا حَرْثَكُمْ أنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة ٢٢٣]، وما تبعثه كلمة (الحرث) وتدل عليه من الغايات النبيلة.

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿فالآنَ باشِرُوهُنَّ وابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ [البقرة ١٨٧]، وإلى قوله: ﴿وكَيْفَ تأخُذُونَهُ وقَدْ أفْضَى بَعْضُكُمْ إلى بَعضٍ﴾ [النساء ٢١]، وقوله: ﴿أوْ جَاءَ أحَدٌ مِنكُمْ مِنَ الغَائِطِ﴾ [المائدة ٦]، هذه الكنايات مع ايجازها وايحائها حيث نستشف منها المعنى كاملاً غير منقوص، نجدها ذات أدب رفيع وهي تعلم وتهذب. وأخيراً نستمع إلى قوله سبحانه: ﴿فَإذَا تَطَهَّرْنَ فَأتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أمَرَكُمُ اللهُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِين﴾ [البقرة ٢٢٢]، تلك كناية عن موصوف، ولكي تدرك الروعة القرآنية وتسمو مع الآيات الكريمة لا بأس أن تستمع إلى بعض أقوال الشعراء من كنايات في هذا المعنى نفسه، قال أبو نواس:

أتَتْ بَجِرَابِهَا تَكْتَالُ فِيهِ ... فَقَامَتْ وَهْيَ فَارِغَةُ الجِرَابِ

وقال المتنبي[(١)]:

إنّي عَلَى شَغَفِي بِمَا فِي خُمْرِهَا ... لأعِفُّ عَمَّا فِي سَرَاوِيلاَتِهَا

وقال الشريف الرضي[(٢)]:

يَحِنُّ إلى ما تَضْمَنُ الخُمْرُ والحِلَى ... وَيَصْدُفُ عَمَّا في ضَمَانِ المَآزِرِ

(١) ديوان المتنبي ٣٤٨/١.

(٢) ديوان الشريف الرضي ٤٤٧/١. الخُمْر: جمع خمار: وشاح، ويجمع أيضاً على خُمُر واخمرة. يصدف: يُعرض. ضمان المآزر: ما تحتويه المآزر والحزم من الخصر وما حوله.

وهناك كنايات كثيرة ليست بخير من التصريح، آثرنا خلوّ الكتاب منها، وأظنك مع تفضيلك لكناية الرضي على غيرها، إلا أن الكناية القرآنية تبقى محتفظةً بشموخها ورفعتها وترفعها، مع وقارٍ وعفّة.

ومن كنايات القرآن البديعة:

- قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف ٤٢]. فهذه كنايةٌ عن الندم؛ لإن النادم يفعل ذلك عادة.

- قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [المائدة ٦٠]، اثبت الشر لمكان الشيء، كناية عن إثباته لهم وهي أبلغُ في الدلالة على شرِّهم.

- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد ٣٣]، أي بشركاء لا يعلمهم سبحانه، وإذا كان لا يعلمهم - وهو عالمٌ بكل شيءٍ مما كان أو يكون، فهم لا حقيقة لهم. فهو نفيٌ لهم بنفي لازمهم.

واعلم أن موضوع الكناية من أول الموضوعات البيانية التي تحدث عنها العلماء، تجد هذا في مجاز القرآن لأبي عبيدة، وهو من أقدم المؤلفات، حيث كان تأليفه عام مئة وثمانية وثمانين للهجرة (١٨٨هـ)، وقد تحدث فيه عن كثير من كنايات القرآن وغيرها من الأساليب البيانية، وفي هذا أبلغ ردٍّ على الذين يزعمون أن بلاغتنا بعيدة عن الأصالة تدين بالتبعية لارسطو وغيره.

الكنايات في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا استعرضنا السنة النبوية وجدنا اسلوب الكناية يؤدي دورهُ البياني ايجازاً وتصويراً، ووظيفته الاجتماعية تعليماً وتهذيباً، وسنذكر لك طرفاً من هذه الكنايات من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم.

(١) وليكن أولها قوله صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِم»[١] وهي كناية بديعة - كما ترى - عبر بجوامع الكلم عن الكلمات المؤثرة المشتملة على المعاني الكثيرة، إلى ما هنالك من صفات للكلمة المؤثرة.

(٢) ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «رُوَيْدَكَ سَوْقَكَ بِالقَوَارِير»[٢] يريد بذلك النساء فكنى عنهن بالقوارير[٣].

(٣) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «خِيَارُكُمْ أَلْيَنُكُم مناكبَ في الصَّلاة»[٤] فهي كناية لطيفة، عبر بلين المناكب عن سهولة الانقياد وسرعة الحركة لسد الفرج في الصلاة.

(٤) وقال صلى الله عليه وسلم: «من كانت الآخرةُ همَّهُ جَعَلَ اللّهُ غنَاهُ في قَلْبه وَجَمَعَ عَلَيه شَمْلَهُ، وأَتَتْهُ الدّنيا وهي رَاغمةٌ، ومن كانت الدنيا همَّهُ جعَلَ اللّهُ فَقْرَهُ بين عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْه شَمْلَهُ ولَمْ يَأته منَ الدُنيا إلا ما قَدَرَ لَهُ، فَلا يُمسِي إلا فَقيراً ولا يُصبِحُ إلا فَقيراً، وما أَقْبَلَ عَبْدٌ على اللّه بِقَلْبِهِ إلا جَعَلَ اللّهُ قُلوب المؤمنينَ تَنْقَادُ إليه بِالوُدِّ والرَحْمَةِ، وكانَ اللّهُ بِكُلِّ خير إليهِ أسْرَعَ»[٥]، ففيه كنايات بديعة لطيفة، فكنى بقوله من كانت الآخرة همه عن التمسك بدين اللّه، وبقوله: «جعل اللّه غناه في قلبه» عن القناعة بما قسم اللّه له من رزق وهكذا.

(٥) ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنَّهُ كَانَت امرأةٌ فيمَنْ كَانَ مِنْ قَبْلنَا وكَانَ لها ابنُ عم يُحبِهُا فَرَاوَدَهَا عن نفسها، فامْتَنَعَتْ عليه حتى إذا أصابَتْها شدَّةٌ فجاءت إليه تَسأَلُهُ فراودها فَمَكَّنَتهُ مِن نفسها، فلما قعد منها مَقْعَدَ الرَّجُلِ من المَرأةِ قالت له: لا يَحِلُّ لَكَ أن

---

(١) أخرجه البخاري - كتاب التعبير- باب (رؤيا الليل) (١١)، ومسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - حديث (٥).

(٢) سبق الحديث ص ٢٣١.

(٣) قدمنا لك من قبل أن هذا من باب الاستعارة، ولكننا قدمنا لك كذلك أن النصّ الواحد يمكنُ أن تنظر إليه من أكثر من حيثية واحدة.

(٤)أخرجه أبو داوود في (السنن)- كتاب الصلاة - باب (تسوية الصفوف) حديث رقم: (٦٧٢)، ص١٦٠.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٨٣/٥ حديث رقم (٢١٩٢٥).

تَفُضَّ الخاتمَ إلا بِحقِّهِ، فقامَ عَنْهَا وَتَرَكَهَا»[١].

(٦) وقال صلى الله عليه وسلم: «لقد أُخفتُ في الله ما لم يُخَفْ أحد وأُوذيْتُ في الله ما لم يُؤْذَ أحد، ولقد أتَى عليَّ ثلاثون ما بينَ يَوْمٍ وليلة ومالي ولا لِبِلالٍ من الطَعَامِ إلا شيءٌ يواريه إِبْطُ بِلال»[٢]وهذه كناية عن القِلَّة.

(٧) وقال صلى الله عليه وسلم: «خِصاءُ أمّتي الصِّيَام»[٣]كناية عن شدة تأثير الصيام على النفس.

(٨) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله هلكت. قال: وما أهلكك، قال: حَوَّلْتُ رَحْلِيَ البَارِحَةَ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:«أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ واتَّقِ الدُّبُرَ والحَيْضَةَ»[٤].

(٩) ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرَكِيَّةِ جاءه بُدَيل بنُ وَرْقاء في نفر من قومه من أهل تهامة فقال:« تَرَكْتُ كعبَ بنَ لُؤيَ وعامرَ بنَ لُؤيَ نزلوا عِدَادَ مياه الحُدَيْبِيَة معهم العُوذُ المَطَافِيلُ، وهم مُقَاتِلُوك وصادُّوكَ عن البَيْت»[٥].

(١٠) وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا مَشَتْ أُمَّتِي المُطَيْطَاءَ[٦]، وخدمتها أبناءُ المُلوكِ فارس والروم سلِّطَ شِرَارُها على خِيَارِها»[٧].

(١١) وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَضْمَنُ ليُ ما بين لِحْيَيْهِ وما بينَ رِجْلَيهِ أَضْمَنُ له الجَنَّةَ»[٨].

(١٢) ويروى أن عمرو بن العاص زوّج ولده عبد الله رضي الله عنه فمكثت المرأة عنده ليالِيَ ثلاثاً لَمْ يَدْنُ منها. وإنما كان مُلْتَفتاً إلى صلاته فدخل عليها عمرو بعدَ ثلاث فقال: «كيف تَرَيْنَ بَعْلَكِ؟ فقالت نِعمَ البَعْلُ إلا أَنَّه لم يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفاً ولا قَرُبَ لَنَا مَضْجَعاً».

---

(١) رواه البخاري كتاب البيوع، باب (٩٨) (إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي)، حديث رقم ٢١٠٢.

(٢) رواه الترمذي أبواب صفة القيامة، باب بعض ما لاقاه صلى الله عليه وسلم أول أمره حديث رقم ٢٤٧٤ قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) رواه أحمد بن حنبل / المسند جـ٢، ص ١٧٣.

(٤) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن، باب (من سورة البقرة رقم (٢) حديث ٢٩٨٤ قال أبو عيسى: حديث حسن غريب.

(٥) رواه البخاري - كتاب الشروط - باب (١٥) الشروط في الجهاد والمصالحة في الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٥٨١)، العوذ: جمع عائذ: وهي الناقة التي مضى على ولادتها عشرة أيام، المطافيل: يقال: طَفِلَت الناقةُ طَفْلاً: أي ربّت طفلها.

(٦) المطيطاء: التبختر ومد اليدين في المشي، وفي التنزيل: {ثم ذهب إلى أهله يتمطى}.

(٧) رواه الترمذي كتاب الفتن باب رقم ٧٤ حديث رقم ٢٢٦٢، قال أبو عيسى: حديث غريب.

(٨) رواه البخاري كتاب الرقاق باب (٢٣) (حفظ اللسان) حديث رقم ٦١٠٩.

(١٣) وقال صلى الله عليه وسلم: «المؤذنون أطولُ أعناقاً يومَ القيامة»[١].

وهذه الكنايات، وأنت تقف مع كل واحدة منها، تجد لها أهدافها المتعددة، وكنا نودّ أن نقف معك عند كل كناية، ولكن بدا لنا أن الأمر من السهولة بحيث لا يحتاج إلى شرح وتبسيط.

---

(١) رواه مسلم كتاب الصلاة باب فضل الأذان، وهرب الشيطان عند سماعه رقم (٨) حديث رقم ٣٨٧.

بلاغة الكناية

لا نودُّ هنا أن نُفاضل بين الأساليب البيانية، أيها أكثر بلاغة، وأنفذ سحراً، وأكثر تأثيراً، فلكل أثره الذي يمتاز به عن غيره، إلا أننا نودّ أن نقرر هنا أن لأسلوب الكناية لونه الخاصَّ به فهو من حيث التأثير - كما رأيت - ومن حيث الملاحة والعذوبة يشترك مع غيره من الأساليب السابقة، إلا أننا نجد فيه مالا نجده في غيره.

فهو أولاً مع إمتاعه يمتاز بالإقناع، لأنه لا يأتيك بالدعوى إلا ومعها دليلها، ألا ترى أن قولهم: «كثير الرماد»، التي يكنون بها عن الكرم إنما جاءت دليلاً محسوساً لإثبات هذا الكرم، وكذلك كل كناية إن تأملتها، تجد أنها جاءت دليلاً على المعنى المراد منها.

وربما تقول: لقد حدثتنا عن هذا وما يشبهه، في بعض أنواع التشبيه، كالتشبيه الضمني وغيره من أنواع التمثيل، فلقد جاءت بعض التشبيهات أدلة لاثبات ما ادّعيناه، ونحن لا ننكر هذا، كيف وقد جئنا له بالأمثلة الكثيرة، ولكن مع ذلك يبقى فرق بينه وبين الكناية، فهذا في بعض أنواع التشبيه - كما رأيت -، ولكننا نجده في كل كناية، على معنى أنه ليس كل تشبيه نجد فيه دليلاً على دعوى نريدها، إنما هو في نوع خاصٍّ منه، ولكن كل كناية كذلك، ثم إن هناك فرقاً بين التشبيه وبين الكناية كذلك، فالكناية أوجز لفظاً، ففي التشبيه لا بد من بيتين أو بيت واحدٍ على الأقل فمثال البيتين:

دَانٍ إلى أيْدِي العُفَاةِ وَشَاسِعٌ … عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّدَى وَضَرِيبِ
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي العُلُوِّ وَضَوْءُهُ … لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

فأنت ترى أن البيت الأول اشتمل على الدعوى، واشتمل البيت الثاني على دليل، ومثال البيت الواحد:

فإنْ تَفُقِ الأنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ … فَإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

فأين هذا من الايجاز الذي نجده في قولنا «كثير الرماد».

خلاصة القول أن من خصائص الكناية، ومميزاتها أنها دليل على الدعوى التي نريد إثباتها، وهذا ذاتي في الكناية ولكنه عارض في بعض أنواع التشبيه.

وهناك ميزة أخرى للكناية، وهي أننا نستطيع أن نعبر بوساطتها عن كثير مما نتحاشى التصريح به، فهي باب واسع تجد النفس فيها المكمن الآمن، والطريق الذي ليس فيه خطورة ولا وعورة، والمسلك الخالي من كل ما يجلب التعب والأذى.

ألا ترى أنك باسلوب الكناية يمكنك أن تَشْفي غُلة نفسك، فكم من كلمة لا تود التصريح

بها تَرَفُّعاً، فتجد في الكناية متنفساً فتنتقل من المعنى المكشوف إلى المعنى المكسوف، وربما كان ذلك خشيةً لا تَرَفُّعاً، فتنال باسلوب الكناية من خصمك وتبلغ ما لا تستطيعه في غيرها.

يقول الأستاذ علي الجارم(١):

«الكناية مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه وصفت قريحته، والسرُّ في بلاغتها أنها في صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طَيِّها برهانها كقول البحتري في المديح(٢):

يَغُضُّونَ فَضْلَ اللَّحْظِ مِنْ حَيْثُ مَا بَدَا   لَهُمْ عَنْ مَهِيبٍ فِي الصُّدورِ مُحَبَّبِ

فإنه كنى عن إكبار الناس للممدوح وهيبتهم إياه، بغضِّ الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال، وتظهر هذه الخاصّة جليةً في الكنايات عن الصفة والنسبة.

ومن أسباب بلاغة الكناية أنها تضع لك المعاني في صورة المُحَسَّات، ولا شك أن هذه خاصّة الفنون، فإن المصوِّر إذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً.

فمثلاً «كثير الرماد» في الكناية عن الكرم، و«رسول الشرِّ» في الكناية عن المزاح، وقول البحتري(٣):

أوَمَا رَأَيْتَ المَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ   فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ

في الكناية عن نسبة الشرف إلى آل طلحة، كلُّ ذلك يبرز لك المعاني في صورة تشاهدها وترتاح نفسك إليها.

ومن خواص الكناية أنها تمكنك من أن تشفي غلتك من خصمك من غير أن تجعل له إليك سبيلاً، ودون أن تخدشَ وجه الأدب وهذا النوع يسمى بالتعريض، ومثاله قول المتنبي في قصيدة يمدح بها كافوراً ويعرِّض بسيف الدولة(٤):

رَحَلْتُ فَكَمْ بَاكٍ بِأَجْفَانِ شَادِنٍ   عَلَيَّ وَكَمْ بَاكٍ بِأَجْفَانِ ضَيْغَمِ(٥)

---

(١) البلاغة الواضحة ص ١٣٩.

(٢) ديوان البحتري ١/١١٧، والبيت في مدح الفتح بن خاقان.

(٣) ديوانه ٢/١٦٠.

(٤) ديوان المتنبي جـ٤، ص ٢٦٤.

(٥) الشادن ولد الغزال، والضيغم: الأسد، أراد بالباكي باجفان الشادن: المرأة الحسناء، وبالباكي باجفان الضيغم: الرجل الشجاع، يقول كم من نساء ورجال بكوا على فراقي وجزعوا لارتحالي.

وَمَا رَبَّةُ القُرْطِ المَلِيحِ مَكانُهُ ... بِأَجْزَعَ مِنْ رَبِّ الحُسامِ المُصَمِّمِ(١)

فَلَو كانَ ما بي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ ... عَذَرْتُ ولَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمَّمِ(٢)

رَمَى وَاتَّقَى رَمْيِي وَمِنْ دُونِ مَا اتَّقَى ... هَوىً كَاسِرٌ كَفِّي وَقَوسِي وَأَسْهُمِي(٣)

إِذَا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ ... وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ(٤)

فإنه كنى عن سيف الدولة أولاً بالحبيب المعمم، ثم وصفه بالغدر الذي يدّعي أنه من شيمة النساء، ثم لامه على مبادرته بالعدوان، ثم رماه بالجبن لأنه يرمي ويتقي الرمي بالاستتار خلف غيره، على أن المتنبي لا يجازيه على الشرِّ بمثله؛ لأنه لا يزال يحمل له بين جوانحه هوىً قديماً يكسرُ كفه وقوسَه وأسهمَه إذا حاول الفصال، ثم وصفه بأنه سيء الظن بأصدقائه لأنه سيء الفعل كثير الأوهام والظنون، حتى ليظن أن الناس جميعاً مثلُهُ في سوء الفعل، وضعف الوفاء، فانظر كيف نال المتنبي من سيف الدولة هذا النيل كله من غير أن يذكر من اسمه حرفاً.

هذا ومن أوضح ميزات الكناية: التعبير عن القبيح بما تُسيغُ الآذان سماعه، وأمثلة ذلك كثيرة جداً في القرآن الكريم وكلام العرب، فقد كانوا لا يعبرون عما لا يحسن ذكره إلا بالكناية، وكانوا لشدّة نخوتهم يكنون عن المرأة بالبيضة والشاة.

ومن بدائع الكنايات قول بعض العرب:

أَلاَ يَا نَخْلَةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ ... عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلامُ

فإنه كنى بالنخلة عن المرأة التي يحبها».

ولعل عبد القاهر اشار لكثير من هذا حينما حدثنا عن الكناية بأنها أبلغ من الافصاح، وليس معنى هذا أنها تدل على الكثرة من حيث الكمّ - كما يقولون - فقولنا: «فلان كثير الرماد» لا يفهم منه أنه يدلّ على كثرة الكرم، أكثر من قولنا هو جواد لا يبخل بشيء، لكن الكناية أكثر تأثيراً في النفس وأكثر تأكيداً للمعنى الذي نريد. يقول الشيخ رحمه الله:

---

(١) القُرط: ما يعلق في شحمة الأذن، والحسام: السيف القاطع، والمصمم الذي يصيب المفاصل ويقطعها.

(٢) أراد بالمقنع: المرأة لأن سمتها القناع، والمعمم: الرجل لأنه يلبس العمامة. يقول: لو كان الذي اشكوه (الغدر بي) من امرأةٍ لعذرتها ولكنه من رجل.

(٣) المعنى: إن حبي إياه منعني عن المكافأة بالاساءة، عبَّر بالرمي عن الاساءة وعن أمنه من المكافأة بالهجاء بالإتقاء.

(٤) المعنى: المسيء يسيء الظنّ وما يخطر بقلبه من التوهم على اساءة غيره يصدق ذلك؛ فكلما سمع عن غيره كلام سوء ظنهُ فيه.

«قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلاً، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة، إلا أن ذلك وإن كان معلوماً على الجملة، فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته، وحتى يغلغل الفكر إلى زواياه، وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة، فنحن وإن كنا نعلم أنك إذا قلت: «هو طويل النجاد» و «هو جم الرماد». كان أبهى لمعناك، وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذي تريد، وكذا إذا قلت: «رأيت أسداً» كان لكلامك مزية لا تكون إذا قلت: «رأيت رجلاً هو والأسد سواء في معنى الشجاعة، وفي قوة القلب وشدة البطش وأشباه ذلك»، وإذا قلت: «بلغني أنك تقدم رِجلاً وتؤخرُ أخرى». كان أوقع من صريحه الذي هو قولك: «بلغني أنك تتردد في أمرك» وإنك في ذلك كمن يقول: «أخْرُج ولا أخْرُج» فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى. ونقطع على ذلك حتى لا يخالجنا شك فيه فإنما تسكن أنفسنا تمام السكون إذا عرفنا السبب في ذلك والعلة، ولم كان كذلك، وهيأنا له عبارة تُفْهِمُ عنا من نريد افهامه. وهذا هو القول في ذلك.

اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدّعي لها أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق اثباته لها وتقريره إياها. تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا: «إن الكناية أبلغ من التصريح» أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته بل المعنى أنك زدت في اثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد. فليست المزية في قولهم: «جمُّ الرماد»، أنه دَلّ على قِرىً أكثر بل أنك اثبت له القِرَى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته ايجاباً هو أشد، وادعيته دعوى أنت بها انطق وبصحتها أوثق».

«... أما الكناية فإن السبب في أن كان للاثبات بها مزية لا تكون للتصريح: أَنَّ كل عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أنَّ اثبات الصفة باثبات دليلها وايجابها بما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غُفلاً؛ وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يُشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط»[١].

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق رشيد رضا ص ٥٥.

علم البديع

البديع لغة واصطلاحاً:

جاء في لسان العرب المحيط: (بَدَعَ الشَيْءَ يَبْدَعُهُ بَدْعاً، وابْتَدَعَه: انشاه وبدأه، وَبَدَعَ الرَّكِيَّةَ: استنبطها وأحدثها وركِيٌّ بَدِيعٌ: حديثةُ الحفر، والبَدِيع والبِدْعُ: الشيء الذي يكون أولاً. وفي التنزيل: ﴿قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُسُلِ﴾ [الأحقاف ٩]، أي ما كنت أول من أرسل، قد أرسل قبلي رسل كثير)(١).

وإذا كان البديع لغة: الجديد والحديث، فإن المعنى الاصطلاحي للبديع منسجم تمام الانسجام مع هذا المعنى اللغوي، فلقد أطلق البديع فناً من فنون القول على ما أحدثه الشعراء المولدون(٢)من اساليب بيانية، كمسلم بن الوليد، وبشار وأبي تمام، إلا أن أول كتاب ظهر يحمل هذا الأسم هو البديع لعبد اللّه بن المعتز (٢٩٦هـ)، وذكر في مقدمته بأنّه أراد أن ينبه على أن هؤلاء الشعراء ليسوا هم الذين اخترعوا هذا الفن من القول، ولكنهم أكثروا منه وغلوا فيه.

لمحة تاريخية:

ولقد كانت فنون البديع تشمل أكثر المباحث البلاغية، وعلى التحديد تشمل ما يعرف اليوم بمسائل علم البيان وبعض القضايا في علم المعاني، وهذا يظهر مما كتبه ابن المعتز ومن بعده قدامة في نقد الشعر، ونتيجة لحتمية التطور بدأت قضايا البديع تكون مجموعة خاصة لتفصل عن غيرها، فإذا كان المجاز والكناية بأقسامها، والتشبيه كذلك، إذا كانت أولئك جميعاً تعدّ من البديع فلقد أصبحت فيما بعد تكون فناً خاصاً.

ولما ازدهرت العلوم البلاغية على يد الشيخ عبد القاهر - رحمه اللّه -، لم تكن هذه العلوم استقرت على النهج الأخير الذي عرف فيما بعد، إلا أن الشيخ - رحمه اللّه تعالى - شاء اللّه له أن يكتب سفريه النفيسين ليخلدا ذكره: (دلائل الإعجاز)و (أسرار البلاغة)، تحدث في الأول عن نظرية النظم وهو ما عرف فيما بعد بعلم المعاني، وتحدث في الثاني عما عرف بعد بعلم البيان، ولكنه لم يفصل بين هذين العلمين، حيث نجده يستعمل كلمة النظم وكلمة البيان غير مفرق بينهما، ولم يول الفنون البديعية كبير عناية، وإنما اقتصر على ذكر نوعين: السجع والتجنيس، وكان ذكره لهما منشقاً عن نظرية النظم التي أراد بيانها وشرحها.

---

(١) لسان العرب المحيط ١/١٧٤.

(٢) الشعراء المولدون: هم الشعراء من آباءٍ عرب وأمهاتٍ غير عربيات.

ونظن أن أول من فَصَلَ بين مسائل علمي المعاني والبيان الإمام الزمخشري - رحمه الله -، كما يظهر ذلك في مقدمة كشافه، ولم يكن يعد مسائل البديع من صلب البلاغة، ثم جاء السكاكي فنهج نهج الزمخشري، فذكر المحسنات البديعة في القسم الثالث من مفتاحه، لا على أنها علم مستقل، بل على أنها محسنات فحسب.

ويظهر أن أول من جعل هذه المسائل علماً مستقلاً بدر الدين بن مالك في مصباحه، حيث قسم البلاغة إلى ثلاثة فنون هي المعاني والبيان والبديع، وهذا هو ما استقر عليه الأمر إلى يومنا هذا، فعلم المعاني هو نظرية النظم التي تتحقق به هذه المقولة.«لكل مقام مقال»، على أن البلاغة سيظلُّ علما المعاني والبيان ركنيها الرئيسين الأساسيين، وعلم البيان هو الذي يُؤدى به المعنى الواحد بصور متعددة، وعلم البديع يأتي بعد هذين العلمين، فهو علم المحسنات. وهذه المحسنات، قد تكون من جهة اللفظ، أو من جهة المعنى كما ستعرفه.

وحينما أصاب البلاغة ما أصابها من جمود وذبول وذهولٍ أصيب به دارسوها أخذ الناسُ يتبارون في هذه المحسنات البديعة، مهما طغى ذلك على رونق المعنى وجمال الأسلوب، وصار همَّ كل واحد أن يستنتج أكثر من غيره من الأنواع، فابن أبي الأصبع مثلاً في تحرير التحبير يُنيِّف على العشرين بعد المائة من الأنواع البديعية، ثم كان فيما بعد ما يسمى بالبديعيات، وهي منظومات في مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد جنت هذه الصنعة البديعية على البلاغة أيما جناية، وكثير من الأنواع التي كانوا يذكرونها كان بعضها متداخلاً في بعضه الآخر، ومن جهة أخرى فإن الكثير منها حقه أن يذكر في علم المعاني، كالالتفات، والاحتراس، والايغال، والاعتراض، والتتميم، مما حدثناك عنه هناك في الجزء الأول من هذا الكتاب، ونحن لا ننكر أن بعض هذه الأنواع تكسب الكلام جمالاً ما دامت غير متكلفة.

من كل ما سبق نستخلص أن علم البديع هو العلم الذي يوشىّ به الكلام بأوجه الحسن، وقد يكون ذلك الحسن من جهة اللفظ وقد يكون من جهة المعنى، ومن هنا فلقد قسموا مباحث هذا العلم إلى قسمين:

أولاً: المحسنات المعنوية.
ثانياً: المحسنات اللفظية.

فالمحسنات المعنوية هي ما يرجع الجمال فيها إلى المعنى، والمحسنات اللفظية هي ما يرجع الجمال فيها إلى اللفظ، وليس معنى هذا، أن ينظر إلى هذه المحسنات بعيدة عن الأساليب التي قررت في علمي المعاني والبيان، بل الحق أن ننظر إلى النص نظرة موضوعية شاملة، حيثُ يجبُ أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال كما قرر في علم المعاني، وأن يكون بأسلوب مؤثر، بعيداً عن التعقيد كما قرر في علم البيان.

أما إذا أردنا أن نأخذ هذه المحسنات على حدة، فذلك من شأنه أن يؤدي إلى التكلف، وإلى أن يصبح الكلام بارداً ممجوجاً، ويظهر فيه التصنع الممقوت، ولذا كانت مباحث هذا العلم تذكر بعد فنيّ المعاني والبيان، وسنقتصر على ذكر بعض هذه المحسنات مما يظهر أثره في تحسين القول، ومما له أثر في تزيين الكلام، متجنبين الإِغراب، والاغراق في كل ما لا طائل من ذكره.

الفصل الأول
المحسنات المعنوية

المبحث الأول: الطباق:

والطباق في الأصل مصدر، يقال طابقتُ بين الشيئين طباقا، وقد لوحظ هذا المعنى في الطباق الاصطلاحي، فالطباق في الاصطلاح هو الجمع بين الشيء ومقابله أو الشيء وضده، وقد يكون الشيئان المجموع بينهما إسمين أو فعلين أو حرفين.

فمثاله في الاسمين، الظلمات والنور في قوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم ١]، والسماء والأرض في قوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام ١]، والإنس والجن في مثل قوله سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء ٨٨]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن ٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف ١٨]، ومنه قول الشاعر:

وأصدعُ شكّي باليقينِ وإنّني ... لِنَفْسي على بَعْضِ المساءَةِ حَابِسُ

وقول الشاعر:

إنّما الدُّنْيَا هِبَاتٌ ... وعَوارٍ مُسْتَرَدَّةْ
شِدَّةٌ بَعْدَ رَخَاءٍ ... ورَخَاءٌ بَعْدَ شِدَّةْ

تقول: «الحياة إما سلم وإما حرب»، و«الوضع الذي تعيشه امتنا مستهجن إذ لا هو سلمٌ ولا هو حرب»، ومن كلمات النبوة الجامعة «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»(١).

ومثاله في الفعلين قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن ٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم ٤٣]، ومنه قوله سبحانه:

---

(١) رواه مسلم كتاب الصلاة، باب ٤٠ (ماذا يقول إذا رفع رأسه من الركوع) حديث ٤٧٧.

﴿والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين﴾ [الشعراء ٧٩- ٨٠]، وقوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران ٢٦]، وفي الأثر «رحمانَ الدنيا والآخرة ورحيمَهما تعطي منهما من تشاء ارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمةِ مَنْ سواك»، وكذلك ما جاء في الدعاء «اللهم اغننا بالافتقار إليك ولا تفقرنا بالاستغناء عنك»[1]، ومنه قول دعبل الخزاعي[2]:

لا تَعْجَبِي يا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ... ضَحِكَ المَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

ومثاله في الحرفين قوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة ٢٨٦]، وقولك: «الأمة التي تستحق الحياة لا تسكت عما لها من حقوق ضعفاً وجبناً، ولا تترك ما عليها من الواجبات كسلاً وأنانية»، ومنه قول الشاعر:

عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الهَوَى ... وأَخْلُصَ مِنْهُ لاَ عَلَيَّ وَلا لِيَا

وقد يكون الطباق بين اسم وفعل وذلك مثل قوله: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام ١٢٢]، فالمقابلة هنا بين (ميتاً) وهي الاسم، و (أحييناه) وهي الفعل. ومنه قول طفيل الغنوي[3]:

بِسَاهِمِ الوَجْهِ لَمْ تُقْطَعْ أَبَاجِلُهُ ... يُصَانُ وَهْوَ لِيَومِ الرَّوْعِ مَبْذُولُ

وقد يكون ادراك الطباق واضحاً جلياً لا خفاء فيه كما مر، فأنت تجد أنه من السهل عليك أن تدرك كل معنيين متقابلين في الأمثلة السابقة، وقد يحتاج إلى نوع من الفكر والتأمل، وذلك كما في قوله سبحانه: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح ٢٥]، فللأول وهلة قد يظن أن ليس في الآية الكريمة طباق، ولكننا حينما نعرف أن ادخال النار معناه الإحراق فكأنه قيل: (أُغرقوا فأُحرقوا)، يظهر لنا الطباق في الآية الكريمة.

(١) رواه مسلم – كتاب الصلاة – باب (ماذا يقول إذا رفع رأسه من الركوع).
(٢) معاهد التنصيص ٢/١٨٤.
(٣) الصناعتين ص ٣٠٣، بساهم الوجه: أي قليل لحم الوجه لطول غزوه وكثرة عتقه، لم تقطع اباجله: أي لم يصبه داءٌ يقطعه البيطار، والأبجل: عِرقٌ في الرِجْل. والطباقُ هنا بين الفعل(يُصان) والاسم (مبذولُ).

أقسام الطباق:

والطباق قد يكون طباق ايجاب لا نفي فيه، وقد يكون طباق سلب، فطباق الايجاب ما تقدم، ومثال طباق السلب قوله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم ٦-٧]، وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم ٥٩ - ٦٠]، وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة ٤٤]، ومنه قول السموأل(١):

وَنُنْكِرُ إنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُم ... ولا يُنْكِرُونَ القَولَ حِينَ نَقُولُ

ومنه قول البحتري(٢):

يُقَيِّضُ لِيْ مِنْ حَيْثُ لا أعْلَمُ الهَوَى ... ويَسْرِي إلَيَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أعْلَمُ

وقول أبي الطيب المتنبي(٣):

فَلَقَدْ عُرِفْتَ وَمَا عُرِفْتَ حَقِيْقَةً ... وَلَقَدْ جُهِلْتَ وَمَا جُهِلْتَ خُمُولا(٤)

وقول الآخر:

خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لَمَكْرُمَةٍ ... فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا

رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا سَمَاحَ يَدٍ ... فَكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا

وقول الآخر:

شَيَّبَتْنِي وَمَا يُشَيِّبُنِي السِّنُ ... هُمُومٌ تَتْرَى وَدَهْرٌ عَنِيدُ

---

(١) ديوان المعاني ٢/٥٩، العقد الفريد ٢/٤.
(٢) ديوانه ٢/٢٢٩.
(٣) ديوانه ٣/٣٦٢.
(٤) الخامل: الساقط الذي لا نباهة له ولا شهرة، يقول: إن الناس قد عرفوك بما ظهر من سخائك وجودك ولكنهم لم يعرفوك حق معرفتك لأنهم لا يبلغون كنه قدرك، وإذا لم يعرفوك حق المعرفة فقد جهلوك، فليس جهلهم اياك لأنك خامل الذكر.

المبحث الثاني: بين الطباق والمقابلة:

جمهور العلماء على أن المقابلة غير الطباق، والمقابلة عندهم أن يؤتى بمعنيين فأكثر ثم بما يقابل هذه المعاني. أما الطباق فلا يكون إلا بين معنى واحد وما يقابله، فأنت ترى أن الطباق والمقابلة من حيث الموضوع شيء واحد، كل ما في الأمر أن الطباق يكون بين معنيين، أما المقابلة فيشترط لها أكثر من ذلك. ولا نرى ضرورة لهذا الاصطلاح ما دام الموضوع واحداً، ولم لا تكون المطابقة والمقابلة شيئاً واحداً، وتكون بين المعنى الواحد وما يقابله، أو بين معنيين وما يقابلهما، أو بين ما يزيد على اثنين، ولا مشاحة في الاصطلاح، كما يقولون.

وقد عرفت في الطباق كيف أننا نأتي بالمعنى وما يقابله أو يضاده، ونحدثك الآن عن المقابلة أو المطابقة فيما هو أكثر من ذلك.

التقابل في أثنين:

فمثالها في أمرين قوله سبحانه: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة ٨٢]، فقد جمع بين الضحك والبكاء والقلة والكثرة، وقوله سبحانه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة ٥٤]، وقوله: ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء ٥٧]، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنْزَعُ من شيء إلا شانه»[1] وما رُوي عنهُ عليه الصلاة والسلام «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»[2]. ومنه قول النابغة[3]:

فَتَىً كَانَ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ ... عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الأَعَادِيَا

ومنه قول الشاعر:

فَوَاعَجَباً كَيْفَ اتَّفَقْنَا فَنَاصِحٌ ... وَفِيٌّ وَمَطْوِيٌّ عَلَى الغِلِّ غَادِرُ

(١) رواه مسلم كتاب البر، باب فضل الرفق حديث ٧٨: ٢٠٠٤/٤٤.

(٢) رواه الترمذي كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض رقم (٦٠)، حديث رقم ١٩٩٨، قال أبو عيسى: غريب لا نعرفه بهذا الاسناد إلا من هذا الوجه.

(٣) العمدة ١٤/٢.

ومنه قول ابن المعتز[1]:

جُمِــــعَ الحَــــقُّ لَنَــــا فــي إمَـــامٍ   قَتَــــلَ البُـخْــلَ وَأحْيَــا السَّمَــاحَــا

ومنه قول المتنبي[2]:

إذا أنْــــتَ أكْرَمْــــتَ الكَـرِيمَ مَلَكْتَــهُ   وَإنْ أنْــــتَ أكْرَمْــــتَ اللَئِيــــمَ تَمَــــرَّدَا

التقابل في ثلاثة:

ونمثل له بقوله سبحانه: ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ﴾ [الأعراف ١٥٧]، فهنا ثلاثة معان قابلتها ثلاثة أخر، أما الثلاثة الأولى: فهي ﴿يحل لهم الطيبات﴾، وأما الثلاثة الأخر: فهي ﴿يحرم عليهم الخبائث﴾، فالمقابلة بين (يحرم ويحل)، (لهم وعليهم)، (الخبائث والطيبات) ففي كلٍ اسمٌ وفعلٌ وحرف ومنه قول أبي الطيب:

فَـلا الجُـودُ يُفْنــي المَــالَ والجِـدُّ مُقْبِـلٌ   وَلا البُخْـلُ يُبْقِـي المَــالَ والجِــدُّ مُدْبِــرُ

(فالجود) يقابله (البخل)، (وافناء المال) يقابله (ابقاؤه)، (ومقبل) يقابله (مدبر)، ومنه قول جرير:

وَبَاسِــطُ خَيْــرٍ فِيكُــمُ بِيَمِيــنِــــهِ   وَقَابِــضُ شَـــرٍّ عَنْكُــمُ بِشِمَــالِــــهِ

وقال البحتري[3]:

فَـــإِذَا حَارَبُـــوا أذَلُّـــوا عَــزِيـــزاً   وَإذا سَالَمُـــوا أعَـــزُّوا ذَلِيــــلاً

ومنه قول أبي دلامة[4]:

مَـا أحْسَـنَ الدِّيـنَ وَالدُّنْيَا إذَا اجْتَمَعَـا   وَأَقْبَـحَ الكُفْـــرَ والإفْـــلاَسَ بِالرَّجُـــلِ

فقد قابل بين الحسن والقبح، والدين والكفر، والدنيا والإفلاس. ومنه قول الخليفة الراشد: «الضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه». ومنه قولنا: «رحم الله أسلافنا، فلقد رفعوا الحق فوق رؤوسهم، ووضعوا الباطل

(١) سبق البيت ص ١٨٨.
(٢) ديوان المتنبي ٢٨٨/١.
(٣) ديوان البحتري ٢٩٢/٢، والبيت من قصيدة في مدح محمد بن علي بن عيسى القُمّي.
(٤) معاهد التنصيص ٢٠٧/٢.

تحت أرجلهم، وكانوا رهبان ليل رحماء، وفرسان نهار أقوياء، وما كانوا يجمدون في حق مع ضعيف، ولا يذوبون في باطل مع قوي».

التقابل فيما فوق الثلاثة:

مثالها فيما ما فوق ثلاثة: قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل ٥-٦]، فمقابل العطاء البخل، ومقابل التقوى الاستغناء، ومقابل التصديق التكذيب، ومقابل اليسر العسر. ومنه قول الشاعر المتنبي(١):

أَزُورُهُم وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي ... وأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي

وقول الشاعر:

عَلَى رَأْسِ عَبْدٍ تَاجُ عِزٍّ يُزِينُهُ ... وَفِي رِجْلِ حُرٍّ قَيْدُ ذُلٍّ يُشِينُهُ

فقد قابل بين الرأس والرِجل، والعبد والحر، والتاج والقيد، والعز والذل، والزين والشين.

وبالجملة فهذا النوع من البديع يكون مقبولاً، إذا كان النظم الذي جاء فيه مطابقاً لمقتضى الحال، وكان خالياً من التعقيد، خالياً من الصنعة المتكلفة كذلك.

المبحث الثالث: التورية:

وهي مصدر مثل تحلية وتخلية وتعمية وتنقية، يقال ورّى الخبر تورية إذا ستره وأظهر غيره، وهذا المعنى اللغوي يرشدنا إلى المعنى الاصطلاحي، فالتورية في الاصطلاح: أن يذكر اللفظ المفرد ويكون له معنيان، أحدهما قريب والآخر بعيد، ويكون البعيد هو المراد ولا بدّ لها من قرينة تبيِّن المعنى المراد، وهذه القرينة تدرك بالتأمل.

استمع إلى قول ذلك الجبان:

أَقُولُ وقَدْ شَدَّوا إلى الحَرْبِ غَارةً ... دَعُونِي فَإِنِّي آكُلُ الخُبْزَ بِالجُبْنِ

وأنت تعلم أن للجبن معنيين، معنى قريباً وهو الجبن الذي يؤكل، ومعنى بعيداً وهو ضد الشجاعة، والمراد هنا هذا المعنى البعيد، والقرينة «أقول وقد شدوا إلى الحرب غارة» وإن كان المعنى القريب هو المتبادر لأنه جاء مع أكل الخبز.

---

(١) ديوان المتنبي ١٨٨/١، وسواد الليل يشفع لي: أي يسترُ عليّ، وبياض الصبح يغرى بي: أي يشهر بي ويدلُّ عليّ.

وقال ابن الظاهر:

شكراً لِنَسْمَةِ أرْضِكُم ... كَمْ بَلَّغَتْ عَنِّي تَحِيَّةْ
لاَ غَرْوَ إنْ حَفِظَتْ أحَا ... دِيثَ الهَوى فَهْيَ الذَّكِيَّةْ

والتورية في كلمة (ذكية) فإن لها معنيين، أحدهما قريب وهو الساطعُ الرائحة، والثاني بعيد وهو الفطنة، وهذا هو الذي قصده الشاعر. ومنه قول أبي الحسين الجزار:

كيفَ لا أشْكُرُ الجِزَارةَ ما عِشْتُ ... حِفَاظَاً وأهْجُرُ الآدَابَا
وَبِهَا صَارَتِ الكِلاَبُ تُرَجِّينِي ... وَبِالشِّعْرِ كُنْتُ أرْجُو الكِلاَبَا

وكلمة الكلاب لها معنيان: أحدهما قريب متبادر إلى الذهن وهو الحيوان المعروف، وسبب تبادر هذا المعنى للذهن التمهيد له بذكر الجزارة، والثاني بعيد وهو لئام الناس وهذا هو المعنى الذي قصد إليه الشاعر.

وقال بدر الدين الذهبي:

يَا عَاذِلِي فيه قُلْ لِي ... إذا بَدا كَيْفَ أسْلُو؟
يَمُرُّ بِي كُلَّ وَقْتٍ ... وَكُلَّمَا مَرَّ يَحْلُو

وكلمة (مَرَّ) لها معنيان: أحدهما قريب وهو المرور، والآخر بعيد وهو ضد الحلاوة، وهذا ما قصده الشاعر. وقال نصير الدين الحمامي:

أبياتُ شِعْرِكَ كَالقُصُورِ ... وَلا قُصُورَ بِهَا يَعُوقُ
وَمِنَ العَجَائِبِ لَفْظُهَا ... حُرٌّ وَمَعْنَاهَا رَقِيقُ

فكلمة (رقيق) لها معنيان: معنى قريب متبادر وهو العبد المملوك، وسبب تبادره إلى الذهن ذكره لكلمة (حر)، والمعنى البعيد هو اللطيف السهل، وهو ما أراده الشاعر. وقال ابن دانيال:

يا سَائِلِي عَنْ حِرْفَتِي فِي الوَرَى ... وَأضْيَعَتِي فِيهِمْ وإفلاسِي
مَا حَالُ مَنْ دِرْهَمُ إنْفَاقِهِ ... يَأخُذُهُ مِنْ أعْيُنِ النَّاسِ

فإن في قوله: «يأخذه من أعين الناس» معنيين معنى قريباً، وهو أنه يأخذ الدرهم أجراً لعلاج العيون، وسبب تبادر هذا المعنى إلى الذهن حديثه عن حرفته، والمعنى البعيد أنه يأخذ الدرهم من الناس رغماً عنهم، وهذا هو المعنى المراد هنا.

وقال سراج الدين الوراق:

أُصُونُ أديمَ وَجْهِي عَنْ أُنَاسٍ لِقَاءُ المَوْتِ عِنْدَهُمُ الأدِيبُ
وَرَبُّ الشِّعْرِ عِنْدَهُمُ بَغِيضٌ وَلَوْ وَافَى بِهِ لَهُمُ حَبِيبُ

فكلمة (حبيب) لها معنيان: معنى قريب وهو المحبوب، وسبب تبادر هذا المعنى إلى الذهن ذكره كلمة (بغيض)، ومعنى بعيد وهو اسم الشاعر أبي تمام وهو حبيب بن أوس، وهذا هو الذي أراده الشاعر.

والتورية كما رأيت من الأمثلة السابقة أساسها الذي بنيت عليه، هو اللفظ المشترك، والمشترك هو ما اتحد لفظه واختلف معناه. كالعين التي تطلق على عين الماء وعلى العين المبصرة وغيرهما، وككلمة الصقر التي تطلق على الحيوان المعروف وعلى اللبن الحامض، وَخِطَط الشعر في أذن الفرس والدبس الرطب.

ولقد فطن لهذا النوع ابن دريد فألف فيه كتاب (الملاحن) ذكر فيه كثيراً من الكلمات المشتركة، سواء كانت من الجوامد أم من المشتقات، فكلمة (لَعِبْتُ) المعنى القريب منها اللعب، ولكنّ لها معنى بعيداً آخر وهو سيل اللعاب، فإذا قلت: «ما لعبت على هذه الأرض، ولا أعرتها حشاشة نفسي»، فالمعنى القريب أنك تنفي اللعب عن نفسك، ولكنك تقصد أنه ما سال لعابك على ما في هذه الدنيا. وإذا قلت: «ما ظلمت فلاناً وما آذيته بالصقر»، فالمعنى القريب أنك نفي عن نفسك ظلمه وايذاءه بالحيوان المعروف، ولكن المعنى البعيد أنك ما أسقيته (الظليم) وهو اللبن قبل أن يروب، وما آذيته كذلك باللبن الحامض، فمن معاني الصقر اللبن الحامض كما عرفت.

ونحن نقبل التورية إذا كان لها سبب مقبول، ولم يكن فيها تكلف وجَوْر على المعنى، ونلحظ من كتب البلاغة والأدب أن أكثر ما مثلوا به للتورية جلّه ليس من كلام المتقدمين، على النقيض مما رأينا في الاستعارة والتشبيه وأنواع المجاز، وهذا يدلنا على أن هذه المحسنات قد صارت فيما بعد من الأمور المتكلفة، لذا فإنّ ما نقبله منها ما كان متسقاً مع قواعد البلاغة، فالبلاغة كلٌّ لا يتجزأ. فلا يمكننا أن نستحسن في فن من فنونها ما كان مستقبحاً في فنٍّ آخر.

المبحث الرابع: حسن التعليل:

من المحسنات المعنوية، حسن التعليل، وهذا الموضوع يقوم في أساسه على التظرف والتفكه، ومن هنا كان بحاجة إلى فطنةٍ وبديهة، ويقصدون بحسن التعليل أن يأتي المتكلم للشيء الذي يتحدث عنه بعلّةٍ ليست له، تظرفاً ومبالغة. وقد يكون هذا الشيء ليس له علّة، ولكن الأديب يأبى إلا أن يعلله، وقد يكون له علة ولكن المتكلم يتناساها ليأتي بعلّةٍ أخرى.

سألني أحدهم وقد ظهر الشيب في وجهي، (ما هذا؟) فقلت: «صنعت لأحدهم معروفاً وكان من الصالحين فدعا لي قائلاً: «بيّض اللّه وجهك» فاستجيبت دعوته.

وقريب من هذا قول الشاعر[1]:

قَدْ يَشِيبُ الفَتَى وَلَيْسَ عَجِيباً ... أَنْ يُرى النَّوْرُ في القَضِيبِ الرَّطِيبِ

فالشيب معروفة أسبابه معلومة عِلَلُهُ، ولكننا وجدناهم قد عللوه بغير ما هو له.

ومما عدّوه من حسن التعليل ما علل به بعضُ الشعراء زلزالاً حدث في مصر فقال:

مَا زُلْزِلَتْ مِصْرُ مِنْ سُوءٍ أُرِيدَ بِهَا ... لكِنَّهَا رَقَصَتْ مِنْ عَدْلِهِ طَرَبَاً

فجعل الزلزال ناشئاً عن عدل ممدوحه وهو تعليل كما ترى.

وقريب من هذا التعليل تعليل القعود عن الجهاد، بأن العدو وإن هزمنا في معارك ثلاث أو أربع، إلا أننا نهزمه كل يوم في معركة سياسية، وبأن العدو لم يبلغ أمنيته لأنه يريد أن ينال من الأنظمة، فأمنيته الأنظمة وليست الأرض. وقال الشاعر:

ما قصَّرَ الغَيْثُ عَنْ مِصْرٍ وَتُرْبَتِها ... طَبْعَاً ولكنْ تعداكُم مِنَ الخَجَلِ

فهو يعلل لعدم وجود الغيث بكثرة فضل الممدوح وخيره، وهذا كالذي يعلل قطع الكهرباء في الليل المظلم بنور فلان من الناس.

ولعلك أدركت الآن ما يراد بحسن التعليل في علم البديع وإليك بعض الأمثلة:

(١) يعلل المتنبي لنزول المطر من السماء بعلةٍ طريفةٍ غريبة في قوله[2]:

لَمْ تَحْكِ نَائِلَكَ السَّحَابُ وَإِنَّمَا ... حُمَّتْ بِهِ فَصَبِيبُهَا الرُّحَضَاءُ

يقول: لا تظن أن هذا السحاب يمكن أن يحاكيك في عطائك أو يجاريك في كرمك، لأن هذا أمر ميئوس منه، فليس للسحاب أن يَطْمَعَ فيه، كل ما في الأمر أن السماء أصابها عرْقٌ من الحُمَّى حسداً لك فمرضت، فما تراه من الماء النازل، ليس إلا أثراً لهذه الحمَّى التي أصيبت بها السماء، ونحن نعلم أن الحُمَّى إذا ألمت بإنسانٍ ما كَثُرَ عَرَقُه، فكأن هذا الماء النازل هو عرق من هذا المرض.

---

(١) سبق البيت ص ٧٥.

(٢) ديوان المتنبي ١/١٥٤، النائل: العطاء، الرُحَضَاء: أي العَرَق أثر الحمى.

(٢) ومن حسن التعليل قول المتنبي كذلك[١]:

مَــا بِـهِ قَتْــلُ أعــادِيـــهِ ولكِـــنْ   يَتَّقــي إِخْــلاَفَ مَــا تَرْجُـــو الذِئَـــابُ

يقول: إن ممدوحه ليس به حاجة إلى قتل أعدائه فهو يبسط سلطانه عليهم من غير قتل، كل ما في الأمر أنه لا يريد أن يخيب رجاء الذئاب، فالذئاب التي تعيش في سلطانه ترجوا أن لا تجوع إبّان حكمه وامارته، فهو إن قتل أعداءه فإنما من أجل الذئاب حتى لا يخلفها ما ترجوه.

(٣) ومن حسن التعليل قول ابن نباتة في وصف الفرس[٢]:

وَأدْهَـــمَ يَسْتَمِـــدُّ اللَيْـــلُ مِنْـــــهُ   وتَطْلُـــعُ بَيْـــنَ عَيْنَـيْــهِ الثُّرَيَّـــا

سَــرَى خَلْـــفَ الصَّبَـــاحِ يَطِيـرُ زَهْـواً   وَيَطْـــوِي خَلْـــفَـــهُ الأَفْــلاَكَ طَيّـــا

فَلَمَّـــا خَـــافَ وَشْـــكَ الفَـــوْتِ مِـنْــهُ   تَشَــبَّـــثَ بِالقَـــوَائِـــمِ والمُحَيّـــا

يقول إن فرسه لشدة سواده يستمد الليل سواده منه، ولكن فرسه مع هذا السواد الشديد أبيض القوائم والوجه، فكيف جاء هذا البياض في قوائم الفرس ووجهه، مع شدة سواده؟! يعلل إبن نباته ذلك بقوله: إن فرسه سريع العدو، عجيب في سرعته فهو قد عدا يريد أن يسبق الصباح، ولما أيقن الصباح أنه مسبوق وأن لا قبل له بسبق هذا الفرس، احتال حتى لا يُسبق فتشبث بقوائم هذا الفرس ومحياه، فهذا البياض ليس إلا من تشبث الصبح حينما خشي أن يسبق!.

(٤) وفي هذا المعنى يقول ابن نباتة كذلك:

فكـأَنَّمَـــا لَطَـــمَ الصَبَـــاحُ جَبِينَـــــهُ   فَاقْتَـصَّ مِنْـــهُ فَخَـــاضَ فـــي أَحْشَـائِـــهِ

وهو معنى عجيب حقاً وتعليل غريب، يقول إن الصبح اعتدى على فرسه، فلطمه في جبينه، فهذا البياض الذي في جبين الفرس ليس إلا من لطمة الصبح، ولكن هذا الفرس لا يسكت على ضيم ولا يقابل الاعتداء بالمودة، شأنه شأن صاحبه، وليس كأولئك الذين يسكتون على الاعتداء ويعللون ذلك بالكرم والتسامح. خلاصة القول أن الفرس أراد أن يقتص من الصبح فلم يكتف أن يلطمه لطمة واحدة، بل خاضَ بقوائمه في أحشاء الصبح، فابيضت هذه القوائم فانظر إلى هذين التعليلين، بياض جبهة الفرس، كان بسبب لطمة الصبح، وبياض قوائمه لأنه أراد أن يقتص من الصبح فخاض في أحشائه، فانظر كيف جعل للصبح احشاءً

(١) ديوان المتنبي ٢٦٢/١.
(٢) اليتيمة ٢٣٦٢/٢.

وهي استعارة مكنية فيها حسن تخييل كما عرفت من قبل.

(٥) ومن حسن التعليل قول أبي هلال العسكري[١]:

زَعَمَ البَنَفْسَجُ أَنَّهُ كَعَذَارِهِ حُسْنَاً فَسَلُّوا مِنْ قَفَاهُ لِسَانَهُ

والعذار هو أول ما يبدو من الشعر على الخدّ، وللبنفسج ورق يبدو من خلفه يشبه اللسان، وأبو هلال يريد أن يعلل لهذه الظاهرة وهي كون هذا الورق يبدو من خلف البنفسج، فكيف يعللها وبم؟، يقول لقد زعم البنفسج زعماً غير صحيح، وادّعى دعوى كاذبة، زعم أنه يشبه عذار ممدوحه، ولا بد للمدّعي افتراء أن ينال جزاءه، وهذا ما كان للبنفسج بالفعل فلقد سلّوا لسانه من قفاه عقاباً له على ذلك الزور وهذا الافتراء.

(٦) ومن حسن التعليل قول أبي طالب المأموني في مدح بعض الوزراء[٢]:

لا يَذُوقُ الإِغْفَاءَ إلا رَجَاءً أَنْ يَرَى طَيْفَ مُسْتَمِيحٍ رَوَاحَاً

فهو يدّعي بأن هذا الوزير لا ينام، لأن في النوم راحة ولكن لما كانت عادة السائلين أن يأتوا نهاراً ليُعْطَوْا ما سألوا، أما في الليل فهم منقطعون عن السؤال، لذا فإن هذا الوزير ينام ليلاً علّه يراهم في منامه فيستريح لرؤيتهم.

(٧) ومن بديع حسن التعليل قول ابن المعتز[٣]:

قَالُوا اشْتَكَتْ عَيْنُهُ فَقُلْتُ لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ القَتْلِ نَالَهَا الوَصَبُ
حُمْرَتُهَا مِنْ دِمَاءِ مَنْ قَتَلَتْ والدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ

ونحن نعلم أن العين تشتكي بسبب الرمد أو المرض، ولكن ابن المعتز عدل عن هذه العلة، وبيّن أن شكوى العين ليست لشيء من هذا، إنما شكواها لكثرة من قتلت من أولئك الذين أصابتهم سهامها، فحمرةُ العين ناشئةٌ عن كثرة القتل، وهي من دم أولئك الذين قتلتهم بغير قود - أي دية -.

(٨) ومن حسن التعليل قول الرافعي - رحمه الله -:

إِنَّمَا الإِسْلامُ فِي الصَّحْرَا امْتَهَدْ لِيَجِيءَ كُلُّ مُسْلِمٍ أَسَدْ[٤]

---

(١) ديوان العسكري ص ٢٢٤.

(٢) الايضاح ٦/٧٠، الرواح: وقت العشي أي علّهُ يرى طيف السائلين ليلاً (وقت العَشي).

(٣) ديوان ابن المعتز ص٣٤٥، الوصب: المرض، النصل: حد السيف.

(٤) امتهد: أي اتخذ الصحراء مهداً، والمعنى كانت الصحراء مهد الإسلام ليكون المسلمون آساداً؛ إذ مهدُ الأسود الصحراء.

(٩) ومن هذا القبيل حسن التعليل في رجم الزاني المحصن - أي المتزوج - «أنه بهذه الفاحشة يهدم بيت الزوجية» فهو يرجم بالحجارة ليعرف أن هذه الحجارة هي حجارة البيت الذي هدمه.

(١٠) ومن هذا القبيل ما قيل «إن الله لم يخلق المرأة من رأس الرجل حتى لا تستعبده وتذله ولم يخلقها من قدميه حتى لا يستعبدها ويسلبها شخصيتها، وإنما خلقت من ضلع قريب من القلب حيث الحنان والرحمة» وهذا كثير، وبخاصة عند المتأخرين.

ونظرة في الأمثلة المتقدمة تجد أن حسن التعليل يقوم على المبالغة، ولكننا في بعض الأحيان كما رأينا نجد فيها تكلفاً وتصنعاً كما رأينا في تعليل زلزال مصر وعدم نزول الغيث.

المبحث الخامس: تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه أي تأكيد الذم بما يشبه المدح:

جعلوا هذا القسم من المحسنات المعنوية في علم البديع فالأول، وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم، وله اسلوبان من القول:

الأسلوب الأول: أن يذكر صفة ذم منفية، ثم يأتي باداة الاستثناء، فيتوهم السامع أنه يريد أن يستثني من هذا المنفي شيئاً يذم به الممدوح، ذلك لأن المستثنى يخالف المستثنى منه، فإذا قلنا: «استيقظت الأمم المظلومة من رقدتها إلا أمتنا» فالمستثنى هنا مخالف للمستثنى منه.

ففي هذا الاسلوب ننفي عيباً ثم نستثني شيئاً، إلا أن هذا المستثنى عند التأمل نجده مدحاً آخر. استمع إلى قول النابغة الذبياني(١):

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

فقد نفى العيب كما رأيت بقوله: (ولا عيب فيهم)، ثم جاء بأداة الاستثناء فتوهم أنه يريد أن يثبت عيباً، ولكن هذا الذي استثناه لم يكن سوى مدحٍ على مدح.

وجعلوا منه قوله سبحانه - ما قاله السحرة لفرعون -: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف ١٢٦]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [المائدة ٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

(١) الايضاح ٦/٧٥، الفلول: الثلوم جمع ثلم، القراع: المجالدة، الكتائب: الجيوش.

[البروج ٨]، كذلك قوله سبحانه: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَمًا﴾ [الواقعة ٢٥- ٢٦].قال ابن الرومي:

لَيْسَ بِهِ عَيْبٌ سِوَى أَنَّهُ　　لاَ تَقَعُ العَيْنُ عَلَى شِبْهِهِ

وقال آخر:

ولاَ عَيْبَ فِي مَعْرُوفِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُ　　يُبَيِّنُ عَجْزَ الشَّاكِرِينَ عَنِ الشُّكْرِ

وقال ابن نباتة المصري:

ولاَ عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنِّي قَصَدْتُهُ　　فَأَنْسَتْنِيَ الأَيَّامُ أَهْلاً وَمَوْطِنَا

وقال آخر:

وَلاَ عَيْبَ فِيكُمْ غَيْرَ أَنَّ ضُيُوفَكُمْ　　تُعَابُ بِنِسْيَانِ الأَحِبَّةِ وَالوَطَنْ

وقال صفي الدين الحلي:

لاَ عَيْبَ فِيهِم سِوَى أَنَّ النَّزِيلَ بِهِمْ　　يَسْلُو عَنِ الأَهْلِ وَالأَوْطَانِ وَالحَشَمِ

الاسلوب الثاني: أن يذكر المتكلم صفة مدحٍ ثم يستثني منها صفة، فيظن أن المستثنى مذموم، ولكن في الحقيقة يكون مدحاً على مدح، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش» ومنه قول النابغة الجعدي(١):

فتىً كَمُلَتْ أَخْلاقُهُ غَيْرَ أَنَّهُ　　جَوادٌ فَمَا يُبْقِي عَلَى المَالِ بَاقِيا

وقول الآخر:

وَجُوهٌ كَأَزْهَارِ الرِّيَاضِ نَضَارَةً　　وَلَكِنَّهَا يَوْمَ الهِيَاجِ صُخُورُ

أما تأكيد الذم بما يشبه المدح فله اسلوبان كذلك:

الأول: أن ينفي صفة خير ثم يأتي بأداة الاستثناء فيتوهم أنه يريد مدحاً.

الثاني: أن يثبت صفة ذمٍّ ثم يأتي بأداة الاستثناء فيتوهم أنه يريد مدحاً إلا أن المستثنى يكون ذماً كذلك.

ومثال الأسلوب الأول: «لا خير فيهم إلا أنهم يجبنون عن الحق»، «لا أيمان لهم إلا أنهم

---

(١) ديوان النابغة الجعدي ص ١٧٣.

يضيعون الأمانة»، «لا جمال في القصيدة إلا أنها معوجة الوزن»، «لا فائدة في الكتاب إلا أنه كثير الأخطاء اللغوية»، «لا عمق في البحث إلا أنه كثير الاستطراد».

ومثال الأسلوب الثاني: «قوم يخشون اعداءهم إلا أنهم يَفْتِكون بذويهم»، «هم يبذرون المال إلا أنهم يسلبون حقوق الناس»، «هم يضحكون لخصومهم إلا أنهم قساة على بني جلدتهم»، «يكثرون من اللغو في الباطل إلا أنهم يسكتون عن الحق» ومنه قول الشاعر:

لَئِيمُ الطِّبَاعِ سِوَى أنَّهُ ... جَبَانٌ يَهُونُ عَلَيهِ الهَوَانُ

المبحث السادس: اسلوب الحكيم:

من المحسنات المعنوية اسلوب الحكيم، وتدرك لأول وهلة من هذه التسمية، أنه يبنى على الحكمة في مخاطبة الناس، فاسلوب الحكيم أن تحدث المخاطب بغير ما يتوقع وهو ضربان:

الأول: إما أن نتجاهل سؤال المخاطب فنجيبه عن سؤال آخر لم يسأله.

الثاني: وإما أن نحمل كلامه على غير ما كان يقصده ويريده، وفي هذا توجيه للمخاطب إلى ما ينبغي عليه أن يسأل عنه، أو يقصده من كلامه.

ومن أمثلة الضرب الأول قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة ١٨٩]، فلقد سأل الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بال الهلال يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يعود كما بدأ؟» كان سؤالهم عن السبب والعلة، لكن القرآن الكريم قال: ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾، وهذه الاجابة ليس عن سبب تغير الهلال، إنما هي عن الحكمة منه، فقد سألوا عن العلة والسبب، ولكن القرآن الكريم أجابهم عن الحكمة من تغير الأهلة وهي أنها مواقيت للناس والحج، سألوا عن شيء ولكنهم أجيبوا عن شيء آخر، وهذا فيه من الحكمة ما فيه، كأنه يقول لهم، حري بكم أن تسألوا عما يمس واقعكم، ألا ترى أنه قال لهم بعد ذلك ﴿وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢١٥]، فقد سألوا عما ينفقون ولكن القرآن الكريم أجابهم عن سؤال آخر وهو لمن ينبغي أن تكون النفقة.

ومثل هذا أن يسألك أحد الطلاب الكسالى عن موعد الامتحان والمادة المقررة فتقول له: «من أراد النجاح فلا بد أن يشمر عن ساعد الجدّ». وأن يسألك أحد الجشعين الذين يمتصون دماء الناس وعرقهم «كيف يمكن أن تسترد أمتنا السليب والمقدس؟ كيف تنشيء نفسها تنشئة عسكرية؟» فتجيبه بقولك: «إن أول خطوة في رقي الأمم أن لا يبغي بعضها على بعض، وأن يأخذ الضعيف فيها حقه من غير تعتعة ولا مشقة، وأن يرحم بعضها بعضا»، وإذا سألك مستبدٌ عن عوامل القوة وأسبابها في الأمم أجبته بقولك «إن أول ما تمتاز به الأمم المتقدمة حرية التعبير عن الرأي».

فأنت ترى في هذه الأمثلة جميعاً أن الاجابة لم تكن عن السؤال نفسه، إنما كانت عن سؤال آخر كان حرياً به أن يسأل عنه، وكأننا نقول للسائل بلطف وأدب ونوق: «جدير بك أن تسأل غير هذا السؤال، جدير بك أن تسأل عن كذا وكذا»، وقد تكون عدم الاجابة عن سؤال السائل، لأنه لم يستطع استيعاب السؤال لصغر سنّه أو قصر ادراكه.

استمع إلى هذا الأب وقد جاءه ولده يسأله عن بعض القضايا التي تاهت فيها الفلسفة وحارَ بها المتكلمون، جاء يسأله عن ما هية الروح وما هية النفس والفرق بينهما، والأب يدرك أن ولده لا يستطيع استيعاب هذه القضايا، فكيف يتصرف مع ولده يا ترى؟ لنستمع إليه:

جَاءَنِي ابْنِيَ يَوْماً وَكُنْتُ أَرَاهُ لِي رَيْحَانَةً وَمَصْدَرَ أُنْسِ
قَالَ مَا الرُّوحُ؟ قُلْتُ إِنَّكَ رُوحِي قَالَ مَا النَّفْسُ؟ قُلْتُ إِنَّكَ نَفْسِي

ألم تر كيف كان الأب حكيماً حقاً، حيث جنب ولده ما يعسر عليه فهمه ويصعب عليه ادراكه.

قد يسألك سائل وأنت تهاتفه من أين تتكلم، ولا تريد أن تخبره عن المكان الذي أنت فيه، فتقول: «من فمي»، فيدرك ويكف عن السؤال. «قيل إن رجلاً من أهل الحيرة جاء خالدَ بن الوليد رضي الله عنه فسأله خالد فيم أنت؟ قال في ثيابي فقال علام أنت؟ قال على الأرض فقال: كم سنك؟ قال اثنتان وثلاثون، فقال: اسألك عن شيء وتجيبني بغيره؟ فقال: إنما اجبت عما سألت».

ومثال الضرب الثاني وهو أن تحمل كلام المخاطب على غير ما يقصد، وهو قريب من الضرب الأول، إلا أن الضرب الأول كان ناشئاً عن سؤال كما رأيت، وإليك بعض الأمثلة التي تبينه، وأظنك قد سمعت حكاية الحجاج، فقد بلغه أن القبعثري، لما ذُكر الحجاج بينه وبين أصحابه في بستان قال: اللهم سود وجهه، واقطع عنقه، واسقني من دمه، فوُشي به إلى الحجاج. فلما مثل بين يديه وسأله عن ذلك قال: إنما أردت العنب فقال الحجاج: لأحملنك على الأدهم؛ وكان يقصد أنه سيقيده بالحديد. فقال هذا الرجل «مثل الأمير يحمل على الأدهم

والأشهب»، وقد حمل كلام الحجاج على غير ما قصد، فالأدهم الذي يريد الحجاج القيد، ولكن الرجل حمله على الفرس، قال الحجاج: إنه حديد قال الرجل:«لأن يكون حديداً خير من أن يكون قديداً»[1]، ومثل هذا قول ابن حجاج عبد الله بن أحمد البغدادي[2]:

قَالَ ثقّلْتُ إذْ أتَيْتُ مِرَاراً ... قُلْتُ ثقّلْتَ كَاهِلي بِالأيَادِي

قَالَ طَوّلْتُ قُلْتُ أوْلَيْتَ طَوْلاً ... قَالَ ابْرَمْتُ قُلْتُ حَبْلَ وِدَادِي

فانظر إلى هذا الخلق الرفيع وكيف أراد أن يقي صاحبه الذلة، ويذهب عنه الحرج، يقول له أنا ثقلت عليك بكثرة ما أسأل، ولكنه يرد هذا المعنى بأن الأمر على العكس من ذلك، فأنت إنما ثقلت كاهلي بالنعم فلك الشكر، قال لقد طولت عليك وأخذت من وقتك، فيقول له لقد أوليت طَوْلاً - أي نِعَمَا - فيحمل كلمة طولت على غير ما قصدها المتكلم، قال: ابرمت أي جعلتك تسأم مني وتضيق بي، فيحملها المخاطب محملاً آخر، فيقول إنما أبرمت حبل مودة وعهد صفاء.

وهاك بعض الأمثلة مما اشتهر في الاسلوب الحكيم. قال الشاعر:

وَلَقَدْ أتَيْتُ لِصَاحِبِي وَسَألْتُهُ ... فِي قَرْضِ دِينَارٍ لأمْرٍ كَانَا

فَأجَابَنِي وَاللّهِ دَارِيَ مَا حَوَتْ ... عَيْنَاً فَقُلْتُ لَهُ وَلا إنْسَانَا

فالمخاطب حمل كلمة عيناً على الذهب، لكن المتكلم حملها على العين الباصرة.. وهذا ما لم يقصده المخاطب.

وقال آخر:

طَلَبْتُ مِنْهُ دِرْهَمَاً يَوْمَاً ... فَأظْهَرَ العَجَبْ

وَقَالَ ذَا مِنْ فِضَّةٍ ... يُصْنَعُ لا مِنَ الذَّهَبْ

وفي هذا صرف للمخاطب عن طلبه للدينار، فقد ذهب الشاعر يشرح له مم يُصنع الدرهم، وأنه من الذهب والفضة ليشعر المخاطب بأنه كان ينبغي له أن لا يطلب مثل هذا الطلب.

وسئل أحد العمال: ماذا ادخرت من المال؟ فقال لا شيء يعادل الصحة.

---

(١) المعنى: أن يكون هذا الفرسُ قوياً خيرٌ من أن يكون ضعيفاً.

(٢) اليتيمة ٣/٣، نهاية الأرب ١٧١/٧.

وقال الشاعر:

وَلَمَّا نَعَى النَّاعِي سَأَلْنَاهُ خَشْيَةً ... وَلِلْعَيْنِ خَوْفَ البَيْنِ تَسْكَابُ أمطارِ
أَجَابَ: قَضَى قُلْنَا لَهُ: حَاجَةَ العُلا ... فَقَالَ: مَضَى قُلْنَا: بِكُلِّ فَخَارِ

فقد حمل المخاطب كلمة (قضى)على انجاز الحوائج وقضائها، أما المتكلم فقصد منها الموت. وكذلك قوله (مضى) أراد المتكلم (مات)، وحملها المخاطب على أنه ذهب بالفضل ولم يدع لأحد شيئاً.

هذه بعض المحسنات المعنوية ولعل ما اقتصرنا عليه هو أخطرها شأناً وأكثرها فائدة، وقد ذكروا كثيراً من هذه المحسنات كما عرفت من قبل، وإن كان كثير منها لا فائدة فيه، وبعضها متداخلٌ في بعضه الآخر، وثالث فيه تكلف، وإليك بعضها بإيجاز:

تجاهل العارف:

وهو قريب من الاسلوب الحكيم.

وهو أن يسأل المتكلم عن شيء يعلمه إلا أنه يظهر بمظهر غير العالم، وذلك لغرض من الأغراض التي يقتضيها المقام، كالتعجب أو التوبيخ أو المبالغة في المدح أو الذم، فمثال التعجب قوله سبحانه: ﴿أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ إصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَو لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور ١٥]، ومثال التوبيخ قولك: «ما بال الشمس ساطعةً ألا تستحي مما نحن فيه من ألم ومرارة؟»، ومنه قول الشاعر:

أَيَا شَجَرَ الخَابُورِ مَالَكَ مُورِقاً ... كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ

ومثال المبالغة في المدح قول البحتري(١):

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أَمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ؟ ... أم ابْتِسَامَتُهَا بِالمَنْظَرِ الضَّاحِي؟

وقول محمد الأسمر:

زَهْرُ الرَّبِيعِ يُرى أَمْ سَادَةٌ نُجُبُ ... وَزَهْرَةٌ أَيْنَعَتْ أَمْ حَفْلَةٌ عَجَبُ

ومثال المبالغة في الذمّ قول زهير:

ومَا أدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

---

(١) ديوانه: ص ٣٣، العمدة ٢/٣٥.

وقولك: «لا أدري اقلوبهم من صخر أم عقولهم».

والحق أن هذا الضرب حريٌّ به أن يكون في علم المعاني، فهو إلى أبوابه أقرب وبموضوعه ألصق، وكثير من هذه المحسنات كذلك، ولقد أحسن السكاكي صنعاً حينما عدّ كثيراً منها من علم المعاني. وقد آثرت أن أنبه على هذه القضية.

العكس:

وهو أن نقدم في الكلام جزءاً ونؤخر جزءاً آخر، ثم نعكس فنجعل المقدم مؤخراً، والمؤخر مقدماً، وقد يكون في جملة واحدة كقولك: «المعرّي شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء»، و «علي محمود طه شاعر المهندسين ومهندس الشعراء» وقولك: «كلام الملوك ملوك الكلام».

وقد يكون في جملتين كقوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم ١٩]، ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة ١٠]. ومن العكس قول الشاعر:

طَوَيْتُ بِإِحْرَازِ الفُنُونِ وَنَيْلِهَا ... رِدَاءَ شَبَابٍ وَالجُنُونُ فُنُونُ
فَحِينَ تَعَاطَيْتُ الفُنُونَ وَحَظَّهَا ... تَبَيَّنَ لِي أَنَّ الفُنُونَ جُنُونُ

وحينما طغت الصنعة البديعية، وبعدت عن الموطن الأساسيّ للبلاغة، صار العكس عكس ما تقتضيه قواعد البلاغة كقول ذلك القائل:

كَأَنَّنَا وَالمَاءُ مِنْ حَولِنَا ... قَوْمٌ جُلُوسٌ حَوْلَهُمْ مَاءُ

وقريب من هذا قول القائل:

إِنَّ لِلْوَجْدِ فِي فُؤَادِي تَرَاكُمْ ... لَيْتَ عَيْنِي قَبْلَ المَمَاتِ تَرَاكُمْ
فِي هَوَاكُمْ يَا سَادَتِي مِتُّ وَجْداً ... مِتُّ وَجْداً يَا سَادَتِي فِي هَوَاكُمْ

والحق أن قضية العكس يمكن أن تقبل إذا كانت تعكس غرضاً بيانياً لتجليه، وإذا كان يقتضي ذلك المقام، ونظن أن للعكس المقبول صلة بعلم المعاني كذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، وإلى قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام ٩٥]، فانظر إلى التغاير في النظم وكيف عبر بالاسم تارة في قوله: «هن حل» وبالفعل تارة في قوله: «ولا هم يحلون» وكذلك الآية الثانية.

المشاكلة:

وهي أن نقصد شيئاً بلفظ آخر؛ اعني أن نذكر كلمة ولكننا لا نريد معنى هذه الكلمة، وإنما ذكرناها لوقوعها في مصاحبة لفظة تشبهها.

استمع إلى قوله سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى ٤٠]، إن جزاء السيئة لا يسمى سيئة، ولكن لما ذكرت كلمة السيئة أولاً ذكرت كلمة السيئة ثانيةً من باب المشاكلة. ومثله قوله سبحانه: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة ١٩٤]، ألا ترى أن رد الاعتداء لا يسمى اعتداءً، ولكنها المشاكلة ومنه قوله سبحانه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة ١١٦]، ومنه قوله سبحانه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة ٦٧].

اللف والنشر:

وهو أن نذكر عدة أشياء ثم نذكر لكل واحدٍ ما يناسبه وما يتصل به اعتماداً على فهم المخاطب، وهو قسمان:

١- اللف والنشر المرتب: وهو أن نذكر الأشياء المتعددة، ثم نذكر ما يتصل بها على سبيل الترتيب، الأول للأول والثاني للثاني وهكذا.

٢- اللف والنشر المشوش: وهو أن نذكر الأشياء ثم نذكر ما يتصل بها، ولكن لا على سبيل الترتيب، فربما نذكر المتقدم للمتأخر والمتأخر للمتقدم وهكذا.

وإليك الأمثلة لكل قسم من القسمين:

- فمن أمثلة القسم الأول: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص ٧٣]، فقد جمع الليل والنهار ثم ذكر لكلٍ ما يختص به، فذكر أولاً ما يختص بالليل وهو (لتسكنوا فيه)، ثم ذكر ما يختص بالنهار وهو (لتبتغوا من فضله)، ومنه قول الشاعر[1]:

عُيُونٌ وَأَصْدَاغٌ وَفَرْعٌ وَقَامَةٌ وَخَالٌ وَوَجَنَاتٌ وَفَرْقٌ وَمَرْشَفُ

---

(١) اصداغ: جمع صدغ: وهو جانب الوجه من العين إلى الأذن، الفرع: الشّعر التام، الفرق: الفرقُ من الرأس: الفاصل بين صفين من الشعر، المرشف: موضع الرشف وعنى به هنا الفم، بانة: مؤنث البان: وهو ضربٌ من الشجر سبط القوام ليّن، ورقه كورق الصفصاف يُشبه به الحسان، القرقف: هو الماء البارد الصافي.

سُيُــوفٌ وَرَيْحَــانٌ وَلَيْــــلٌ وَبَــــانَـــــةٌ وَمِسْــكٌ وَيَاقُــوتٌ وَصُبْـحٌ وَقَــرْقَــــــفُ

ومثال اللف والنشر المشوش: كقول الشاعر(١):

وَلَحْظُـــــهُ وَمُحَيَّــاهُ وَقَـــامَـــتُـــــهُ بَدْرُ الدُّجَــا وَقَضِيـبُ البَــانِ وَالــرَّاحُ

فبدرُ الدُّجا: راجع إلى المحيّا الذي هو الوجه، وقضيب البان راجع إلى القامة، والراح راجع إلى اللحظ.

(١) البان: ورد معناها في شرح البيت السابق، الراح: الخمر.

الفصل الثاني
المحسنـــات اللفظيـــة

المبحث الأول: الجناس:

من المحسنات اللفظية الجناس، ولعله زينتها وأشهرها، ولذا خصّه والسجعَ الشيخُ عبد القاهر بالذكر، ويسمى المجانسة والتجانس، وهو أن يتفق اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى، ومعنى هذا أنك تذكر الكلمة في موضعين فيكون لها في كل موضع معنى يختلف عن الآخر، وقد تكون الكلمتان اسمين أو فعلين، أو تكون احداهما اسماً والأخرى فعلاً، وهو قسمان: جناس تام وجناس ناقص.

فالجناس التام أن تتفق الكلمتان في أربعة أشياء.

١- في نوع الحروف. ٢- في الشكل.

٣- فـــي العـــــدد. ٤- وفي الترتيب.

والجناس الناقص أن تختلف الكلمتان في واحد من هذه الأربع. واعلم أن الجناس إنما يقبل في الكلام إذا كانت الصنعة فيه توافق الطبع، قال الشيخ رحمه الله:

«أما التجنيس فإنك لا تستحسن اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً، اتُراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله(١):

ذَهَبَـــتْ بِمُذْهَبِـهِ السَّمَاحَـــةُ فَـالْتَـــوَتْ فِيـــهِ الظُّنُـــونُ أَمَذْهَـــبٌ أَمْ مُذهَـــبُ؟

واستحسنت تجنيس القائل (حتى نجا من خوفه وما نجا)(٢)وقول المحدث هو أبو الفتح البستي على الأصح:

نَـاظِـــرَاهُ فِيـمَـــا جَنَـــى نَـاظِـــــرَاهُ أَوْ دَعَـانِـــي أَمُـتْ بِمَـــا أَوْدَعَـانِـــــي

---

(١) ديوان أبي تمام ١٢٩/١، والبيت من قصيدة في مدح الحسن بن وهب. ذهبت بمذهبه: يحتمل وجهين فتح الميم وضمها، فعلى الفتح يكون المعنى: ذهبت بطريقته السماحة أي غلبت عليه، كما يقال: «ذهب فلانٌ بالمجد» أي حازه وصار له، وعلى الضم يكون المعنى ذهبت بثيابه المُذْهبة. أي أنه يخلعها ويبذلها هبةً وعطاءً، مُذهب: ادمانٌ وتوسوسٌ في عملٍ ما. يقول:«إنه يبذلُ حتى رداءه الثمين في العطاء حتى التبس أمره على الناس فلم يدروا إذا كان ما يصدر منه عن عقيدةٍ عاقلةٍ أم أنه خرج فيه عن طوره لأنه خرق به مألوف عادته، والمعنى أنه يدأب على ما يثير دهشة الآخرين من العطاء فلا يفقهون له تفسيراً».

(٢) (نجا) الأولى بمعنى احدث – من الحدث الذي ينقض الوضوء – والثانية بمعنى خَلَصَ.

الأمر يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفاً مكررة، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووفاها، فبهذه السريرة صار التجنيس - وخصوصاً المستوفى منه المتفق في الصورة - من حلى الشعر، ومذكوراً في أقسام البديع.

فقد تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ولذلك ذم الاستكثار منه والولع به، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعاني والمُصَرِّفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته وأحال عن طبيعته، وذلك مظنة من الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض والشين....».

«... وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، ومن هاهنا كان أحلى تجنيس تسمعه، وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتَأَهُّبٍ لطَلَبِه، أو ما هو لحسن ملائمته - وإن كان مطلوباً - بهذه المنزلة، وفي هذه الصورة. وذلك كما يمثلون به أبداً قول الشافعي - رحمه الله تعالى - وقد سئل عن النبيذ فقال: «اجمع أهل الحرمين على تحريمه» ومما تجده كذلك قول البحتري[١]:

يَعْشَى عَنِ المَجْدِ الغَبِيُّ وَلَنْ تَرى ... فِي سُؤْدُدٍ أَرَباً لِغَيْرِ أَرِيبِ»[٢]

وإليك أمثلة لكل من النوعين.

(١) الجناس التام: قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم ٥٥]، فقد ذكرت الساعة مرتين ولكل منهما معنى، فالساعة الأولى القيامة، والثانية الجزء من الزمن. ومنه قولك: «علا قدر النبي صلى الله عليه وسلم على كل قدر» فالكلمة الأولى فعل، والثانية حرف. وقال الشاعر:

نَاظِرَاهُ فِيمَا جَنَى نَاظِرَاهُ ... أَوْ دَعَانِي بِمَا أَمُتْ أَوْدَعَانِي

(١) ديوان البحتري ٦٤٥/١، والبيت من قصيدة في مدح اسحق بن نويخت، يعشى: من عشى: أي ساء بصره في الليل والنهار، السؤدد: الشرف والرفعة.

(٢) أسرار البلاغة ص ١٧ - ٢٠.

فالكلمة الأولى وهي ناظراه فعل أمر مبني على حذف النون، والألف فاعل، والكلمة الثانية مرفوعة بالألف لأنها مثنى، وكذلك كلمة أو دعاني، فهي مركبة من كلمتين (أو) وهي حرف عطف، ودعاني وهي فعل أمر بمعنى اتركاني، وأما أو دعاني الثاني فهي فعل ماض.

ومنه قول أبي تمام:

فَأَصْبَحَتْ غُرَرُ الأَيَّامِ مُشْرِقَةً   بِالنَّصْرِ تَضْحَكُ مِنْ أَيَّامِكَ الغُرَرُ

فالغرر الأولى بمعنى البياض والاشراق، والثانية بمعنى الكرم والشرف.

وقال كذلك[١]:

مَا مَاتَ مِنْ كَرَمِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ   يَحْيَا لَدَى يَحْيَى بنِ عَبْدِاللَّهِ

فـ(يحيا) الأولى من الحياة وهي فعل، والثانية اسم لشخص، ومنه قول الآخر في رثاء صغير:

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ   إِلَى رَدِّ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ سَبِيلُ

وقال أبو نواس[٢]:

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا احْتَدَمَ الوَغَى   والفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

وقال المتنبي:

لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ اتَّسَقَتْ أُمُورٌ   رَأَيْنَاهَا مُبَدَّدَةَ النِّظَامِ

سَمَا وحَمَى بَنِي سَامٍ وَحَامٍ   فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ سَامٍ وَحَامِ

فـ (سام وحام) في الشطر الأول من البيت الثاني هما ولدان من أولاد نوح عليه السلام وقوله (سام وحام) في الشطر الثاني من السموّ والحماية. وقال أبو سعيد المخزومي[٣]:

حَدَقُ الآجَالِ آجَالُ   وَالهَوَى لِلْمَرْءِ قَتَّالُ

فالآجال الأولى جمع (إجْل) بكسر الهمزة وسكون الجيم: وهو القطيع من بقر الوحش،

---

(١) ديوان أبي تمام ٣٤١/١

(٢) ديوان أبي نواس ص ٩٢

(٣) الوافي في العروض والقوافي، ورقة ٦٦، تحرير التحبير ص ٣٩٣.

والثانية جمع (أَجَلْ) بفتح الهمزة وفتح الجيم وهو أمد العمر.. وقال أبو تمام(٤):

إذا الخَيْلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الحَرْبِ صَدَّعُوا   صُدُورَ العَوالي في صُدُورِ الكَتَائِبِ

فـ (صدور) الأولى بمعنى أعالي الرماح، والثانية نحور الأعداء. وقال آخر:

إذا رَمَاكَ الدَّهْرُ في مَعْشَرٍ   قَدْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى بُغْضِهِمْ

فَدارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ   وَأَرْضِهِمْ مَا دُمْتَ فِي أَرْضِهِمْ

(فدارهم) الأولى وهي فعل أمر والثانية اسم، وكذلك (أرضهم) فالأولى أمر والثانية اسم. وقال أبو العلاء المعري:

لَمْ نَلْقَ غَيْرَكَ إنْسَاناً يُلاذُ بِهِ   فَلا بَرِحْتَ لِعَيْنِ الدَّهْرِ إنْسَانَا

فـ (انسان) الأولى جنس بني آدم، والثانية ما يُرى في سواد العين. وقال أبو الفتح البستي(٢):

كُلُّكُمْ قَدْ أَخَذَ الجَامَ   وَلاَ جَامَ لَنَا

مَا الَّذي ضَرَّ مُديرَ   الجَامِ لَوْ جَامَلَنَا

فاللفظ الأول مركب من كلمتين هما (جام) بمعنى الكأس، و (لنا) جار ومجرور، والثاني مفرد وهو فعل ماض من المجاملة، بمعنى (عاملنا بالجميل).

ومثل هذا الأقوال المشتهرة:

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ مَالُوا   إلى مَنْ عِنْدَهُ مَالُ

وَمَنْ لاَ عِنْدَهُ مَالُ   فَعَنْهُ النَّاسُ قَدْ مَالُوا

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُوا   إلى مَنْ عِنْدَهُ ذَهَبُ

وَمَنْ لاَ عِنْدَهُ ذَهَبُ   فَعَنْهُ النَّاسُ قَدْ ذَهَبُوا

(٢) الجناس الناقص: قلنا إن الجناس الناقص أنْ تختلف الكلمتان في نوع الحرف أو شكله أو عدده أو ترتيبه. فالاختلاف في نوع الحروف كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا

---

(١) ديوان أبي تمام ٢٠٧/١، والبيت من قصيدة في مدح أبي دلق العجلي، يقول: إذا شقّت الخيلُ غبار الحرب فإنهم يطعنون الأبطال بالرماح حتى يكسّروها في صدورهم.

(٢) الايضاح ٩٤/٦، معاهد التنصيص ٢٢١/٣.

السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾ [الضحى ٩- ١٠]، فقد اختلف اللفظان (تقهر وتنهر) في حرة , القاف والنون. وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام ٢٦]، فاختلفت الكلمتان في حرف الهمزة وحرف الهاء. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «الخيل معقود في نواصيها الخير»[1] فاختلفت الكلمتان (الخيل والخير) في حرف اللام والراء. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء ٨٣]، فكلمة (أمرٌ) وكلمة (أمن) اختلفتا في حرف الراء وحرف النون. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر ٧٥]، وقال البحتري[2]:

أَلِمَا فَاتَ مِنْ تَلاقٍ تَلافِ ... أَمْ لِشَاكٍ مِنَ الصَّبَابَةِ شَافِ

فاختلفت كل كلمتين من (تلاق وتلاف) و (شاك وشاف) في حرف من حروفهما وقال كذلك[3]:

نَسِيمُ الرَّوْضِ فِي رِيحٍ شَمَالٍ ... وَصَوْبُ المُزْنِ فِي رَاحٍ شَمُولِ

ومن الاختلاف في شكل الحروف قول ابن الفارض[4]:

هلاَّ نَهَاكَ نُهَاكَ عَنْ لَوْمِ امْرِئٍ ... لَمْ يُلْفَ غَيْرَ مُنَعَّمٍ بِشَقَاءِ

فـ (نهاك) الأولى مفتوحة النون وهي فعل، والثانية مضمومة وهي بمعنى العقل ومنه قول أبي العلاء[5]:

والحُسْنُ يَظْهَرُ فِي بَيْتَيْنِ رَوْنَقُهُ ... بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ بَيْتٍ مِنَ الشَّعَرِ

فالأول ساكن العين بمعنى النظم، والثاني مفتوح العين وهو الشَّعر المعروف، وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُنْذَرِينَ﴾ [الصافات ٧٢ – ٧٣]، فالمنذرين الأولى بكسر الذال اسم فاعل، والثانية بفتح الذال اسم مفعول.

---

(١) رواه مسلم – كتاب الزكاة – باب اثم مانع الزكاة حديث ١٦.

(٢) ديوان البحتري ٦٠١/٢، التلافي: التدارك، والمعنى: هل يمكنُ أن يُدْرَكَ ما فات!؟.

(٣) ديوان البحتري ١٦٠/٢، العمدة ٢٢٣/١، الصوب: الأنصبابُ والنزول، المزن: السحاب، شمول: الخمر، وقيل البارد منها، الراح: الوعاء الذي يوضع الخمرُ فيه.

(٤) ديوان ابن الفارض ص ٦٧.

(٥) ديوان سقط الزند ص ١٠٧.

ومن الاختلاف في عدد الحروف قوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة ٢٩ - ٣٠]، فعدد حروف المساق زائد على عدد حروف كلمة الساق. وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

إنَّ البُكَاءَ هُوَ الشِّفَاءُ مِنَ الجَوَى بَيْنَ الجَوَانِح

فالجوانح عدد حروفها زائد عن عدد حروف كلمة الجوى. وكقول أبي تمام[١]:

يَمُدُّونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وقال البحتري[٢]:

لَئِنْ صَدَفَتْ عَنَّا فَرُبَّةَ أَنْفُسٍ صَوَادٍ إِلى تِلْكَ الخُدُودِ الصَوَادِفِ

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه[٣]:

وكُنَّا متى يَغْزُ النَّبِيُّ قَبِيلَةً نَصِلْ جَانِبَيْهِ بِالقَنَا وَالقَنَابِلِ

ومن الاختلاف في ترتيب الحروف، قول عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه -:

وَتَحْمِلُهُ النَاقَةُ الأَدْمَاءُ مُعْتَجِراً بِالبُرْدِ كَالبَدْرِ جَلَّى نُورَهُ الظُّلَمَا[٤]

والشاهد في قوله: «البرد وكالبدر» ومنه قول أبي الطيب[٥]:

مُنَعَّمَةٌ مُمَنَّعَةٌ رَدَاحٌ يُكَلِّفُ لَفْظُهَا الطَّيْرَ الوُقُوعَا

أي ممنعة يمنعها أهلها ويحمونها، ورداح صفحة الالية أو ثقيلة الأوراك والشاهد في قوله ممنعة ومنعمة.

---

(١) ديوان أبي تمام ٢/٢١٣، يقول: إنهم يمدون أيديهم الصلبة التي تأبى الذل بسيوفٍ قاطعةٍ تقطع بالحقّ على الباطل.

(٢) ديوان البحتري ٢/١٠٢، والبيت من قصيدة في مدح اسحق التبريدي، صدفت: مالت، الصوادي: الشديدة العطش، وفي رواية (إلى تلك الوجوه)، الصوادف: المائلة، ربّة مثل ثمّة يقال ربَّ وربّة.

(٣) ديوان حسان بن ثابت - رضي الله عنه - ص ٣١٥، القنابل: جمع قَنْبله - بفتح القاف: وهي الجماعة من الخيل ومن الناس. يقول:متى يغزُ النبيُّ قبيلةً نحدق به بخيلنا وسلامنا ذائدين عنه مدافعين.

(٤) معتجراً: أي لافاً العمامة على رأسه.

(٥) ديوان المتنبي ٢/٣٥٨، امرأةٌ رداح: ضخمة العجيزة ثقيلة الأوراك، كذلك ناقةٌ رداح وكبشٌ رداح أي ضخمُ الإلية، ودوحةٌ رداح أي عظيمة. يقول: إذا سمعت الطيرُ لفظها وقعت لحسنه.

وقال أبو تمام[1]:

بِيضُ الصَفَائِحِ لا سُودُ الصَحَائِفِ فِي ... مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَكِّ وَالرِّيَبِ

وقول الأحنف:

حُسَامُكَ فِيهِ لِلأَحْبَابِ فَتْحٌ ... وَرُمْحُكَ فِيهِ لِلأَعْدَاءِ حَتْفُ

والشاهد في قوله فتح وحتف.

وإليك أمثلة مما اشتهر على الألسنة من هذا النوع من جناس تام أو جناس ناقص.

قال بعض الحكماء: «الدُنيا دارُ مفرٍ وليست دارَ مقرٍّ، فلا تَغْتَرَ فيها بِأملٍ فإنما تَفْتَرُّ لك عن ألم، فهي إذا حلَتْ أَوْ حلَتْ، وإذا رَمَتْ أَوْ رَمَتْ، وإذا أقْبلَتْ بلَتْ وإذا صَبَتْ أو أوْصَبَتْ، وهذه القبور تُبنى ولكننا ما تُبنْا، فأدِم النظر وكن على حذر، واعلم أن خير المعاني ما يحبب إليك المعالي ويبعدك عن المعاصي».

وقال آخر: «الخيبةُ تَذهب بالهيبةِ، والمَنِيَّةُ تضحك من الأُمْنِية، كما تضحك القبور من القصور، فخذ العِبْرَةَ واسكب العَبْرة، واعلم أن خير المعاشرة ما يوجب المباشرة، فدع التهجم والتهكم، وتجنب التعدي والتحدي، واحذر العَفْوَ إلا على عَدُوٍّ ادار لك حربته ونَبْلَه، وأراد لك أن تذل وتبلى، واعلم أن لكل مستبد عَلَامَاتٍ فإذا علا مَاتَ».

المبحث الثاني: السجع:

من المحسنات اللفظية السجع: وهو أن تتفق الفاصلتان في الحرف الأخير، والفاصلة في النثر كالقافية في الشعر، وتسمى كل من الجملتين فقرة، وأحسن السجع ما تساوت فِقَرهُ.

واعلم أن السجع مأخوذ من قولهم سجعت الحمامة، ولا يكون محموداً مقبولاً، إلا إذا كان غير متكلف، وكان اللفظ فيه تابعاً للمعنى، أما إذا كان متكلفاً وكان المعنى تابعاً فيه للّفظ فهو من السجع المذموم، وقد ذمه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «أسجعاً كسجع الكُهَان»[2].

ومثال السجع المحمود ما جاء في الحديث الشريف: «اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط

---

(1) ديوان أبي تمام ١/٤٠، من قصيدته المشهورة في مدح المعتصم بعد فتح عمورية. وعنى بالصحائف - جمع صحيفة - وبالصفائح - جمع صفيحة - السيوف.

(2) رواه مسلم كتاب القسامة، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني باب (١١) حديث ١٦٨٢.

ممسكاً تلفاً»(١)، وقال صلى الله عليه وسلم: «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم»(٢).

وقد اختلفوا في وقوع السجع في كتاب الله تعالى فمنعه قوم منهم الرماني والباقلاني فيما كتباه في إعجاز القرآن، وقالوا: إن ما جاء على صورة السجع في كتاب الله كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر ١ - ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ [المرسلات ١ - ٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور ٧ - ٨]، ومثل قوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الواقعة ٢٨ - ٣٠]، وغيره في التنزيل كثير، قالوا: إن ذلك لا يسمى سجعاً وإنما هو فواصل. وقد أطال الباقلاني الكلام في ذلك.

وأجازه قوم منهم ابن الأثير في المثل السائر وإليك شيئاً مما قاله في هذا:

« السجع، وحدُّه أن يقال: تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد: وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم، فإنه قد أتى منه بالكثير، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة، كسورة (الرحمن)، وسورة (القمر)، وغيرهما، وبالجملة فلم تخلُ منه سورة من السور، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيرا﴾ [الأحزاب ٦٤]، وكقوله تعالى: ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه ١ - ٨] ... وأمثال ذلك كثير.

وقد ورد على هذا الاسلوب من كلام النبي صلى الله عليه وسلم شيء كثير أيضاً:

فمن ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «استحيوا من الله حقَّ الحياء» قلنا: إنا لنستحي من الله يا رسول الله. قال: «ليس ذلك، ولكن

(١) رواه مسلم كتاب الزكاة، باب (١٧) (في المنفق والممسك) حديث ١٠١٠.
(٢) قال في كشف الخفاء رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً جـ١، ص ٥١٤.

الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا»[١].

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن سلام فقال: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما تبينت وجهه علمت أنه ليس بوجه كذّاب فكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»[٢].

فإن قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعضهم منكراً عليه وقد كلمه بكلام مسجوع أسجعاً كسجع الكهّان...، ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبي صلى الله عليه وسلم.

فالجواب عن ذلك أنا نقول: لو كره النبي صلى الله عليه وسلم السجع مطلقاً لقال: «أسجعاً» ثم سكت، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لمَ كان؟ فلما قال: «أسجعاً كسجع الكهّان» صار المعنى معلقاً على أمر، وهو إنكار الفعل لمِ كان على هذا الوجه؟، فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سَجْع الكهّان لا غير، وأنه لم يذم السجع على الاطلاق، وقد ورد في القرآن الكريم، وهو صلى الله عليه وسلم قد نطق به في كثير من كلامه، حتى أنه غيّر الكلمة عن وجهها اتباعاً لها بأخواتها من أجل السجع فقال لأبني بنته - الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما - : «اعيذه من الهامة والسّامة، وكل عين لامّة»[٣]وإنما أراد مُلِمَّة لأن الأصل فيها من ألمَّ فهو مُلِم، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «أرجعن مازورات غيرَ مأجورات»[٤]، وإنما أراد موزورات من الوِزر، فقال: مازورات لمكان مأجورات، طلباً للتوازن والسجع، وهذا مما يدلك على فضيلة السجع[٥].

على أن هذا الحديث النبوي الذي يتضمن إنكار سجع الكهان عندي فيه نظر، فإن الوهم يسبق إلى انكاره، يقال: فما الكهان الذي يتعلق الانكار به ونهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والجواب عن ذلك أن النهي لم يكن عن السجع نفسه، وإنما النهي عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع، ألا ترى أنه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنين

(١) رواه الترمذي أبواب صفة القيامة باب (٢٥) حديث رقم ٢٤٦٠، قال أبو عيسى: حديث غريب.

(٢) رواه الترمذي كتاب الأطعمة، باب ما جاء في فضل اطعام الطعام رقم ٤٥، حديث (١٨٥٥) قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه الترمذي كتاب الطب، باب (١٨) حديث (٢٠٦١) قال: حديث حسن صحيح.

(٤) رواه ابن ماجة كتاب الجنائز، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز باب رقم (٥٠) حديث رقم (١٥٧٨).

(٥) لسنا مع ابن الأثير في تأويل الحديثين فكلمة لامة ومأزورات لهما وجه آخر من الجمال غير ما ذكره.

بغرة عبد أو أمة قال الرجل: «أأدِي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك يطل» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اسجعاً كسجع الكهان» أي أَتَتَّبِعُ سجعاً كسجع الكهان.

وكذلك كان الكهنة كلهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعاً...

... فالسجع إذن ليس بمنهي عنه، وإنما المنهي عنه هو الحكم المتبوع في قول الكاهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أسجعاً كسجع الكهان» أي أحكماً كحكم الكهان، وإلا فالسجع الذي أتى به ذلك الرجل لا بأس به لأنه قال: «أأدي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك يطل» وهذا كلام حسن من حيث السجع وليس بمنكر لنفسه وإنما المنكر هو الحكم الذي تضمنه في امتناع الكاهن أن يدي الجنين بغرةٍ عبد أو أمة.

واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجّاعاً، وما من أحد منهم لو شَدَا شيئاً يسيراً من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظاً مسجوعة ويأتي بها في كلامه، بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنّانة رنانة لا غثّة ولا باردة، وأعني بقولي غثة باردة أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن...».

«... فإذا صُفِّيَ الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهرٍ مُمَوَّهٍ، على باطن مشوَّهٍ، ويكون مثله كغمد من ذهب على نَصل من خشب، وكذلك يجري الحكم في الأنواع الباقية الآتي ذكرها من التجنيس والترصيع وغيرهما».

... فإن قيل: فإذا كان السجع أعلى درجات الكلام على ما ذهبت إليه، فكان ينبغي أن يأتي القرآن كله مسجوعاً، وليس الأمر كذلك بل منه المسجوع ومنه غير المسجوع.

قلت في الجواب: إن أكثر القرآن مسجوع حتى أن السورة لتأتي جميعها مسجوعة.. وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك به مسلك الايجاز والاختصار، والسجع لا يواتي في كل موضع من الكلام على حد الايجاز والاختصار فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب.

وها هنا وجه آخر هو أقوى من الأول، ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع؛ لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغُ في باب الإعجاز من ورود المسجوع، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين.

واعلم أن للسجع سراً هو خلاصته المطلوبة، فإن عُرِّيَ الكلام المسجوع منه فلا يعتدّ به أصلاً، وهذا شيء لم ينبه عليه أحد غيري وسأبينه ها هنا، وأقول فيه قولاً هو أبين مما تقدم، وأمثل لك مثالاً إذا حنوته أمنت الطاعن والعائب، وقيل في كلامك، ليبلغ الشاهد الغائب، والذي أقوله في ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه اختها، فإن كان المعنى فيهما سواء فذاك هو التطويل بعينه، لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها، وإذا وردت سجعتان تدلاّن على معنى واحد كانت احداهما كافية في الدلالة عليه، وجُلُّ كلام الناس المسجوع جار عليه، وإذا تأملت كتابة المُعلّقين ممن تقدم كالصّابي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان فإنك ترى أكثر المسموع منه كذلك، والأقل منه على ما أشرت إليه...».

«فالكلام المسجوع إذاً يحتاج إلى أربع شرائط:

الأولى: اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الذي أشرت إليه فيما تقدم.
الثانية: اختيار التركيب على الوجه الذي أشرت إليه أيضاً فيما تقدم.
الثالثة: أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى، لا المعنى تابعاً للّفظ.
الرابعة: أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها. فهذه أربعُ شرائط لا بد منها»(١).

المبحث الثالث: ردُّ العجز على الصدر:

من المحسنات اللفظية في علم البديع رد العجز على الصدر، ورد العجز على الصدر يكون في النثر وفي الشعر، وهو أن نأتي بلفظين مكررين أو متجانسين فنجعل احدهما في أول الجملة والآخر في آخرها، أو أن يكون أحدهما في الشطر الأول من الشعر والثاني في الشطر الآخر، وإنما قلنا أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين، لأن اللفظتين قد تكونان من معنى واحد ومن مادة واحدة، وقد يكون كل منهما من مادة.

فمثال اللفظتين المختلفتين من حيث المادة قوله سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء ١٦٨]، فكلمة قال من القول، وكلمة قالين من القِلى وهو البغض، قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى ٣]، وقولك: «سائلُ اللئيم يرجع ودمعُه سائل» فسائل الأولى من السؤال والثانية من السيلان. وقولك: «رب قوم لا يشربون الماء وإنما يشربون رُبّا» فرب الأولى حرف للتقليل والثانية عصير العنب وقولك: «ما جارَ مثلُ مَنْ أهانَ جَارهَ». وهو

---

(١) المثل السائر ص ١٩٢ – ١٩٩، جـ١.

قريب من الجناس كما ترى، إلاأن هذا جاءت إحدى الكلمتين في أول الجملة والثانية في آخرها، ولا يشترطون ذلك في الجناس. والجناس لا بد فيه من اختلاف الكلمتين من حيث المعنى، وقد يتحد المعنى هنا.

ومثال الثاني: أي ما اتحدت مادته قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب ٣٧]، وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة ١٣]، وقوله: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران ٨].

ومثاله في الشعر قول المغيرة بن عبد الله (الأقيشر)(١):

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ العَمِّ يَلْطِمُ خَدَّهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي النَّدَى بِسَرِيعِ

ومنه قول المعري(٢):

فَوَاعَجَبَا كَمْ يَدَّعِي الفَضْلَ نَاقِصٌ وَوَا أَسَفَا كَمْ يُظْهِرُ النَّقْصَ فَاضِلُ

ونكتفي بهذا القدر وإذا أردت مزيداً فارجع إلى ايضاح القزويني، أو تحرير التحبير لابن أبي الأصبع، وستجد مصداقية ما قلته لك من قبل، من أنك ستجد التكرار أو التكلف أو التداخل في كثير من هذه التي سموها محسنات.

ولنذكر لك كما عودناك من قبل من بدائع القرآن وبدائع السنة المشرفة.

---

(١) الأغاني ١٠/٨٤ - ٩٧ / تحرير التحبير ص ١١٦.
(٢) ديوان سقط الزند ص ٢٢٩.

بدائع القرآن

يتسق ذكر البديع في القرآن الكريم مع غيره من الأساليب التي جاءت في أرفع درجات البلاغة، لذلك نجد أن ما جاء في القرآن منه، - أي من هذا البديع - كان أولاً في غاية الحسن، مطبوعاً ليس فيه أثر للصنعة أو الكلفة كما رأينا في أنواع البديع الكثيرة وبخاصة عند المتأخرين، كما جاء كذلك غير منفصل عما يقتضيه النظم، ويتطلبه المقام، أي أنّ بدائع القرآن لم تأت منفصلة عن روعة النظم التي عرفناها في علم المعاني، كما لا يأتي منفصلاً عن جمال الصورة التي عرفناها في علم البيان.

نقول هذا لأننا عرفنا أن كثيراً من أنواع البديع المتكلفة كان يُجاء بها لذاتها فحسب، دون مراعاة لما يقتضيه النظم أو ينسجم مع الصورة البلاغية، فكانت بحق جناية على البلاغة، وجرأة على البيان، ولقد مرّ معنا بعض الآيات الكريمة عند الحديث عن أنواع البديع، ونودّ هنا أن نتوسع بعض الشيء في ذكر بدائع القرآن الكريم، على عادتنا حينما تحدثنا عن التشبيه والاستعارة والكناية، وليس معنى هذا أننا سنبالغ في عد الأنواع البديعية، ونتكلف لها في استنتاج الأمثلة والشواهد، فهذا ليس منهجنا ولا ينسجم مع فكرة هذا الكتاب، ومن أراد ذلك فنرشده لـ (بديع القرآن) لابن أبي الأصبع و(الاتقان) للإمام السيوطي - رحمهما الله تعالى- فلقد ذكر صاحب بديع القرآن أكثر من مائة نوع اختصرها صاحب الاتقان وزاد عليها - كما يقول - وهذه الأنواع هي:(المجاز، والاستعارة، والتشبيه، والكناية، والإرداف، والتمثيل، والايجاز، والاتساع، والاشارة، والمساواة، والبسط، والايغال، والتتميم، والتكميل، والاحتراس، والاستقصاء، والتذييل، والزيادة، والترديد، والتكرار، والتفسير، والايضاح، ونفي الشيء بايجابه، والمذهب الكلامي، والقول بالموجب، والمناقضة، والانتقال، والإسجال، والتسليم، والتمكين، والتوشيح، والتسهيم، ورد العجز على الصدر، وتشابه الأطراف، ولزوم ما لا يلزم، والتخيير، والتسجيع، والتسريع والايهام: وهو التورية، والاستخدام، والالتفات، والاطراد، والانسجام، والإدماج، والإفتنان، والاقتدار، وائتلاف اللفظ مع اللفظ، وائتلاف اللفظ مع المعنى، والاستدراك، والاستثناء، وتأكيد المدح بما يشبه الذمّ، والتفويف، والتغاير، والتقسيم، والتدبيج، والتنكيت، والتضمين، والجناس، وجمع المؤتلف والمختلف، وحسن النّسق، وعتاب المرء نفسه، والعكس، والعنوان، والفرائد، والقسم، والمبالغة، والمطابقة، والمقابلة والمواربة، والمراجعة، والنّزاهة، والابداع، والمقارنة، وحسن الابتداء، وحسن الختام، وحسن التخلص، والاستطراد)(١):

(١) بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري تحقيق د. حنفي شرف مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٧م.

وسنذكر بعض ما يسمح به المقام ويفتح به العلاّم، مفيدين مما ذكره الأوائل، فإذا بدأنا بالمحسنات المعنوية وجدنا ما جاء منها في كتاب الله تعالى على غاية من الحسن، لا يستطيع أحد أن يفصله على حدة، على معنى أنه لم يأت ثانوياً، إنما جاء في صلب النظم، ولنقف مع قوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران ٦٥].

هاتان الايتان الكريمتان يستخرج منهما علماء البديع أكثر من محسِّن واحد، ولكن هذه المحسنات على تعددها نجد أنها جاءت في صلب النظم ومن مقتضياته، فإذا وقفنا أولاً مع قوله: ﴿اللهم مالك الملك﴾ نجد أن الآية بدأت بهذا النداء المنبئ عما بعده، والدال بحق على العظمة، فهو نداء يستدل منه السامع على عظمة الحق تبارك وتعالى، فهو كالعنوان الدالّ على موضوع الكتاب وهو نوع من البديع، كما رأيت في أسماء الأنواع التي نقلناها عن ابن أبي الأصبع.

فإذا وقفنا مع قوله سبحانه: ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾، رأينا تلك العظمة في التصوير والروعة في الاسلوب لا تقف عند الطباق أو المقابلة فحسب بين (تؤتي) و (تنزع) و (تعز) و (تذل)، ولا يمكننا أن نفصل ذلك عن قوله: (من تشاء)، هذه الجملة التي يظهر فيها أمران كبيران: العموم في كلمة (مَنْ) والارادة المهيمنة في قوله (تشاء)، أليس هذا النظم في هذا الاسلوب يجعل الانسان في حذر دائم، لأنه لا يملك لنفسه شيئاً، وإنما ما شاء الله كان.

ثم لنقف مع قوله سبحانه: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ تلك صورة أخرى من صور العظمة، وعلماء البديع يسمّون هذا عكساً، ولكن أين هو من العكس الذي مرت معك أمثلته من قبل، والتي ظهر فيها التكلف والتصنع والتعمل، وقل لي بربك أيمكنك أن تفصل هذا العكس عن الصورة البلاغية في هذا النظم، التي تتمثل في اختيار كلمتي (تولج) و(تخرج) – وهم يسمون ذلك جناساً ناقصاً – حيث جاءتا في صيغة المضارع الدالة على التجدد دائماً، وهما صورتان في الكون والحياة، صورة الزمان وصورة الخلق.

وكيف جاءت هذه المقابلة سلسة بين النهار والليل والميت والحي، وهكذا نرى أن الوان البديع في كتاب الله تعالى لم تأت من قبيل المحسنات فحسب.

وهكذا يمكنك أن تقف مع قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل ٥ – ١٨]، أنعم النظر في هذه الآيات وستجد فيها أنواعاً كثيرة من البديع: المقابلة بين الآيات الثلاث الأولى والآيات التي بعدها. أي بين قوله: (أعطى واتقى وصدق) وقوله: (بخل واستغنى وكذب) وبين (العسرى) و (اليسرى)، وما فيه من التقسيم كذلك، وبين قوله (يغني) و (تردى)، وما بين قوله: (علينا) و (لنا)، و (الآخرة) و (الأولى)، و (الأشقى) و (الأتقى). ولكن هذه الأنواع جميعاً جاءت في هذا القالب من النظم في هذه الصور المزدوجة، وتزيد الروعة في نفسك إذا عرفت أن هذه الآيات جاءت في سورة الليل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل ١ – ٤].

هل يمكنك أن تفصل هذه الأنواع البديعية جميعها عن صورة النظم وجمال التركيب؟، كيف ابتدأت السورة بالقسم، ثم كان جوابه هذه الجملة المؤكدة ﴿إن سعيكم لشتى﴾ الذي بنى عليها هذا التقسيم فيما بعد، ولولاها ما كان ليصح ذلك، ثم هذه الأداة الدالة على التأكيد (أما) ثم هذا العموم في قوله (من)، ثم في هذه الارادة العادلة (فسنيسره)، وهكذا إذا انعمت النظر في جميع آيات السور الكريمة تجد أن ما فيها من بديع إنما هو من لبّ النظم.

وقف مع قوله سبحانه: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى ١ – ١١].

واستخرج ما شئت من أنواع البديع سواء من المقابلة بين ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾، و ﴿والآخرة والأولى﴾، أم مما يسمونه (اللف والنشر) في قوله: ﴿ألم يجدك يتيماً

فآوى﴾ إلى آخر السورة، حيث ذكره بنعم ثلاث نعمة الأيواء وهو يتيم، ونعمة الهداية وهو حائر، ونعمة الغنى وهو عائل، ثم رتب عليها ما يقابلها، فإذا كنت يتيماً فآواك الله ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾، وإذا كنت ضالاً حائراً فهداك الله وعلمك ﴿فأما السائل فلا تنهر﴾ ويعني به سائل العلم، وإذا كنت عائلاً فأغناك الله وأنعم عليك ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾.

ولكن ترى أيمكننا أن نقف مع أنواع البديع في السورة الكريمة منفصلة عن النظم الخلاب والبيان الجذاب؟ اللهم لا، وهذا كثير في كتاب الله تبارك وتعالى، لا يمكن حصره ويصعب استقصاؤه، وقد تحتاج بعض الآيات إلى تأمل ورَوِيّ.

قف مثلاً مع قوله سبحانه وهو يحدثنا خبر آدم في سورة (طه): ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه ١١٦ - ١٢٣].

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾، و ﴿أنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾، حيث جمع بين الجوع والعُرْي، والظمأ والضحوة، والمتبادر للذهن أن يجمع بين الجوع والظمأ، ولكن القرآن الكريم عدل عن هذا المتبادر، لأن الجوع الصق بالعري، لأن الجوع خلو من الطعام والعري خلو من الكساء، وفي الظمأ والضحوة كليهما حرارة.

وانظر إلى المناسبة بين قوله تعالى: ﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾، وبين قوله سبحانه: {عَصَى وغَوَى}، وما بعدها {اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}، وبين قوله سبحانه: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} وما بعده من هذا التقسيم، مما يمكنك أن تستخرجه بذهنك وتدركه بقريحتك ،لكن ذلك كله لا ينبغي أن نقف به عند هذه المحسنات منفصلة عن روعة النظم وجمال الصورة.

وانظر إلى الجمع والتقسيم في قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ فَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور ٤٥]، وإلى قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر ٣٢]، وإلى قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود ١٠٥ - ١٠٧].

وهكذا لو أردت أن تستعرض أنواع المحسنات البديعية، وجدت من ذلك في كتاب الله ما يستريح له الطبع وتأنس به النفس. انظر إلى اسلوب التورية في قوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات ٤٧ - ٤٨]، فإن كلمة (أيد) لها معنيان معنى قريب وهو جمع يد، ومعنى بعيد وهو القوة والإحكام، وهو المراد هنا -والله أعلم- وليس هذا في الآية فحسب، بل انظر إلى ما بين السماء والأرض (بنيناها وفرشناها).

وانظر إلى التورية في قوله سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن ٥ - ٦]، فالنجم له معنيان الساطع في السماء وهو المعنى القريب، والنبات الذي ليس له ساق وهو المعنى البعيد، وهو المراد هنا، وإن كان ذكر الشمس والقمر يجعل الأول هو المتبادر للذهن.

ولقد مرت معك من قبل أمثلة للمشاكلة في مثل قوله سبحانه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة ١١٦]، وهو مثال أيضاً لطباق السلب بين (تعلم) و (لا أعلم)، وهذا يؤيد ما قلناه من قبل من أن بدائع القرآن الكريم ليست فنوناً جيء بها من أجل التنميق فحسب، إنما هي في صلب المعنى وجوهر النظم.

قف مثلاً مع هذه الآيات الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ

اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [البقرة ٢٦ – ٢٧]، وانظر إلى المشاكلة في قوله: ﴿لا يستحي أن يضرب مثلاً﴾، ثم انظر إلى اسلوب المقابلة في قوله سبحانه: ﴿بعوضة فما فوقها﴾، وبين قوله: ﴿آمنوا وكفروا﴾ وبين قوله: ﴿يضل ويهدي﴾، و ﴿يقطعون ويوصل﴾، إلى غير ما هنالك مما في الآيات الكريمة. وإليك طرفاً مما ذكره جار الله الزمخشري.

يقول عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ١٣]، مشيراً إلى المقابلة في الآية الكريمة وفي التي قبلها وهي قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة ١١]، يقول: «فإن قلت: فلِمَ فُصِلَت[(١)] هذه الآية بـ (لا يعلمون) والتي قبلها بـ (لا يشعرون)؟ قلت: لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحقّ وهم على الباطل، يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيويّ مبني على العادات، معلوم عند الناس، خصوصاً عند العرب في جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر، والتحارب والتحازب، فهو كالمحسوس المشاهد، ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له»[(٢)].

ويقول عند قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة ١١١].

«والمعنى: قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فلفّ بين القولين ثقة بأن السامع يردُّ إلى كل فريق قوله، وأمناً من الإلباس لِمَا عُلِم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه»[(٣)].

(١) أي لماذا كانت فاصلة الآية (لا يعلمون).
(٢) الكشاف جـ١، ص ٦٤.
(٣) الكشاف جـ١، ص ١٧٧.

ويقول عند قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة ١٨٥].

فقوله (ولتكملوا) علة الأمر بمراعاة العدّة، (ولتكبروا) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفِطَر، (ولعلكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير. وهذا نوع من اللفّ لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبينه إلا النَّقَاب المحدث من علماء البيان(١).

فإذا جئت إلى المحسنات اللفظية وجدت جمال اللفظ دون أن ينال ذلك من المعنى شيئاً، ولقد مر معنا من قبل أمثلة للجناس مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم ١٢]، ومثل قوله سبحانه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور ٤٣] وقوله سبحانه: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام ٢٦]، وكله منسجم مع النظم، والذي نود أن نؤكده هنا بأن القرآن الكريم مع عنايته باختيار الألفاظ إلا أن هذا الاختيار مع ما يتوخى فيه من دقة للدلالة على الموضوع ورقة في المعنى، فإنه لا يقيم لجانب التنسيق والتنميق في الألفاظ وزناً إذا كان ذلك على حساب المعنى، ويمكن أن نمثل لذلك بكثير من الآيات الكريمة.

أنعم النظر في قوله سبحانه: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم ٦]، وأنت تعلم أن المنسجم مع لفظ الأبناء، لفظ البنات، ولكن القرآن لم يقل ويستحيون بناتكم، وذلك لأن في لفظ النساء معنى قصد إليه القرآن، ولو أنه ذكر البنات لفات هذا المعنى، والقرآن يقصد أن آل فرعون لن يقتلوا البنات الوليدات كما يفعلون ذلك مع الأبناء، بل سيبقون عليهن حتى يكبرن ويصرن نساءً، ولا شك أن في هذا من الإذلال والاهانة والايلام للنفس الكثير الكثير.

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة ١١٨]، والمتبادر إلى الذهن أن يقول الغفور لأنه هو المناسب والمتسق مع قوله {إن تغفر لهم}، ولكن القرآن لم يلق بالاً لهذه المناسبة اللفظية، ذلك لأنها ستخل بالمعنى المراد من الآية الكريمة، وهو أنه لن يغفر للعاصين، قال السيوطي: «فإن قوله وإن تغفر لهم يقتضي أن تكون الفاصلة (الغفور الرحيم) وكذا نُقِلَتْ عن مصحف أُبَيّ وبها قرأ ابن

---

(١) الكشاف جـ١، ص ٢٢٨.

شنبوذ، وذكر في حكمته أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يردُّ عليه حكمه، فهو العزيز أي الغالب، والحكيم هو الذي يضع الشيء في محله، وقد يخفى وجه الحكمة على بعض الضعفاء في بعض الأفعال فيتوهم أنه خارج عنها وليس كذلك، فكان في الوصف بالحكيم احتراس حسن، أي إن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معتَرَضَ عليك لأحد في ذلك، والحكمة فيما فعلته»(١).

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف ١٧]، ولم يقل (وما أنت بمصدق)، ذلك لأن في كلمة مؤمن ما لا يوجد في كلمة مصدّق ولذا آثر القرآن جانب المعنى. وأنعم النظر في قوله سبحانه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات ١٢٥]، ويتساءل بعضهم لِمَ لَمْ يقل (وتَدَعون أحسن الخالقين) فإن – (تَدْعون) بمعنى (تعبدون) و(تَدَعون) بمعنى(تتركون) – فيهما تناسب من حيث اللفظ، ولكن القرآن مع ذلك أهمل هذا التناسب ولم يعره عناية، ذلك لأن هناك فرقاً بين (تَدَعون) و (تذرون)، وإن كانا في الظاهر كما يظن الناس معناهما واحد وهو الترك فكلمة (دع) إنما تقال في جانب الشيء الذي له في حياة الانسان شأن مأخوذ من توديع المسافر، وقد قُرِيء شاذاً (ما ودَعَكَ ربك وما قلى)، أما كلمة (ذر) فتقال بجانب الشيء الذي لا يُعتنى به ومنه الوَذَرَة وهي قطعة من اللحم تطرح لأنها لا تصلح للأكل، ولذا لا تقول (ذر صديقك) و (ذر هذا الكتاب) إذا كان مفيداً، إنما تقول (دع صديقك الآن) و (دع هذا الكتاب الآن) وتقول (ذر فلاناً لأنه غير سوي) و (ذر هذا الكتاب لأنه كثير المغالطات)، ولا يجوز أن تقول (دع)، ومن هنا تدرك السر في اختيار الكلمة القرآنية: اختيار (تذرون) على (تدَعون)، لأنهم لم يرجوا لله وقاراً، ولم يقدروه سبحانه حقّ قدره.

وأخيراً قف مع قوله سبحانه: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ [الحاقة ٣٥]، ولو أن القرآن يقصد تنميق اللفظ على حساب المعنى لقال (ولا شرابٌ إلا من حميم) ولكن القرآن عدل عن ذلك كله فقال ﴿فليس له اليوم ها هنا حميمٌ ولا طَعَامٌ إلا من غسلين﴾.

وبعد، فبدائع القرآن الكريم لا تخرج عن هذا السنن الذي ذكرته لك، وهو الانسجام بين الموضوع المتحدَث عنه، والألفاظ التي اختيرت له، والمعاني المرادة من هذه الألفاظ، وتلك لعمر الحق آية الجمال وحكمة البيان.

(١) الاتقان ٢/٢٥٢.

البديع في الحديث الشريف

أما البديع في السنة المطهرة فهو منسجم كذلك مع فصاحة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي نعى على المتشدقين المتفيهقين، وكان يكره التكلف في كل شيء، لا عجب أن يكون ما جاء من اسلوب البديع في كلامه الشريف - إذن - منسجماً مع هذه المبادئ مطبوعاً غير مصنوع وسنكتفي بذكر أمثلة لتقف أمامها وتدرك ما تشير إليه من رقة في الطبع، ودقة في الوضع، وما تحدثه من راحة في السمع، والأمثلة الشريفة التي نذكرها تشتمل على كثير من المحسنات المعنوية واللفظية من طباق ومقابلة ومشاكلة وجناس وسجع وصحة تقسيم وغير ذلك مما يمكن أن تستخرجه بنفسك.

١- يقول صلى الله عليه وسلم: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»[١].

٢- وكان يقول صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد، ملءَ السماوات وملءَ الأرض وملءَ ما بينهما وملءَ ما شئت من شيء بعد، أهلُ الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد وكلُّنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطيَ لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ»[٢].

٣- وقال صلى الله عليه وسلم للأنصار رضي الله عنهم: «انكم لتَكْثُرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع».

٤- وقال صلى الله عليه وسلم: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[٣]وقوله لهرقل عظيم الروم في كتاب بعثه صلى الله عليه وسلم له جاء فيه: «أما بعد أسلم تسلم، واسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك اثم الأريسيين»[٤].

٥- عن أبي واقد الليثي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد قال:« فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله

---

(١) رواه البخاري كتاب الدعوات، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم اغفر لي ما قدمت وما أخرت باب (٦١) حديث ٦٠٣٥.

(٢) رواه مسلم كتاب الصلاة باب اعتدال اركان الصلاة وتخفيفها في تمام.

(٣) رواه البخاري كتاب المظالم باب الظلم ظلمات يوم القيامة باب رقم (٩) حديث رقم ٢٣١٥.

(٤) رواه مسلم كتاب الجهاد رقم (٣٢) باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام رقم ٢٦.

صلى الله عليه وسلم قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»(١).

٦- وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة قال من هذه قالت فلانة، تذكر من صلاتها قال: «مَهْ عليكم بما تطيقون فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تملوا، وكان أحبُّ الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»(٢).

٧- وقال صلى الله عليه وسلم: «عَصيةُ عَصَت اللهَ وغِفارُ غَفَرَ اللهُ لها وأَسْلَمَ سَالمَها اللهُ»(٣).

٨- وقال صلى الله عليه وسلم: «ليس لك من مالكَ إلا ما أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أو تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»(٤).

٩- قال صلى الله عليه وسلم: «لَعَلَّه كان يَتَكَلَّمَ بِمَا لا يُعْنيهِ أوْ يَبْخَلَ بِمَا لا يَنْقُصُه»(٥).

١٠- وقال صلى الله عليه وسلم وقد رأى أبا مسعود البدري يضرب عبداً له: «اعلم أبا مسعود، واللهِ لَلّهُ أقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ على هذا»(٦).

١١- عن عائشة قالت: جلس احدى عشرة امرأة، فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً قالت الأولى: زوجي لَحمُ جَمَلٍ غثٍّ، عَلَى رأْسِ جَبَلٍ، لا سَهْلٍ فَيُرتقى ولا سَمينٍ فَيُنتَقَلُ، قالت الثانية: زوجي لا أَبُثُّ خَبَرَه، إني أخَافُ أن لا أذَرهُ، إن أذْكُرْه أذْكُر عُجَرَهُ وبُجَرَه، قالت الثالثة: زوجي العَشنَّق، إن أنْطِقْ أُطلَّقْ وإنْ أسكُتْ أُعلَّقْ، قالت الرابعة: زوجي كَلَيْلِ تهامَةَ لا حَرٌّ ولا قُرٌّ، ولا مَخَافَةَ ولا سآمة، قالت الخامسة: زَوْجي إنْ دَخَل فَهِدَ، وإن خرج أَسِدَ، ولا يسألُ عما عَهِد، قالت السادسة: زوجي إنْ أكل لَفَّ، وإن شَرِبَ اشْتَفَّ، وإن اضْطَجَعَ التفَّ، ولا يُولِجُ الكفَّ لِيَعْلَم البثَّ، قالت السابعة: زوجي غياياءُ، أو عياياء طباقاء، كلُّ داء له داء، شجَكِ أو فلَّكِ أو جمع كلاً لك، قالت الثامنة: زوجي المسُّ مسُّ أرْنَبٍ والريح ريح زَرْنَبٍ، قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد، طويل النِّجاد، عظيم الرّماد، قريب البيْتِ من النّاد، قالت العاشرة: زوجي مالكٌ وما مالكٌ، مالكٌ خيرٌ من ذلك، له إبلٌ كثيراتُ المبارك، قليلات المسارح، وإذا سمعن صوت المِزْهَر، ايقَنَّ أنهنَّ هوالكُ، قالت الحاديةَ

---

(١) رواه البخاري كتاب العلم رقم (٣) باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها رقم (٨) حديث رقم ٦٦.

(٢) رواه البخاري كتاب الايمان رقم (٢) باب أحب الدين إلى الله أدومه رقم (٣١) حديث ٤٣.

(٣) أخرجه البخاري - كتاب المناقب باب (ذكر أسلم وظفار ومزنية وجهينة وأشجع)، حديث رقم ٣٥١٣

(٤) رواه البخاري كتاب الاستسقاء باب دعاء النبي اجعلها عليهم سنين كسني يوسف رقم (٢) حديث رقم ٩٦١.

(٥) رواه الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء فيمن تكلم فيما لا يعنيه رقم الباب (١١) رقم الحديث ٢٣١٧ قال الترمذي حديث غريب.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - مسند الشاميين - حديث رقم : (١٧٢١٥)، ص ١٢٣٠، وتتمة الحديث قول أبي مسعود: «فحلفت أن لا أضرب مملوكاً أبداً».

عشرةَ: زوجي أبو زرعٍ، فما أبو زرعٍ، أناسَ من حُلِيٍّ أُذُنَيَّ، وملأ من شَحْمٍ عُضُدَيَّ وبَجَّحَني فَبَجِحَتْ إليَّ نفسي، وَجَدَني في أهل غُنَيْمةٍ بشِقٍّ، فجعلني في أهل صهيلٍ وأطيطٍ ودائسٍ ومُنَقٍّ، فعنده أقول فلا أُقَبَّحُ، وأرقد فأتَصَبَّحُ، واشْرَبُ فأتَقَنَّحُ.أُمُّ أبي زرع فما أُمُّ أبي زرعٍ عكومها رداحٌ وبيتها فساحٌ، ابنُ أبي زرعٍ فما ابنُ أبي زرعٍ، مضجعه كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ ويشبعه ذراع الجَفْرة، بنتُ أبي زرع فما بنت أبي زرع، طَوْع أَبيها وطوع أمّها، وملءُ كسائها وغَيْظُ جارتها، جارية أبي زرعٍ فما جارية أبي زرع لا تبثُّ حديثنا تبثيثاً، ولا تُنَقِّثُ ميرتنا تنقيثاً، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً. قالت: خرج أبو زرع والأوطابُ تُمْخَضُ فلقي امرأة معها وَلَدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمّانتين، فطلقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سرياً ركب شريّاً وأخذ خطِّيّاً وأراح عليَّ نَعَماً ثَرِيًا، وأعطاني من كل رائحةٍ زوجاً وقال: كلي أمَّ زرعٍ وميري أهلك، قالت: فلو جمعتُ كل شيء اعطانيه ما بلغ اصغرَ آنيةِ أبي زرع»

قالت عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كنت لك كأبي زرعٍ لأمِّ زرعٍ»(١).

١٢- قال صلى الله عليه وسلم: «الخيل معقود في نواصيها الخير»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري كتاب النكاح (٧٠) باب حسن المعاشرة مع الأهل (٨٢) حديث رقم ٤٨٩٣.

تعاقدن: أخذن على أنفسهن أن يصدقن وتواثقن على ذلك (غث) شديد الهزال (فينتقل) لا ينقله الناس إلى بيوتهم لهزاله، وتعني بهذا قلة خيره وبخله، وهو مع ذلك شامخ بأنفه شرس في خلقه متكبر متعجرف (أبث) اشيع واظهر حديثه الطويل الذي لا خير فيه (لا اذره) لا أتركه لطوله وكثرته فلا استطيع استيفاءه (عُجَره وبُجَره) عيوبه الظاهرة وأسراره الكامنة أو ظاهره المستور الحال وباطنه الرديء

صدره عند الجماع على صدرها فيرتفع عنها اسفله فيثقل عليها ولا تستمتع به (كل داء له داء) ما تفرق في الناس من العيوب موجود لديه ومجتمع فيه والداء المرض (شجك) جرحك في رأسك (فلك) جرحك في أي جزء من بدنك (جمع كّلاً لك) أي جمع بين الشج والجرح وتعني أنه كثير الضرب وشديد فيه لا يبالي ما إذا أصاب به (المس مس أرنب) أي حسن الخلق ولين الجانب، كمس الأرنب إذا وضعت يدك على ظهره فإنك تحس بالنعومة واللين (ريح أرنب) هو نبت طيب الرائحة تعني: أنه طيب رائحة العرق، لنظافته وكثرة استعماله للطيب (رفيع العماد) هو العمود الذي يرفع عليه البيت ويدعم به، وهو كناية عن الرفعة.

(العشنق) السيِّء الخلق أو الطويل المذموم (أُعلّق) ابقى معلقه: لا مطلقة فأتزوج غيره، ولا ذات زوج فأنتفع به (تهامة) من التهم وهو ركود الريح أو المراد مكة، تريد أنه ليس فيه اذى بل فيه راحة ولذة عيش، كليل تهامة معتدل ليس فيه حر مفرط ولا برد قارس، (قر) برد (سآمة) ملل (فهد) كالفهد وهو حيوان شديد الوثوب، تعني أنه كثير النوم فلا ينتبه =

= إلى ما يلزمها إصلاحه من معايب البيت: وقيل تعني: إنه يثب عليها وثوب الفهد أي يبادر إلى جماعها من شدة حبه لها، فهو لا يصبر عنها إذا رآها (أسد) تعني إنه إذا صار بين الناس كان كالأسد في الشجاعة (عهد) لا يتفقد ماله وغيره لكرمه، وقيل المراد أنه يعاملها معاملة وحشية، وهو بين الناس أشد قسوة، ولا يسأل عن حالها ولا يكترث بها (لف) أكثر من الأكل مع التخليط في صنوف الطعام بحيث لا يبقي شيئاً (اشتف) استقصى ما في الإناء (التف) بثوبه وتنحى عنها فلا يعاشرها (لا يولج الكف) يولج يدخل، أي لا يمد يده إليها ليعلم حزنها وسوء حالها (البث) الحزن الشديد (غياياء) لا يهتدي لمسلك يسلكه لمصالحه (عياياء) لا يستطيع اتيان النساء من العي وهو الضعف (طباقاء) أحمق تطبق عليه الأمور وقيل: يطبق

والشرف (طويل النجاد) حمائل السيف، وهو كناية عن طول قامته (عظيم الرماد) أي لكثرة ما يوقد من النار وهو كناية عن الكرم وكثرة الضيوف (الناد) هو كناية عن الكرم والسؤدد، لأن النادي مجلس القوم ومتحدثهم، فلا يقرب منه إلا من كان كذلك، لأنه يتعرض لكثرة الضيوف (مالك وما مالك) أي ما أعظم ما يملك (مالك خير من ذلك) عنده من الصفات ما هو خير من كل ما ذَكَرْتُنَّ (كثيرات المبارك) تبرك كثيراً لتحلب ويسقى حليبها (قليلات المسارح) لا يتركها تسرح للرعي إلا قليلاً، حتى يبقى مستعداً للضيوف (صوت المزهر) الدّف الذي يضرب عند مجيء الضيفان (هوالك) مذبوحات، لأنه قد جرت عادته بذلك: يضرب الدف طرباً بالضيوف ثم يذبح لهم الإبل، فالإبل قد اعتادت هذا وأصبحت تشعر به (أَناس حلي اذني) حركهما بما ملأهما به من ذهب ولؤلؤ (ملأ شحم عضديٍ) سمنني وملأ بدَني شحماً، بكثرة اكرامه، وسمن العضدين دليل سمن البدن، (بجحني) عظمني وفرحني (فبجحت إليٌ نفسي) عظمت عندي (أهل غنيمة) أصحاب أغنام قليلة، وليسوا أصحاب إبل ولا خيل (بشق) مشقة وضيق عيش (اطيط) صوت الإبل أي أصحاب خيل وإبل ووجودهما دليل السعة والشرف (دائس) يدوس الزرع ليخرج منه الحب وهي البقرة (مُنَقٍّ) يزيل ما يخلط به من قشر ونحوه، وتعني أنه ذو زرع إلى جانب ما ذكرته من النعم (أقبح) لا يرد قولي ولا يقبحه، بل يقبله ويستظرفه(أرقد فأتصبح) أنام حتى الصبيحة = من الاشارات والتحليلات تاركاً لقريحتك وأريحيتك أن تجتلب الصور بذهنك بعد أن تختلب أذنك، وأظنك إذا استوعبت ما قلته لك من قبل، فإن من اليسير عليك أن تدرك دون عناء وأن تتذوق دون مشقة الأحاسيس والصور المتعددة في أولئك الشعراء، وتدرك كيف يمسّون

= وهي أول النهار، وتعني أنها ذات خدم يكفونها المؤونة والعمل (فأتقتح) أي: لا أتقلل من مشروبي ولا يقطعه علي شيء حتى أرتوي، وفي رواية (فأتقنح) أي أشرب حتى أرتوي وأصبح لا أرغب في الشراب (عكومها) جمع عكم وهو الوعاء الذي تجمع فيه الأمتعة ونحوها (رداح) كبيرة وعظيمة (فساح) واسع كبير وهو دليل سعة الثروة والنعمة (مضجعه) موضع نومه (كمسل شطبة) صغير يشبه الجريد المشطوب من قشره، أي هو مهفهف كالسيف المسلول من غمده (الجفرة) الأنثى من المعز إذا بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمها (ملء كسائها) أي تملأ ثوبها لامتلاء جسمها وسمنتها (غيظ جارتها) تغيظ ضرتها لجمالها وأدبها وعفتها (تبث) تذيع وتفشي (تبثيثاً) مصدر بث (تنقث) تفسد وتذهب (ميرتنا) طعامنا وزادنا (تعشيشاً) لا تترك القمامة مفرقة في البيت كأعشاش الطيور وقيل: هو كناية عن عفتها وحفْظِ فرجها فهي لا تملأ البيت وسخاً باخدانها وأطفالها من الزنا وفي رواية (تغشيشاً) من الغش أي لا تملؤها بالخيانة، بل هي ملازمة للنصح فيما هي فيه (الأوطاب) جمع وطب وهو وعاء اللبن (تمخض) تحرك لاستخراج الزبد (كالفهدين) في الوثوب (برمانتين) ثديين صغيرين حسنين كالرمانتين من حيث الرأس، والاستدارة فيهما نوع طول، بحيث إذا نامت قربا من وسطها حيث يجلس الولدان (سرياً) شريفاً وقيل: سخياً (ثريا) جيداً يستشري في سيره أي يمضي فيه بلا فتور ولا انقطاع (خطياً) منسوباً إلى الخط وهو موضع بنواحي البحرين، تجلب منه الرماح (اراح) من الإراحة، وهو الاتيان إلى موضع البيت بعد الزوال (نَعَماً) إبِلاً ونحوها (ثرياً) كثيراً (من كل رائحة) من كل شيء يأتيه (زوجاً) اثنين أو صنفاً (ميري أهلك) صليهم وأوسعي عليهم من الطعام (ما بلغ أصغر آنية أبي زرع) لا يملؤها وهو مبالغة أي: كل ما أكرمني به لا يساوي شيئاً من إكرام أبي زرع [صحيح البخاري شرح د. مصطفى ديب البغا جـ٥، ص ١٩٨٨.

(٢) سبق تخريجه ص٣٠٢.

الصور البيانية في الشعر الحديث

وعدتك في أثناء الحديث عن الصور البيانية أن أكتب لك شيئاً عن الصور البيانية في الشعر المعاصر، ذلك لأن الكثيرين من المؤلفين يقتصرون في الصور البيانية على ما للشعراء الأقدمين، من تشبيه واستعارة وكناية، وكثير من أنواع البديع كذلك، وفي الشعر الحديث صور حيّة رائعة ليس من الإنصاف أن تهمل ويسدل عليها الستار، وساكتفي بالنقل وقليل موضوعاتهم برفقٍ وكيف يتّسم شعرهم بالرقة، وستجد وضوح الصورة وجمالها تشبيهاً كانت تلك الصورة أم استعارة أم كناية، كما ستجد أنواعاً من البديع دون تكلف أو تعسف.

أولاً: أمير الشعراء:

استمع إلى قول أمير الشعراء[1]:

عَرَضُوا الأمانَ على الخَواطِرْ ... واسْتَعرَضوا السُمْرَ الخَواطِرْ[2]

فَوَقَفْتُ في حَذَرٍ، ويأبى ... القلبُ إلا أنْ يُخاطِرْ

يَا قَلْبُ شَأْنَكَ والهَوى ... هذي الغُصُونُ وأنتَ طائرْ

إن التي صادَتْك تسعى ... بالقلوب لها النواظرْ

يا ثغرَها أمسيتُ كالغَـ ... واص، أحلم بالجواهرْ

بالحظَها، من أمُّها؟ ... أو من أبوها في الجآذرْ

يا شعرها، لا تَسْعَ في ... هتكي منشآت الليل ساترْ

يا قدُّها، حتّامَ تغدو ... عاذلاً وتروح حائرْ

وبأيِّ ذنبٍ قد طعَنْتَ ... حَشايَ يا قدُّ الكبائرْ

وإذا وقفت أمام هذه الأبيات فستجد صوراً خلابة مختلفة، وأول ما يقابلك هذا الجناس التام في كلمتي الخواطر، والجناس الناقص في (عرضوا) و(استعرضوا)، ولكنه جناس صاغه الشاعر من أحاسيسه ومشاعره، ولكن الشأن ليس لهذا الجناس أن يؤخذ منفصلاً عن غيره من الصور البديعة، فانظر كيف عبّر عن القدود المهتزة بالرماح، ثم انظر إلى الصور التشبيهية في قوله (هذي الغصون وأنت طائر)، وانظر إلى الاستعارة البديعة في قوله (صادتك)، وفي

---

(١) ديوانه ٢/١٢٤.

(٢) السمر: الرماح والخواطر: المهتزات، يقال خطر الرمح إذا اهتز وهي هنا كناية عن القدود.

قوله (تسعى بالقلوب).

ثم انظر إلى تلك الصورة في البيت الخامس وقد صور الثغر بأنه مليء باللؤلؤ، ولما كان اللؤلؤ في أعماق البحر لا بد له من غواص جاء بهذا التشبيه، فهو غواص يحلم بالجواهر، وقف عند هذه الصورة الحيّة - وقارن بينها وبين ما مرّ معك من قبل - التي تتحدث عن الثغر ويقيننا أنك تحسّ هنا، بما لم تحس به هناك.

ويستمر أمير الشعراء يحكي لنا بهذه الصورة الشعرية شجيّ لحنه، فهذا الشَعر حريٌ به أن يستره لا أن يهتكه، أليس شعرها كالليل، ثم أليس الليل ساتراً لا فاضحاً، وكذلك هذا القد الذي يشبه الرمح، والرمح من شأنه أن يطعن.

نحن لا نودّ هنا أن نقف مع تحليل الأبيات تحليلاً تاماً، اعني تحليلاً بيانياً وتحليلاً وجدانياً، فمن شأن هذا أن يطيل بنا التطواف ولكن هدفنا هو الأول فحسب - أعني التحليل البياني -، فمعذرة إن لم نقف مع الشاعر أو الناثر في كل ما بثه في شعره من فكرة وعاطفة ومشاعر، ومع القطعة في ألفاظها وعناصرها.

٢- ويقول أمير الشعراء في قصيدته منظر الشروق والغروب في عالم الماء من أعلى السفينة[(١)]:

لمــن غُــرةٌ تنجــلي مــن بــعيـــد ... بمــرأىً كمــا الحُلــم ضــاح سعيدْ؟

تَــهُــزُّ الـوجــودَ تبـاشـيرُهــا ... كما هــزَّ مِــنْ والديــه الوليــدْ

هــي الشمــسُ، كانــت كما شاءهــا ... ممــاتُ القــديم، حيــاة الجديــدْ

تــردُّ الميــاهَ إلــى حــدِّهــا ... وتُبْلِـي جبــالَ الصفــا والحديــدْ

وتــطلُــعُ بالعيــشِ أو بــالــرَّدى ... علــى الــزرع: قائِمــه والحصيــدْ

وتسعــى لـذا النــاسِ مهمــا سعــتْ ... بخيــرِ الوعــودِ، وشــرِّ الــوعيــدْ

وقــد تتجــلّــى إذا أقبلــتْ ... بِنُعْمــى الشقــي. وبُؤسى السعيــدْ

وقــد تــتــولــى إذا أدبــرتْ ... وليســت بمــأمونــة أن تــعــودْ

فمــا للغــروب يــهيــجُ الأســى ... وكــانَ الشــروقُ لنــا أيَ عيــدْ؟

كــذا المــرء ســاعــة مــيــلاده ... وســاعَــةَ يدعــوا الحِمــامُ العنيــدْ

(١) ديوانه ٢/ ٣٠.

وليــــس بـجـــارٍ ولا واقـــــعٍ   ســوى الحـــقّ ممـــا قضـــاه المُـريـــدْ

وهذه صورة رائعة ثانية من صور أمير الشعراء، يحدثك عن الطبيعة التي أبدعتها يد الصانع جل وعلا، ولكنه حديث متصل بهذا الانسان كذلك، هذا الانسان الذي خلقت هذه الطبيعة من أجله، يجد فيها أنسه، وعناصر بقائه، ولكن فيه عناصر تلاشيه كذلك.

يُسَـرُّ المـرءُ مـا ذهـب الليالـــي   وكـان ذهابُـهـن لـه ذهـابـا

فانظر إلى كل من التشبيهين في البيت الأول، فهو في الشطر الأول تشبيه محسوس بمعقول، وفي الشطر الثاني تشبيه محسوس بمحسوس، وبالطبع ليس هذا موطن الروعة في البيت، ولكنها الصورة التي اختارها الشاعر، ومن منّا ليس للحلم السعيد في نفسه أثر طيب ومن منا لا يهزه هذا الحلم، وإن كل والدين يمتلكهما هذا التشبيه، وتلك سنة الله أن يهز كل وليد والديه، هذه الهِزّة هزة الطرب والفرح.

ثم انظر إلى حديثه عن الشمس وهذه المقابلات الرائعة «ممات القديم»، «حياة الجديد»، «العيش والردى»، «قائمه والحصيد»، «خير الوعود وشر الوعيد»، «نعمى الشقي وبؤسى السعيد»، ولا تنس التصوير بالمجاز العقلي في مثل قوله: «تبلى»، «تسعى» إلى غير ما يمكن أن تستخرجه أنت بفكرك وقريحتك.

وهذا كثير في شعر شوقي. فمن الاستعارات في شعره قوله في قصيدة (غاب بولونيا)[1]:

يـا غــابَ بـولـون، ولـــي   ذِمَـمٌ عـلـيـك، ولـي عُـهـودْ

خَـفَـقَـتْ لـرؤيتـكِ الضلـوعُ   وزُلْـزِلَ القـلـبُ العـميـدْ[2]

وقوله في قصيدته (أنس الوجود)[3]:

قـف بتلك القصـور في اليـم غرقـى   ممسكـاً بعضُهـا مـن الذعـر بعضـا

كعـذارى اخفيْـنَ فـي المـاء بضّـاً[4]   سابحـاتٍ بـه، وأبْـدَيْـنَ بضّـا

مشـرفـاتٍ علـى الـزوالِ، وكانـت   مشرفـات علـى الكواكـب نهضـا

---

(١) غاب بولونيا منتزه مشهور في بارس، ديوانه جـ ص ٢٧.

(٢) العميد: الذي هدّه العشق.

(٣) الديوان جـ٢، ص٥٧.

(٤) البض: الرخيص الجسد.

شاب من حولها الزمان وشابت ... وشباب الفنون ما زال غضا

وقوله في مناجاة النيل:

وبأيّ نول أنت ناسج بردة ... للضفتين جديدها لا يَخلَقُ

تسود ديباجاً إذا فارقتها ... فإذا حَضَرْتَ أخضوضر الاستبرقُ

في كل آونة تبدل صيغة ... عجبا وأنت الصانع المتأنِقُ

ومن الكنايات في شعره: قوله في قصيدته (ذكرى المولد)[1]:

أخا الدنيا أرى دنياك أفعى ... تُبدّل كل آونة إهابا

وإن الرُّقْطَ أيْقَظُ هاجعاتٍ ... وأترعُ في ظلال السلم نابا[2]

ومن عجبٍ تشيّب عاشقيها ... وتفنيهم وما برحت كعابا[3]

فمن يغتر بالدنيا فإني ... لبستُ بها فأبليتُ الثيابا

لها ضَحِكُ القِيانِ إلى غبيٍّ ... ولي ضَحِكُ اللبيب إذا تغابى

جنيتُ بِرَوْضِها ورداً وشوكاً ... وذقتُ بكأسِها شَهْداً وصابا

وقوله في نفس القصيدة

ولي بين الضلوعِ دمٌ ولحمٌ ... هما الواهي الذي ثكل الشبابا[4]

تسرّب في الدموعِ، فقلتُ: ولّى ... وصفّق في الضلوع، فقلتُ: ثابا[5]

ونكتفي من شعر أمير الشعراء بهاتين القطعتين البديعين وهما بحق نواتا أثر في النفس أولاهما من قصيدته الأندلسية يقول[6]:

---

(١) الديوان جـ١، ص٦٩.

(٢) الرقط جمع رقطاء وهي الحية على جلدها سواد مشوب البياض، واترع: اسرع.

(٣) الكعاب: الجارية الناهد.

(٤) الواهي الضعيف: ثكل الشباب: فقده والمقصود بالدم واللحم هنا القلب.

(٥) ثاب: رجع بعد ذهاب.

(٦) الديوان ١/١٠٥.

يـا نائـح الطـلْـح اشبـاهٌ عَـوادينـــا   نشجـى لواديـك أم نـأسـى لـوادينــا[١]

مــاذا تقـص علينا غــيـر أن يـــدأ   قــصّت جناحـك جـالت فـي حـواشـينا

رمى بنا البينُ ايْكـاً غـيـر سـامِـرنا - أخـا الغــريب - وظلاً غـيـرَ نـادينـا

كلٌ رمَـتْـهُ النَوى: ريـشَ[٢] الفـراقُ لنـا   سَـهْـمـاً، وسَـلَّ عليكَ البِـينُ سكينـا

إذا دعـا الشـوقُ لـم نَبْـرحْ بُمنْصَـدعٍ   من الجناحــين عــيٌّ لا يُلَبِّيـنــا

فإن يَكُ الجنـسُ يا ابـنَ الطَّلْـح فرَّقنـا   إنّ المصائــب يجْمَعْــنَ المصـابينــا

لـم تـألُ مــاءك تحنانــا، ولا ظمـــأ   ولا ادّكــاراً[٣] ولا شــجـواً أفانينـا[٤]

تَجُـرُّ مـن فَنَـنٍ[٥] ساقاً إلـى فَنَــنٍ   وتسحَــب الذيــل ترتــادُ المؤاسينــا

أُساةُ[٦] جسمِكَ شتّـى حـين تطلبـهـم   فَمنْ لروحـك بالنُطـسِ[٧] المُـداوينــا؟

والثانية من قصيدته (خلافة الإسلام) يقول[٨]:

عـادت أغانـي العـرسِ رَجْـعَ نُـواحِ   ونُـعِيْــتِ بــين معــالــم الأفــراحِ[٩]

كُفِّنــتِ فـي ليـلِ الزفــاف بثـوبِـــه   ودُفِـنْــتِ عنــد تبلُــجِ الإصبـاحِ[١٠]

شُيِّعْــتِ مـن هَلَـعٍ بِعَبْـرةِ ضـاحـــكٍ   فـي كـلّ ناحيــةٍ، وسكــرةِ صـاحِ[١١]

ضـجّــتْ عليـكِ مـــآذنٌ، ومنـــابرٌ   وبكــت عليــك ممـالـــكٌ، ونـــواحِ

---

(١) الطلح: نوع من الشجر سمي به واد بظاهر اشبيليا كان ابن عباد شديد الولوع به، عوادينا: عوادي الدهر النازلة بنا، وهي مصائبه.

(٢) ريش: من راش السهم ألصق عليه الريش.

(٣) أدّكارا: تذكراً.

(٤) افانين: اجناس.

(٥) الفنن:الغصن المستقيم.

(٦) الاساة: الأطباء.

(٧) النطس: الأطباء الحذاق.

(٨) الديوان ١/١٠٥.

(٩) الأغاني: جمع أغنية: وهي ما يترنم به ويتغنى فيه من شعر ونحوه، والرجع: ما يرد من في المكان الخالي على الإنسان إذا رفع صوته، والمعالم جمع معلم: وهو موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده.

(١٠) تبلج الاصباح: اشراقه وانارته.

(١١) الهلع: الجزع الشديد. والعبرة: الدمعة قبل أن تغيض وقيل هي تحلب الدمع.

الهندُ والهةُ، ومصرُ حزينةٌ ... تبكي عليكِ بمدمعٍ سحّاحِ[1]
والشام تسألُ والعراق وفارسُ ... أمَحَا من الأرض الخلافةَ ماحِ؟
وأتت لك الجُمَعُ الجلائل مأتماً ... فقعدن فيه مقاعد الأنواحِ[2]

ثانياً شاعر النيل حافظ إبراهيم:

وحافظ شاعر الوطنية، وكم من صرخة قوية، وكم من زفرة قلب، وكم من لوعة أسى، كانت ترتسم على شفاه قصائده يهيب بالأمة ويحذر الشباب وقد أحاط بهم عدوهم، احاطة الذئاب بقطعان الغنم، ونختار لك هذه الأبيات لتلمح ما فيها من تصوير بالكناية تارة وبالاستعارة أخرى تصويراً يجسّد الأحداث وينطق الجماد ويذكي أوار الجهاد قال -رحمه الله-

لمصر أم لربوع الشام تنتسب ... هنا العلا وهناك المجد والحسبُ
خدران للضاد لم تُهتَك سُتُورُهُما ... ولا تَحوَّلَ عن مغناهما الأدبُ
أم اللغات غداة الفخر أمهمو ... وإن سألت عن الآباء فالعربُ
إذا ألمت بوادِ النيل نازلة ... باتت لها راسيات الشام تضطربُ
وإن دعاني ثرى الأهرام ذو ألم ... أجابه في ذرى لبنان ينتحبُ
لو أخلص النيل والأردن ودهم ... تصافحت منهما الأمواهُ والشعبُ

وإليك هذه الأبيات لتستخرج ما فيها من صور بالتشبيه وصور بالكناية:

متى أرى النيل لا تحلو مَوارِدُه ... لغير مرتهبٍ للّه مُرتقبِ
فقد غدتْ مصرُ في حال إذا ذُكرتْ ... جادتْ جفوني لها باللؤلؤ الرَّطبِ
كأنّني عند ذكري ما ألمَّ بها ... قَرْمٌ تردّد بين الموتِ والهربِ
إذا نطقتُ فقاعُ السجنُ متّكأٌ ... وإن سكتُّ فإن النفسَ لم تطبِ
أيشتكي الفقر غادينا ورائحُنا ... ونحن نمشي على أرض من الذهبِ

(١) الوالهة: الحزينة، أو التي ذهب عقلها حزناً، وسحاح: كثير السح وهو أن يسيل الماء من أعلى إلى أسفل.
(٢) الجمع: واحدتها جمعة وهي الصلاة المفروضة بهذا الأسم، والأنواح: النائحات.

والقومُ في مصر كالاسفنج قد ظفرتْ بالماء لم يتركوا ضرعاً لمحتَلبِ

وأخيراً تلك صرخة من صرخات شاعر النيل حينما كممت الأفواه ومرّغت الجباه، واختنقت الكلمة وقيدت حرية الصحافة ويا حسرة الأمة العربية، فلا نقول ما أشبه اليوم بالبارحة، بل شتان شتان وما أبعد اليوم عن البارحة...!

إن البَلِيَّةَ أن تباع وتُشْتَرى مِصْرُ وما فيها وأن لا تنطقا

كانَتْ تواسينا على آلامِنَا صُحُفٌ إذا نَزَلَ البلاءُ وأطْبقا

فإذا دَعَوْتُ الدمعَ فاستعصى بكتْ عنا أسىً حتى تَغَصّ وتَشرَقا

كانتْ لَنَا يومَ الشَدائِدِ أسهماً نَرمي بها وسوابقاً يوم اللِّقا

كانَتْ صِماماً للنفوس إذا غَلَتْ فيها الهمومَ وأوْشكَتْ أن تزهقا

كم نَفَّسَت عن صَدْرِ حُرٍّ واجدٍ لولا الصِّمامُ من الأسى لَتَمَزَّقا

مالي أنوحُ على الصَحافةِ جازعاً ماذا أَلَمَّ بها؟ وماذا أحْدَقَا

قصُّوا حواشيها وظنوا أنهم أمنوا صواعقها فكانت أصْعَقَا

وأتوا بحاذقهم يكيد لها بِمَا يَثْني عَزائِمَها فكانت احْذقا

فاستمع وحاول أن تتذوق هذه الصورة البيانية علها تهز من نفسك أو ترهف حسك.

ثالثاً: الرافعي:

وإليك بعضاً من صور التشبيه عند الرافعي، يقول:

إني أرى الشمسَ تحت البحر مُطْفَأةً والماء ما زالَ ذا بأسٍ على النّارِ

كأنّما هو كفٌّ الأرض قد بَسَطَتْ إلى السّماءِ فجادتها بدينارِ

ويشبه إنساناً يبطره غناه ويطغيه فيغفل عما يجره الطغيان من عوامل قد تؤدي إلى الضعة بعد الرفعة أو إلى الهلاك بعد السلامة بالبهائم التي ترعى لكنها تعمى عن رؤية الشوك الكثير وكل ذلك من أجل قليل من العشب.

أرى الإنسان يطغى حين يغنى وما أولى الهبوط من الصعودِ

كما تعمى البهائم حين ترعى عن الشوك الكثير لأجل عودِ

رابعاً: الشاعر أبو سلمى:

وأبو سلمى عاش مأساة فلسطين فناحها فمه وانتحبها دمه، ومن قصائده (يا رفاق الفكر):

يـا رِفـاقَ الفِكْـرِ أعْيانـا السُّـرَى … وطَـوَيْنَـاهُ: دُرُوبـاً وبِطَاحـا
نَحْـنُ خُضْنَـا ثَـوْرَةَ الفِكْـرِ مَعَـاً … واقْتَحَمْنـاهـا: مَيادِيـنَ وَسَاحـا
وكَتَبْنـا بالْلَّظَـى أحْـرُفَهـا … ونَسَجْنـا لَهَـبَ الحَـرْفِ وِشَـاحـا
مُنْذُ خَـطَّ الحَـرْفُ تاريـخَ الدُّنـا … حَطَّـمَ القَيْـدَ، وبالظُّلْـمِ أطَـاحـا
هـذِهِ الحريـةُ الحَـمْـراءُ مـا … عَرَفَـتْ إلا فِلَسْـطِـينَ مَـراحـا
بَكَـتِ الأحـرارُ فـي أوْطـانِـهـا … كَيْـفَ لا نَبْكِـي حِمانـا المُسْتَبـاحـا
شَـرَّدوا أهْلِـي، وصَحْبِـي فَعَلَـى … كُـلِّ دَرْبٍ شَبَـحُ النَّـكْبَـةِ لاحـا
نَاحَـتِ الأرْضُ عَلَـى أرْبـابِـهـا … أيْنَ مَنْ يَسْمَـعُ مِـنْ أرْضِـي النُّواحـا
يـا رِفـاقَ الفِكْـرِ حُـرّاً ثـائـراً … إنَّ فـي حُرِّيَّـةِ الفِكْـرِ اصْطِلاحـا
حَارِبـوا الظُّلْـمَ مـدى الـدَّهْـرِ إلـى … أن يَـرِفَّ الكَـوْنُ طُهْـراً وصـلاحـا
وإذا المُـسـتَـعْـمِـرونَ انـتـشـروا … يمْـلأون الأرضَ جَـوْراً واجـتـراحـا
حـرِّروا الدنيـا مـن استعمـارهـا … شـرفُ الإنسـانِ أن يقضـي كفـاحـا

خامساً: وهذه صرخة من صرخات أمير البيان شكيب أرسلان:

قائلاً محذراً أمته يوم أن أطبقت الدنيا على الخلافة العثمانية. وفيها من الكنايات البديعة ما كان حرياً أن يتأثر به القوم، ولكن كان ما كان، ولله الأمر من قبل ومن بعد،يقول:

فَيَـا وَطَنـي لا تَبْـرِكِ الحَـزْمَ لحظـةً … بعصـر احيطـت بالزحـام منـاهلُـه
وكـن يقظـاً لا تستنـم لمكيـدة … ولا لكـلام يشبـه الحـق باطلُـه
وكيد علـى الأتـراك قيـل مصـوب … ولكـن لصيـد الأمتـين حبائلُـه
تذكـر قـديم الأمـر تعلـم حديثـه … فكـل أخيـر قـد نمتـه أوائلُـه
إذا غـالـت الجلـى أخـاك فإنـه … لقـد غالـك الأمـر الـذي هـو غائلُـه

فليســـت بغيـــر الاتحـــاد وسيلـــــة — لمـن عـــاف أن تغشـــى عليـــه منازلُـــــه
وليـــس لنـــا غيـــر الهــــلال مظلــــة — ينـــال لديهـــا الـعـــز مـــن هـــو آملُـــــه
ولـو لـــم يفدنــــا عبـــرة خطـب غيـرنـــا — لهـــان ولكـــن عندنــــا مـــن نسائـلُـــــه
سيعلـــــم قومـــي أننـــي لا أغشهـــــم — ومهمـا استطــال الليـــل فالصبـــح واصلُـــه

ونرى من المناسب في آخر المطاف، أن نزيدك شيئاً من الصور البيانية من خلال أبيات من بعض القصائد اخترناها لك - أيها القارئ الكريم - تلامس واقعنا وتتحسس جراحاتنا وتذكر آلامنا وآمالنا، آملين أن تؤتي في نفسك أثرها، وأن تتذوق ما فيها من صور بيانية بنفسك بعد أن خضت غمار هذا الكتاب.

أولاً: قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم بعد فتح عمورية:

السَّيْـفُ أصـدقُ أنبـاءً مِـنَ الكُتُـبِ[1] — في حَـدِّهِ الحَـدُّ بَـينَ الجِـدِّ واللَّعِـبِ
بِيضُ الصَفائِحِ لاسُـودُ الصَحائِـفِ فـي — مُتُونِهِـنَّ جَـلاءُ الشَـكِّ والـرِّيَـبِ
والعِلْـمُ فـي شُهُـبِ الأرْماحِ لامِعَـةً — بَـينَ الخَمِسَيْـنِ لا فـي السَبْعَـةِ الشُهُـبِ
أيـنَ الرِّوايَـةُ أَمْ أيـنَ النُجُـومُ ومـا — صَاغُوهُ مِـنْ زُخْـرُفٍ فيهـا وَمِـنْ كَـذِبِ
فَتْحُ الفُتـوحِ تعالـى أن يُحيـطَ بِـهِ — نَظْـمٌ مِـنَ الشِّـعْرِ أو نَـثْرٌ مِـنَ الخُطَـبِ
فَتْـحٌ تَفَتَّـحُ أبْـوابُ السمـاءِ لَـهُ — وتَبْـرُزُ الأرْضُ فـي أثوابِهـا القُشُـبِ
يَـا يَـوْمَ وَقْعَـةِ عامورِيَّـةَ انْصَرَفَـتْ — مِنْـكِ المُنَـى حُفَّـلاً مَعْسُولَـةَ الحَلَـبِ
أبْقَيْـتِ جِـدَّ بنـي الإسلامِ فـي صُعُـدٍ — والمُشرِكِـينَ ودارَ الشِّـرْكِ فـي صَبَـبِ
تَدْبيـرُ مُعْتَصِـمٍ بِاللَّـهِ مُنْتَـقِـمٍ — لِلَّـهِ مُرتَقِـبٍ فـي اللَّـهِ مُرْتَغِـبِ
رَمَـى بِـكَ اللَّـهُ بُـرْجَيْهـا فَهَدَّمَهـا — ولو رَمَـى بِـكَ غيـرُ اللَّـهِ لَـمْ يُصِـبِ
لَبَّيْـتَ صَوْتَـاً زِبَطْرِيّـاً[2] هَرَقْـتَ لَـهُ — كَـأسَ الكَـرى وَرِضَـابَ الخُـرَّدِ العُـرُبِ

---

(١) كان المنجمون قد قالوا: رأينا في الكتب أن عمورية لا تفتح في هذا الوقت، وإنما وقت نضج التين والعنب.
(٢) كانت امرأةٌ اعتدي عليها في (زبطرة) فصرخت (وامعتصماه) فلما وصل الخبر إلى المعتصم أخذته الحمية، والغضب لله وقال: لبيك وأخذ في الاستعداد.

بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا ... تُنَالُ إِلاَّ عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

ثانياً: قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصَانُ ... فَلا يُغَرُّ بِطِيبِ العَيْشِ إِنْسَانُ

هِيَ الأُمُورُ كما شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْهُ أزْمَانُ(١)

وَهَذِهِ الدارُ لا تُبْقِي على أَحَدٍ ... ولا يَدُومُ على حالٍ لَها شَانُ

يمزِّقُ الدَّهْرُ حَتْمَاً كُلَّ سابِغَةٍ ... إذا نَبَتْ مَشْرَفِيَّاتٌ وخُرْصَانُ(٢)

ثم يقول:

فَجَائِعُ الدَّهْرِ أَنْواعٌ مُنَوَّعَةٌ ... ولِلزمَانِ مَسَرَّاتٌ وأَحْزَانُ

ولِلْحَوادِثِ سلوانٌ يُسَهِّلُهَا ... وَمَا لِمَا حَلَّ بالإسْلامِ سِلْوَانُ

دَهَى الجَزِيرَةَ أَمْرٌ لا عَزَاءَ لَهُ ... هَوى لَهُ أُحُدٌ وَانْهَدَّ ثَهْلانُ(٣)

أَصَابَهَا العَيْنُ فِي الإِسْلامِ فَارْتَزَأَتْ ... حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارٌ وبُلْدَانُ(٤)

فاسْأَلْ بَلَنْسِيَةً مَا شَأْنُ مُرْسِيَةٍ ... وأَيْنَ شَاطِبَةٌ أَمْ أَيْنَ جَيَّانُ

وأَيْنَ قُرْطُبَةٌ دَارُ العُلُومِ، فَكَمْ ... مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فيهَا لَهُ شَانُ

وأَيْنَ حِمْصٌ وما تَحْوِيهِ مِنْ نُزَهٍ ... وَنَهرُهَا العَذْبُ فَيَّاضٌ ومَلآنُ(٥)

قَوَاعِدٌ كُنَّ أَرْكَانَ البِلادِ فَمَا ... عَسَى البَقَاءُ إذا لَمْ تَبْقَ أركانُ

تَبْكِي الحَنِيفِيَّةُ البَيْضَاءُ مِنْ أَسَفٍ ... كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الإِلْفِ هَيْمَانُ(٦)

عَلَى دِيارٍ مِنَ الإِسْلامِ خَالِيَةٍ ... قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَا بِالكُفْرِ عِمْرَانُ

---

(١) دول: متداولة.

(٢) السابغة: الدروع. والمشرفيات: السيوف، ونبوها: ألا تصيب الضريبة، والخرصان: أراد بها الرماح.

(٣) أحد وثهلان: جبلان.

(٤) وفي رواية (أصابها العين في الإسلام فامتحنت).

(٥) حمص: اسم اشبيلية، سميت بذلك لأن الفاتحين من أهل حمص الشام نزلوها.

(٦) الحنيفية البيضاء: الإسلام.

حَيْثُ المَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا … فِيهِنَّ إلاَّ نَوَاقِيسٌ وَصُلْبَانُ

حَتَّى المحاريبُ تَبْكي وَهْيَ جَامِدَةٌ … حَتَّى المَنَابِرُ تَرْثي وَهْيَ عِيدَانُ

ثم يقول:

ألا نُفُوسٌ أبِيَّاتٌ لَهَا هِمَمٌ … أمَا عَلَى الخَيْرِ أنْصَارٌ وَأعْوَانُ

يَا مَنْ لِذِلَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمُ … أحَالَ حَالَهُمُ كُفْرٌ وَطُغْيَانُ

بِالأمْسِ كَانُوا مُلُوكاً فِي مَنَازِلِهِمْ … وَاليَوْمَ هُمْ فِي بِلاَدِ الكُفْرِ عُبْدانُ(١)

فَلَو تَرَاهُمْ حَيَارَى لاَ دَلِيلَ لَهُمْ … عَلَيْهِمُ مِنْ ثِيَابِ الذُّلِّ ألْوَانُ

وَلَو رَأيْتَ بُكَاهُمْ عِنْدَ بَيْعِهِمُ … لَهَالَكَ الأمْرُ واسْتَهْوَتْكَ أحْزَانُ

يَا رُبَّ أُمٍّ وَطِفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا … كَمَا تُفَرَّقُ أرْوَاحٌ وَأبْدَانُ

وَطِفْلَةٍ مِثْلِ الشَّمْسِ إذْ طَلَعَتْ … كَأنَّمَا هِيَ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ(٢)

يَقُودُهَا العِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً … والعَيْنُ بَاكِيَةٌ والقَلْبُ حَيْرَانُ

لِمِثْلِ هَذا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ … إنْ كَانَ فِي القَلْبِ إسْلامٌ وإيمَانُ

ثالثاً: قصيدة (الأندلس الجديدة) لأحمد شوقي:

يَا أُخْتَ أنْدَلُسٍ، عَلَيْكِ سَلاَمُ … هَوَتِ الخِلاَفَةُ عَنْكِ وَالإسْلاَمُ(٣)

نَزَلَ الهِلاَلُ عَنِ السَّمَاءِ، فَلَيْتَهَا … طُوِيَتْ، وَعَمَّ العَالَمِينَ ظَلاَمُ

أزْرَى بِهِ، وَأزَالَهُ عَنْ أوْجِهِ … قَدَرٌ يَحُطُّ البَدْرَ وَهْوَ تَمَامُ(٤)

جُرحَانِ تَمْضِي الأمَّتَانِ عَلَيْهِمَا … هَذَا يسيلُ، وَذَاكَ لاَ يَلْتَامُ(٥)

---

(١) عبدان: عبيد.

(٢) الطفلة: الفتاة الناعمة.

(٣) يا أخت أندلس: يخاطب مدينة أدرنة، وقد كانت من أمهات المدن العثمانية في مقدونية، وبها مقابر كثير من سلاطين آل عثمان. جاءت الأنباء بغلبة البلغار عليها في الحرب سنة (١٩١٢) بعد أن أبلت حاميتها في الدفاع عنها بلاءً حسناً.

(٤) أزرى به: وضع من شأنه. والأوج: العلو.

(٥) جرحان: أحدهما خروج أدرنة من أيدي المسلمين، والثاني خروج الأندلس من أيديهم. والأمتان: هما العرب أيام نكبة الأندلس، والترك أيام ضياع أدرنة.

بِكُمَـا أُصِيْـبَ الْمُسْلِمُـونَ، وَفيكُمَـا ... دُفِـنَ اليَـراعُ وغُيِّـبَ الصَـمْصَـامُ[1]
لَـمْ يُطْـوَ مَأْتَمُهـا، وَهَـذا مَـأْتَـمُ ... لَبِسُوا السَّـوَادَ عَلَيْـكِ فيـهِ وَقَامُـوا[2]
ما بَيْـنَ مَصْرَعِهَـا وَمَصْـرَعِـكِ انْقَضَـتْ ... فيمـا نُـحِـبُّ وَنَكْـرَهُ الأَيَّـامُ
خَلَـتِ القُـرونُ كَلَيْلَـةٍ، وَتَـصَرَّمَـتْ ... دُوَلُ الفُـتُـوحِ كَأنَّـهَـا أَحْـلامُ[3]
والدَّهْـرُ لا يَأْلُـوا المَمَالِـكَ مُنْـذِراً ... فَـإذا غَفِلْـنَ فَمَـا عَلَيـكِ مَـلامُ[4]

ثم يقول:

صَبْـراً أَدِرْنَـةُ! كُـلُّ مُلْـكٍ زَائِـلٌ ... يَـوْمَـاً، وَيَبْقَـى المَالِـكُ العَـلاَّمُ[5]
خَفَـتَ الأَذَانُ، فَمـا عَلَيْـكِ مُوَحِّـدٌ ... يَسْعَـى، وَلاَ الجُمَـعُ الحِسَـانُ تُـقَـامُ[6]
وَخَبَـتْ مَسَاجِـدُ كُـنَّ نُـوراً جَامِعَـاً ... تَمْـشِـي إِلَـيْـهِ الأُسْـدُ وَالآرامُ[7]
يَدْرُجْنَ فـي حَـرَمِ الصَـلاةِ قَوَانِتَـاً ... بِيـضَ الإزارِ، كَأنَّـهُـنَّ حَمَـامُ[8]
وَعَفَـتْ قُبُـورُ الفَاتِحِـينَ، وَفُـضَّ عَـنْ ... حُفَـرِ الخَـلاَئِـقِ جَنْـدَلٌ وَرِجَـامُ[9]
نُبِشَـتْ عَلَـى قَعْسَـاءِ عِزَّتِهَـا، كَمَـا ... نُبِشَـتْ عَلَـى اسْتِعْلائِـهَـا الأَهْـرَامُ[10]
فـي ذِمَّـةِ التَّـاريـخِ خَمْسَـةُ أَشْهُـرٍ ... طَـالَـتْ عَلَيْـكِ. فَكُـلُّ يَـوْمٍ عَـامُ[11]
السَيْـفُ عَـارٍ، والوَبَـاءُ مُسَلَّـطٌ ... والسَيْـلُ خَـوْفٌ، والثُـلُـوجُ رُكَـامُ[12]
والجُـوعُ فَتَّـاكٌ، وفـيـهِ صَحَـابَـةٌ ... لَوْ لَمْ يَجُوعُـوا فـي الجِهَـادِ لَصَامُـوا

---

(١) اليراع: القلم. والصمصام: السيف.
(٢) لم يطو مأتمها: أي مأتم الأندلس.
(٣) خلت: مضت. وتصرمت: انقضت. (٤) لا يألوا: لا يقصر ولا يبطئ.
(٥) صبراً أدرنة: أي أصبري صبراً.
(٦) خفت: سكن وانقطع. والموحد: من يعتقد أن الله واحد لا شريك له ولا ولد. والجمع: هي صلوات الجمع الأسبوعية.
(٧) خبت: سكنت. والأسد هم الرجال الذاهبون إلى المساجد. والآرام: النساء الذاهبات إليها، والرئم: الظبي الأبيض.
(٨) يدرجن: يمشين، والضمير للآرام في البيت المتقدم. والقوانت: جمع قانتة، من القنوت، وهو الطاعة والدعاء.
(٩) عفت: اضمحلت ومُحيت. و(فض جندل ورجام): أي كسر متفرقاً، والجندل: الحجارة. والرجام: ما يبنى عليه البئر وتعرض فوقه الخشبة للدلو.
(١٠) العزة القعساء: المنيعة الثابتة.
(١١)خمسة أشهر: هي مدة حصار أدرنة.
(١٢) السيف عار: أي مجرد من غمده كما يتجرد الإنسان من ثيابه، والمراد أن القتال مستمر. والوباء مسلط: هو الوباء الذي يحدث عادة في كل مكان يكثر فيه القتل والقتال، ويكون محصوراً من الخارج. والسيل خوف: أي مخيف. والثلوج ركام: أي متراكم بعضها فوق بعض.

ضَنّـوا بِعِرْضِـكَ أَنْ يُبَـاعَ وَيُشْتَـرى عِـرضُ الحَرائِـرِ لَيْـسَ فِيـهِ سُـوَامُ(١)

ضَـاقَ الحِصَـارُ كَأَنَّمَـا حَلَقَـاتُـهُ فَلَـكٌ، وَمَقْـنُوفَـاتُهَـا أَجْـرَامُ(٢)

وَرَمَـى العِـدَى، وَرَمَيْتِهِـمْ بِجَهَنَّـمٍ مِمَّـا يَصُـبُّ اللَّـهُ لا الأَقْـوَامُ

بِعْـتِ العَـدُوَّ بِكُـلِّ شِبْـرٍ مُـهْجَـةً وَكَـذَا يُبَـاعُ المُلْـكُ حِـينَ يُـرَامُ(٣)

مَـا زَالَ بَيْـنَكِ فـي الحِصَـارِ وَبَيْنَـهُ شُـمُّ الحُصُـونِ، وَمِثْلُهُـنَّ عِـظَـامُ(٤)

حَتَّـى حَـوَاكِ مَقَابِـراً، وَحَـوَيْتِـهِ جُثَثـاً، فَـلا غَبْـنٌ ولا استِذْمَـامُ(٥)

رابعاً: قصيدة «حوار أمام بوابة الهزيمة» للعشماوي(٦) ومنها:

أَوَ مَالَنَـا فـي المَجْـدِ أَلْـفُ حِكَايَـةٍ تَعِبَـتْ عَلَـى تَدْوِينِـهَـا الأَقْـلامُ

أَوَ مَـا جَـرَتْ أَنْهَارُنَـا رَقْـرَاقَـةً بِـالخَيْـلِ تُـرْفَـعُ فَـوْقَهَـا الأَعْـلامُ

أَوَ مَـا لَدَيْنَـا النَّبْـعُ يَصْفُـو مَـاؤُهُ وَعَلَيْـهِ مِـنْ شَغَـفِ القُلُـوبِ زِحَـامُ

أَوَ لَـمْ نَكُـنْ جِسْـرَ النَّجَـاةِ لِعَالَـمٍ يَشْقَـى بِـهِ الضُّعَفَـاءُ وَالأَيْتَـامُ

أَوَ مَا سَرَى فِي الكَوْنِ صَوْتُ بِلالِنَـا وَعَلَـى صَـدَاهُ تَـهَـاوَتِ الأَصْـنَـامُ

أَوَ لَـمْ تَكُـنْ ذَاتُ السَّلاسِـلِ لَـوْحَـةً مَـرْسُومَـةً وَإِبَاؤُنَـا الـرَّسَّـامُ

أَوَ مَا رَأَى اليَرْمُوكُ كَيْـفَ استَبْشَـرَتْ بِبُـزُوغِ فَجْـرِ المُسْلِمِـينَ الشَّـامُ

أَوَ لَـمْ تَكُـنْ لِلقَادِسِيَّـةِ قِصَّـةٌ أَدْلَـى بِوَصْـفِ شُمُوخِهَـا الصَّمْصَـامُ

أَوَ لَـمْ نُعَلِّـقْ فِـي المَدَائِـنِ شَمْعَـةً بَيْضَـاءَ فَـرَّ أَمَامَهَـا الإِظْـلامُ

---

(١) الحرائر: جمع حرة. والسوام (بضم السين): أن تعرض السلعة وينكر ثمنها.

(٢) الفلك: مدار النجوم. والأجرام: هي الأجسام التي في الفلك.

(٣) المهجة: الروح أو دم القلب، أي أن العدو لم ينلك إلا بعد أن بذل في كل شبر من أرضك رجلاً من رجاله.

(٤) شم الحصون: أي الحصون العالية.

(٥) حواك: ملكك. والاستذمام: فعلُ ما يقتضي الذم، والمعنى: أن الحصون بقيت ثابتة بينك وبين الأعداء كما كان بينك وبينهم من عظام القتلى أكوام كالحصون، فلم يأخذك إلا بعد أن صارت مقابر لرجاله جثثاً هامدة وبهذا لم تفعلي ما فيه غبن ولا ما يقتضي الذمر

(٦) هو عبد الرحمن بن صالح العشماوي ولد سنة ١٣٢٥هـ في قرية من قرى منطقة الباحة جنوب السعودية أنهى دراسته من جامعة الإمام محمد بن سعود وحصل منها على شهادة الدكتوراة وعين مدرساً بها.

أوَ لَمْ نُلَقِّنْ قَيْصَراً وَحُشُودَهُ ... دَرْسَاً تَحَارُ أمَامَهُ الأفْهَامُ

أوَ لَمْ تَخُضْ بَحْرَ البُطُولَةِ خَيْلُنَا ... وَبِقَلْبِ أنْدَلُسٍ لَهَا إعْظَامُ

أوَ لَمْ تَقُلْ للصِينِ خَيْلُ قُتَيْبَةٍ: ... جِئْنَا يَزُفُّ صَهِيلَنَا الإقْدامُ

أوَ لَمْ تَصُغْ حِطِّينُ لَحْنَاً خَالِداً ... تَهْفُوا إلَى أنْغَامِهِ الأنْغَامُ

أوَ لَمْ تَكُنْ فِي عَيْنِ جَالُوتٍ لَنَا ... هِمَمٌ لِرَدْعِ المُعْتَدِينَ عِظَامُ

أوَ هكَذَا تَطْوِي عَزَائِمَ جِيلِنَا ... قِصَصٌ تُصَوِّرُ فُحْشَهَا الأقْلامُ

قَلْ لِي أبِي أنَظَلُّ نَأكُلُ خُبْزَنَا ... وَعَلَيْهِ مِن دَمِنَا المُراقِ إدَامُ

قُلْ لِي أبِي أنَظَلُّ نَشْرَبُ مَائَنَا ... والقُدْسُ يُهْتَكُ عِرْضُهَا وَتُظَامُ

قُل لِي أبِي أيَبِيتُ طِفْلٌ سَاهِراً ... فِي كَفِّهِ حَجَرٌ وَنَحْنُ نَنَامُ

وَرِمَتْ عُيُونُ المُخْبِرِينَ وَرَاءَهُ ... وَعَلَى شِفَاهِ الصَامِتِينَ حُطَامُ

سَكَتُوا لأنَّ السَيْفَ مَسْلُولٌ إذَا ... نَطَقُوا بِمَا لاَ يَرْغَبُ الأقْزَامُ

سَيْفَانِ يَا أبَتَاهُ سَيْفُ عَدُوِّنَا ... صَلْتٌ وَسَيْفٌ سَلَّهُ الحُكَّامُ

كُفْرٌ وَرَبِّكَ يَا أبِي يَنْوِي بِنَا ... شَرَّاً وَنَحْنُ كَأنَّنَا الأنْعَامُ

قُلْ لِي أبِي أنَظَلُّ نَعْلِكُ صَمْتَنَا ... وَعَلَى الأنُوفِ مَذَلَّةٌ وَرَغَامُ

أنَظَلُّ نَخْفِضُ لِلصَّلِيبِ رُؤُوسَنَا ... وَيَنَامُ فَوْقَ فِرَاشِنَا الحَاخَامُ

أوَ هكَذا أبَتَاهُ نَنْسَى دِينَنَا ... وَيُزِيحُنَا عَنْ مَجْدِنَا استِسْلاَمُ

كَانَ الأبُ المِسْكِينُ يَحْبِسُ دَمْعَهُ ... وَلِحُزْنِهِ بَيْنَ الضُلُوعِ ضِرَامُ

أبُنَيَّ لاَ تَنْطِقْ فَقَدْ ألْجَمْتَنِي ... أوَّاهُ كَمْ يُؤْذِي الكَرِيمَ لِجَامُ

خامساً: قصيدة (قناديل على مآذن القدس) للشاعر صالح الجيتاوي[1]:

لي فـي هــواكِ مدائــنٌ ومــرابــعُ ... وعلـى شَجـاكِ سحـائـبٌ تـتـدافـعُ
وعلـى جبينِـكِ قُبلتـي، وأهِـلَّتـي ... للبُشْـرَيـاتِ عــزائـمٌ وطــلائـعُ
يـا قـدسُ يا فـرحَ الحيـاةِ، إذا ارتـوى ... ظمأ، فمِـنْ عينيـكِ فيـه نـوازعُ
وإذا شـدا فـي الأيـكِ صَبٌّ فهـو فـي ... سِـرٍّ ابتسامـتِـكِ الحزينـةِ خاشـعُ
أرَقُ الوجـود علـى غِلالَتِـكِ التـي ... تسـقي الخيـال، شمائـلٌ وروائـعُ
رَسَـمَ الوجـود جمالهـا وكمـالهـا ... وظـلالـهـا، والحـادثـاتُ ذرائـعُ
وأنـا علـى شفـة الخلـود مُـعاقِـرٌ ... طِيب اللَّمـا، وفـمُ الأثيـرةِ شافـعُ
وعلـى مَـدى إيمـاءِ عينِـكِ قـائـمٌ ... وعلـى شَـذاكِ مُـرابِـطٌ ومُقـارعُ
إن كـان حُـبُّكِ حَـجَّـةً مـبـرورةً ... يحدو لها الحـادي ويهفـو السامـعُ
فأنا ببابِـكِ ناسـكٌ، وعلـى رُموشِـكِ ... عـاشـقٌ، وعلـى بحـورِكِ ضـارعُ
رَوَيْتُ شِعري فـي صَلاتِـكِ مُثْخَنـاً ... والقلب فـي سُبُحـاتِ وجـهِكِ راكـعُ
والبيـضُ تسجـدُ فـي أرومـتِـكِ التـي ... وَظِـفَ الغمـامُ لهـا وأوفـى الـزراعُ
فـي راحتيـكِ حمـائـمٌ وولائـمٌ ... وكتـائـبٌ ومـواكـبٌ ومَـصـارعُ
حَـلاّكِ بَـدْرٌ، والبـدورُ أهـلَّـةٌ ... حَـدِبَـتْ عليـه، مُبـاركٌ ومُبـايـعُ
حَـفَلَـتْ بـه الدنـيا لديـك، وأشـرقَ ... المسـرى وقامـت للخيـال مَجـامـعُ
جلَّـى جبينُك مـا الحيـالُ ومـا السُّرى ... صَنَعـا، فمـا بخـلا، وجَـلَّ الصـانـعُ
وَهَـجُ الكرامـةِ كَـعـبـةٌ للعـاشـقـين ... إقـامـةٌ وشفـاعـةٌ ومـدامـعُ
فَضْـلُ العلـيِّ علـى الصفـيِّ ولايـةٌ ... والكـون بالأمـر المـهيمـنِ صـادعُ
تَبقـى القلـوب حِيالَـهـا مَـشـوبـةً ... وإذا غفـتْ فعلـى رُؤاكِ هـواجـعُ

---

(١) هو صالح عبد الله أحمد الجيتاوي ولد عام ١٩٤٣م في قرية من قرى نابلس بفلسطين وهو حاصل على شهادة بكالوريوس في الهندسة المدنية وعضو في رابطة الأدب الإسلامي ومن مؤلفاته ديوان (صدى الصحراء) و (قناديل على مآذن القدس) الذي أخترنا منه هذه القصيدة.

يــا قــدسُ مــالــي فــي هــواكِ تَـقِيَّــةُ   فــالعـمــرُ دونـــكِ أجْــدَبُ ويَـلاقِــــعُ
يَرضَى الـذي يَرضَـــى، ويسخـطُ سـاخــطٌ   سِيَّــانِ عنـدي، لســت فيـك أصــانـــعُ
مــا ظَـــلَّ غيــرُ حُشاشــةٍ أرْمَـــى بهــا   ولَئِــنْ رُمـيــتُ بــهــا فإنـــي بــائــعُ
حَطَـمَ الزمــانُ عـمــودَ روحـــي، وانـثنـــى   لضُلُـــوعِ مملكتـــي، ولَـــجَّ الطــامـــعُ
فـأنـا الـغــريب علـــى حِياضِـكِ، والمــدى   لَمْــعُ الســـراب، وأعْــيُـدٌ تتصـــارعُ
جاسـوا بأنفــاس الصــدورِ ومـــا رَعَــوْا   إلاَّ، وأوحـــى شيخُـــهـــم فتـبايعـــوا
مِـــنْ تاجـــرٍ شَــرِبَ الدمــــاء رواحــــلا   أو خــانـــعٍ أدمـــى قَـــفــاهُ الصـافـــعُ
أو فـــاجـــرٍ ألقَتْــــهُ أقـــبيـــةُ الــــرَّدى   بــين الضلــوع، ومــا عســاهُ الضـالـــعُ
سَكـرانُ مـــا عــرف الصــلاةَ ولا الهُـــدى   واليـــومَ عـــن عَتَبــاتِـهــا يترافـــعُ
هَـزَلَـتْ علـــى سُــوحِ الطُّمــاحِ قـضيَّـــةٌ   فُرســـانُـــهــا عُــوَّارُهـــا المُتَــدَافـــعُ
قالـــوا السَـــلامَ، قُـــلِ الســـلامُ عــلـــى   السـلامِ، وقـل علـى هـذا الســلام زَعـازِعُ
أأنـــا الملـــومُ إذا رفعــت عَــقِيرَتـــي   فَهَـــفَــتْ إلـــيَّ بــلابــلٌ وَسَــواجـــعُ
أأنـــا الملـــومُ إذا رَجَمْـــتُ خَـطِيئَـــةً   أطَّ الحَـطَيــمُ لِهَوْلـهـــا والجـــامـــعُ
القـــدسُ قدســـي والقِبــابُ صــوامعــي   ولهـــم كهـــوفٌ للــخَنــا وصوامـــعُ

خاتمة

بعد هذا التطواف مع البلاغة في فنونها وأفنانها، نرى لزاماً أن نختم بكلمة موجزة نعرض فيها لتلك الأزمة الخانقة، التي تعيشها بلاغتنا ولغتنا على السواء، ونظن أننا في هذه الرحلة الطويلة مع البلاغة العربية، استطعنا أن ندرك بما لا يدع مجالاً للشك والارتياب بأن هذه البلاغة، سواء في مباحثها، أم في اتصال هذه المباحث بعضها مع بعض، أم في الأمثلة والنصوص قديمها وحديثها، أقول نستطيع أن ندرك أن هذه البلاغة في أصالتها ومرونتها واستعيابها لكل ما تنتجه القرائح، القرائح اللوامح الوقادة، والطبائع المسترسلة المنقادة، لا تعوزها الدقةُ، ولا تفتقر إلى عنصر غربي غريب، لتكمل به وتجمل.

ولكن ما يتفطر له القلب ويحار له اللب أن نجد من يجردون على هذه البلاغة سيوفهم ويصوبون لها سهامهم - وما نظن أن كالبلاغة مستهدفاً - رغم أن تراثنا كله مستهدف، ولكنها بصفة خاصّة كانت هدف الرماة، وان تعجب فعجب أمر أولئك الذين يتباكون عليها زاعمين أنهم بناتها، ويعلم اللّه أنهم جناة وليسوا بناة، فكم من متظاهر بإنه من دعاتها وما هو في الحقيقة إلا من نعاتها، ولو أن هذه السهام كانت من أعدائها فحسب، لكان من السهل أن تتقي هذه السهام بأصالتها وقوتها، ولكن المؤلم أن هذه السهام من الأدعياء والدعاة كذلك.

(١) ونحن نسمع بين الحين والحين دعوات مشبوهة لطرحها وتناسيها بحجة أنها شاخت وهرمت، وصارت لا تواكب الحياة الأدبية ولا تصلح للعصر الذي نعيش فيه.

(٢) وفريق آخر يتهمها في ولادتها ونشأتها، وأصلها وأصالتها، فتارة يزعمون أنها يونانية الأب والأم واللحم والدم، وتارة يدعون أنها هندية الخال والعم، وثالثة يتقولون عليها بأنها فارسية الكيف والكم.

(٣) وفريق ثالث: يتهمها في رجالها، فهم لا يملكون الفهم، بل يعيشون على الوهم.

وقد خصصنا كتابنا الثالث في البلاغة لهذه الافتراءات جميعها.

ونحن على يقين من أن هذه الحملة الشعواء والهجمة النكراء على بلاغتنا ولغتنا، ليست إلا أثراً من الحقد على كتاب العربية، والذي كان له الفضل في نشأة البلاغة العربية، فالحملة على البلاغة وتشكيكهم فيها رأوا أنها جزء من الحملة العامة على تراث هذه الأمة، فلقد توصلهم إلى هذا الهدف أكثر مما توصلهم إليه الحملة على الشعر الجاهلي.

ولا ننكر أن هناك من حسنت نيتهم فتأثروا عن غير قصد بهده الدعوات المشبوهة، وهؤلاء ينحون باللائمة على السكاكي الذي عمل على جمود البلاغة وذبولها وتساقط أوراقها، ونحن لا نناقشهم في هذا، إلا أن الذي لا نرضاه أن ترمى هذه البلاغة بالعقم، صحيح أن

السكاكي فلسف البلاغة وعقدها، ولكننا لا ننسى أنه وضع لها المصطلحات الدقيقة، التي كان لا بد منها للبلاغة لتصبح علماً له شخصيته المتميزة.

وإذا كنا نشفق على البلاغة، فلم لا نرجع بها إلى مصادرها الأولى مفيدين من التحليل الدقيق الذي وضعه السكاكي ومن بعده، مهملين كل ما لا يتفق مع شخصية هذه البلاغة العربية، وكثير من أولئك الطاغين يودون أن تترجم البلاغة للأمم الغربية لتحل محل بلاغتنا، وهم يتخبطون في ذلك، فبعضهم يرى أن نستغني عن كل مباحثنا البلاغية، لتحل محلها دراسات مبنية على الأصول الأوروبية، وأولئك لم تكن لهم وجهة واحدة، فهم يتخبطون أكثر مما يخططون، نحن لا ننكر بل ندعو إلى أن يصبح البحث البلاغي عندنا شاملاً، بحيث لا يقف عند الجملة والجملتين، وتلك قضية لن نعدمها في تراثنا البياني لا كما يزعم بعض الكاتبين(١).

أما ما يدّعى من وجوب طرح كثير من مباحث هذه البلاغة، فما نظن ذلك مستقيماً مع حقائق العلم وواقع الأمر كذلك، نعم إن ما يمكن طرحه هي تلك الأبحاث التي أقحمت على البلاغة وحشيت فيها حشواً كالجامع الذي وضعه السكاكي في مباحث الفصل والوصل، وبعض تقسيمات التشبيه وبعض الفنون البديعية التي يظهر فيها التكلف.

وإننا على يقين من أن هذه البلاغة العربية إذا هيئ لها ذوو النيات الحسنة ممن وُهِبوا صفاء القرائح وتهيأت لهم سعة الاطلاع وكان ينمي ذلك كله غيرة على تراث هذه الأمة، فإن البلاغة ستواكب كل متطلبات هذا العصر كما واكبت العصور التي قبله، وستؤدي رسالتها كما أدتها من قبل، وستفسر لنا عن لآليء ودرر، وتكشف لنا كثيراً من وجوه إعجاز الكتاب الخالد.

قلت من قبل أن هناك من لا نشك في حسن نيتهم، لكنهم تأثروا بقوة الأصوات من حولهم فراحوا ينادون كذلك بأصوات عالية بوجوب تغيير هيكل البلاغة تغييراً تامّاً، وإليك بعض هذه الآراء كما نقلها صاحبا كتاب نحو بلاغة جديدة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي والدكتور عبد العزيز شرف.

وذهب محمد عرفة إلى وجوب فهم التراث فهماً جيداً، وإلى الاضافة عليه، والتجديد فيه.

وذهب الخولي إلى أن تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع لا طائل تحته، ولا جدوى منه: وإلى أن البحث البلاغي يجب أن يشمل الكلمة والجملة والفقرة والقطعة الأدبية جميعاً دون البحث عن الجملة أو الجملتين فحسب، كما ذهب إلى أن طريقة العجم وأصحاب الفلسفة في البلاغة يجب اجتنابها، ليقوم مكانها دراسات فنية تعتمد على الاحساس

(١) راجع ما كتبه الدكتور شوقي ضيف في كتابيه النقد والبلاغة تطور وتاريخ وسنزيد هذه القضية تحليلاً في كتابنا إعجاز القرآن.

بالجمال والتعبير عنه، وهذه الدراسات نجدها في علم النفس الذي يجب أن نبحث في أثره في التعبير الأدبي، وفي دراسة الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور من ناحية العمل الفني، وفي الخيال والذاكرة والذوق والاحساس، وتحدث في كتابه فن القول عن مسائل كثيرة حول البلاغة ومشكلاتها، وذهب إلى أن فن القول يدور حول أقسام ثلاثة:

١- المبادىء.
٢- المقدمات.
٣- البحوث.

والمبادىء لتعريفنا بفن القول وأهدافه وغايته وصلته بغيره من الدراسات. والمقدمات تدور حول دراسات علم النفس وغيره من حيث اتصال ذلك كله بالتعبير الأدبي، والبحوث تسير في بحث الكلمة والجملة، والفقرة، والقطعة، ثم ندرس الاسلوب وأنواعه: من اسلوب فكاهي وتهكمي ورمزي وغير ذلك.

ويذهب أحمد الشايب إلى أن البلاغة يمكن حصرها في موضعين رئيسين، هما: الاسلوب والفنون الأدبية. ففي الفنون الأدبية ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها، وقواعد هذه الفنون: كالقصة والرسالة والمناظرة والتاريخ والمقالة والوصف، وسوى ذلك.

وفي الاسلوب ندرس الكلمة والصورة والجملة والعبارة وأنواع الاسلوب.

وينادي العلايلي بأن يقتصر البيان على بحوث التشبيه والحقيقة والمجاز والكناية وعلم المعاني عنده متصل بالأدب وبكتبه. وكذلك البديع يدرس كما يدرس علم المعاني (١).

أما مؤلفا كتاب نحو بلاغة جديدة فهما ينادينان بوجوب تغيير هيكل هذه البلاغة

ويتلخص رأيهما في ما يلي:

..«أ - يحذف ما نسميه علم المعاني والبديع ويحل محلها فن الاسلوب، على أن تكون موضوعات بحث هذا العلم، هي: صور التعبير البلاغي بلاغة الايجاز، بلاغة الأطناب، بلاغة القصر، قوة الاسلوب وعذوبته، اسلوب الالتفات، اسلوب التجريد - الاسلوب الحكيم، اسلوب الخبر، اسلوب الانشاء، اسلوب التكرير، الذوق البلاغي وأثره في الاسلوب، الاسناد إلى الفاعل وغيره، بلاغة الاسناد العقلي، ثقافة الكاتب والاسلوب، الطبع والصنعة، ويدخل في الصنعة بعض الصور التي هي مباحث ما نسميه بعلم البديع.

---

(١) نحو بلاغة جديدة ص ١٧٨.

ب - يحذف ما نسميه علم البيان ويحل محله (فن الخيال البياني) أو «الصور البيانية» ويشتمل هذا على ما يلي: الحقيقة والخيال، الخيال في التشبيه - الخيال في الكناية - الخيال في الإستعارة - الخيال في حسن التعليل - الفكرة الفلسفية والتعبير - الخيال والمبالغة - صور الخيال في البيان العربي - التجديد في الخيال.

وإن أردنا اسماً قديماً لهذا الفن فما أحرانا أن نطلق عليه (فن المعاني) بدلاً من البيان ونطلق على الفن السابق وهو فن الاسلوب اسم فن البيان.

جـ - يحذف من البلاغة كل ما يتصل بالنحو العربي عن مثل: مباحث باب المسند وباب المسند إليه.

د - يحذف منها كل ما يتصل بالمنطق والفلسفة.

هـ - تختار أمثلة جديدة لشتى بحوث البلاغة من ناصع الأدب العربي وبليغه في مختلف العصور وبخاصة مما يحفظه الطلاب من نصوص أدبية على أن توجد هذه النصوص في مختلف المدارس والمعاهد في العالم العربي للفرق المتساوية.

ينشأ درس للنقد البلاغي يدرس فيه شخصية الأديب وسمات أدبه، وخصائصه الاسلوبية، وتجديده البياني، ومدى ما يشتمل عليه أدب الأديب من عاطفة وصدق واثارة، ومدى ما وصل إليه الأديب من تجديد في فنه الأدبي» (١).

ومع تقديرنا لهذا الذي ذكراه، إلا أننا لا نجد فيه أموراً جوهرية، باستثناء ما ذكراه في رقم (د) وهو بحث ما يتعلق بالفلسفة، أما ما عدا ذلك فلا تعدو أن تكون خلافاً في اللفظ والمصطلح فلماذا نسمي علم المعاني علم البيان ونغير اسم علم البيان فنسميه علم المعاني، وكيف يمكن أن نقطع الصلة بين البلاغة والنحو ودوحة العربية متصلة الفروع، وما الداعي إلى أن نحذف مباحث المسند والمسند إليه مع إنها لبُّ المعاني - كما نعلم - وكيف يمكن أن ندرس مباحث الحذف والذكر والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير، بل اسلوب القصر كذلك، كيف يمكن أن ندرسها منفصلة عن المسند أو المسند إليه والفعل والفاعل والمفعول؟.

صحيح أننا لا ينبغي أن نجمع هذه المباحث فندرسها في المسند على حدة وفي المسند إليه كذلك كما فعل السكاكي ومن بعده، إنما نرجع بها إلى صنيع الشيخ عبد القاهر - رحمه الله - فندرس اسلوب الحذف على حدة سواء كان في المسند إليه أم في المسند أم في المفعول، ،كذلك نفعل في اسلوب التقديم والقصر والتعريف والتنكير، وهو ما سرنا عليه في الكتاب الأول الذي تحدثنا فيه عن علم المعاني.

---

(١) نحو بلاغة جديدة ص ١٨٢.

إن الدعوة لتغيير البلاغة العربية، لا تختلف في ظننا عن الدعوة إلى تغيير مباحث النحو، التي أشرنا إليها في خاتمة كتابنا علم المعاني.

ولا يظن أحد أننا من أنصار الدعوة إلى الجمود، نحن ندعو إلى التجديد، ولكنه تجديد يبقى لبلاغتنا ولغتنا بل لتراثنا كله جوهره وأصالته، وإننا ليحدونا الأمل ويملأ نفوسنا الرجاء بأن يهيئ اللّه لهذه البلاغة بخاصة واللغة بعامة الغيورين على تراث هذه الأمة وشخصيتها حتى لا نفقد أعز ما نملك وما به قوامنا وبقاؤنا. واللّه يجزي المخلصين خير الجزاء.

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس الآيات

من الظن»

فهرس الأحاديث

فهرس القوافي

(ءُ)

(ءِ)

(بَ)

(بُ)

(بِ)

(بْ)

يتابع لا يبتغي غيره	(الْمُلْتَهِبْ)	عنترة	٨٠
لا أركب البحر إني	(المعاطِبْ)	ـــــ	١٦٠
طين أنا وهو ماء	(ذائبْ)	ـــــ	١٦٠
طَلَبْتُ منه درهماً	(العَجَبْ)	ـــــ	٢٩٤
وقال ذا من فضةٍ	(الذَّهَبْ)	ـــــ	٢٩٤

(تًا)

طويلُ النجاد رفيع العماد	(شتَّا)	الخنساء	٢٥١

(تُ)

إنما النفسُ كالزجاجةِ والعلم سراجٌ	(زَيْتُ)	ـــــ	٥٢
فإذا اشرقت فإنك حيٌ	(مَيْتُ)	ـــــ	٥٢

(تِ)

علوٌ في الحياة وفي الممات	(الْمُعْجِزَاتِ)	ابن الأنباري	١٥
كأن الناس حولك حين قاموا	(الصلاَتِ)	ابن الأنباري	١٥
كأنك قائمٌ فيهم خطيباً	(للصَّلاةِ)	ابن الأنباري	١٥
لقد اطمعتني بالوصال تبسماً	(وتَوَلَّتِ)	كثير	٦٧
كما ابرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ	(وتجلَّتِ)	كثير	٦٧
مددت يديك نحوهُم احتفالاً	(بالهباتِ)	أبو حسن الأنباري	١١٧
يبيت بمنجات من اللوم بيتُها	(حلَّتِ)	الشنفري الأزدي	٢٥٨

(جُ)

كأنَّ المتن والشرخين منه	(مشيِجُ)	الشماخ	٤٤

(حْ)

(دَ)

(دُ)

(دِ)

(رِ)

(رْ)

(سُ)

(سِ)

(ضَ)

(ضِ)

(عَ)

(عُ)

(عِ)

(فَا)

(فُ)

(فِ)

(قَا)

(قُ)

(قِ)

(قْ)

(لُ)

(ل)

(لْ)

(مَ)

(مْ)

(نَ)

(نُ)

(ن)

فهرس القصائد

فهرس الأعلام

١ - إبراهيم بن هرمه: ١٤ ، ١٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠.

هو أبو اسحق إبراهيم بن علي بن سلمة الفِهري المدني، شاعر زمانه، أحد البلغاء، من شعراء الدولتين الأموية والعباسية، توفى سنة ١٧٦هـ.

٢ - ابن الأثير: ١٠ ، ٥٩ ، ٢٤٢ ، ٢٦٠ ، ٣٠٦.

هو نصر الله بن محمد الشيباني أبو الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير الكاتب، ولد سنة ٥٥٨هـ في جزيرة ابن عمر، وتعلم بالموصل حيث نشأ أخواه، ولي الوزارة للملك السلطان صلاح الدين وهو قوي الحافظة يحفظ شعر أبي تمام والبحتري وغيرهما. مات ببغداد سنة ٦٣٧هـ من كتبه: المثل السائر.

٣ - أحمد أحمد بدوي: ١٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦.

٤ - أحمد شوقي: ٥٠ ، ٥٧ ، ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٣٢٣ ، ٣٣٣.

أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي، أشهر شعراء العصر الأخير، ولقب بأميرهم، مولده ووفاته بالقاهرة عالج أكثر فنون الشعر، اتسعت ثروته وعاش مترفاً توفي سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

٥ - أحمد الصاوي: ١٧٥.

أحمد بن محمد بن الخلوتي الصاوي، نسبة إلى قرية (صاء الحجر) من قرى إقليم الغربية بمصر، وكان فقيهاً مالكياً صوفياً تابعاً في سلوكه للشيخ أبي البركات الدروير، وله مؤلفات في الفقه والتصوف، لكن أشهرها هو حاشيته على تفسير الجلالين. كانت وفاته بالمدينة المنورة بعد أن أنهى حاشيته سنة ١٨٢٥م - ١٢٤١هـ.

٦ - الأحنف بن قيس: ٣٠٥.

بن معاوية بن حُضين التميمي، سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين، يضرب به المثل في الحلم توفي بالكوفة.

٧ - أبو قيس بن الأسلت: ٢٢ ، ٦٢ ، ٨١.

لا يُعرف أسمه على وجه التحديد، سوى أنه عرف باسم أبي قيس، والأسلت لقب أبيه،

وأسمه عامره بن جُشم بن وائل بن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن مالك ابن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، وأبو قيس شاعر جاهلي أسندت له الأوس حربها وجعلته رئيساً عليها، فكفى وساد وأسلم ابنه عقبة بن أبي قيس، واستشهد يوم القادسية.

٨- الأشعر الجعدي الجعفي: ١٢٧.

٩- ابن أبي الأصبع: ٢٧٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢.

عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد بن جعفر بن الحسن المصري المعروف بابن أبي الأصبع، أديب شاعر ولد بمصر وتوفي بها من آثاره بدائع القرآن توفي سنة ٦٥٤هـ.

١٠- الراغب الأصفهاني: ٩.

هو الحسين بن محمد أبو القاسم الأصفهاني، أديب من العلماء، سكن بغداد، من كتبه: المفردات، ومقدمة في التفسير، وله كذلك تفسير مخطوط توفي سنة ٥٠٢هـ.

١١- الأصمعي: ١١ ، ١٢٤ ، ١٢٩.

عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي: رواية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان توفي سنة ٢١٦هـ.

١٢- ابن الاعرابي: ٤٥.

محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي، أبو عبد الله، رواية نسابه، علامة باللغة، من أهل الكوفة، له عدة كتب منها معاني الشعر توفي سنة ٢٣١هـ.

١٣- الأعشى: ٨٧.

عامر بن الحارث بن رباح الباهلي بن همدان، شاعر جاهلي يكنى «أبا قحفان» أشهر شعره رائية له في رثاء أخية لأمه «المنتشر بن وهب» أوردها البغدادي برمتها، وقيل اسمه عمر.

١٤- الأفوه الأودي: ١٢٧.

صلاءة بن عمرو بن مالك، من بني أود، من مذحج: شاعر يماني جاهلي، يكنى أبا ربيعة، توفي فيما يقرب سنة ٥٠ قبل الهجرة.

١٥- الأقيشر: ٣١٠.

المغيرة بن عبد الله بن معرض الأسد، أبو معرض شاعر هجاء عالي الطبقة من أهل بادية الكوفة ولد في الجاهلية ونشأ في أول الإسلام عاش عمراً طويلاً وكان عثمانياً وأدرك دولة عبد الملك بن مروان وقتل بظاهر الكوفة خنقاً بالدخان نحو سنة ٨٠هـ، ولقب بالأقيشر لأنه كان أحمر الوجه أقشر، وكان يغضب إذا دعي به.

١٦- أبو أمامة مولى عبد القيس: ١٢١.

١٧- امرؤ القيس: ٢٣، ٢٤، ٣٦، ٤٢، ٥١، ٥٣، ٦٩، ٨١، ٨٨، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٨، ١٧٨، ٢٠٨، ٢٤٥.

امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي من بني أكل المرار، أشهر شعراء العرب على الاطلاق، يماني الأصل مولده نجد، توفي حوالي سنة ٨٠ قبل الهجرة.

١٨- ابن الأنباري: ١٥، ١١٧.

القاسم بن محمد بن بشار الأنباري أبو محمد اديب، نحوي لغوي محدث، اخباري لقي سلمة وامثاله من اصحاب الفراء وجماعة من اللغويين، من تصانيفه خلق الإنسان وله شعر توفي سنة ٩١٦م - ٣٠٤هـ.

١٩- أبو حسن الأنباري: .

٢٠- ابن بابك: ٣٣، ٤٠، ٨٥، ١٢٠.

عبد الصمد بن منصور بن حسن بن بابك أبو القاسم شاعر مجيد مكثر من أهل بغداد له ديوان شعر...! توفي ببغداد سنة ٤١٠هـ.

٢١- الباقلاني: ٣٠٦.

محمد بن الطيب أبو بكر القاضي توفي سنة ٤١٣هـ من أهل البصرة، شيخ الأشاعرة في عصره، له كتب كثيرة منها إعجاز القرآن.

٢٢- البحتري: ١٩، ٣٦، ٣٩، ٥٠، ٧٤، ٧٨، ٨٥، ١٢٠، ١٢١، ١٨٤، ٢١٤، ٢٥٥، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٤.

الوليد بن عُبيد بن يحيى الطائي أبو عبادة البحتري شاعر كبير يقال لشعره سلاسل الذهب ولد بمنبج... وتوفي سنة ٢٨٤هـ.

٢٣- بدر الدين بن مالك: ٢٧٦.

محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك، بدر الدين بن الإمام جمال الطائي الدمشقي، كان اماماً فهماً ذكياً، حاد الخاطر، اماماً في النحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والمنطق، جيد المشاركة في الفقه والأصول. مات سنة ٦٨٠هـ، ومن تصانيفه شرح الفية والده ابن مالك، شرح لاميته، المصباح في اختصار المفتاح في المعاني.

٢٤- بدر بن يوسف الذهبي: ٢١٧ ، ٢٨٥.

يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله الدمشقي الذهبي (بدر الدين) من شعراء الدولة الناصرية بدمشق، وتوفي بها من آثاره ديوان شعر، ولد سنة (٦٠٧هـ - ١٢١٠م) وتوفي (٦٨٠هـ - ١٢٨١م).

٢٥- أبو الفتح البُستي: ٢٩٩ ، ٣٠٢.

علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البُستي، شاعر عصره وكاتبه، ولد ببست قرب سجستان، وكان من كتاب الدولة السامانية في خراسان، توفي ٤٠٠هـ.

٢٦- بشار بن بُرد: ٤٢ ، ٥٤ ، ١١٧ ، ٢٠٧ ، ٢٧٥.

بشار بن برد العقيلي أبو معاذ أشعر المولدين على الاطلاق... كان ضريراً نشأ في البصرة.. وتوفي سنة ١٦٧هـ.

٢٧- بُشاقة بن عمرو: ١٦٩.

بشاقة بن عمرو بن هلال المري من شعراء المفضليات خال زهير بن أبي سلمى جاهلي كان مقعداً من الولادة.

٢٨- أحمد بن أبي بغل: ١٢٠.

محمد بن يحيى بن أبي البغل أبو الحسين، كاتب، من وزراء المقتود العباسي، توفي مسجوناً في حدود سنة ٢٩٩هـ، له ديوان الرسائل.

٢٩- البوصيري: ٢٧ ، ٢٨ ، ١١٧.

محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين أبو

عبد الله شاعر حسن الديباجة، نسبته إلى بوصير من مصر وأصله من المغرب... توفي بالاسكندرية ٦٩٦هـ.

٣٠- التنوخي: ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٥٣.

علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم بن تميم أبو القاسم التنوخي، أديب شاعر عالم بأصول المعتزلة ولد بانطاكية... وتوفي سنة ٣٤٢هـ.

٣١- السعد التفتازاني: ٤٧، ١٥٢.

هو مسعود بن عمر صاحب الشروح الشهيرة انتهت إليه علوم البلاغة له كثير من الحواشي، من أهم مصنفاته تلخيص المفتاح توفي سنة ٢٩٢هـ.

٣٢- أبو تمام: ١٤، ٦٨، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٧، ١١٩، ١٢٢، ١٨٢، ١٩٤، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٤، ٢٥٢، ٢٧٥، ٢٨٦، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٣١.

حبيب بن أوس بن الحارث الطائي أبو تمام الشاعر الأديب أحد أمراء البيان ولد في جاسم بسوريا ورحل إلى مصر... وتوفي سنة ٢٣١هـ.

٣٣- تميم بن مقبل: ٢٣.

تميم بن أبيّ بن مقبل، من بني العجلان، من عامر بن صعصعة أبو كعب، شاعر جاهلي، أدرك الإسلام وأسلم فكان يبكي أهل الجاهلية عُدَّ في المخضرمين وكان يهاجي النجاشي الشاعر، توفي بعد سنة ٣٧هـ.

٣٤- ثعلب: ٤٥، ٢٠٩.

أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء أبو العباس المعروف بثعلب إمام الكوفيين في النحو واللغة كان راوية للشعر محدثاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة ثقة حجة ولد ومات في بغداد، توفي ٢٩١هـ.

٣٥- الجاحظ- ١١، ١٨، ٤٧، ٩٩، ٢٠٧.

عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان الشهير بالجاحظ كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته بالبصرة، فلج في آخر عمره وكان مشوه الخلقة ومات والكتاب على صدره قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه توفي ٢٥٥هـ.

٣٦- القاضي أبي الحسن الجرجاني:

علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف من كبار العلماء بالعربية ولد في تاكو (قرب استراباد) ودرس في شيراز ولما دخلها تيمور فر الجرجاني إلى سمرقند ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور فأقام إلى أن توفي. توفي سنة ٨١٦هـ.

٣٧- عبد القاهر الجرجاني: ٧ ، ١١ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧١ ، ١١٩ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٩٩ ، ٣٤٢.

عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة، من أهل جرجان له شعر رقيق من كتبه (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز)، توفي سنة ٤٧١هـ.

٣٨- ابن جريج: ١٠.

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أبو الوليد وأبو خالد: فقيه الحرم المكي كان إمام أهل الحجاز في عصره وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة، رومي الأصل من موالي قريش مكي المولد والوفاة، قال الذهبي: كان ثبتاً لكنه يدلس. توفي سنة ١٥٠هـ.

٣٩- جرير: ٤٥ ، ١٣٠ ، ١٥٩ ، ٢٨٣.

جرير بن عطية بن حذيفة الخَطَفي بن بدر الكلبي اليربوعي من تميم. كان أشعر أهل عصره، ولد ومات في اليمامة. وكان هجّاءً مرّاً فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل وكان عفيفاً وهو من أغزل الناس شعراً وكان يكنى بأبي حَزْرَة. توفي سنة ١١٠هـ.

٤٠- جعفر بن يحيى البرمكي: ١١.

جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، أبو الفضل وزير الرشيد العباسي وأحد مشهوري البرامكة ومقدميهم، ولد ونشأ في بغداد استوزره الرشيد ملقياً إليه أزمة الملك وكان يدعوه أخي فانقادت له الدولة ثم نقم الرشيد على البرامكة فقتله في مقدمتهم فصيح المنطق بليغ القول. توفي سنة ١٨٧هـ.

٤١- جؤبة بن النضر: ٧٥.

٤٢- الجوهري: ٢٤٧.

إبراهيم بن سعيد الجوهري أبو إسحاق، من أعلام رجال الحديث من أهل بغداد أصله من طبرستان روى عنه أصحاب الكتب الستة عدا البخاري قال الإمام أحمد بن حنبل: هو كبير الكتاب اكتبوا عنه، له (المسند) في الحديث، مات مرابطاً بعين زربي (في نواحي الكوفة) توفي سنة ٢٤٧هـ.

٤٣- الحارث بن حلِزة: ١٢٦.

الحارث بن حلزة بن يزيد اليشكري الوائلي ولد نحو سنة ٥٠ ق. هـ: شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقات، كان أبرص فخوراً، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك بالحيرة، جمع بها كثيراً من أخبار العرب ووقائعهم مات نحو سنة ٥٧٠م.

٤٤- الحارث بن سعيد التغلبي: ٢٢ ، ٣١.

الأمير أبو فراس، الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، الشاعر المفلق، كان رأساً في الفروسية، والجود، وبراعة الأدب، وكان الصاحب بن عبّاد يقول: بُدئ الشعر بملك وهو امرؤ القيس، وخُتم بملك وهو أبو فراس، أسَرَتْه الروم جريحاً، فبقي بقسطنطينية أعواماً، ثم فداهُ سيف الدولة منهم بأموال، وأعطاه أموالاً جزيلة وخيلاً ومماليك. قُتل بناحية تدمر سنة ٣٥٧هـ، وكلّ عمره ٣٧ سنة.

٤٥- حافظ إبراهيم: ٣٢٨.

محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس الشهير بحافظ إبراهيم شاعر مصر القومي ومدون أحداثها نيفاً وربع قرن، ولد في ذهبية بالنيل كانت راسية أمام دير وط/ مات أبوه بعد عامين من ولادته ثم ماتت أمه بعد قليل فنشأ يتيماً. نظم واشتغل في المحاماة ثم في الجيش ثم محرراً في (الأهرام) لقب شاعر النيل كان قوي الحافظة حاضر النكتة جهوري الصوت بديع الالقاء، توفي سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

٤٦- ابن حجاج (عبد الله بن أحمد البغدادي) ٢٩٤.

حسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجاج النيلي البغدادي أبو عبد الله شاعر فحل من كتاب البويهي غلب عليه الهزل، قال الذهبي شاعر العصر وسفيه الأدب وأمير الفحش كان أمة وحده في نظم القبائح وخفة الروح. وقال صاحب النجوم الزاهرة يضرب به المثل في السخف والمداعبة والأهاجي. نسبته إلى قرية النيل بين بغداد والكوفة.توفي سنة ٣٩١هـ.

٤٧- الحجاج بن يوسف الثقفي: ١٦٩، ١٨٣، ٢٩٣.

الحجاج بن يوسف الثقفي، قائد، داهية، سفاك، خطيب، ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام قاتل عبد الله بن الزبير بأمر عبد الملك بن مروان، ثم ولي مكة والطائف والعراق، وثبتت له الإمارة عشرون سنة مات سنة ٩٥هـ.

٤٨- الحريري: ١١٩.

عبد الله بن قاسم بن عبد الله اللخمي أبو محمد: فاضل عارف بالتاريخ والأنساب أندلسي من أهل اشبيلية يعرف بالحرار وحولها إلى الحريري فعرف بكليهما له (الدرر والفوائد) معجم شيوخه توفي في حصار الروم اشبيلية سنة ٦٤٦هـ.

٤٩- حسان بن ثابت: ٨٨، ٣٠٤.

حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري أبو الوليد الصحابي شاعر النبي صلي الله عليه وسلم وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام لم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشهداً لعلة أصابته وكان يضرب بلسانه روثة أنفه، من طوله كان شديد الهجاء فحل الشعر، توفي سنة ٥٤هـ.

٥٠- أبو الحسين الجزار: ٢٨٥.

عبد الله بن محمد الجزار أبو الحسين: عالم بالعربية من تلاميذ المبرد وثعلب له مصنفات في (علوم القرآن) وكتاب (المختصر) في علم العربية. توفي سنة ٣٢٥هـ.

٥١- الحُطيئة جرول بن أوس: ٨٤، ١٢٩، ١٤٤.

جرول بن أوس بن مالك العبسي أبو ملكية: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام كان هجّاءً عنيفاً لم يكد يسلم من لسانه أحد وهجا أمه وأباه ونفسه وأكثر من هجاء الزبرقان بن بدر. توفي سنة ٤٥هـ.

٥٢- حَنْدج بن حَنْدج المري: ٣٧.

٥٣- خالد الكاتب: ٣٨.

خالد بن يزيد البغدادي أبو الهيثم المعروف بالكاتب شاعر غزل من الكتّاب أصله من خراسان ومولده بها عاش وتوفي في بغداد كان يهاجي أبا تمام عاش عمراً طويلاً حتى دق عظمه ورق جلده، شِعره رقيق أكثره غزل، توفي سنة ٢٦٢هـ.

٥٤- أبو بكر الخالدي: ٢٩ ، ٤٩.

أبو بكر محمد بن هاشم بن وعلة بن عثمان بن بلال الخالدي (نسبة إلى الخالدية من قرى الموصل). عرف بالخالدي الكبير تفريقاً له عن أخيه سعيد الذي عرف بالخالدي الصغير، وعرفا باسم الخالدين، وقد اشتهرا في الموصل عمل أبو بكر خازن كتب لسيف الدولة الحمداني، له آثار أدبية وتاريخية وديوان شعر رقيق، وكان أديباً حسن الإنشاء رقيق الشعر واسع الإطلاع. حصلت مهاجاة بين الخالديين وبين السري الرفاء الذي اتهمهما بسرقة شعر له ولكشاجم، لهما كتاب «الأشباه والنظائر» ويعرف بحماسة الخالديين، ولهما «أخبار أبي تمام ومحاسن شعره» توفي سنة (٣٨٠هـ - ٩٩٠م).

٥٥- أبو خراش الهذلي: ٢١٣.

خويلد بن مرة من بني هذيل من مضر شاعر مخضرم وفارس فاتك مشهور ادرك الجاهلية والإسلام واشتهر بالعدو فكان يسبق الخيل أسلم وهو شيخ كبير عاش إلى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (نهشته أفعى فقتلته). توفي سنة ١٥هـ.

٥٦- الخنساء: ٤٢ ، ١٢٨ ، ١٤٧ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ٢٥٠ ، ٣٠٤.

تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحية السلمية من بني سليم من قيس عيلان من مضر أشهر شواعر العرب وأشعرهن على الاطلاق عاشت أكثر عمرها في الجاهلية وأدركت الإسلام فأسلمت - أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية اللذين قتلا في الجاهلية توفيت سنة ٢٤هـ.

٥٧- أبو بكر الخوارزمي: ١٢٠.

محمد بن العباس الخوارزمي أبو بكر من أئمة الكتاب وأحد الشعراء العلماء كان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب له ديوان شعر، ولد في خوارزم وتوفي في نيسابور سنة ٣٨٣هـ.

٥٨- ابن دانيال: ٢٨٥.

محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي الموصلي: شمس الدين (طبيب رمدي كحال) من الشعراء أصله من الموصل ولد فيها ونشأ وتوفي في القاهرة سنة ٧١٠هـ. وكانت له دكان كحل في داخل باب الفتوح.

٥٩- دعبل الخزاعي: ٢٨٠.

دعبل بن علي بن رزين الخزاعي أبو علي، شاعر هجاء أصله من الكوفة أقام ببغداد له أخبار وشعره جيد وكان صديق البحتري كان بذيء اللسان مولعاً بالهجو والحط من أقدار الناس وهجاء الخلفاء: الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق فمن دونهم وطال عمره فكان يقول: لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك، توفي سنة ٢٤٦هـ.

٦٠- أبو دُلامة: ٢١٠ ، ٢٨٣.

زند بن الجون الأسدي بالولاء، أبو دلامة شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة أسود اللون جسيم وسيم كان أبوه عبداً لرجل من بني أسد وأعتقه وكان يتهم بالزندقة لتهتكه، توفي سنة ١٦١هـ.

٦١- ديك الجن «عبد السلام بن رغبان»: ٢٤٢.

عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي المعروف بديك الجن شاعر مجيد فيه مجون من شعراء العصر العباسي سمي بديك الجن لأن عينيه كانت خضراوين أصله من سلمية (قرب حماة) ولم ينتجع بشعره، توفي سنة ٢٣٥هـ.

٦٢- أبو ذؤيب:

خويلد بن خالد بن محرِّث أبو ذؤيب من بني هذيل بن مدركة من مضر شاعر فحل مُخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وسكن المدينة واشترك في الغزو والفتوح حمل بشرى فتح افريقية إلى عثمان رضي الله عنه، ومات بمصر. قال البغدادي: هو أشعر هذيل من غير مدافعة أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ليلة وفاته وهو مسجى وشهد دفنه.توفي سنة ٢٧هـ.

٦٣- ذو الرمة: ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٤٤ ، ١١٧ ، ٢٥٢.

غيلان بن عقبة بن فهيس بن مسعود العدوي من مصر، أبو الحارث ذو الرمة، شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره قال ابن العلاء: فتح الشعر بامريء القيس وختم بذي الرمة. كان شديد القصر دميماً يرب لونه إلى السواد. أكثر شعره تشبيب وبكاء اطلال توفي في أصبهان سنة ١١٧هـ.

٦٤- الرازي: ١٥٢.

محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التيمي الطبرستاني المعروف بالفخر الرازي

ولد في الري سنة ٥٤٣هـ، مفسر متكلم، فقيه، اصولي، حكيم، اديب، شاعر طبيب، مشارك في كثير من العلوم الشرعية، رحل إلى خوارزم، توفي بهراة، له تصانيف كثيرة منها مفاتيح الغيب.

٦٥- الرافعي: ٧٣ ، ٢٣٥ ، ٢٨٩ ، ٣٢٩.

مصطفى صادق عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (١٢٩٨ – ١٣٥٦هـ)، (١٨٨١ – ١٩٣٧م) عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب أصله من طرابلس الشام مولده في يهنيم (منزل والدان) ووفاء في طنطا، شعره نقي الديباجة على جفاف في أكثره.

٦٦- ربيعة الرَّقي: ٢٠٨.

ربيعة بن ثابت بن لجأ بن العيذار الأسدي، أبو ثابت، أو أبو شبانة الرقي: شاعر غزل مقدم، كان ضريراً، يلقب بالغاوي، عاصر المهدي العباسي ومدحه بعدة قصائد، وكان الرشيد يأنس به، وله معه مُلَح كثيرة، مولده ونشأته في الرقة (على الفرات، من بلاد الجزيرة) وإليها نسبته. توفي سنة ١٩٨هـ.

٦٧- أبو طالب الرقي: ٣٣ ، ٣٥ ، ٥٤.

قال في اليتيمة: لم أجد ذكره إلا عند أبي بكر الخوارزمي، وهو أحد المقلين المحسنين الذين يطبقون المفصل في أغراضهم وينظمون الدر المفصل في معانيهم وألفاظهم.

٦٨- الرُماني: ٤٥ ، ٤٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٣٠٦.

علي بن عيسى بن علي بن عبد الله أبو الحسن الرماني باحث معتزلي مفسر من كبار النحاة أصله من سامراء ولد وتوفي في بغداد سنة ٣٨٤.

٦٩- أبو البقاء الرندي: ٣٣٢.

يوسف بن موسى بن سليمان بن فتح بن محمد الجذامي الرندي: شاعر، من فضلاء القضاة ولي القضاء ببلدته وغيرها، وصنَّف (الخصائص النبوية)، و (أرج الأرجاء في مسرح الخوف والرجاء)، وله (ديوان شعر)، توفي نحو سنة ٧٦٧هـ.

٧٠- ابن الرومي: ٣٧ ، ٣٨ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٩١.

علي بن العباس بن جريج أو جورجيس الرومي، أبو الحسن شاعر كبير من طبقة بشار

والمتنبي رومي الأصل، جده من موالي بني العباس ولد ونشأ في بغداد وتوفي فيها مسموماً سنة ٢٨٣هـ.

٧١- الزبرقان بن بدر: ٨٤، ١٤٥.

الزبرقان بن بدر التميمي السعدي صحابي من رؤساء قومه قيل اسمه الحصين ولقب بالزبرقان (وهو من اسماء القمر) لحسن وجهه ولاه الرسول عليه الصلاة والسلام صدقات قومه فثبت إلى زمن عمر وكف بصره وتوفي زمن معاوية وكان فصيحاً شاعراً فيه جفاء الأعراب، توفي سنة ٤٥هـ تقريباً.

٧٢- الزجاج: ٤٥.

إبراهيم بن السري بن سهل أبو اسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة ولد ومات في بغداد، كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلي النحو فعلمه المبرد وأدب ابن وزير المعتضد العباسي فأصاب ثروة كبيرة توفي سنة ٣١١هـ.

٧٣- الزمخشري: ١٢، ١٨، ١١٠، ١٨١، ٢٦٣، ٢٧٦، ٣١٦.

محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار اللّه أبو القاسم من أئمة الدين والعلم والتفسير واللغة والآداب ولد في زمخشر من قرى خوارزم وسافر إلى مكة وجاور بها زمناً فلقب بجار اللّه كان معتزلي المذهب مجاهراً شديدَ الإنكار على المتصوفة له تفسير الكشاف، توفي سنة ٥٣٨ هـ.

٧٤- زهير بن أبي سلمى: ٢١٧، ٢٤٤، ٢٩٥.

زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني من مصر: حكيم الشعراء في الجاهلية وليس في أئمة الأدب من لا يفضله على شعراء العرب كافة كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة وابناه كعب وبجير شاعرين. وتوفي سنة ١٣ ق. هـ.

٧٥- ابن الزيات: ١٥٩.

أحمد بن الحسن ابن علي أبو جعفر الكلاعي البلشي ابن الزيات مقرىء عارف بالأدب كان شيخ مدينة بلش بالأندلس من كتبه (لذة السمع في القراءآت السبع) قصيدة على نمط الشاطبية توفي سنة ٧٢٨هـ.

٧٦- أحمد حسن الزيات: ٢٤٠.

أديب مصري، صاحب مجلة (الرسالة)، كان يدعو إلى تصفية اللغة العربية من الشوائب التي خالطتها طيلة عصور الانحطاط. تخرج من الأزهر الشريف، وعمل معلماً بالمدارس الأهلية بالقاهرة، من تآليفه: (وحي الرسالة)، (دفاع عن البلاغة)، (ذكرى عهود)، توفي في القاهرة سنة ١٩٦٨م.

٧٧- زياد الأعجم: ٢٥٧.

زياد بن سليمان أو سليم الأعجم أبو أمامة العبدي مولى بني عبد القيس من شعراء الدولة الأموية جزل الشعر فصيح الألفاظ كان في لسانه عجمة فلقب بالأعجم وكان هجّاءً وكان الفرزدق يتحاشى أن يهجو بني عبد القيس خوفاً منه، توفي نحو سنة ١٠٠هـ.

٧٨- ابن زيد: ١٠.

أحمد بن محمد بن أحمد بن زيد شهاب الدين أبو العباس: فاضلٌ دمشقيٌ من علماء الحنابلة له كتب منها (اختصار سيرة ابن هشام)، توفي سنة ٨٧٠ هـ.

٧٩- سراج الدين الوراق: ٢٨٦.

شاعر مصري رقيق، برع في التورية وغيرها من أنواع البديع، له شعر كثير جيد، ولد سنة ٦١٥هـ. ومات سنة ٦٩٥هـ.

٨٠- سري الرَّفاء: ٢٩، ٣٨، ٢١٤.

السري بن أحمد بن السري الكندي أبو الحسن/ شاعر أديب من أهل الموصل كان في صباه يرفو ويطرز/ جاد شعره ومهر في الأدب مدح سيف الدولة. ضاقت دنياه في آخر عمره وركبه الدين ومات على هذا الحال سنة ٣٦٦هـ.

٨١- سعد بن ناشب: ١٨٣.

سعد بن ناشب بن معاذ بن جعدة المازني التميمي. شاعر من الفُتَّاك المردة من أهل البصرة اشتهر في العصر المرواني، توفي نحو سنة ١١٠هـ.

٨٢- سعيد بن حُميد: ٢١٦.

سعيد بن حميد بن سعيد أبو عثمان: كاتب مترسل من الشعراء أصله من النهر وأن الأوسط من أبناء الدهاقين تقلد للمستعين العباسي ديوان رسائله شعره رقيق، توفي نحو سنة ٢٥٠هـ.

٨٣- سعيد بن الشاه: ٣٩.

٨٤- السكاكي: ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٦ ، ٢٩٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠.

يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب سراج الدين عالم بالعربية والأدب مولده ووفاته بخوارزم ٦٢٦هـ من كتبه (مفتاح العلوم).

٨٥- السلامي: ٣٩.

محمد بن عبد الله بن محمد المخزومي القرشي أبو الحسن السلامي/ من أشعر أهل العراق في عصره اتصل بالصاحب بن عباد فرفعه ثم عضد الدولة ولما مات عضد الدولة رقّ حاله ومات رقيق الحال سنة ٣٩٣هـ.

٨٦- أبو سلمى: ٣٣٠.

٨٧- السموأل: ١٦٠ ، ٢٨١.

السموأل بن غريض بن عادياء الأزدي/ شاعر جاهلي حكيم من سكان خيبر وهو الذي تنسب إليه قصة الوفاء مع امرىء القيس توفي سنة ٦٥ ق. هـ.

٨٨- سوار بن المضرب: ٢٠٦.

محمد بن سوار أديب صوفي شاعر، ولد ونشأ بدمشق، وطاف البلاد، ومدح الرؤساء والقضاة وغيرهم وتوفي بدمشق من آثاره ديوان شعر.

٨٩- سويد بن أبي كاهل اليشكري: ١٢٧.

سويد بن أبي كاهل (غطيف أو شبيب) ابن حارثة بن حسل الذ الكناني اليشكري أبو أسعد، شاعر من مخضرمي الجاهلية والإسلام عدّ سلام في طبقة عنترة، توفي بعد سنة ٦٠هـ.

٩٠- السيوطي: ٣١١ ، ٣١٧.

عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ، مؤرخ أديب، له نحو ٦٠٠ مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة، نشأ في القاهرة يتيماً، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس. وخلا بنفسه في روضة المقياس

على النيل، منزوياً عن أصحابه جميعاً، كأنه لا يعرف أحداً منهم، فألف أكثر كتبه، من كتبه: (الإتقان في علوم القرآن)، (إتمام الدراية لقراء النقاية)، (الإكليل في استنباط التنزيل)، توفي سنة ٩١١هـ.

٩١- الشافعي: ٢٠٠ ، ٣٠٠.

محمد بن إدريس ابن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المغلبي أبو عبد الله أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ولد في غزة وتوفي في القاهرة سنة ٢٠٤هـ وكان أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات.

٩٢- الشريف الرَّضي: ٥٧ ، ٢٣٥ ، ٢٦٥.

محمد بن الحسين بن موسى أبو الحسن الرضي العلوي الحسيني الموسوي أشعر الطالبين على كثرة المجُيدين فيهم مولده ووفاته ببغداد سنة ٤٠٦هـ.

٩٣- الشعبي: ١٢٢

عامر بن شراحبيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميدي أبو عمرو راوية من التابعين يضرب المثل بحفظة ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة سنة ١٠٣هـ.

٩٤- شكيب أرسلان: ٣٣٠.

شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان من سلالة التنوخي ملوك الحيرة عالم بالأدب والسياسة مؤرخ من أكابر الكتّاب ينعت بأمير البيان من اعضاء المجمع العلمي العربي، توفي سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م.

٩٥- الشماخ: ٤٤ ، ١٣٠.

الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني شاعر مخضرم ادرك الجاهلية والإسلام كان شديد متون الشعر من طبقة لبيد والنابغة توفي سنة ٢٢هـ.

٩٦- ابن شنبوذ: ٣١٧.

محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت، أبو الحسن ابن شنبوذ: من كبار القراء، من أهل بغداد، انفرد بشواذ كان يقرأ بها في المحراب، وصنّف في ذلك كتباً، منها: (اختلاف القراء)، و (شواذ القراءات)، توفي ببغداد سنة ٣٢٨هـ.

٩٧- الشنفري الأزدي: ٢٥٨.

عمرو بن مالك الأزدي من قحطان شاعر جاهلي يماني من فحول الطبقة الثانية كان من فتاك العرب وعدّائيهم وهو أحد الخلفاء الذين تبرأت منهم عشائرهم توفي نحو ٧٠ ق. هـ.

٩٨- الشميذر الحارثي: ٢٦٢.

٩٩- الصَّابي: ٣٠٩.

إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحراني أبو اسحاق الصابيء، نابغة كتّاب جيله، مال إلى الأدب، تقلد دواوين الرسائل والمظالم توفي سنة ٣٨٤هـ.

١٠٠- الصاحب بن عُباد: ٨٥.

محمد بن عباد بن محمد بن اسماعيل اللخمي أبو القاسم المعتمد على اللّه: صاحب اشبيلية وقرطبة وما حولهما وأحد أفراد الدهر شجاعة وحزماً وضبطاً للأمور، ولد في باجة (بالأندلس) قصده العلماء والشعراء والأمراء وما اجتمع في باب أحد من ملوك عصره ما كان يجتمع في بابه من أعيان الأدب، كان فصيحاً شاعراً وكاتباً مترسلاً بديع التوقيع، قال ابن خلكان: «وظهر من مصابرة المعتمد وشدة بأسه وتراميه على الموت بنفسه ما لم يسمع بمثله» توفي سنة ٤٨٨هـ.

١٠١- صالح بن عبد القدوس: ٢٠، ٦٢، ٢٠٠.

صالح بن عبد القدوس بن عبد اللّه بن عبد القدوس الأزدي الجذامي، مولاهم أبو الفضل شاعر حكيم كان متكلماً يعظ الناس في البصرة، اتهم بالزندقة فقتله المهدي العباسي وكان قد عمي آخر عمره، توفي سنة ١٦٠هـ.

١٠٢- صفي الدين الحلي: ٢٩١.

عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السنبسي الطّائي شاعر عصره ولد ونشأ في الحلة بين الكوفة وبغداد مدح ملوك افريقية فأجزلوا له العطاء، توفي في بغداد سنة ٧٥٠هـ.

١٠٣- محمد بن أحمد الصنوبري (أبو بكر): ٢٤، ٨٤.

أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبي الحلبي الأنطاكي المعروف بالصنوبري «أبو بكر» شاعر سكن حلب ودمشق، وتوفي سنة ٣٣٤هـ وله ديوان شعر.

١٠٤- الضحاك: ١٠.

الضحاك بن سفيان بن عوف بن كعب الكلابي أبو سعيد/ شجاع صحابي كان نازلاً بنجد وولاه الرسول صلى الله عليه وسلم على من أسلم هناك من قومه ثم اتخذه سيافاً فكان يقوم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم متوشحاً سيفه وكانوا يعدونه بمائه فارس وله شعر استشهد في قتال أهل الردة من بني سليم سنة ١١هـ.

١٠٥- أبو طالب المأموني: ٢٨٩.

عبد السلام بن حسن المأموني «أبو طالب» فاضل، له كنز الرؤيا في التعبير، توفي سنة ٣٨٣هـ.

١٠٦- ابن طباطبا: ٣٦.

يحيى بن محمد بن القاسم بن محمد بن طباطبا العلوي الحسني أبو المعمرّ نسّابة متكلم من فضلاء الشيعة من أهل بغداد وكان شاعراً وقال ابن تغري بردي أنه مات عقيماً سنة ٤٧٨هـ.

١٠٧- طرفة بن العبد: ١٢٦، ٢٥٢.

طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ولد في بادية البحرين وتنقل في بقاع نجد واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر عامله على البحرين وعمان يأمره بقتله لأنه بلغه أن طرفة هجاه في قصيدة له فقتله المكعبر ابن عشرين عاماً سنة ٦٠ ق.هـ. وكان هجّاءً غير فاحش القول تفيض الحكمة على لسانه في أكثر شعره.

١٠٨- الطِرماح: ١٢٦.

الطرماح بن حكيم بن نفر بن قيس بن جحدر شاعر، خطيب، وكان يعد في المعلمين وهو من فحول الشعراء الإسلاميين وفصائحهم، منشؤه في الشام انتقل إلى الكوفة بعد ذلك، وكان صديقاً للكميت على ما كان بينهما من تباعد في النسب والبلاء.

١٠٩- الطغرائي: ٢٢، ٣١.

الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد أبو اسماعيل، مؤيد الدين الأصبهاني الطغرائي، شاعر من الوزراء الكتّاب وكان ينعت بالأستاذ ولد بأصبهان واتصل بالسلطان

مسعود بن محمد السجلوقي ثم اقتتل السلطان مسعود مع أخيه فظفر أخيه فقتل جميع رجال مسعود وخاف من قتل الطغرائي لشهرته وعلمه وفضله فأوعز إلى من أشاع اتهامه بالإلحاد والزندقة بين الناس واتخذها حجة فقتله سنة ٥١٣هـ.

١١٠- طفيل الغنوي: ٢٠٩ ، ٢٨٠.

طفيل بن عوف بن كعب من بني غني من قيس عيلان: شاعر جاهلي فحل من الشجعان وهو أوصف العرب للخيل وسمي المحبّر لتحسينه شعره عاصر النابغة الجعدي وزهير بن أبي سلمى ومات بعد مقتل هرم بن سنان نحو سنة ١٣ ق.هـ.

١١١- ابن الظاهر: ٢٨٥.

علي بن ظاهر الوتري، الحسني المدني، محدث، شارك في أنواع فن العلوم، ولد بالمدينة، وتوفي بها سنة ١٣٢٢هـ من اثاره التحفة المدنية في المسلسلات الوترية.

١١٢- العباس بن الأحنف: ٢٥٩.

العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي أبو الفضل شاعر غزل رقيق قال فيه البحتري: أغزل الناس. أصله من اليمامة في نجد وكان أهله في البصرة وبها مات أبوه، نشأ في بغداد كل شعره غزل وتشبيب، توفي سنة ١٩٢هـ.

١١٣- عبد الله بن رواحة: ٣٠٤.

صحابي جليل وشاعر من الشعراء الراجزين، شهد غزوات كثيرة واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة في إحدى غزواته، ومات سنة ٨ هـ.

١١٤- أبو عبيدة: ١٨ ، ٢٣٥ ، ٢٦٦.

معمر بن المثنى اليتمي، ولد في سنة (١١٠هـ) ولم تذكر المصادر أين ولد لكن العلماء يضعونه في عداد علماء البصرة، تعلم النحو والشعر والغريب على يد أبي عمرو بن العلاء وتكاد تتفق كلمة العلماء على أنه من الخوارج وقد وضعت في عهده أسس العلوم الإسلامية وكان يشارك فيها مشاركة جيدة، توفي بين سنتي ٢٠٩ و ٢١٣ هـ.

١١٥- أبو العتاهية: ٢٤.

اسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، العيني المعروف بأبي العتاهية، شاعر ولد بعين تمر، ونشأ بالكوفة، ثم سكن بغداد وتوفي بها سنة ٢١١هـ.

١١٦- عدي بن الرقاع: ١٢٨ ، ١٣٠.

عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع، من عاملة: شاعر كبير من أهل دمشق يكنى أبا داود كان معاصراً لجرير مهاجياً له مقدماً عند بني أمية مداحاً لهم لقب بشاعر أهل الشام ومات في دمشق سنة ٩٥هـ تقريباً.

١١٧- أبو هلال العسكري: ١٨ ، ٤٧ ، ٢٤٠ ، ٢٨٩.

الحسين بن عبد اللّه بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري أبو هلال عالم بالأدب له شعر نسبته إلى «عسكر مكرم» من كور الأهواز من كتبه «التلخيص» توفي بعد سنة ٣٩٥هـ.

١١٨- العشماوي: ٣٣٥.

١١٩- علقمة بن عبدة الفحل: ١٢٧.

علقمة بن عَبَدة بن ناشرة بن قيس من بني تميم شاعر جاهلي من الطبقة الأولى كان معاصراً لامرىء القيس وله معه مساجلات. توفي سنة ٢٠ ق.هـ تقريباً.

١٢٠- علي الجارم: ٢٧١.

علي بن صالح بن عبد الفتاح الجارم: أديب مصري، من رجال التعليم: له شعر ونظم كثير، ولد في رشيد، وتعلم بالقاهرة وانجلترا، وجُعل كبيراً لمفتشي اللغة العربية بمصر، له: (ديوان الجارم)، و (قصة العرب في إسبانيا)، و (شاعر ملك)، وغيرها، توفي سنة ١٣٦٨هـ.

١٢١- علي محمود طه:

علي محمود طه المهندس: شاعر مصري، كثير النظم، ولد بالمنصورة، وتخرج بمدرسة الهندسة التطبيقية، له دواوين، منها: (الملاّح التائه)، و (أرواح شاردة)، و (زهر وخمر)، وغيرها، توفي سنة ١٣٦٩هـ.

١٢٢- عمر أبو ريشة: ٢٠٢.

عمر أبو ريشة: شاعر سوري، أحد الرواد الراسخين لتيار الكلاسيكية العربية الجديدة في الغزل والوطنيات والطبيعة، ولد في عكا، وفيها تلقى تعليمه الأولى، ثم درس في الجامعة

الأمريكية في بيروت، من أعماله الأدبية مسرحية شعرية بعنوان (ذوي قار)، وأخرى بعنوان (الطرفان)، توفي عام ١٩٩٠م.

١٢٣- عمر بن كلثوم: ١٢٧ ، ١٧٠ ، ١٧٣، ١٧٥.

عمر بن كلثوم بن مالك بن عتّاب من بني تغلب أبو الأسود شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ولد شمال جزيرة العرب في بلاد ربيعة وكان من أعز الناس نفساً وهو من الفتاك الشجعان ساد قومه وهو فتى وعمر طويلاً وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند وتوفي سنة ٤٠ ق.هـ.

١٢٤- عمرو بن مسعدة:

عمرو بن مسعدة بن سعد بن صُول، العلاّمة البليغ، أبو الفضل، ابن عمّ إبراهيم بن العباس الصولي الشاعر، وكان موقّعاً بين يدي جعفر البرمكي، وكان فصيحاً، قويّ الموادّ في الإنشاء، عمل في وزارة المأمون، وله نظم جيد، يقال: توفي سنة ٢١٧هـ، وقيل سنة ٢١٥هـ.

١٢٥- عمرو بن معدي كرب: ١٢٧ ، ٢٥٥.

عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد اللّه الزبيدي: فرس اليمن وصاحب الغارات المذكورة وفد على المدينة سنة ٩هـ فأسلم مع نفر من قومه ارتد بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ثم عاد إلى الإسلام وشهد اليرموك والقادسية كان عصي النفس أبيّها فيه قسوة الجاهلية وكان يكنى أبا ثور له شعر جيد توفي سنة ٢١هـ.

١٢٦- ابن العميد: ٣٠٩.

محمد بن الحسين العميد بن محمد أبو الفضل وزير من أئمة الكتاب كان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم ولقب بالجاحظ الثاني في أدبه وترسله. قال الثعالبي بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد، كان حسن السياسة خبيراً بتدبير الملك كريماً ممدوحاً، مدحه المتنبي، وكان حسن الخلق لين العشرة تام الشجاعة عارفاً بأمور الحرب والمحاضرات محباً للعلم والعلماء عاش نيفاً وستين سنة توفي سنة ٣٦٠هـ.

١٢٧- عنترة: ٨٠، ١١٧ ، ١٥٩.

عنترة بن شداد بن معاوية بن قراد العبسي أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولى من أهل نجد وأمه حبشية اسمها زبيبة سرى إليه السواد منها وكان من أحسن العرب شيمة وأعزهم نفساً يوصف بالحلم على شدة بطشه وفي شعره رقة وعذوبة اغرم بأبنة عمه عبلة وقصائدة لا تخلو من ذكرها اجتمع في شبابة بامريء القيس وشهد حرب داحس والغبراء وعاش طويلاً، قتله جبار بن عمرو الطائي سنة ٢٢ ق.هـ.

١٢٨ - الغزّي: ١٢١.

محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله العامري أبو الفضل رضي الدين الغزي باحث من علماء الشافعية أصله من غزة ومولده ووفاته بدمشق له الفيء ت في التصوف واللّغة والخطّ والطب والأصول، توفي سنة ٩٣٥هـ.

١٢٩ - أبو الغنائم الحمصي: ٢٥.

محمد بن مزيد الأسدي: أمير من نوي البسالة كان مصاهراً لبني دبيس وقصيماً في جزيرتهم بنواحي خوزستان، قتل في إحدى وقائعه مع بني ذبيس سنة ٤٠١هـ.

١٣٠ - ابن الفارض: ٣٠٣.

عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل المصري المولد والدار والوفاة أبو حفص وأبو القاسم شرف الدين بن الفارض اشعر المتصوفين يلقب بسلطان العاشقين كان أبوه يثبت الفروض للنساء على الرجال ولذلك سمي هو بابن الفارض. سلك طريق الصوفية فتزهد وتجرد وكان جميلاً نبيلاً حسن الهيئة والملبس حسن الصحبة والعشرة سلس القياد سخياً جواداً اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية، توفي سنة ٦٣٢هـ.

١٣١ - الفرّاء: ١٨.

يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي مولى بني أسد (أبو بني منقر) أبو زكرياء المعروف بالفراء، إمام الكوفيين واعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب وكان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو ولد بالكوفة وعاش في بغداد وربى ابني المأمون وكان في آخر كل عام يعود إلى الكوفة يبر أهله وينفق عليهم مدة اربعين يوماً، وكان مع تقدمه في اللغة فقيهاً متكلماً عالماً بأيام العرب وأخبارها، توفي نحو سنة ١٦٠هـ.

١٣٢ - أبو فراس الحمداني: ٣١ ، ٣٩ ، ٦٧ ، ١٤٤.

الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي أبو فراس الحمداني، أمير شاعر، فارس وهو ابن عم سيف الدولة وله وقائع كثيرة بين يدي سيف الدولة وكان سيف الدولة يحبه ويجله ويستصحبه في غزواته ويقدمه على سائر قومه وأسره الروم في إحدى المعارك ففداه سيف الدولة بأموال عظيمة، قتله سعد الدولة ابن سيف الدولة وكان أبو فراس خال سعد الدولة وكان بينهما تنافس، توفي سنة ٣٥٧هـ.

١٣٣ - عبد الحميد الفراهي: ٢٤٢.

١٣٤- الفرزدق: ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٨٢.

همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي أبو فراس الشهير بالفرزدق شاعر من النبلاء من أهل البصرة عظيم الأثر في اللغة كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس من شعراء الطبقة الأولى يشبه بزهير بن أبي سلمى لكن زهيراً جاهلي والفرزدق مسلم وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر. كان شريفاً في قومه عزيز الجانب يحمي من يستجير بقبر أبيه وكان أبوه وجده من الأجواد والأشراف، توفي سنة ١١٠هـ.

١٣٥- القبعثري: ٢٩٣.

١٣٦- قتادة: ١٠.

قتادة بن دعامة بن عُزيز أبو الخطاب السدوسي البصري مفسر حافظ ضرير أكمه قال الإمام أحمد: قتادة احفظ أهل البصرة، وكان رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب وقد يدلس في الحديث، توفي سنة ١١٨هـ.

١٣٧- ابن قتيبة: ١٣٧

عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد: من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين ولد ببغداد وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور مدة فنسب إليها وتوفي ببغداد سنة ٢٧٦هـ، من كتبه تأويل مختلف الحديث.

١٣٨- قدامة بن جعفر: ٢٤٣، ٢٧٥.

قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج: كاتب، من البلغاء الفصحاء المتقدمين في علم المنطق والفلسفة، كان في أيام المكتفي بالله العباسي، وأسلم على يده، وتوفي ببغداد، يُضرب به المثل في البلاغة، له كتب منها: (الخراج)، و (البلدان) و (نزهة القلوب)، توفي سنة ٣٣٧هـ.

١٣٩- قريط بن أنيف: ٢١٦.

قريط بن أنيف العنبري التميمي، شاعر جاهلي في حياته غموض ومجهول تاريخ الوفاة.

١٤٠- القزويني: ٦٤، ٦٥، ١٥٢، ٣١٠.

عمر بن عبد الرحمن بن عمر البهبهاني الكناني القزويني الفارسي سراج الدين فاضل مات شاباً من كتبه (الكشف على الكشاف) في التفسير حاشية على كشاف الزمخشري، توفي سنة ٧٤٥هـ.

١٤١- الأقرع بن معاذ القشيري: ٢٠ ، ٣٠.

الأقرع بن معاذ: عبد الرحيم بن عبد الكريم الشافعي فقيه، أصولي، مفسر، أديب، ناثر، ناظم، من آثاره تفسير القرآن، توفي سنة ٥١٤هـ.

١٤٢- القطامي: ١٩٢.

عمير بن شييم بن عمرو بن عباد التغلبي الملقب بالقطامي، (أبو سعيد) شاعر كان من نصارى تغلب في العراق وأسلم من آثاره ديوان شعر، توفي نحو ١٣٠هـ - ٧٤٧م.

١٤٣- قيس بن الاسلت:

تقدمت ترجمته.

١٤٤- كثير عزة: ٦٦ ، ٢٣٧.

كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي أبو صخر شاعر متيم مشهور، من أهل المدينة أكثر أقامته بمصر وكان مفرط القصر دميماً في نفسه شمم وترفع أخباره مع عزة بنت جميل الضمرية كثيرة وكان عفيفاً في حبه، توفي سنة ١٠٥هـ.

١٤٥- كلثوم بن عمرو العتّابي: ٢١٠.

كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبي أبو عمرو من بني عتّاب بن سعد: كاتب حسن الترسل وشاعر مجيد يسلك طريقة النابغة يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم الشاعر مدح هارون الرشيد وغيره ورمي بالزندقة فهرب لليمن ثم عاد وأمنه الرشيد فعاد إلى بغداد وتوفي سنة ٢٢٠هـ.

١٤٦- لبيد بن ربيعة العامري: ١٨٥.

لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية من أهل عالية نجد أدرك الإسلام وأسلم ويعد من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم وترك الشعر وهو أحد أصحاب المعلقات وكان كريماً ينحر ويطعم كلما هبت الصبا، توفي سنة ٤١هـ.

١٤٧- أبو واقد الليثي: ٣١٩.

صالح بن محمد بن زائدة المدني، أبو واقد الليثي الصغير. قال محمد بن سعد عن الواقدي: قد رأيته ولم أسمع منه شيئاً، وكان صاحب غزو، وله أحاديث، وهو ضعيف، مات بعد خروج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة، وكان خروج محمد في سنة خمس وأربعين ومئة.

١٤٨- المبرد: ١٨، ٤٢، ١٤٤.

محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس المعروف بالمبرد إمام العربية ببغداد في زمنه وأحد أئمة الأدب والأخبار، مولده بالبصرة ووفاته ببغداد سنة ٢٨٦هـ.

١٤٩- المتنبي: ١٤، ٢٠، ٦٩، ٧٤، ٧٨، ٨٣، ١١٦، ١٢٠، ١٢١، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٧، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٣٠١، ٣٠٤.

أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي أبو الطيب المتنبي الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العزي له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة وفي علماء الأدب من بعده أشعر الإسلاميين ولده في كندة بالكوفة ونشأ بالشام ثم تنقل بالبادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس قال الشعر صبياً، مدح سيف الدولة الحمداني وحظي عنده ومدح كافور وطلب أن يوليه فلم يوله كافور فهجاه، ومدح ابن العميد وعضد الدولة البويهي وغيرهم، قتله فاتك الأسدي لأنه هجاه وذلك سنة ٣٥٤هـ.

١٥٠- محمد الأسمر: ٢٩٥.

أديب شاعر، ناثر، من أهل مصر، ولد (١٣٨٨هـ - ١٩٠٠م) وتوفي (١٣٧٦هـ - ١٩٥٦) تلقى ثقافته في أحد مكاتب تحفيظ القرآن بدمياط.. التحق بمدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، من آثار: مجموعة شعر سماها (تغريدات الصباح) ديوان شعر.

١٥١- محمد بن كعب: ١٠.

محمد بن كعب القرظي، الإمام العلاّمة الصادق أبو حمزة، سكن الكوفة، ثم المدينة، قال ابن سعد: كان ثقة عالماً كثير الحديث ورعاً، كان من أئمة التفسير واختُلف كثيراً في سنة وفاته. قيل مات سنة ثمانمائة وقيل: سنة سبع عشرة، وقيل سنة عشرين ومائة.

١٥٢- محمد بن لنكك: ٥٢، ٧٧.

محمد بن محمد بن جعفر البصري أبو الحسن الصاحب بن لنكك شاعر البصرة وصدر أدبائها أكثر شعره ملَحٌ وطرف جلها في شكوى الزمان وأهله وفي هجاء شعراء عصره وصاحب البيت القائل:

نعـــيب زمـــاننا والعـــيب فـــينا ولو نطق الزمـــان إذن هجـــانا

عاصر المتنبي وهجاه، توفي سنة ٣٦٠هـ.

١٥٣- محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك: ٢٠٥.

١٥٤- محمد بن وهيب: ٣٧، ١١٠، ١١٨.

محمد بن وهيب القرشي أو القريشي أبو عبد الله: من ناشري دعوة الحاكم بأمر الله الفاطمي له مقام كبير عند الدروز ويلقبونه (الرضي سفير القدرة)، توفي نحو سنة ٤٢٠هـ.

١٥٥- أبو سعيد المخزومي:

علي بن محمد بن أحمد بن سلمة المخزومي البلنسي، أديب لغوي، شاعر من آثاره ديوان شعر في جزأين، ولد (٥٥١هـ - ١١٥٦م) وتوفي (٦٦٢هـ - ١٢٢٥م).

١٥٦- المرار بن منقذ العدوي: ١٦٨.

زياد بن منقذ بن عمرو، الحنظلي، من بني العدوية، من تميم يلقب بالمرار، من شعراء الدولة الأموية، كان معاصراً للفرزدق وجرير، توفي سنة ١٠٠هـ.

١٥٧- المراغي: ١٥.

محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغي، باحث مصري عارف بالتفسير من دعاة التجديد والإصلاح تولى مشيخة الجامع الأزهر وتتلمذ للشيخ محمد عبده، توفي في الأسكندرية ودفن في القاهرة سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م.

١٥٨- المرقش الأكبر: ٥٢.

عوف أو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة من بني بكر بن وائل شاعر جاهلي من المتيمين الشجعان عشق ابنة عم له وقال فيها شعراً كثيراً وكان يحسن الكتابة وشعره من الطبقة الأولى ا ع أكثره، تزوجت عشيقته فقصدها فمات في حيها وهو عم المرقش الأصغر وهذا عم طرفة بن العبد، توفي سنة ٧٥ ق.هـ تقريباً.

١٥٩- مروان بن أبي حفص: ٢٠.

مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد: شاعر عالي الطبقة، كان جده أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم اعتقه يوم الدار ونشأ مروان في العصر الأموي باليمامة حيث منازل أهله وأدرك زمناً من العهد العباسي ومدح الخلفاء وجمع من الجوائز والهبات ثروة واسعة وكان بنو العباس يعطوه بكل بيت يمدحهم فيه ألف درهم وتوفي في بغداد سنة ١٨٢هـ.

١٦٠- مسكين الدارمي: ١٦٩.

ربيعة بن عامر بن أُنيف بن شريح الدارمي التميمي شاعر عراقي شجاع من اشراف تميم مسكيناً لأبيات قال فيها: «أنا مسكين لمن أنكرني». له أخبار مع معاوية وزياد بن أبيه، توفي سنة ٨٩هـ.

١٦١- مسلم بن الوليد: ٢٧٥.

مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء أبو الوليد المعروف بصريع الغواني شاعر غزل رقيق هو أول من أكثر من البديع، مدح الرشيد والبرامكة وغيرهم وسمي صريع الغواني لقوله:

وما العيش إلا أن تروح مع الصبي   وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

توفي سنة ٢٠٨هـ.

١٦٢- المسيب بن علس: ١٦٨.

المسيب بن علس بن مالك بن عمرو بن قمامة بن ربيعة بن نزار شاعر جاهلي كان أحد المقلين المفضلين في الجاهلية وهو خال الأعشى ميمون وقيل اسمه زهير وكنيته أبو فضة مجهول تاريخ الوفاة.

١٦٣- ابن المعتز: ٢٥ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ١٦١ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩.

عبد اللّه بن محمد المعتز باللّه بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي أبو العباس: الشاعر المبدع خليفة يوم وليلة ولد ببغداد وأولع بالأدب قتله المقتدر العباسي خنقاً وللشعراء فيه مرات كثيرة. توفي سنة ٢٩٦هـ.

١٦٤- أبو العلاء المعري: ٢٧، ٧٣ ، ٨٣ ، ٢٥٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٠.

أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري أبو العلاء. شاعر فيلسوف ولد ومات في معرة النعمان كان نحيف الجسم، أصيب بالجدري صغيراً فعمي في الرابعة من عمره وقال الشعر وهو ابن احدى عشرة سنة وهو من بيت علم كبير في بلده ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه، توفي سنة ٤٤٩هـ.

١٦٥- المعقر البارقي: ١٧٦.

مُعَقَّر بن أوس بن حمار بن الحارث البارقي الأدي، شاعر يماني من فرسان قومه في الجاهلية شهد يوم جبلة قبل المولد النبوي بـ ١٩ عاماً وله في ذلك شعر وعمي في أواخر عمره، توفي سنة ٤٥ ق.هـ تقريباً.

١٦٦- معن بن أوس المزني: ١٥٩.

معن بن أوس بن نصر بن زياد المزني: شاعر فحل من مخرمي الجاهلية والإسلام له مدائح في جماعة من الصحابة رحل إلى الشام والبصرة وكف بصره في أواخر أيامه وكان يتردد إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب فيبالغان في اكرامه، توفي سنة ٦٤هـ.

١٦٧- أبو الحسن بن مقلة: ٧٨.

محمد بن علي بن الحسين بن مقلة أبو علي: وزير من الشعراء الأدباء يضرب بحسن خطته المثل ولد في بغداد وولي جباية الخراج في بعض أعمال فارس ثم نفي وسجن وقطعت يده اليمنى فكان يشد القلم على ساعده ويكتب به فقطع لسانه ولحقه في سجنه شقاء كبير حتى مات في سجنه ودفن بعد موته ثلاث مرات، توفي سنة ٣٢٨هـ.

١٦٨- ميمون بن قيس: ١٧٤.

ميمون بن قيس بن جندل من بني قيس بن ثعلبة الوائلي أبو بصير المعروف بأعشى قيس ويقال له أعشى بكر بن وائل والأعشى الكبير: من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات كان غزير الشعر وكان كثير الوفود على الملوك وسمي صناجة العرب لأنه كان يغني بشعره، توفي سنة ٧هـ، أدرك الإسلام ولم يسلم.

١٦٩- النابغة الجعدي: ١٣٠، ٢٩١.

قيس بن عبد الله بن عُدَس بن ربيعة الجعدي العامري أبو ليلى: شاعر مفلق صحابي من المعمرين اشتهر في الجاهلية، وسمي (النابغة) لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ

فقاله وكان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام ثم أسلم وأدرك صفين فشهدها مع علي، جاوز المائة وكف بصره، توفي سنة ٥٠هـ تقريباً.

١٧٠- النابغة الذبياني: ١٢٢، ١٢٣، ١٢٨، ١٢٩، ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٨٢، ٢٩٠.

زياد بن معاوية بن خباب الذبياني الغطفاني المضري أبو أمامة: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى من أهل الحجاز كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها ومن هؤلاء الأعشى وحسان والخنساء، توفي سنة ١٨ ق.هـ.

١٧١- ابن ناقيا البغدادي: ١٠٩.

عبد الله بن محمد بن الحسين بن ناقيا، أبو القاسم، ويقال له: البذار: شاعر، مترسل، لغوي، من أهل بغداد، وكان كثير المجون، ينسب إلى المعطلة، ويتهم بالطعن على الشريعة، من كتبه: (ملح الممالحة) و (الجمان في تشبيهات القرآن)و (مقامات)، توفي سنة ٤٨٥هـ.

١٧٢- ابن نباتة: ٢٨٨، ٢٩١.

محمد بن محمد بن محمد الحسن الجذامي الفارقي المصري أبو بكر جمال الدين بن نباتة شاعر عصره وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب، توفي في القاهرة سنة ٧٦٨ هـ.

١٧٣- نصَيب: ٢٤٩.

نصيب بن رباح أبو محجن مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل مُقَدَّم في النسيب والمدائح كان عبداً أسود لراشد بن عبد العزى من كنانة من سكان البادية، وأنشد أبياتاً بين يدي عبد العزيز بن مروان فاشتراه وأعتقه، توفي سنة ١٠٨هـ.

١٧٤- نصير الدين الحمامي: ٢٨٥.

أحمد بن علي المناوي المصري، قال عنه أبو حيان أنه كان أديباً كيس الأخلاق، ولد سنة ٦١٩هـ وعمل بالقاهرة والتقى بعلمائها، ولحقته حرفة الشعر، كان يرتزق بضمان الحمامات، مات سنة ٧٠٨هـ.

١٧٥- النَمَري:

منصور بن الزبرقان بن سلمة بن شريك النمري، أبو القاسم، من بني النمر بن قاسط: شاعر، من أهل الجزيرة الفراتية، كان تلميذ كلثوم بن عمرو العتابي، ثم حصل بينهما وحشة، حتى تهاجيا، وسعى كل منهما على هلاك صاحبه، توفي نحو سنة ١٩٠هـ.

١٧٦- أبو نواس: ١٥ ، ٣٨، ١٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٣٠١.

الحسن بن هانيء بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء أبو نواس: شاعر العراق في عصره ولد في الأهواز في خوزستان ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد، قال الجاحظ: ما رأيت رجلاً أعلم باللغة ولا أفصح لهجة من أبي نواس، توفي سنة ١٩٨هـ.

١٧٧- أبو ذؤيب: ٢٠ ، ١٨٠.

خويلد بن خالد بن محرِّث، أبو ذؤيب، من بني هذيل بن مدركة، من مضر: شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة، واشترك في الغزو والفتوح، أشهر شعره عينيه رثى بها خمسة أبناء له أصيبوا بالطاعون في عام واحد، مطلعها: (أمن المنون وريبه تتوجع)، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة دفنه، فأدركه وهو مسجّى، وشهد دفنه، له (ديوان أبي ذؤيب). توفي نحو سنة ٢٧هـ.

١٧٨- الوأواء الدمشقي: ١٧٨.

محمد بن أحمد الغساني الدمشقي، أبو الفرج، المعروف بالوأواء: شاعر مطبوع، حلو الألفاظ: في معانيه رقة، كان مبدأ أمره منادياً بدار البطيخ في دمشق، له ديوان شعر مطبوع، توفي نحو سنة ٣٨٥هـ.

١٧٩- محمد اليزدي: ١٤٩.

محمد بن العباس بن محمد اليزيدي، أبو عبد الله: من كبار علماء العربية والأدب ببغداد، وهو حفيد (يحيى بن المبارك)، استدعاه في آخر عمره المقتدر العباسي لتعليم أولاده فلزمهم مدة، له كتب منها: (الأمالي) و (مناقب بني العباس) وأخبار اليزيديين، توفي سنة ٣١٠هـ.

١٨٠- يمان: ١٠.

اليمان بن أبي اليمان البندنيجي أبو بشر: أديب عارف باللغة فارسي ولد قرب بغداد ضريراً حفظ كثيراً من الشعر والأخبار وصنف من الكتب «لاشعر»، توفي سنة ٢٨٤هـ.

المراجع

١ - الاتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتابة سنة ١٩٧٤م.

٢ - أسرار البلاغة / تحقيق محمد عبد العزيز النجار مكتبة ومطبعة علي صبيح - مصر سنة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م.

٣ - البحر المحيط للإمام أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف المشهور بأبي حيان الأندلسي/ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨ هـ، مطبعة السعادة/ محافظة مصر.

٤ - البديع/ ابن المعتز - طبعة كراتشوفسكي.

٥ - بديع القرآن/ لابن الاصبع المصري/ تحقيق د. حفني شرف مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٧م.

٦ - البلاغة والتطبيق للدكتور أحمد مطلوب والدكتور حسن البصير الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م - ١٤٠٢ هـ. الجمهورية العراقية وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

٧ - البلاغة الواضحة للمدارس الثانوية تأليف علي الجارم ومصطفى أمين.

٨ - البيان والتبيين/ الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر ط. هارون.

٩ - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الاصبع المصري تحقيق الدكتور محمد حفني شرف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية لجنة إحياء التراث القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ.

١٠ - التلخيص في علوم البلاغة/ للإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوتي دار الكتاب العربي/ بيروت - لبنان.

١١ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / للرماني والخطابي والجرجاني تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول. الطبعة الثانية سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨م دار المعارف بمصر.

١٢ - الجمان في تشبيهات القرآن لأبي قاسم عبد الله بن محمد بن الحسين ابن ناقيا البغدادي تحقيق عدنان زرزور ومحمد الداية / المطبعة العصرية بالكويت سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨م، الطبعة الأولى.

١٣ - جمهرة البلاغة / المعلم عبد الحميد الفراهي / سلسلة الدائرة الحميدية طبع بالهند سنة ١٣٦٠ هـ.

١٤ – جواهر البلاغة / السيد أحمد الهاشمي، دار الفكر بيروت – الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

١٥ – الحيوان / الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر طبعة هارون.

١٦ – دراسات تفصيلية شاملة بلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير / عبد الهادي العدل، تحقيق عبد السلام سرحان – الطبعة الثانية سنة ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٥م. المطبعة المنيرية.

١٧ – دفاع عن البلاغة / أحمد حسن الزيات مطبعة الرسالة سنة ١٩٤٥م.

١٨ – دلائل الإعجاز / عبد القاهر الجرجاني – تحقيق عبد المنعم خفاجي / الناشر مكتبة القاهرة سنة ١٩٧٦م – ١٣٩٦ هـ.

١٩ – رغبة الآمل من كتاب الكامل لسيد بن علي المرصفي الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦هـ – ١٩٢٧م مطبعة النهضة / مصر.

٢٠ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي / ادارة الطباعة المنيرية – مصر.

٢١ – سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي.

٢٢ – سنن ابن ماجة – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي – دار احياء التراث.

٢٣ – شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون الطبعة الثانية القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة سنة ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧م.

٢٤ – شرح ديوان المتنبي / عبد الرحمن البرقوقي – الناشر دار الكتاب العربي / بيروت – لبنان.

٢٥ – صحيح البخاري – محمد بن اسماعيل البخاري، ضبط وترقيم د. مصطفى البغا/ الطبعة الأولى – دار القلم.

٢٦ – صحيح مسلم – مسلم بن الحجاج – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٧ – صحيح الترمذي بشرح الإمام ابن العربي المالكي – الطبعة الأولى سنة ١٩٣١م.

٢٨ – الصناعتين لأبي هلال العسكري / طبعة الخانجي سنة ١٣٢٠ هـ.

٢٩ – الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز / يحيى بن حمزة العلوي دار الكتب العلمية بيروت لبنان سنة ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠م.

٣٠ - علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي مطبعة محمد محمد مطر/ مصر سنة ١٣٣٥ هـ- ١٩١٧م، ١٩٧٤م.

٣١ - علم البيان / د. عبد العزيز عتيق - دار النهضة العربية للطباعة والنشر / بيروت.

٣٢ - العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الجيل بيروت - لبنان الطبعة الرابعة.

٣٣ - الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان / لابن القيم الجوزية / دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

٣٤ - فن الاستعارة دارسة تحليلية في البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلي/ د. أحمد السيد الصاوي - الهيئة المصرية العامة للكتاب/ الاسكندرية.

٣٥ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام محمود بن عمر الزمخشري - الطبعة الأولى - مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م.

٣٦- المثل السائر أبو الفتح ضياء الدين نصر ابن الأثير الموصلي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده سنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩م.

٣٧ - المجازات النبوية تأليف الشريف الرضي شرح طه عبد الرؤوف سعد شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولادة/ مصر الطبعة الأخيرة سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

٣٨ - مسند الإمام أحمد - أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي بيروت.

٣٩ - مطول على التلخيص/ العلامة سعد التفتازاني/ تصحيح عثمان أفندي زاده أحمد رفعت سنة ١٣٣٠هـ.

٤٠ - مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي/ دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٤١ - من بلاغة القرآن/ الدكتور أحمد أحمد بدوي - الطبعة الثالثة، الناشر مكتبة مصر بالفجالة.

٤٢ - نحو بلاغة جديدة للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي والدكتور عبد العزيز شرف/ الناشر مكتبة غريب

فهرس الموضوعات